سلسلة الرسائل النافعة (٦ رسائل)



الرائدات الصالحات	٣
وصايا نبويّة غالية	٥١
العائلة والأولادُ	٨١
كيف نُربّي ناشئتنا	١٨١
من أدب المسلم وتوجهاته	٢٠٥
طريقنا إلى السعادة	٣١٥

تأليف

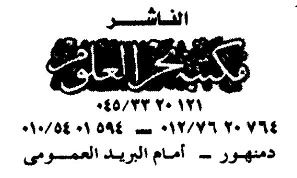
أحمد بن محمد طاحون

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦ م

رقم الإيداع : ١٦٧٧٩ / ٢٠٠٦

الناشر



٠٤٥/٣٣ ٢٠ ١٢١
٠١٢/٧٦ ٢٠ ٧٦٤ ـ ٠١٠/٥٤ ٠١ ٥٩٤
دمنهور ـ أمام البريد العمومي

رسالة :

الرائدات الصالحات
خير نساء العالمين

* * *

١- مريم ابنة عمران ٥
٢- آسية بنت مزاحم ١٦
٣- خديجة بنت خويلد ٢٢
٤- فاطمة الزهراء رضى الله عنهن ٣٠
٥- كبرى بنات النبى لله زينب الشريفة الطاهرة ٣٥
٦- تذكرة للمسلمين والمسلمات « المرأة المسلمة لا يجوز لها
أن تتزوّج يهوديًا ولا نصرانيًا » ٤٢

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاةُ والسلام على خاتم النبيِّين والمرسَلين . وعلى آلِهِ وأصحابه وأحبابِه إلى يومِ الدِّين .

كلمـــة :

يَضُمُّ « هذا الكتاب » بين دَفَّتَيْه ستَّ رسائل ، لكل رسالة طابعُها وَوِجْهتُها ، ولكنها تلتقي جميعًا فى : سُموِّ الهدفِ ، ونُبل الغاية ، واستقامةِ الفِكر وسهولة الأسلوب ووضوحِ الغرض ، والرغبة فى الخير للإنسان ، وفى مساعدته على تجنُّب تيارات الفِكْر المشوَّشة والمشوِّشَةِ التي برزت على نحوٍ واضح في عصرنا الحاضر ، بأقلام وأفلام واتجاهات من لا يخافون سوء العاقبة ، ولا يرجون لله وقارًا و ويَسْعَوْن لإرجاع الإنسانِ إلى متاهات الجاهلية الجهلاء ، فى الأخلاق ، والقيم الفاسدة ، والروابط الاجتماعية الهشَّة التي تقوم على المنافع المادِّية ، ولا تُقيم للحياة الرُّوحية وزْنًا .

إن هذه المجموعة من الرسائل مُساهَمة متواضعة في تقديم تسلية نافعة للفرد وللعائلة ، سعيًا نحو إيصال الكتاب ذى الهدف السامى ، والمضامين الشريفة إلى القارئ والقارئة ليُزاحم الألوانَ والحركاتِ والأصواتِ التي خطفتْ أبصارَ مُعظم الناس وشغلتهم عن الكلمة النظيفة المكتوبة ، وهى الأساسُ الذي لا غِنى عنه فى تنمية العواطف الشريفة ، وتغذية الفِكْر بالمعانى التى تُصحح المسار ، وتوجِّه إلى معالى الأمور ، وتُعين الشباب على تربية الذوق الأدبى ، واكتساب الثروة اللغوية ، والتدرُّب على الأساليب المختلفة حتى تصير للشاب شخصيتُه المتميزةُ فى مجال الكتابة والفكر . وبدون مصاحبة الكتاب الذى هو خير صديق نفقد مع مرور الزمن مواهبَ وقُدراتٍ كثيرةً كان لها أن تُؤتِيَ ثمارًا طيبة لولا الأصواتُ والألوانُ والحركاتُ .

والعلاج أن تصلَ القصةُ النظيفة ويصلَ الكتاب ذو الفكر المستقيم إلى كل المستويات الفِكرية فى العائلة ، وإن المكتبات عامرة بكل مفيد ومستقيم . والحمد لله ربِّ العالمين .

أحمد بن محمد طاحون

جدة : ١٤١٧ من الهجرة

١٩٩٦ من الميلاد

بسم الله الرحمن الرحيم

أفضلُ نساءِ أهْلِ الجنّة

كلمة بين يدَى الرسالة :

جاء فى مسند الإمام أحمدَ أن ابنَ عباس رضىالله عنهما قال : خَطَّ رسولُ اللّهِ ﷺ فى الأرض أربعةَ خُطوط وقال : « أتَدْرون ما هذا ؟ ، قالوا : اللّهُ ورسوله أعلمُ ، فقال عليه السلام : أفضل نساءِ أهلِ الجنة : خديجةُ بنتُ خُوَيْلِد ، وفاطمةُ بنتُ محمد ، ومريمُ ابنةُ عمران ، وآسيةُ بنتُ مُزاحم امرأةُ فِرعون » .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرىِّ أن رسولَ اللّه ﷺ قال : « كَمُلَ مِن الرجال كثيرٌ ، ولم يَكْمُل من النساء إلا آسيةُ امرأةُ فرعون ، ومريمُ بِنتُ عِمران ، وخديجةُ بنتُ خويلد ، وفاطمةُ بنتُ محمدٍ ، وإنَّ فضلَ عائشةَ على النساء كفضْل الثَّريد على سائرِ الطعام » رضى اللّه عنهن .

إنهنَّ خيرُ نساءِ العالـمين ، طريقُهنَّ واضحٌ ومُضىء .

جادَّاتٌ فى حياتهنَّ مُؤمناتٌ ، قانتاتٌ ، أَطَعْنَ اللّه، واتَّبَعْنَ ما جاء به الوحىُ .

صالحاتٌ ، عابداتٌ ، تَحلَّين بالفضائل السامية التى تُزيِّنُ الـمرأَةَ وترفعُها فى الدَّرَجات العُلا بين نساءِ العالـمين .

طائعاتٌ ، مُنيباتٌ ، أدَّيْنَ الواجباتِ ، ووفَّيْن بالحقوق ، فهُنَّ قُدوةٌ لنساء العالـمين اللواتى يُرِدْن خَيرى الدنيا والآخرة .

سيرتُهنَّ العَطِرةُ باقيةٌ على مَدَى الزمان .

فى وجوههنَّ بهاءُ الإيمان ، وفى قلوبهنَّ نورُالحِكمة ، والعِلم باللّه ، وفيها

ضياءُ صِدْقِ اليقين .

عَرفْنَ الحقَّ فتمسَّكْنَ به ، وعَرفْنَ الواجبَ فأدَّينَه على أفضل وجه .

إنهنَّ خيرُ النساء فى الآخرة ، لأنهنَّ رائداتُ نساءِ أهل الدنيا فى كل ما هو طيِّبٌ وجميلٌ ورائعٌ وخَيِّرٌ .

رائداتٌ بالفِكر المُتَّزِن ، والخُلقِ الكريم ، رائداتٌ بالنظر السَّديد والعقل الرشيد .

رائداتٌ فى حبِّ الخير والتعلُّقِ به ، وثَباتِ الخُطَى على طريق الهُدى .

رَضِينَ عن اللَّه ، فَرَضِىَ اللَّه عنهنَّ .

فما أكرمَهنَّ !! وما أعظمهُنَّ !! سِيرتُهن عَطرة ، منهجُهنَّ مُستقيم ، مع الحق والخيرِ والنورِ دائمًا .

فطوبى لِمَن وفَّقها اللَّه للسَّير فى طريقهنَّ .

إنَّ بناتنا ، ونساءَنا فى عصرنا هذا وفى كل أوانٍ فى أشدِّ الحاجةِ إلى قراءةِ هذه السِّيَرِ وغيرِها من سِيرِ الفاضلاتِ الطاهراتِ الصالحات ، وإلى الاطِّلاع على أحوالهنَّ فى الحياة العامَّة ، وفى بُيوتهنَّ ، وفى طريقة التَّفكير التى تلائم ذواتِ العقلِ والحِكمة ، العارفات بأمور الدِّين ، المتمسِّكات بأوامره وفضائله ، الفاهمات لحقيقة دَورِ المرأةِ ورسالتها فى بناء الأسرة ، ودعْم الجماعة ، ورُقيِّ الأمَّة ، وفْقَ ما اقتضته شريعةُ اللَّه عز وجل لعباده ليتمَّ الفوزُ بالسعادتين بفضل اللَّه ورحمته .

أحمد بن محمد طاحون

جدة فى عام ١٤١٦ من الهجرة

١٩٩٥ من الميلاد

(١) مريم البتول رضى الله عنها

تمهيد :

حديث شريف :

جاء عند الترمذى من حديث رواه أنس : « حَسْبُكَ من نساءِ العالَـمين : مريمُ بنت عِمران ، وخديجةُ بنتُ خُويلد ، وفاطمةُ بنتُ محمد ، وآسيةُ امرأةُ فرعونَ » .

أمّا مريم الطاهرة البتولُ فقد جعلها اللّٰه ، عز وجل ، وابنها آيةً لذوى العقول الـمفكرة ؛ ليكون الإيـمانُ عن دليل ويقين بأن لهذا الكون إلهًا واحدًا مدبّرًا حكيمًا لا ندَّ له ولا ولدَ ولا صاحبةَ ، ومن أدلَّة عظمته ووحدانيته أنه خلق الناسَ على أربع صُور :

- خَلق آدَم من غير أبٍ ولا أمٍّ .
- خلق حواء من غير أُمٍّ .
- خلق عيسى من غير أب .
- خلق سائرَ الناسِ من أبٍ وأُمٍّ فتمّتْ القِسمةُ الرُّباعية .

وفى كل هذه الصور دلالاتٌ وبراهين على كمال القدرة وكمال الحكمة وعلى أنَّ الجميعَ عبيدُه ، خاضعٌ لحكمه ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، الجميعُ مِلْكُه ومنهم الـملائكةُ ، وعيسى ، وعُزَيرٌ .

وشرّف اللّٰه مريمَ بنتَ عمران بصدْق يقينها وسلامةِ إيمانها وطاعتها لربِّها وإقبالها على العبادة بجدٍّ وإخلاصٍ ، وأثنى عليها سبحانه : ﴿ وَصَدَّقَتْ

﴿ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ أى بقَدَره وشَرْعه ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم : ١٢] أى من الـمُطيعين الـمُصَلِّين .

* * *

قصة مريم والدَّعْوة الـمُبارَكة :

إن حنَّةَ بنتَ فاقون جدةَ عيسى عليه السلام ، كانت عاقِرًا عجوزًا ، فبينما هى فى ظلِّ شجرةٍ إذْ رأت طائرًا يُطعم فرخَه ، فحَنَّت إلى الولد ، وتـمنَّته فقالت : « اللَّهمَّ إنَّ لك علىَّ نذرًا ؛ إن رزقْتَنى ولدًا أن أتصدَّق به على بيت الـمَقدس ؛ فيكونَ من خَدَمِه ، فحملت بـمريمَ ثم مات زوجُها عمرانُ بنُ ياشم - أو ابن ماثان - من ذرية داودَ عليه السلام ، وداودُ من ذرية يعقوبَ بنِ إسحاق بن إبراهيمَ الخليل عليهم السلام .

وكان هذا النذرُ مشروعًا فى عهدهم للغِلْمان ، يكون الابنُ الـمَنذُورُ مُعتَقًا لخِدمة البيتِ ، لا يُشغَلُ بشىء ، أو مُخْلَصًا لعبادة اللَّه .

يقول اللَّه تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران : ٣٥] .

أى : السميعُ لدعائى ، العليم بنيَّتى ، تـمنَّت الـمرأةُ الصالحة أن يكونَ ولدها ذكرًا ، فهو الأجلدُ والأقوى فى العبادة ، وأراد اللَّه عز وجل أن يَهبَها بنتًا هى خيرُ بنات عصرها وعالَـمِها ، وكما تـمَّت الـمُعجزةُ بولادتها من أمٍّ عاقرٍ قد بلغتْ سِنَّ اليأس ، فالقدَرُ سيجعل من هذه البنتِ الطاهرةِ مُعجزةً أخرى دالةً على وحدانية الخالقِ ، وكمالِ قُدرته وحكمتِه .

فلمَّا وضعتْها سَمَّتْها مريمَ أى العابدةَ - كما فى لُغتهم - وسألت اللَّهَ عز وجلَّ أن يحفظَها ويكلأَها بعنايته ، وأن يَعصِمَها ويُصلحَها حتى يكونَ فعلُها

مُطابقًا لاسمها : ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾

[آل عمران : ٣٦] .

فاستجاب اللَّهُ دعاءَها ، وعَصم مريمَ وابنَها ببركة هذه الاستعاذةِ وحفِظَهما من إغْواءِ الشيطان .

وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة ، رضى اللّه عنه ، أن رسولَ اللّه ﷺ قال : « ما مِن مولودٍ يُولَدُ إلا مَسَّه الشيطانُ حين يُولد ، فيستَهِلُّ صارخًا من مَسِّه إيَّاه ، إلا مريمَ وابنَها » . ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم : ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [أخرجاه] .

وببركة دعاءِ المرأةِ الصالحة ، المُتَّجهةِ بكلِّ قلبها إلى اللّه ، تقبَّل اللَّهُ ، عز وجل ، مريمَ نَذيرةً ، وتكونُ حياتُها فى مكانِ العبادة تخدمُ وتتعبَّدُ : ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ .

فقد رزقَها سبحانه الشكلَ المَليح ، والمنظرَ البهيجَ ، وجعل فى وجهها بهاءَ الإيمان ، ونورَ اليقين ، ويسَّر لها أسباب القَبولِ والتربية الحَسنةِ بما يُصلحُها فى جميع أحوالِها ، وقَرَنها بالصالحين من عبادِه تتعلمُ منهم الخيرَ والعِلمَ والدِّين ، ولهذا قال : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أى : جعله كافِلًا لها قائمًا على رعايتها وشؤونها وضامنًا لمصالحِها .

وكان زكريا عليه السلامُ زوجَ خالتها وآتاه اللَّهُ من العلم والحكمةِ ما أفاد مريمَ البتولَ علمًا جَمًّا نافعًا ، وعملًا صالحًا .

لقد سَعِدتْ فى صغَرها بحضانة خالتها ، وإنَّ الخالةَ بمنزلة الأم فى الشفقة والرحمة ، كما سَعدت بمجاورة النبىِّ الكريم وملازمتِه والانتفاع بعلمه والاقتباسِ من عمله .

مريم فى المسجد :

وبُنى لمريمَ البتولِ غرفةٌ فى المسجد ، وفى أشرفِ مَوضع منه ، وعاشت فى بيت المقدس تُقَدِّسُ ربَّها وتُنزِّهُه ، وتصلّى ، وتخدمُ شريفةً متواضعةً وَقُورةً مُخلصةً ، وزوجُ خالتها يشملُها برعايته وعنايته ومَحبّته ، ويقدِّمُ لها ما يُمكن أن تكونَ فى حاجة إليه ، وكان يرى ما يُدهشه من الكرامات التى هى مُعجزاتُ أولياء اللّه الصالحين ، كان يجد عندها فاكهةَ الصيفِ فى فصل الشتاء وفاكهةَ الشتاءِ فى فصل الصيف ، كما كان يجد عندها ما هو أنفعُ وأبقى أثرًا كما قال مجاهد : كان يجدُ عندها عِلمًا أى صُحفًا فيها عِلمٌ : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ . أى طعامًا طيبًا وعلمًا نافعًا .

فائدة : وإن كراماتِ أولياءِ اللّه الصالحين ، إنما هى معجزاتٌ لأنبيائهم لأن الكرامةَ تتمُّ بفضل اتِّباع النبىِّ وتصديقه وحُسْنِ الاقتداءِ به .

وقد سألها زكريا عليه السلام تأكيدًا لإظهار الكرامةِ والتحدث بالنعمة : ﴿ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ من أينَ لكِ هذا الرزقُ الآتى فى غير أوانِه ؟ وكان جوابُها إقرارًا بنعمة الخالق وشكرًا له ، وتحدُّثًا برحمته سبحانه : ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ثم أثنت على اللّه عز وجل فهو لكمال قدرته وكمال رحمته يرزقُ من يشاءُ باستحقاقٍ وبغير استحقاق ، ويفعل ما يشاء لأسبابٍ أو لغير أسبابٍ ظاهرةٍ للعباد . فقالت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

أى : بغير تقدير لكثرته ، أو بغير استحقاق تفضُّلًا به على العبد المَرْزُوق فله سبحانه كمالُ الحِكمة ، وكمالُ التدبير ، وكمال القدرة .

قُدوة للمرأة فى الشكر :

إن واجبَ المرأةِ الحكيمة أن تشكرَ لله دومًا نعمتَه ، وإذا سُئلت عن شىء منها فى بيتها أن تقول : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وفى الشكر ثباتُ النِّعَم ، ومزيدٌ منها بفضله سبحانه ، وقد أثنى رسولُ اللَّه ﷺ على ابنته فاطمةَ الزهراءِ حين دعتْه إلى طعام - رَغيفين وقطعةِ لحْم - تحت غطاءٍ فكثَّره اللَّه كرامةً لها ، ومُعجزةً لنبيها - كما سيأتى بعدُ - فلمّا سألها : من أين لَكِ هذا يا بُنيةُ ، فقالت : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

الطمعُ فى رحمة اللَّه :

وكانت هذه الكرامةُ لهذه البنتِ الصالحةِ سببًا فى أن يطمعَ الشيخُ الكبيرُ الوقورُ أن يَرزقَ اللَّه امرأتَه الكبيرةَ العاقرَ ولدًا صالحًا ، فقد طمع فى رحمة اللَّه وهو سبحانه القادرُ على كلِّ شىء وتضرَّع زكريا فى خشوع وأدب وإخفات صوتٍ وإخلاص : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾

[آل عمران : ٣٨] .

وتحقَّقت المُعجزةُ ، ورزقه اللَّه يحيى النبيَّ الصالحَ الذى يَرِثُ عِلمَ الحِكمةِ عن أبيه وأجداده .

من المُعجزات :

إنها ثلاثُ مُعجزاتٍ لهذه العشيرةِ الطيبة الكريمة من نشل إسرائيلَ ؛ وهو يعقوبُ بنُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ ، عليهم الصلاة والسلام .

* فقد أجابَ اللَّه دعاءَ حَنَّةَ زوجةِ إمامِهم فى ذلك الحين ، وهو عمرانُ بن ماثان وكانت عاقرًا ، فرزقها اللَّه سيدةَ بنى إسرائيل مريمَ البتُول .

* وكانتْ مريـمُ يأتيها رِزقُها من حيث لا تَدرى ، وتأتى فاكهةُ الصَّيف فى الشتاء وفاكهةُ الشتاء فى الصيف تأكيدًا للمعجزة .

* وإنَّ الشيخَ زكريا وامرأتَهُ العاقرَ رزقَهما اللَّه بالولد الصالح ، وأجاب دعاءَ نبيِّه زكريَّا وحدثت الـمعجزةُ ورزقه اللَّه يحيى نبيًّا طاهرًا عفيفًا .

ومن قبل حدثتْ الـمعجزةُ لسارَّةَ جَدَّةِ هذه العَشِيرة الطيِّبة زوجِ إبراهِيـمَ الخليل الجدِّ الـمبارَك ، فهى أُمُّ إسحاقَ ، عليهم السلام ، وقد أنجبت إسحاقَ ، وهى عجوزٌ وبعلُها شيخٌ كبيرٌ كانت بلغتْ التسعين من عُمرها وكانُ عُمْرُ الخليلِ عليه السلام مائةً وعشرين ، حتى أنها لـمَّا جاءتها البُشرى بذلك على حينِ غفلةٍ لـم تتـمالك إلا أن تقول : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود : ٧٢] . أى بعد بلوغ هذه السِّنِّ تحدث الـمعجزةُ فعَلَّمتها الـملائكةُ أن تلتفتَ إلى القدرة الكاملة التى بيدها الأسبابُ والـمُسبَّبَاتُ فقالوا لها : ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ وحظى البيتُ الكريـمُ العظيـمُ بدعوة ملائكة الرحمن : ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ . [هود : ٧٣] .

وفى إطار هذا التشريفِ العظيـم لهذه القبيلةِ الـمبارَكة التى بدأت فيها الـمعجزاتُ بإنجاءِ الجدِّ إبراهيـمَ الخليلِ من نار تتلهَّبُ ، وهو وسطُها ولـم يَجد فيها إلا الراحةَ والسلامةَ والسَّكينةَ حتى أُخمِدت مع أنَّ بَدَنَ الآدمىِّ قابلٌ للاحتراق ، ولكنْ بفضل اللَّه ورحمته وقعت الـمعجزةُ فكانت النارُ لا حَرَّ لها ولا بَرْدَ فيها .

ثم فى ظلال هذه النِّعَم الجليلة التى توالت على الذُّرِّية الصالحة تـمَّت الـمعجزةُ بولادةِ عيسى ابنِ مريـمَ بنت عِمران بن ماثان بلا واسِطة زَوْجٍ لـمريـمَ وهو سبحانه إذا قَضى أمرًا فإنما يقول له : كن ، فيكون ؛ فقد قال للنار : ﴿ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] . فكانت كما أمرَ سبحانه .

وبشَّر سبحانه وتعالى مريـمَ بكلـمةٍ منه اسْمُه الـمسيحُ عيسى ابنُ مريـم

فتحقَّقت البُشرى بنفخَةِ رُوحٍ من الأرواح التى خلَقها اللَّهُ فى جَيْب قَميص مريـمَ بواسطةِ جبريلَ عليه السلام ، فحملت مريـمُ ، كما تَحمِل كلُّ أُنثَى وإن اختلفت الوسيلةُ تحقيقًا للـمُعجزة التى أرادها اللَّه عزَّ وجلَّ للبرهان على وحدانية الخالق وكمال حكمته وقدرتِه ، وليتأكَّد فى أذهان ذوى العقول أنَّ الأسبابَ بيده وحده ، وأن الـمسبَّبَات لا تتـمُّ إلا بأمره وإرادته ، فمشيئته سبحانه نافذةٌ ، يفعل ما يُريد ، الـمُلْكُ مُلْكه .

القسمة الرباعية :

وبخلْق عيسى ابن مريـمَ عليه السلام على هذا النحو تكتـمل القسمة الرباعية فى خَلْق البشر - كما سبقت الإشارة - وفيها البرهانُ على الوحدانية ، وعلى تَفرُّده سبحانه بالإلهيَّة والرُّبوبية .

فليست الـمُعجزةُ فى عيسى بأوضحَ منها فى آدمَ عليه السلام ، لأن آدمَ خُلقَ من غيرِ أبٍ وأمٍّ ، وإنَّ الـمعجزةَ فى عيسى تتساوى مع الـمُعجزة فى خلْق حواءَ ، لأنها أتتْ من غير أمٍّ ، وعيسى أتَى من غير أب ، فالجميعُ عَبيدُه وخَلْقُه خاضعٌ لحكمه سبحانه وتعالى جل شأنه : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

إن دَعْوى البُنوَّةِ فى عيسى بقولهم إنه ابنُ اللَّهِ ، دعوى باطلةٌ بطلانًا قاطعًا فهو آيةٌ من آيات اللَّه ، كما أن خَلْق آدمَ من تراب لا يُجيز بِحالٍ هذا الادِّعاء ، فسبحان من له الكمال الـمُطلق .

﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩١] أى : من رُوحٍ خَلَقَهُ اللَّهُ ، بلا توسُّط أصْلٍ ، فتـمَّ الحـمْلُ ، وبُعثت الحياةُ فى الجَنين الـمُبارك ، وصار هو وأمُّهُ آيةً بيِّنةً على

كمال قدرةِ الصانعِ ، لقد حفظت فَرْجَها وصانته فعاشتْ عفيفةً طاهرةً ، ورزقَها اللَّهُ بفضله ابنًا صالحًا ونبيًّا عبدًا لله كريمًا[1] .

شرّفها اللَّه عز وجل وجعلها مثلاً .

لقد شرَّف اللَّه عز وجل مريمَ الطاهرةَ ، وجعلها مثَلًا لنساء العالمين فى العِفَّة ، والطُّهر ، والصبرِ على طاعة الرب ، وجعل بطنَها وعاءً لنبيٍّ كريمٍ ورسولٍ عظيمٍ ، من أُولى العزْم من الرسُل ، وكَمَّلها بالعقل والحِكمة مع السلامة من النقائص فى الـخُلُقِ والـخِلْقَةِ عليها السلام ، وخاطبَتْها الـملائكةُ وبشَّرتها بأمر اللَّه ، وأنطق اللَّه عز وجل وليدَها الـمُباركَ ، وهو رضيعٌ ليُحامِىَ عنها ويُزيلَ الشُّبهَةَ .

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٣٠- ٣٢] .

نطق عيسى عليه وعلى نبيِّنا الصلاةُ والسلامُ وهو فى الـمَهْدِ بقدرة اللَّه عز وجل مُبشِّرًا بـما سيكونُ عليه حالُه من النبوة والرسالة ، مع البِرِّ بأُمِّه الطاهرة وكانت عليها السلامُ فى نحو الثالثةَ عشرةَ من عُمرها الـمُبارك ، وهيَّأ اللَّه عز وجل لها لسانَ ولدِها ليُزيلَ أيَّةَ شُبهةٍ فى نفوس قومها وليُنبئَهُم بتلك الـمُعجزة التى أنطق اللَّه لها هذا الوليدَ الـمُبارك عليهما السلام .

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن

---

(١) قال الطبرى فى تفسير قوله تعالى فى ختام سورة التحريم : ﴿ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ . أى : فنفخنا فى جَيْبِ دِرعها – ثوبها – من رُوحنا جبريلَ عليه السلام ، والمرادُ بالفرج هنا فتحةُ الثوب عند الرَّقبة ، وكل شِقٍّ فى حائط أو فَتْقٍ فى ثوب يُسمَّى فَرجًا .

يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ [مريم : ٣٤ - ٣٦] .

فى القرآن والسنة :

لقد جاءت قصةُ الطاهرةِ النقيَّة فى عدد من سُور القرآن الكريـم ، وأثْنى اللَّهُ عز وجل عليها فى آياتٍ مُتعدِّدة ، وسُمِّيت سورةٌ من سور القرآن الكريـم باسمها عليها السلام ، وفى هذا تشريف وتكريـمٌ وتنبيهٌ لذوات البصائر للعظة والاعتبار .

وقد جاء الثناءُ عليها فى أحاديثَ شريفةٍ ، ومنها أيضًا : « كَمُل من الرِّجال كثير ، ولـم يَكْمُل من النساء إلَّا مريـمُ بنتُ عِمران ، وآسيةُ امرأةُ فرعون » .

[أخرجه الجماعة إلا أبا داود]

ولفظ البخارى : « كمُل من الرجال كثيرٌ ، ولـم يكملُ من النساء إلا آسيةُ امرأة فرعون ، ومريـمُ بنتُ عمران ، وإن فضلَ عائشة على النساء كفضْل الثَّريد على سائرِ الطعام » .

إنها النموذجُ الصالحُ للمرأة العاقلةِ الـمتَبصِّرة التى تَعرفُ حقَّ رَبِّها عليها وتُخلِصُ فى الطاعة ، وتُقْبل على أداء العبادات راغبةً راهبةً شاكرةً لأنْعُم اللَّهِ عزَّ وجلَّ ، طاهرةً عفيفةً حَسَنةَ التوكُّل على اللَّه .

* * *

(٢) آسيةُ بنتُ مُزاحم « امرأة فرعون » رضى اللَّه عنها :

قال قتادة : « كان فرعونُ أعْتَى أهلِ الأرضِ على اللَّه ، وأبْعَدَهُ من اللَّهِ ، فواللَّهِ ما ضَرَّ امرأتَهُ كُفْرُ زوجها ، حين أطاعت ربَّها ؛ لتعلَمُوا أن اللَّه حَكَمٌ عَدَلٌ ، لا يُؤاخِذُ عبدَه إلا بذنْبِه » [الطبرى] .

الوَقُورةُ النَّقِيَّةُ الـمُتواضعَةُ :

وَهَبَ اللَّهُ أمَتَهُ آسيةَ بنت مزاحم قلبًا نقيًّا ، وأنعم عليها بفكرٍ مُستقيم وعقلٍ سليم ، ونظرٍ سديد ، فاختارت الباقيةَ على الفانية ، وكانت فى عِزٍّ ومَنَعة ، وأبَّهَةٍ وسُلطان يُشارُ إليها بالبَنان ، وتتمنَّى كلُّ امرأةٍ أن تكونَ فى موضعِها ، أو قريبةً منها تُجالسها ، أو تكونَ فى خِدمتها .

كانت زوجةً لِـملكِ مصْرَ ، وكانت مصرُ مملكةً راسخةَ البنيان ، عاليةَ الشأن بين الـممالك والبلدان فى ذلك الزمان ، وزوجها كان جبَّارًا عَنيدًا ، خدعَهُ ما هو فيه من قوة ومالٍ وسلطان ، فاغترَّ وتكبَّر وعلى عبادِ اللَّه تَجبَّر ، فقال لهم : أنا رَبُّكم الأعلى . وقال لهم : مَا عَلِمْتُ لكم مِّن إلَهٍ غيرى ؛ غرورًا منه وطيشًا .

ولكنَّ صاحبةَ النفس الشريفةِ والقلب الطاهر ، لـم تَغُرَّها الحياةُ الدنيا وقد أقبلَتْ عليها بكُلِّ مباهجِها ، كانت تأمر فتُطاع ، وتَطلب فيُجابُ طلبُها ، وخيراتُ مصرَ كانت رهْنَ إشارتها .

آسية والدَّعوة إلى الإيـمان :

كانت تُرهِفُ السمعَ إلى كل ما يَصِلُ إليها عن نبى اللَّه موسى عليه الصلاة

والسلام .

كانت تناقش بينها وبين قلبها ما كان يدورُ بينه وبين فرعونَ من حوار تلمسُ فيه تَلطُّفَ موسى فى الدعوة إلى اللَّه عز وجل ، وقوةَ برهانه ومخاطبته العقلَ والقلبَ معًا ، مُؤيِّدًا بالدليل والبُرهان من عند اللَّه .

ولنتدبَّر : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٣، ٢٤] .

ومع تلطُّف مُوسى وسَعْيه إلى إقناع رأسِ الدولةِ فى مصرَ بوجود اللَّه وبوحدانيته ، وتَفرُّده بالإلهية والربوبية ، ودلالةِ مصنوعاته فى السموات والأرض على كمال قُدرته ، وكمال سلطانه سبحانه وتعالى جلَّ شأنُه .

مع قُوةِ برهانه عليه السلام كان الأرْعنُ المغرورُ يَهربُ من الحِوار إلى ضَرْب الأمثال لمُوسَى ، وإلى التهديد والوعيد ، فضَرَب له مثلًا بالمَجنون . ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : ٢٧] وهذا من خوفه على المصريِّين أن يَتخلَّوا عنه ، ويسيروا فى طريق النور .

ثم هدَّد فرعونُ وتوعَّد موسى عليه السلام بأن يطرحه فى سِجنه الرَّهيبِ حيث يعيشُ المسجونون فى هُوَّةٍ عميقةٍ حتى يَموتوا ، توعَّده بأن يكونَ مِن هؤلاء الذين يَذُوقون الويلات فى هذا السِّجن العجيب : ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩] .

عَدَل فرعونُ إلى التهديد عن المُحاجَّة والحِوار ، ولم يُفكِّر فى الدليل والبرهان لغروره وغَشَمِه وسوءِ حظه ، وهذا دأبُ وعادةُ المعانِد الذى قهرته الحجَّةُ ، وسَلَبه البرهانُ كلَّ سلاح ، فأعْجزه عن الردِّ ، فيهربُ لذلك إلى الزمْجرة ، والتخويف ويلجأ إلى العُنف واستعمال نعمةِ القوَّة فى غير مَوضِعها .

النور فى وجه موسى :

كانت أنباءُ هذا التهديد تَصِلُها ، وتُفكِّر فى الأمر ، وتعودُ إلى قلبها ذكرياتُ اللحظةِ التى وقع فيها نظرُها على موسى عليه السلام ، بعد أن كشفوا عنه غطاءَ التابوتِ ؛ فرأت نورًا بين عينيه ورأت مخايِلَ اليُمْن وأماراتِ النفع ، ودلائلَ نَباهةِ الشأن ، وهالَهَا تلك الآيةُ التى دفعتْ بالتابوت على مياه النيل حتى رسا على قَصر فرعون ، وهالها أكثر ارتضاعُه لبَنًا من إبهامِه .

ما هذا الغلام الطيِّبُ العجيبُ ؟

تُفكِّر فى الدليل :

دارت الخواطرُ سريعةً فى قلبها وعقلها ، هذه هديَّةُ الأقدار دُفعت إلى المرأة التى تحلُم بإشباع حنان الأمومة ، وقد حُرِمت منه ، لقد تعلَّق قلبُها بالطفل ذى الوجه المُشرق والسماتِ الدالَّة على النباهة والرِّفعةِ بإذن اللّٰه . أحبَّته وخَشِيتْ أن يقتلَه فرعونُ كما كان يقتل كلَّ مولودٍ ذكَرٍ من بنى إسرائيل ، فبادرتْه قائلةً : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ٩] . لـمَّا قالت لفرعون : قرةُ عَين لى ولَكَ ، قال لها المنحوسُ : لكِ لا لى ، رَفَض الخير ، فحُرِمَ الخير ، ولو أنه قال : هو لى ، كما هو لَكِ ؛ لكان ذلك قد يكون بفضل اللّٰه ومشيئته سببًا لهدايته ، كما هدَى اللّٰهُ آسيةَ بنتَ مزاحم إلى النور والهدى .

إن آسيةَ كانت تتابع بفكرها وقلبهاما يَجرى لـموسى مع فرعونَ وقومِه وتُوازِن بين المَوْقفين ؛ موقفِ التعنُّت والغرور والكبرياء ، وموقفِ الرفْق واللِّين ، والكلمة الطيبة ، والقول الحسن الذى اتَّسم به مسلكُ موسى مع عَدوِّ اللّٰه فرعونَ وبطانةِ السوءِ التى تُحيط به ، وتَغرُّه ولا تَنصحُه .

لقد تأدَّب موسى بأدبِ الوحى : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٤٣، ٤٤] .

قُولا له قولًا ليِّنًا : أمرٌ إلهيٌّ بالرِّفْق واللِّين ، والتلطُّفِ فى الدعوة واللجوء إلى البرهان والدليل ، بلا مُخاشنةٍ ولا تَعنيف .

ونلمسُ الفرقَ الشاسِعَ بين الموقفين : لمَّا هدَّده فرعونُ بأن يجعلَه مع المسجونين ، مع أن هذا الحوارَ الهادئَ كان لا يَقتضى مثلَ هذا العُنف وتلك الخشونة ، إلا أن موسى عليه السلام عاد بِلُطفٍ إلى لغة الإقناع الهادئة ، وكأنه يطلب إلى فرعونَ استخدامَ عقله ، فقال موسى : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ٣٠] .

تَحدَّاه موسى بإظهار آيات ربَّانية ، يَعجزُ البشرُ عن الإتيان بمثلها فقال فرعون : ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء : ٣١] .

ألقى مُوسى عصاه فإذا هى ثعبانٌ فيه كلُّ خَصائص الثُّعْبانيَّة ، وأخرج يدَه من تحت إبطه فإذا هى مُشرِقةٌ مُضيئةٌ من غير بأسٍ ولا عِلَّة .

فهل انتفع فرعونُ بالبرهان : كلَّا ، بل تمادَى فى ضرْب الأمثال لموسى عليه السلام فقال : إنه ساحرٌ عالم بالسحر وفُنونه ، فَعَل فرعون ذلك ليصرفَ قومَه عن التفكير فى المعجزتَين ، وعن تدبُّر دلالةِ الآيتين على وجود الصانعِ الحكيم جلَّ شأنه وعلى وحدانيته سبحانه وتفردُّه بالإلهية .

وبادرت بطانةُ السوء إلى اقتراح جَمْع مَهَرةِ السَّحَرة فى مصرَ لمُواجهة أمرِ موسى ، وما ظَهر على يديه من الخوارق العجيبة ، وجمع فرعونُ سحرتَه وحشد لهم الناسَ ، ليصفِّقوا لهم عند نجاحهم أمامَ موسى عليه السلام ، وطلب موسى منهم بهدوء ووقارٍ أن يُقدِّموا ما لديهم : ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ

﴿وَعِصِيَّهُمْ﴾ [الشعراء: ٤٤] يصحبُها شيءٌ من التخييل الذى يعتمد على الخِفَّة والصنعة حتى خُيِّل إليهم أنها حَيَّاتٌ تسعى ، وأمره ربُّه بإلقاء عصاه ويتوكَّل على اللَّه ، فألقاها فإذا هى حَيَّةٌ تسعى تبتلعُ حبالَهم وعِصيَّهم ، وتُبطلُ سعْيَهم ، وتكشفُ مكْرَهم وزَيْفَهُم .

إيمان آسية امرأة فرعون رضى اللَّه عنها :

لقد آمنت آسيةُ امرأةُ فرعونَ بموسى بنِ عمرانَ عليه الصلاة والسلام حين عَلمت بمعجزة العصا وأنها تَلقَّفت ، وابتلعت الإفكَ والتخييلَ الذى فعله سَحرةُ فِرعونَ ، كما آمن السحرةُ أنفسُهم ، وتركوا ما هم فيه من الباطل حين رأوا هذه المعجزةَ بأعينهم ، وانضمُّوا إلى حزب اللَّه المُفلحين وجنده المُخلصين ، الذين آمنوا بموسى وأخلصوا لله .

آمنت الطاهرةُ باللَّه ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبموسى نبيًّا ورسولًا وكتمت إيمانَها زمنًا ، وكانت نورًا وضياءً فى قصر فرعون الغَشُوم المُتجبِّر ، وعاشت بقلبها وجوارحِها مع الدعوة ، ترجو من اللَّه النصر لدينه ولرسوله ، ثم عَلِم فرعونُ بما هى عليه ، ولم يَستطع أن يُزحزِحَها عن إيمانها .

التعذيب :

وعذَّبها فرعونُ بالشمس ، ووضع الصخرةَ على صَدْرها ، وشدَّ يديْها ورِجْليها إلى أوتاد أربعة ، فلجأت المرأةُ الصالحةُ إلى اللَّه وحده بالدعاء والتضرُّع : ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم : ١١] .

طلبتْ بإخلاصٍ الخلاصَ من نفسية فرعونَ الخبيثةِ ، ومن عَمله السيئ فنجَّاها اللَّه أكرمَ نجاةٍ من فرعون ومن كلِّ مَن شايَعَهُ على ظُلمه وغَشمه ومعاداته

لدين اللّٰه ، ولـم يَضرَّها كفرُ زوجها .

إن الاستعاذةَ باللّٰه والالتجاءَ إليه ، وسؤالَه سبحانه الخلاصَ عند الشدائد والأزماتِ والمِحَن والنوازل لَـمِنْ سِيَر الصَّالحين والصالحات وسُنَنِ النبيِّين والـمُرسَلين ، والتجأت الـمرأةُ الصالحةُ إلى ربِّها وحده ، تطلب القُربَ من رحمته سبحانه ، والبُعدَ من عذاب أعدائه ، والنجاة من بطش فرعون فاستجاب لها ربُّها وأُكرِمتْ بفضله وإحسانه ، وأُرِيَتْ بيتَها فى الجنة يُعَدُّ ويُبْنَى ويُهيَّأُ لشكناها لتخلُدَ فى جناتِ النعيم ، وبَقِى فرعونُ حتى لقىَ مصيرَ الهالكين من أمثاله وفيهم يقول سبحانه : ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص : ٤٢] .

وصارتْ قِصَّةُ آسيةَ بنتِ مُزاحِم مثلًا فى سلامةِ العقلِ ، وطهارةِ القلب والفِكر ، وفى التواضُع للنعمة ، وعدمِ الغرور بواقع الحال ، مع صحةِ الإيـمان ، وتفويض الأمر إلى اللّٰه والصبر عند الشدة .

فسلام اللّٰه عليها ورحمتُه وبركاته :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريـم : ١١] .

* * *

(٣) الطاهرةُ أمُّ المؤمنين خديجةُ بنتُ خويلدٍ
رضى اللّٰه عنها

من خير نساءِ العالـمين نسبًا وعقلًا وحكمة وأدبًا وسدادَ رأى وعظمةَ خُلُق . وأكرمها اللّٰه بالزواج من خير خَلْق اللّٰه أجمعين النبى الـمُصطفى ﷺ .

كانت قد تزوجت فى الجاهلية أبا هالة بنَ زرارة التميمىَّ ، وبعد موته تزوَّجت عتيقَ بنَ عابد الـمخزومى ، ولها ولدان من أبى هالة أحدهما اسمه هالة والآخر اسمه هند ، وهو الذى رُبِّى فى بيت رسول اللّٰه ﷺ ، وهو من الرُّواة وروَى عنه الحَسَنُ بنُ علىٍّ رضى اللّٰه عنه ، ولها من الثانى الـمخزومىِّ ولدٌ اسمه عبد اللّٰه وبنت اسمها هند - أيضًا - أسلمتْ وحسُن إسلامها .

كانت خديجةُ عظيمةَ الـمنزلة فى قومها ، وكان أكابرُ القوم يسعَوْن لخِطبتها بعد زوجها الثانى ، لعظم شَرَفها فى قومها ، وكثرةِ مالها ولحسبِها ، فهى قُرشيَّةٌ من جهة الأبِ والأم « يلتقيان فى لُؤىِّ بنِ غالب بن فِهر » . ولكنها بكمال عَقلها ، وسدادِ رأيها ، سعت للزواج من محمدِ بنِ عبد اللّٰه ﷺ ، لِمَا عَرَفت عنه من الأمانة والصدق ، والخُلق الكريم والاستقامة التى لـم يَعْهَدوا فى مكةَ مِثلَها فى الشباب على هذا النحو الذى حَبَّبه إلى جميع القلوب .

لقد اختارته خديجةُ فى أولِ الأمر ليضارِبَ فى مالها ، وخرج معه غلامُها مَيْسَرةُ إلى الشام ، ورأى منه مَيسرةُ ما ملأ قلبه حُبًّا له وتعلُّقًا به ، فلـما عادوا من رِحلتهم إلى مكة ، تحدَّث إليها بما رآه من رسول اللّٰه ﷺ من حُسن معاملة وأمانةٍ وصدقٍ ومُروءة ، كما تحدَّث عما رآه من إظلالِ الـمَلَكين إياه يَقِيانِه الشمسَ .

بعثت خديجةُ رضى اللّٰه عنها إليه تطلبُ الزواجَ منه ، ومِـمَّا قالته له : « لقد

رغبتُ فيك لقرابتك وَسِطَتكَ - أى شَرَفِك - فى قومك ، وأمانتك وحُسن خلُقك ، وصِدْق حَديثكَ » .

وتَمَّ زواجه ﷺ بخديجة ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وكان عُمْرُها أربعين عامًا أى تكبره بنحو خمسةَ عشرَ عامًا .

ربَّةُ بيت ممتازة :

وعاشت معه على الوفاء والحبِّ والقيام بالواجب على أفضل وجهٍ وحين كان يخرج إلى غار حراء ، ليخلُوَ فيه وحْده الليالىَ ذواتِ العدد ، من كل عام ، يتأمَّل ملكوتَ السموات والأرض ، ويزدادُ يقينًا بأن لهذا الكون إلهًا واحدًا مدبرًا حكيمًا لا شريكَ له فى ملكه ، كانت خديجةُ رضى اللَّه عنها تقوم على خِدمته ، وتُعِدُّ له ما يلزمُه ، بل وتسعى إليه حاملةً الطعام والزاد فى أدب ورِضًى .

قال عبيدُ بنُ عمير بن قتادة الليثى : « كان رسول اللَّه ﷺ يُجاور فى حراءَ من كل سنة شهرًا ، وكان ذلك مِـمَّا تَحَنَّثُ به قريش فى الجاهلية » .

والتحنُّث : هو الخروج من الحِنْث أى الإثم ، أو التحنُّف بإبدالِ الفاء ثاء .

لقد أبدت رضى اللَّه عنها كلَّ إخلاص فى خدمة بيتها وزوجِها قبل نزول الوحى .

وحين عاد إليها من الغار فى المرة التى رأى فيها جبريلَ عليه السلام لأول مرة ، وقد أصابه ما أصابه من الدهشة والرَّوع ، ثم حدَّثها ﷺ بالذى رأى هَدَّأَتْ من رَوْعِه ، وهوَّنت على نفسه الأمر ، وكانت أولَ من بشَّره بأنه سيكون نبىَّ هذه الأمة ، وبأن اللَّه لن يُضيعه أبدًا ، لِمَا مَنحه من حُسن الأدب ومكارم الأخلاق والمروءات ، ومِمَّا قالته له : أبشِرْ يابنَ عَمِّ ، واثْبُتْ فَوَالذى نفسُ خديجةَ بيده ، إنى لأرجو أن تكونَ نبىَّ هذه الأمة .

ثم قامت فوضعتْ عليه ثيابَها ، لتخففَ عنه أثرَ ما يَجد ، ثم ذهبت إلى ابن عمِّها ورقةَ بنِ نوفل ، وهو عالـمٌ بما فى الكتب السابقة ، ولـمَّا أخبرته بما رأى النبىُّ محمد ﷺ استبشر ورقةُ بن نوفل وقال : قُدُّوسٌ ، قُدُّوسٌ والذى نفسُ ورقةَ بيده لئن كنتِ صَدَقْتينى يا خديجةُ ، لقد جاءَه الناموسُ الأكبر – أى الـمَلَكُ – الذى كان يأتى موسى ، وإنه لَنبىُّ هذه الأمة ، فقولى له : فَلْيَثْبُتْ . فرجعتْ إلى بيتها ، وقد ازدادت طمأنينةً وسرورًا ، وانظروا إلى حكمتها ووفُور عقلها ودأَبِها فى السعى إلى كل ما يُطمئن زوجَها ، ويكون سببًا فى راحة نفسِه وسكينةِ قلبه ، وقد أخبرته بقولِ ورقةَ بنِ نوفل ، وهى جَدُّ مسرورةٌ ومستبشرة .

ومِمَّا يدلُّ على حكمتها ما قالته له حين قال لها : « لقد خَشِيتُ على نفسى » أى : لأن ذلك كان أولَ عهده بجبريلَ عليه السلام ، قالت له : كَلَّا ، واللَّهِ ما يُخزيك اللَّهُ أبدًا ، إنك لتَصِلُ الرحِمَ ، وتَحمِل الكَلَّ وتُكْسِبُ الـمعدومَ ، وتَقْرِى الضيفَ ، وتُعين على نوائبِ الحق .

ومِـمَّا قالته له لتُدخلَ السكينةَ على قلبه : يا ابنَ عم ، اثبُتْ ، وأبشِرْ فواللَّهِ إنه لـمَلَكٌ ، وما هذا بشيطان .

إسلامها :

وآمنت الـمرأةُ العاقلةُ الحكيـمةُ الـمُتَّزِنةُ به ﷺ ، وصدَّقت بما جاءه من اللَّه ، ووازَرَتْه على أمره ، فكانت أولَ من آمن باللَّه وبرسوله ، وصَدَّق بما جاء به ، فخفَّف اللَّه بذلك عن نبيِّه ﷺ لا يَسمع شيئًا مِمَّا يكرهُه من ردٍّ عليه وتكذيب له من الـمشركين ، فَيحزنُه ذلك ، إلا فرَّج اللَّهُ عنه بها إذا رجع إليها ، رضى اللَّه عنها .

كانت تُثبِّتُه ، وتُخفِّف عنه ، وتُصدِّقه وتُهوِّن عليه أمرَ الناس ، رضى اللَّه عنها وأرضاها ، فأىُّ قوةٍ نفسية هذه ! وأىُّ حكمة ! وأى بصيرة واتزان ؟ .

تبشير :

انظروا إلى خديجةَ الحبيبةِ إلى قلوب المؤمناتِ والمؤمنين ، وقد سعت إليه ﷺ فى غارِ حراء تحملُ الطعام والإدامَ والشرابَ فى سكينة ووقارٍ وجِدٍّ وعزم ، وكان جبريلُ عليه السلام معه فى هذا الحين ، فرآها على هذا النحو الرائع من الأدبِ والإخلاصِ والْجُهْد الطيب الذى يقعُ موقعَه الصحيح ، يقول أبو هريرة كما عند البخارى فى صحيحه : « فقال - جبريل - يا رسول اللَّه ، هذه خديجةُ قد أتتْ ومعها إناءٌ فيه إدامٌ - أو طعام - أو شرابٌ ، فإذا هى أتتكَ فاقرأْ عليها السلام من ربها ، ومنِّى ، وبَشِّرها ببيتٍ فى الجنة من قَصَب لا صَخَب فيه ، ولا نَصَب » .

القصبُ هنا : اللؤلؤ المجوَّف ، والصخَبُ : الصياحُ ، والنصَب : التعبُ أى : بَشِّرها ببيتٍ خالٍ من أسباب الإزعاج والقلق ، وتجدُ فيه الراحةَ التى لا تعبَ معها ، والنعيمَ الذى لا يَشوبه شقاء ؛ إنه الجزاءُ من جنس العملِ جزاءً وفاقًا .

ألَا تَرون أنها أجابت دعوةَ الرسول ﷺ من غير مُنازَعة ولا تَعَب ، بل إنها اجتهدت وسعتْ فى إزالة كلِّ تعبٍ عنه ، وهوَّنت عليه ما كانَ يلقاه من أمر الوحْى فى بدء الأمر حتى استراحت نفسُه وذهَب عنه ما كان يَجد ؛ فكانت نِعْمَ المُؤنسُ من الوحشة ، ونعم الرفيقُ من أول الطريق ، فكان الجزاءُ أن يكونَ بيتُها فى الجنة بالصفة المقابلة لفِعْلها ، لا صخبَ فيه ولا تعب .

وقال ابن هشام : حدَّثنى من أثقُ به أن جبريلَ عليه السلام أتى رسولَ اللَّه ﷺ ، فقال : أَقْرِئْ خديجةَ السلامَ من ربها ، فقال رسولُ اللَّه ﷺ : « يا خديجةُ ، هذا جبريلُ يُقرئُك السلامَ من رَبِّك ، فقالت خديجة: اللَّهُ السلامُ ومنه السلامُ ، وعلى جبريلَ السلام » . [وعند الطبرانى]

وزاد النَّسائىُ من حديث أنس : « وعليكَ يا رسول اللَّه السلامُ ورحمةُ اللَّه وبركاتُه » . وهذا الردُّ يدل على وُفور فِقهها وفِطْنتها ، وحُسن أدبها : فقد جعلت

مكانَ ردِّ السلام على اللّٰه الثناءَ عليه تعالى ، أى قالت : « هو السلام » أى : هو سبحانه ذو السلامة من كلّ نَقْص وآفة . ثم غايرتْ رضى اللّٰه عنها بين ما يَليق باللّٰه تعالى ، وما يَليق بغيره ، أى فى قولها : « وعلى جبريل السلام ، وعليك يا رسولَ اللّٰه السلامُ ورحمةُ اللّٰه وبركاته » .

بَدْءُ المسيرة المباركة :

وبدأت معه ﷺ المسيرةَ المباركةَ الشريفةَ ، من أول الطريق ، وكما كانت أولَ مَن آمن ، كانت أولَ من عَلّمه رسولُ اللّٰه ﷺ الوضوءَ والصلاة بعد أن علّمه جبريلُ عليه السلام الوضوء وصَلّى معه بصلاتِه ، ثم انضم إليهما علىُّ بن أبى طالب رضى اللّٰه عنه فى الصلاة ، وهو يومئذ ابنُ عشر سنين .

لقد كانت له ﷺ وزيرَ صِدْق على الإسلام ، ومُشيرًا ناصحًا أمينًا ولـمّا جَهَر رسولُ اللّٰه ﷺ بالدعوة فى مكة[1] سعى زعماءُ الـمشركين إلى إيذائه وإيذاءِ أصحابه رضوانُ اللّٰه عليهم ، وكان كُلّما لقىَ شدةً أو شيئًا مِمّا يكرهه من القوم فرّج اللّٰه عنه بها رضى اللّٰه عنها ، وبعمّه أبى طالبٍ ، وكان له عَضُدًا فى أمره لشدة حُبّه له وقُربه منه .

عام الحُزن :

وماتت خديجةُ رضى اللّٰه عنها قبلَ الهجرةِ بنحو ثلاث سنين ، وفى السنة نفسِها مات عَمُّه أبو طالب ، فتتابعتْ على رسول اللّٰه ﷺ الآلامُ والأزماتُ بِموت خديجة ، وكانت له عضُدًا ومساندًا ومستشارًا ، يتحدَّث إليها بما يلقاه ، ويجد منها الـمؤازرة لقوة نفوذها ، كما كان يجدُ منها ما تُهوّن به عليه أمرَ الناس وتـملأ به قلبَه راحةً وسكينة .

---

(١) كان ذلك بعد ثلاث سنين من بدء البعثة .

إكرامُه لها :

وتتابع الأذى من سفهاء القوم فى مكةَ المكرمةِ ، والنبىُّ ﷺ صابر مُحتسب ماضٍ فى طريق الدعوة إلى اللَّه بالحِكمة والموعظة الحسنة والدليل والبرهان ، وكان إذا ذُكرتْ خديجةُ دعا لها رسولُ اللَّه ﷺ ، وإذا رأى واحدةً مِمَّن كنَّ على مودَّة معها ، أكرمها وهَشَّ لها وفاءً لخديجة ، وكان يُهدى إلى خلائلها من الشاة ما يَكفى لشبعهِنَّ إكرامًا لخديجة بعد موتها رضى اللَّه عنها ، ولم يتزوَّجْ فى حياتها غيرها وكانت تكبُره بنحو خمسة عشرَ عامًا .

وتزوج سودةَ بنت زَمْعَة بعدها ، ثم تزوَّج عائشةَ بنتَ الصِّديق بعد موت خديجةَ بثلاث سنين ، إذ خُطِبت فى مكة ودَخَل بها بعد نحو ثلاثِ سنين فى المدينة المنورة .

أولاده ﷺ :

وأولادُ رسول اللَّه ﷺ كلُّهم من خديجة ما عدا إبراهيمَ ؛ فإنه من ماريةَ القبطية المصرية من صعيد مصر ، وقد أهداها المقوقِسُ مع بعض هدايا لرسول اللَّه ﷺ .

كان له ﷺ ثلاثُ بنين هم ؛ إبراهيم ، وعبد اللَّه ، والقاسم ، وماتوا قبل التكليف ، أى فى صغرهم ويقال : إن القاسمَ مات رضيعًا فى الإسلام ، ولـمَّا شعرت خديجةُ بالحزن لفقده ، قال لها رسولُ اللَّه ﷺ : « إن شئت أسمعتُك صوتَه فى الجنة ، فقالت : بل أُصدِّق اللَّه ورسولَه » .

[السهيلى عن الزبير/ حاشية سيرة ابن هشام الجزء الأول] .

أمَّا البناتُ فهنَّ: زينبُ، ورُقية، وأم كلثوم، ثم فاطمة أصغرُهُن – على الصحيح – رضى اللَّه عنهن ، وعِشْنَ حتى أدركْنَ الإسلام فأسلمْنَ ، وهاجَرْن معه ﷺ .

وقد ماتت بناتُه ﷺ فى حياته أى قبله ، ما عدا فاطمةَ ، فقد امتد بها العمرُ بعده ، وشاركت زوجَها عليَّ بنَ أبى طالب السرَّاء والضرَّاء فى إخلاص ومَودَّة وكرم أخلاق ، وفَهْم صحيح لمعْنَى الأسرةِ ، وحسن تربيةِ الأولاد أى على النهج الذى كانت عليه أمُّها خديجةُ رضى اللّه عنها .

القدوة :

وكانت فاطمةُ الزهراءُ نِعْمَ الابنةُ ، ونعْمَ الزوجةُ ، ونِعْم ربَّةُ البيت ، ونعمَ المجاهدةُ الصابرةُ الوفيّة ، ونِعْم الخَلَفُ لأمِّها أُولَى أمَّهاتِ المؤمنين والقدوةِ الطيبة لنساء العالمين : فى صحة العقيدة ، واستقامة الفِكر ، وتمام العقل ، وفى حُسن الطاعة لله ولرسوله ، كانت خديجةُ القدوةَ فى البرِّ والتقوى والاعتدالِ ، والقوةِ النفسية ، والشجاعةِ الأدبية ، ومعرفةِ الحقوق والواجبات ، والقيام بالمسئوليات على أفضل وجه .

لقد كانت خديجة طاقةً بنَّاءة بحكْمة واقتدار ، لم يَشغلْها الدَّورُ العظيم الذى قامت به عن خِدمة بيتها ، وتربيةِ أولادِها ورعايتِهم ، وتَهيئتهم لتحمُّل المسؤوليات ، إلى جانب جُهدها المشكور فى دَعْم الحياة الاقتصادية فى مكةَ المكرَّمة وما حولها ، بإسهامها العظيم فى ميدان التجارة ورحلتى الشتاء والصيف لتبادل المنافع وجلب الخيرات ، وتدريب النابهين .

كانت امرأةً جادَّةً ، حكيمةً ، قامت بوظائفها على أفضل وجْه ، وتركتْ سيرةً عَطرة ، فيها النَّموذجُ الصالحُ للمرأة فى كل زمان ومكان .

وإن نساءَ العالمين مَدعواتٌ لمدارسة هذه السيرة العطرة ليتعلَّمن حقيقةَ دور المرأةِ الصالحة ، ويقتدين بهذه النماذج العالية فى فِقهها وأدبِها ووقارِها وإيمانها بالواجبِ اللائقِ بالمرأة ، والقيامِ به على أكمل الوجوه وفى إسهامها فى

بناء الأسرةِ التى هى الأساس المتينُ ، الذى لا غِنَى عنه فى بناء الأمةِ ، وتحقيقِ أصالتها وأمجادها .

عائشة وخديجة : وما كانت أمُّ المؤمنين عائشةُ رضى اللّه عنها تَغار من أحدٍ غَيْرَتها من خديجةَ رضى اللّه عنها ، وهى غَيْرَةُ التنافُس فى أداء الواجب ، والقيامِ بالحقوق على الوجه المَرضىِّ الأكمل ، وذلك حين كانت تسمع الثناءَ عليها من رسول اللّه ﷺ ، وإنَّ الرسول ﷺ يُحب من أحبَّه اللّه ، ويَرضى عمَّن يَرضَى عنه اللّه ، فكيف لا تتنافس زوجاتُه رضى اللّه عنهنَّ فى اكتساب المزيدِ من محبَّته بالطاعة والاجتهاد فى كل ما يُرضى ربَّ العالمين .

الغَيْرة المحبَّبة لأنها من الغِبْطة :

تقول أمُّ المُؤمنين عائشةُ رضى اللّه عنها : ما غِرْتُ على امرأةٍ ما غِرْتُ على خديجة من كثرةِ ذِكْر رسول اللّه ﷺ إيَّاها . أى : كان يُحبها ويذكرها بالخير دائمًا ، كان يصلُ مَن يصلها فى حياتها من النساء والأهلِ ويَبرُّهم ، وقد تزوَّج عائشةَ رضى اللّه عنها بعد ثلاث سنين من موت خديجة ، تقول عائشة : وتزوَّجنى بعد ثلاث سنين[1] ، وأمَرَه جبريل عليه السلام أن يبشِّرَها ببيتٍ فى الجنة من قصب . [عند الإسماعيلى] . وكانت عائشةُ تقول فى بِرِّه ﷺ بصديقات خديجة وإكرامه لهنَّ : « ما حَسَدتُ امرأةً قطُّ ما حَسَدتُ خديجةَ ، حينَ بشَّرها النبىُّ ﷺ ببيتٍ من قَصَب ، وإن كان لَيَذْبَحُ الشاةَ فيُهدى فى خلائلها منها ما يَسَعُهُنَّ أو ما يُشبعهنَّ » . رضى اللّه عن أمهات المؤمنين وأعلى منازِلَهنَّ فى جنات النعيم .

---

(١) تم العقد عليها فى مكة وهى بنت ستِّ سنين لكنَّ دخوله ﷺ بها كان فى المدينة وهى بنت تسع سنين وبَقِيت معه تسعًا ، وهى البِكْرُ الوحيدة من زوجاته .

(٤) فاطمة الزهراء ..
رضى الله عنها

قال لها رسولُ اللَّه ﷺ : « أما تَرْضَيْنَ أن تكونى سيدةَ نساء الـمُؤمنين » . أخرج الترمذىُّ عن أم الـمؤمنين عائشة رضى اللَّه عنها : أنها سُئلت ، أىُّ الناس أحبُّ إلى رسول اللَّه ﷺ ؟ قالت : فاطمةُ . فقيل من الرجال ؟ قالت : زوجُها . أنْ كان ما عَلِمْتُ صَوَّامًا قَوَّامًا » . [قال : حديث غريب] .

وهذا محمول على أن فاطمة وعليًا أحبُّ الناس إليه من دَمِه وأهلِ بيته ، أمَّا أبو بكر وعائشةُ رضى اللَّه عنهما فهما أحبُّ إليه مُطلقًا .

ويؤيد ذلك ما رواه عبدُ الرزَّاق وغيرُه أن النبى ﷺ قال لفاطمة الزهراء : « أنكَحتُكِ أحبَّ أهلِ بيتى إلىَّ » وفى لفظ : « أنكحتُك أحبَّ أهلى إلىَّ » .

وليلةَ زفافها دعا لهما مَرَّات ، ومن دُعائه ﷺ لهما : « اللَّهمَّ إنى أُعيذها بِكَ وذُرِّيتها من الشيطان الرجيم » مرَّتين مرةً وهى مُقبلة عليه ، ومرةً وهى مُدبرة . وفَعَل مثلَ ذلك مع علىٍّ قال : « اللَّهمَّ إنى أُعيذه بك وذرِّيته من الشيطان الرجيم ، ثم قال لعلىٍّ : ادخُل بأهلك بسم اللَّه ، والبركة » .

[من حديث أبى اليزيد الـمدائنى أخرجه أبو حاتم وأحمد] .

وبعد الإيجاب والقبول قال لعلىٍّ : « جَمَع اللَّه شَمْلَكُما ، وأسْعَدَ جَدَّكما – حَظَّكما – وباركَ عليكما ، وأخرج منكما كثيرًا طيِّبًا » .

[من حديث خِطبة النكاح وأخرجه أبو الخير القزوينى والحاكم ورواية أنس بن مالك] .

وأمرهما ﷺ بالشرب والوضوء من ماء تَفَلَ فيه ما شاء اللَّه ، ثم أجاف

عليهما الباب ، فبكتْ فاطمةُ ، فقال : « ما يُبكيك ؟ وقد زوَّجتُك أقْدَمهم إسلامًا ، وأحسنَهم خُلقًا ؟ » [أخرجه أبو الخير الحاكمى] .

وكان قد خطبها قبل عليٌّ رضى اللّه عنه أكابرُ الصحابة منهم أبو بكر وعمرُ رضى اللّه عنهما فلـمَّا خطبها عليٌّ زوَّجها له .

[كما فى حديث بريدة ، وأخرجه أبو حاتم والنسائى ، وعن أنس عند أبى الخير القزوينى والحاكم] .

وكان زواجهما فى السنة الثانية من الهجرة فى شهر رمضان ، وبَنى عليها فى شهر ذى الحجة ، رضى اللّه عنهما .

زوجة صالحة وفيَّة :

لقد كان عليُّ بنُ أبى طالب خشِنَ الـمَعاش وَرِعًا زاهدًا مُتواضعًا ، وكانت الزهراءُ رضى اللّه عنها تشتغلُ فى البيت بنفسها وتخدُم زوجَها وأولادَها ، حتى شكَت ما تلْقَى من أثرِ الرَّحَا فى كَفَّيْها ، ولـمَّا جىء لرسول اللّه ﷺ بِسَبْيٍ - أى أسْرَى حربٍ - سألَتْه علَى حياءٍ خادمًا يساعدها ؛ قالت : « لقد مَجِلتْ يَدَاى - أى تقرَّحَتَا - أطحنُ مرةً وأَعجِنُ مرةً » وكانت حاجة فقراءِ الـمسلـمين فى الصُّفَّة أعظمَ من حاجتها ، فآثَرَهـم ونَصَحها وعليًا بأن يسبِّحا اللّه ، ويَحْمدانه ، ويكبِّرانه دُبُر كلِّ صلاة ، وقال أيضًا : « وإذا لزمتِ مَضْجَعَك فسَبِّحى اللّه ثلاثًا وثلاثين ، وكبِّرى اللّه ثلاثًا وثلاثين ، واحمدى اللّه أربعًا وثلاثين ، فتلك مائةٌ ، فهو خيرٌ لَكِ من الخادم » . [أخرجه الدولابى كما أخرجه البخارى وعند أبى حاتم مثله] .

وفيه : « إذا أخَذْتُما مَضَاجِعَكُما فكبِّرا - اللّه - أربعًا وثلاثين ، وسَبِّحا ثلاثًا وثلاثين ، واحْمَدا ثلاثًا وثلاثين ، فهو خيرٌ لكما من خادم يخدمُكما » .

[وعند أحمد مثله] .

عظيمة بمعنى الكلمة :

رضى اللّٰه عن الزهراء المؤمنةِ الصابرةِ الوفيّةِ الخَدُوم الشجاعة ؛ كانت فى الغزوات التى حضرتْها تقومُ بالواجب على خيرِ وجه ، وكانت فى مكةَ وهى صغيرةٌ قريبًا من أبيها إذا حَضَر المسجد لِتَرْدَعَ من يُريد أذاه ، فهى التى ألقت القَذَى عن ظَهْره ﷺ وهو ساجدٌ ، وقد وضَعَه عُقْبةُ بنُ أبى مُعيط ، ومعه رهْطٌ من المشركين .

وكانت ترقبُ الموقفَ فى المسجد الحرام قبل خُروج الرسول ﷺ لتُخبرَ بما تَرَى من مَكيدة ، ولـمَّا تعاقد الملأُ من قريش على أن يقوموا إليه قيامَ رجلٍ واحد ، فلا يُفارقونه حتى يموتَ ، بكتْ وهى تسمع وتَرى ، وظلَّت تَبكى حتى دخلت على رسول اللّٰه ﷺ وأخبرته الخبر [كما رواه ابن عباس] .

فطلب منها ﷺ الماءَ ، وتوضَّأ ، ثم دَخل المسجدَ ، فهابوه هيبةً عظيمةً وخفضوا أبصارَهم ، وهى قريبةٌ منه بكل حُبِّها وقَلْبها رضى اللّٰه عنها .

وفى آخر حياته ﷺ :

إنها كانت قريبةً منه فى آخر حياتِهِ المباركة الطيبة ، وهى حزينة أسيفةٌ فلما ثَقُل عليه المرضُ سَمِعها تقول : « واكَرْبَ أبَتاه ، فقال لها : ليس على أبيك كَرْبٌ بعد اليوم » ، فلمَّا صَعَدت روحُه الطاهرةُ إلى بارئها قالت : « يا أبَتاهُ أجابَ ربًّا دَعاه ، يا أبتاه ، جَنةُ الفردوس مأواه ، يا أبتاه ، إلى جبريلَ أنعَاه » .

لقد كان عزاؤُها وسكوتُها أنها سمعتْه ﷺ يقول فى أذنها : « إنَّكِ أولُ أهل بيتى لُحوقًا بى ، ونِعْمَ السلَفُ أنا لَكِ » . ثم قال لها ﷺ : « ألا تَرْضَيْنَ أن تكونى سيدةَ نساءِ هذه الأمةِ ، أو نساء المؤمنين ؟ » . قالت : فضحكتُ لذلك . [أخرجاه] ، أى ضَحِكَت لهذه البُشرى ، وخَفَّف عنها ما كانت تَجِدُه من مرارة الحُزن والألم ، وكانت تقول بعد حديثه هذا فى أُذنها : « ما رأيتُ كاليوم

فَرَحًا أقربَ من حُزن ! » [من الحديث الذى روته عائشة] ثُمَّ لـمَّا دُفِنَ ﷺ قالت رضى اللَّه عنها : « يا أنسُ، كيف طابتْ أنفُسُكم أن تحثُوا على رسولِ اللَّه ﷺ الترابَ » . [الحديث فى صحيح البخارى وفى الوفا بأحوال المصطفى] .

من ذكائها وفِطنتها :

من قصة رواها جابرُ بنُ عبد اللَّه رضى اللَّه عنه ، وأخرجها الحافظُ أبو يَعلى : أن فاطمةَ الزهراء بعثتْ حَسَنًا أو حُسَينًا إلى رسول اللَّه ﷺ لتقدِّمَ له طعامًا أُهدى إليها ، وكان أزْواجُ رسول اللَّه ﷺ ، وبيتُ علىِّ بنِ أبى طالب فى هذا اليوم فى حاجة إلى شَبْعةِ طعام . فلـمَّا حضر ﷺ عندها قدَّمت له جَفْنةً كان فيها رغيفان وقطعةُ لحم ، فلـمَّا كشفتْ عنها أمامَ رسولِ اللَّه ﷺ فإذا هى مملوءةٌ خُبزًا ولحمًا ، فبُهتَتْ فاطمةُ ، وعَرفَت أنها بركةٌ من اللَّه ، فحَمِدت اللَّه ، وصلَّتْ على نبيه . فلـما رأى النبىُّ الطعامَ حَمِد اللَّه عز وجل ، وقال : « من أين لكِ هذا يا بُنيَّة ؟ فقالت الزهراء : هو من عند اللَّه ، إن اللَّه يرزق من يشاء بغير حساب » . فحمد اللَّه وقال : « الحمدُ لله الذى جعلك يا بُنيَّة شبيهةً بسيدةِ نساء بنى إسرائيل - مريـم العذراء - فإنها كانت إذا رزقها اللَّه شيئًا فسُئِلَت عنه قالت : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] . وجعل اللَّهُ فى الطعام بركةً وخيرًا ، فأكل الجميعُ وشَبِعوا ، وأوْسَعُوا بالبقيَّةِ على الجيران .

[تفسير ابن كثير سورة آل عمران] .

الوصية بحبها وبحب آل بيته ﷺ :

أخرج الترمذى عن أم سلمة رضى اللَّه عنها أن رسول اللَّه ﷺ جلَّل - أى غطَّى - على الحَسَن والـحُسين وعلىّ وفاطمةَ كساءً وقال : « اللَّهمَّ هؤلاء أهلُ بيتى وخاصَّتى أذْهِبْ عنهم الرجْسَ وطَهِّرهُم تطهيرًا » [قال : حسن صحيح وأخرجه غيره بمعناه] .

ولقد حثَّ رسول اللّه ﷺ على محبة آل بيته ورعاية مكانتهم محبةً يُرجى بها وجهُ اللّه عز وجل ، لا لدنيا ولا لـمَغنم ، ومن قوله فى ذلك ما رواه أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه أنه ﷺ أشار إلى عليٍّ وفاطمةَ والحَسنِ والحسين ثم قال : « لا يُحبهم إلا سعيدُ الـجَدِّ - الحظ - طيبُ الـمولد ، ولا يُبغضهم إلا شقىُ الجَدِّ ردىءُ الولادة » [الرياض النضرة للطبرى] .

وفاتها :

وكانت وفاتُها رضى اللّه عنها بالـمدينة الـمنورة بعد موت أبيها ﷺ بثلاثة أشهر ، وقد أوصى ﷺ بآل بيته فى حَجَّة الوداع . تلك لـمحةٌ عن صُغرى بنات رسولِ اللّه ﷺ فاطمةَ الزهراءِ ، وقد رأيت من الـمُناسب أن تُقَدَّمَ نبذةٌ عن زينبَ كُبرى بناتِه ﷺ فى خِتام هذه الرسالة(*) . أمَّا رقيةُ رضى اللّه عنها فقد تزوجها عثمانُ رضى اللّه عنه ، وتُوفيت فى السنة الثانية من الهجرة ، وكانت قد عُقِدَ لها على عُتبةَ بن أبى لَهَب قبل البَعثة ، ثم انفصلتْ عنه بعد البعثة قبل الدخول بها ؛ لأنه تابَع أباه فى أوَّل الأمر ، ثم أسلـم بعد ذلك ، وأُمُّ كلثوم رضى اللّه عنها تزوَّجها عثمانُ بنُ عفَّان بعد موتِ رُقَيَّة ، وتُوفِّيت سنةَ تسعٍ من الهجرة .

اللّهم ارضَ عن أمِّ الـمؤمنين خديجةَ وعن فاطمةَ وأولادها وعن سائر أمهاتِ الـمؤمنين، وعن أصحاب رسولِ اللّه ﷺ وانفعنا يا ربَّنا بحبك و بِحُب نبيك ، وبحُب كتابِك ، وبحب آلِ بيت نبيِّك ، وبحُب أصحابِ رسول اللّه ، وسائرِ الـموحِّدين ولا تَحْرِمنا من شفاعة رسولك الأمين يومَ الدين واحشُرنا فى زُمرة الصالحين ؛ أوليائك الذين رَضِيت عنهم يا أرحم الراحمين ، وارضَ عنا واغفر لنا وارحمنا .

(*) جاء فى سيرة ابن هشام الجزءالأول (ص١٩٠) أن كبرى بناته رقيّة ، أمَّا ابنُ الجَوزى فى الوفا بحقوق المصطفى الجزء الثانى (ص٣٦٠) فقال : زينبُ هى أكبر ولده ، وفاطمة أصغرُ بناته على الصحيح وليست رقيّة كما أشار بعضهم .

(٥) كُبرى بنات رسول الله ﷺ

زينبُ الطاهرة الشريفة الصابرة
وزوجُها أبو العاص بن الرَّبيع

* أم الـمؤمنين خديجةُ بنتُ خُويلد كان لها من رسول اللّه ﷺ اثنان من الذكور وهما : القاسم وعبد اللّه ، وأربعُ بناتٍ هنَّ : زينب ، ورُقَيَّة ، وأُم كلثوم ، وفاطمة رضى اللّه عنهن .

* وأبو العاص بن الربيع هو ابن هالة بنت خويلد أخت خديجة رضى اللّه عنها .

* وكان له ﷺ ولد ذكر ثالث هو : إبراهيم ، وأمُّه مارية القبطية .

* مات أولادُه كلُّهم فى حياته ﷺ ما عدا فاطمة الزهراء فماتت بعده وكانت أول أهل بيته لحوقًا به ﷺ .

أبو العاص :

كان أبو العاص بنُ الربيع بن عبدِ شمس من شباب قريش ذوى الوجاهة والـمال ، والأمانة ، وكان يشتغل بالتجارة ، ويأمنه الناسُ على أموالهم يتاجر لهم فيها ، لشدَّة ثقتهم فى أمانته ، ووفائه ، ودماثة أخلاقه .

وأبو العاص أمُّه هى هالةُ بنتُ خُويلد أخت أم الـمُؤمنين خديجة بنت خويلد رضى اللّه عنها ، وكان قريبًا من خالته فى الجاهلية ، تُحبه ، ويحترمها ويطيعها ، وكانت تَعُدُّه بمنزلةِ ولدها .

زواجُه من زينب :

وقبلَ نزول الوحى سعتْ خديجةُ فى تزويج أبى العاص من زينب بنتها وهى

بنتُ خالته ، فقبل رسول اللّه ﷺ ، وتـمَّ الزواج قبل ظهور الإسلام .

بعد نزول الوحى :

ولـمَّا أكرم اللّه عزَّ وجلَّ نبيَّه محمدًا بالرسالة ، كانت زوجُه خديجةُ أولَ من آمن وصدَّق من النساء ، وبادرت بناتُه إلى الإيـمان ، وشهدتْ كلٌّ واحدة منهن أن ما جاء به أبوها هو الحق ، ومنهنَّ زينب كبرى بناته .

أمَّا أبو العاص زوجها فثبتَ على شِرْكه ، وشارك مع الكفار فى غزوة بدر الكبرى فى السنة الثانية من الهجرة ، ووقع أسيرًا فى أيدى الـمُسلـمين ، وظلَّت زينبُ فى مكة لـم تقْوَ على الهجرة ؛ لشدَّة شوكةِ أهل بيتِ زوجها ، وعدم تـمكينها من الخروج بدينها .

ورُوى أنها أرسلت فديةً لتخليص أبى العاص من الأسر ، وتـم بالفعل إطلاقُ سراحه ، ورجع من الـمدينة إلى مكة مع مَن أُطلق سراحُهم من الأسرى ، ولعلَّ من أسباب تبرُّعها بفديته مع ما فى ذلك من مكارم الأخلاق ، أنها أرادت أن تكونَ لها يدٌ ومعروفٌ يساعدها على موافقة أهله على هجرتها وعدم حبسها فى مكة ، وقيل : إنَّ إطلاقَه كان من شروطه السماحُ لها بالهجرة .

هجرتها رضى اللّه عنها :

كانت غزوة بدر الكبرى فى رمضان من السنة الثانية من الهجرة وبعد نحو شهر من الغزوة الـمباركة ، رتَّبت أمورَها ، ثم خرجت من مكة قاصدةً الـمدينة ، مُفارقةً زوجَها بسبب ثباتِه على الشرك ، ورتَّب لخُروجها مُهاجرةً رسولُ اللّه ﷺ حارسين ينتظرانِهَا ببطن يأجَج على نحو ثمانيةِ أميال من مكة ، حتى تـمرَّ زينبُ بهذا الـمكان فيصحباها حتى الـمدينة الـمنورة .

وثار الحانقون :

(١) ولـمَّا علـم الحانقون من آل بيت زوجها وأعوانهم خرجوا وراءها وكان أخَسَّ الـمبادرين لإعادتها : هبَّار بنُ الأسود بن الـمطلب ونافعُ بنُ عبد القيس الفهرى ، فقد رَوَّعاها برمحيهما كأنهما فى معركة معها وأفظعُ من ذلك أنْ وجَّه هبارٌ رُمْحَه فنَخَسَ به راحِلَتها فسقطت الـمرأةُ الضعيفةُ رضى اللَّه عنها على صخرة ، وكانت حاملًا فسقط حمْلُها وهلك ، وظلَّت تعانى بعد هذا من نَزْف الدَّم حتى آخر حياتها رضى اللَّه عنها ، وقد تُوفيت فى العام الثامن من الهجرة الشريفة .

(٢) وغضب زعماء قُريش من خروج زينبَ علانيةً مُهاجرةً إلى الـمدينة وكان الرَّبيعُ والدُ زوجها عاهد على عدم الوقوفِ فى سبيلها ، وقد لَـمسَ بنفسه كرمَ الأخلاقِ والإحسانَ إلى ولده .

(٣) وخرج أبو سفيان ومعه عددٌ من القُرشيين فى طلَبِ الـمسكينة ليردُّوها إلى مكة ، ولكنَّ حَماها وقف أمامهم لحمايتها وفاءً بعهده ، فرجاه أبو سفيان أن يُعيدها إلى مكة ، حتى لا يتحدثَ الناسُ أن قريشًا ضَعُفَتْ بعد هزيـمتها فى بدر ، وإن كان ولابدَّ فليُخْرِجْها الربيعُ بنُ عبد شمس بعد ليالٍ سِرًّا ليلًا ، حتى لا يُعَيَّروا بالضعف والاستخذاء .

رجوعها إلى مكة :

أرجعها حَمُوها الربيعُ إلى مكةَ مُعَزَّزةً مُكرَّمةً لولا ما أصابها من رُمح هبَّار فلـمَّا هدأت ثائرتُهم ، خرج حَموها فى حمايتها ليلًا ، حتى أسلمها إلى حارسيها الـمنتظرين وهما : زيدُ بنُ حارثة وأنصاريٌّ معه ، وقد أُهْدِرَ دمُ هبَّارٍ ورفيقِه ، كما روى أبو هريرة رضى اللَّه عنه ؛ لقصدهما قَتْلَ امرأةٍ ضعيفة بغير حقٍّ ، وترويعها على هذا النحو الذى لا شفقةَ فيه ولا رحمةَ .

أبو العاص ورحلة الشام :

كان أبو العاص تاجرًا يُضارِبُ فى أموال قريش يُعطونه المالَ لجلب الخيراتِ والبضائع إلى مكةَ لأمانته وعقله وخبرته ، وخرج أبو العاص على رأس قافلة إلى الشام ، ثم عاد ومعه من البضائع والأمانات ما شاء اللَّه ، وقُدِّر له .

وكانت سرايا رسول اللَّه ﷺ تُراقب طريقَ قريش فى رحلتها إلى الشام للتجارة ، ووقع أبو العاص عند عودته من الشام ومَن معه فى يد سريَّة منها وغنموا كلَّ ما معه من البضائع والنفائس ، ولكنه استطاع أن يفرَّ هاربًا مُوليًّا وجهه نحو المدينة المنورة ، لعله يحصل على الحماية ، ويستردُّ الأموال .

وصَدَق ظنُّه :

وسار تحت ظلام الليل حتى وصل إلى المنزل الذى تقيم فيه زينبُ ، وناداها مؤمِّلًا أن تُجيرهُ وتَحميَهُ ، وقَبِلت زينبُ إجارتَه ، ولم يعلم رسول اللَّه ﷺ بأمره إلا فى صلاة الفجر ، فلقد رفعت زينبُ صوتَها من مكان النساء حين سمعتْه ﷺ يكبِّرُ للصلاة وكَبَّرَ المصلُّون معه ، وقالت : « أيها الناسُ إنى قد أجرتُ أبا العاص ابنَ الرَّبيع » . فلمَّا سلَّم عليه الصلاةُ والسلام ، أقبل على الناس ، فقال : « أيها الناسُ هل سمعتُم ما سمعتُ ؟ قالوا : نعم ، قال : أمَا والذى نفسُ محمدٍ بيده ، ما علمتُ بشىء من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتُم ، إنَّه يُجير على المسلمين أدْناهُم » أى تُقْبَلُ إجارةُ المسلم إذا طلب حمايةَ أحدٍ وإجارتَهُ .

وصيته لابنته :

خرج رسولُ اللَّه ﷺ إلى زينب وأوصاها بأن يكون أبو العاص فى موضع الإكرام ، ولكنه مُحرَّم عليها ، فلا يتصل بها : « أى بُنيَّةُ ، أكرِمى مَثْواه ولا يَخلُصَنَّ إليكِ ، فإنكِ لا تَحِلِّينَ له » [رواه ابن إسحاق عن يزيد بن رومان سيرة ابن هشام] .

مصير الغنيمة :

كانت الغنيمةُ وُزِّعتْ على مستحقيها ، لأنها فَىْءٌ ، رزقَهم اللَّهُ به من عدوٌ شَرِسٍ ، وهم مشركو مكة ، يُضمِرُ للمسلمين الشرَّ ، وهم معهم فى حالة حربٍ غيرِ خافية .

وتكرَّم رسولُ اللَّه ﷺ بأن تَرَكَ الخيارَ لأفراد السَّرِيَّة : بين رَدِّ المال والبضائع إلى أبى العاص ، أو بقائِه فى أيديهم حلالًا : « فهو فَىْءُ اللَّهِ الذى أفاء عليكم » . [سيرة ابن هشام] .

واختار الرجالُ ردَّ كلِّ ما غَنِمُوه : « حتى ردُّوا لأبى العاص مالَه كلَّه ، لا يفقد منه شيئًا » [رواية ابن إسحاق عن عبد اللَّه بن أبى بكر] .

إسلام أبى العاص :

شرح اللَّه صدره للإسلام وهو فى المدينة المنورة ، ولكنه أخفَى ذلك حتى لا يقالَ : أسْلَمَ مِن أجل استرداد ماله ، وعاد إلى مكة ، ومعه أماناتُ الناس هناك ، وأخذ يعطى كلَّ ذى حقٍّ حقَّه ، وبعد أن فرغ من ذلك ، قال لهم : « هل بقى لأحد منكم عندى مالٌ لم يأخذه ، قالوا : لا ، فجزاك اللَّه خيرًا فقد وجدناك وفيًّا أمينًا » وهنا أعلن إسلامه أمام الجميع قال : « أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأنَّ محمدًا عبدُه ورسوله » ثم قال : « واللَّهِ ما منعنى من الإسلام عنده – أى فى المدينة – إلا تَخَوُّفُ أن تظنوا أنى إنما أردتُ أن آكلَ أموالكم ، فلـمَّا أدَّاها اللَّهُ إليكم ، وفَرَغْتُ منها أسلمتُ » .

وفى المدينة وزواجه من زينب للمرة الثانية :

عاد أبو العاص إلى المدينة ، وسُرَّ المسلمون بهجرته إليهم مسلمًا ويَحكى لنا عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جدِّه ، كيف عادت زينبُ إلى أبى

العاص بعد إسلامه ، قال : « إن النبى ﷺ رَدَّ ابنته على أبى العاص بنكاحٍ جديد » . قال الترمذى : والعملُ على هذا عند أهلِ العلمِ . وقال ابن عبد البر : وحديثُ عمرو ابن شعيب تَعْضِدُه الأصولُ وقد صَرَّح فيه بوقوع عقدٍ جديدٍ ، ومهْرٍ جديد ، والأخذُ بالصريح أولى من الأخذ بالنص المحْتَمِل .

ويقصد ابنُ عبد البر بالنص المُحتمل إحدى الروايتين عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما وفيها : « رَدَّ رسولُ اللَّه ﷺ على أبى العاص زينبَ على النكاحِ الأول ، ولم يُحْدث شيئًا » [لفظ ابن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة]

ورواية أحمد والأربعة إلا النسائى ، وصححه الحاكم وأحمد جاء فيها : « ردَّ رسولُ اللَّه ﷺ على أبى العاص زينبَ بعد ستِّ سنين بالنكاح الأول ولم يُحدث نكاحًا » . وقال المدينى : ما رَوَى داودُ عن عكرمة مُنكر ، وضعَّف سفيانُ بن عُيينة رواية داود ، وقال : كنا نتقى رواية داود عن عكرمة . وفى تعليق السُّهيلى على هذه النصوص قال : « حديثُ عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جَدِّه : هو الذى عليه العملُ ، وإن كان حديثُ داودَ عن عكرمة أصحَّ إسنادًا عند أهل الحديث ، ولكن لم يَقُل أحدٌ من الفقهاء بحديث ابن عباس الذى رواه داود بنُ الحصين فيما علمتُ ، لأن الإسلام قد كان فرَّق بينهما قال اللَّه تعالى : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

ثم قال السهيلى : أمَّا مَن جمع بين الحديثين فقال فى حديث ابن عباس : « معنى رَدِّها عليه بالنكاح الأول » أى على مِثْل النكاح الأول فى الصَّداق والحِبَاء[1] ، لم يُحدث على ذلك من شرطٍ ولا غيره »

[هامش سيرة ابن هشام الجزء الثانى] .

---

(١) والحِباءُ : العَطاء .

وقال فى هذا المعنى الأمير الصنعانى - أيضًا - : المراد بقوله « بالنكاح الأول » أى لم يُحدِثْ زيادةَ شرطٍ ولا مَهْر .   [سبل السلام الحديث رقم ٩٤٥] .

وأورد الأمير الصنعانىُّ فى شرحه الحديثَ رقم (٩٤٦) وهو الذى رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه ، أورد روايةً أخرى لابن عباس جاء فيها : « فلم يُحدِث - ﷺ - شهادةً ولا صَداقًا » .

وإن ما جاء فى رواية عمرو بن شعيب[1] العملُ به عند أهل العلم والفقهاء وسبق ما قاله السهيلى ، وابن عبد البر فى بيان هذه المسألة ، وأنه تزوَّجها بعقدٍ جديد مع التيسير فى شروط الصَّداق ونحوه ، ولم يتم هذا العقد الجديد إلا بعد إسلامه رضى اللّٰه عنه ، وزوالِ سببِ التفريق بينهما وعدم حِلّها له .

كما سبقت الإشارةُ إلى أن الرسول ﷺ قال لابنته زينب حين أوصاها بإكرام أبى العاص : « ولكنه لا يَخلُص إليك فإنَّك لا تَحلِّين له » . أى : أن شِرْكه فرّق بينهما ، ولم تَعُدْ تَحِلُّ له ، وهذا واضحٌ كلَّ الوضوح ، وقد عاد للزواج منها بعد أن أسلم رضى اللّٰه عنه ، وذلك حين رجع إلى المدينة لينضمَّ إلى المهاجرين هناك ، وصار بإسلامه صالحًا للزواج بامرأة مسلمة ، إذ المسلمةُ لا تَحلُّ لمشرك ولا لنصرانىٍّ ولا ليهودىٍّ ، فكلهم فى هذا الحكم سواء ، أى : لا يجوز لامرأة مسلمةٍ أن تتزوجَ بغير مسلم . ثم حلَّت له بالزواج الجديد بعد إسلامه رضى اللّٰه عنه وعنها .

هذا وباللّٰه التوفيق - واللّٰه أعلم - والصلاةُ والسلام على رسول اللّٰه وآله وصحبه .

* * *

---

(١) فى سنده محمد بن العزرمى ضعَّفه أحمد وما تضمنه هذا الحديث هو الصحيح الذى يجرى العمل به - كما هو موضَّح أعلاه .

تذكِرةٌ للمسلمين والمسلمات

(٦) المرأةُ المسلمةُ لا يجوزُ أن تتزوَّج يهوديًّا ولا نصرانيًّا[1] ولا تَحِلُّ إلا لمسلم مثلها

إن الحلال ما أحلَّه اللَّهُ عزَّ وجلَّ وأحلَّه رسولُه محمد ﷺ ، والحرامَ ما حرَّمه اللَّه عزَّ وجلَّ ، وحرَّمه رسولُه ﷺ وقد أُوتى ﷺ القرآن العظيم ومثلَه معه أى السُّنَّة النبوية المُطهرة ، وقد بيَّن رسولُ اللَّه ﷺ كلَّ ما أمره اللَّه بتبليغه من الحرام والحلال والمباح ، والمحظور ، وما ينبغى ، وما لا ينبغى ، وإن مسائلَ الزواج من القضايا الرئيسة الكُبرى التى لا يَحقُّ لأحد أن يُفتىَ فيها بغير أن يقول : قال اللَّه ، وقال رسوله ؛ وفيما يلى بعض البيان :

أولًا : ولم يقل أحدٌ من الصحابة ولا التابعين ولا فقهاء وعلماء الأربعةَ عشرَ قرنًا التى انقضت منذ ظهر الإسلام ، بأنه يَحلُّ لامرأة مسلمة أن تكونَ تحت غيرِ مسلم أيًّا كان دينُه ، بل إنه لا يَحلُّ تزويجُ مسلمةٍ بمسلم ارْتدَّ عن دينه بأن يُنكر شيئًا مِمَّا عُلِمَ من الدِّين بالضرورة - مثلًا - فكيف بالنصرانىِّ أو اليهودى ؟ فلا يجوزُ تَزويجُ المسلمةِ بحالٍ من نصرانى ولا من يهودى .

أ - والقياسُ على حِلِّ وإباحة زواج المسلم من الكتابيةِ قياسٌ باطلٌ لا يَسْبِقُ إلى ذهنِ عالمٍ مُدقِّقٍ لأن الفرقَ شاسعٌ ، إذ إن إباحةَ تزويج الرجل المسلم

---

(١) قرأت فى مجلة « المسلمون » يوم الأربعاء ٩ من ربيع الأول ١٤١٧ من الهجرة أنه جاء على لسان واحد : ما مضمونه : هل يجوز نكاح المرأة المسلمة من الرجل الكتابىّ [اليهودى والنصرانى] ؟ فأعددت هذه الكلمة وإن كان كلام هذا الرجل ولو لمجرد الاستفسار مرفوضًا تمامًا من جميع المسلمين والمسلمات والحمد لله .

من النصرانية أى التى تؤمن بالإنجيل، أو اليهودية أى التى تؤمن بالتوراة جاء بصريح الكتاب لحكمةٍ إلهية، وإن كان الزواجُ بالمؤمنة المسلمةِ أفضلَ للمسلم، وذلك كما أُبيح لنا طعامُهم وذبيحتُهم - بشروطها - وفى ذلك سماحةٌ وتسكينٌ للنفوس وترضيةٌ، وفى الوقت نفسه فإن المرأة الكتابية تكون فى هذه الحالةِ تحت قِوامةِ الرجل المُسلم، على خلاف العكس مِمَّا لا ترتضيه قواعدُ الشريعة: فلا يجوز أن تكون المسلمةُ تحت قِوامةِ من لا يؤمن بخاتم النبيين والمرسَلين، وقد يعتقد - أيضًا - فى أن لله شريكًا أو نِدًّا أو ولدًا إلى جانب كُفره بالنبى محمد ﷺ، فزواجُ المُسلمة بالنصرانى أو اليهودى باطلٌ إذا وقع، ومُحرَّم بكل وجه.

ب - وإنَّ شرطَ الكفاءةِ فى الدِّين مُجمَعٌ عليه[1]، وإن خلافَ أهل العلم إنما هو فى الجوانب الاجتماعية أى بالنسبة للرجل الخاطب - كما هو موضَّح فى مظانِّه - وإن الكفاءةَ فى النصرانى أو اليهودى لا وجودَ لها بالنسبة للمرأة المسلمة.

ثانيًا: قال اللّه تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ۚ﴾ [البقرة: ٢٢١].

أ - فَقُيِّد شرطُ الإباحةِ والجوازِ: بالإيمان، ولا يكون مؤمنًا من لَّم يُؤمن بالنبى محمدٍ ﷺ وبأنه خاتَم الأنبياءِ والمرسَلين فمن لم يُؤمن بذلك لا ينفعه إيمانُه بالوحدانية، وبأن اللّه واحدٌ لا شريكَ له ولا ولدَ ولا صاحبةَ، فماذا يقال إذا كان الشخصُ مع عَدَمِ إيمانه بالنبى محمدٍ يعتقد بالتثليث أو البُنُوَّة؟ وكيف

(١) تعتبر الكفاءة من جانب الرجل لا من جانب المرأة فيجوز أن تكون هى أدنى منه فى الشروط المعتبرة فى الكفاءة.

يسوغ لأحدٍ أن يقول بجواز عقد المسلمة على غير مسلم ، وإن النصوصَ واضحةٌ والإجماعَ قائم على تحريم زواج المسلمة من أىٍّ منهما ؟ أما زواجُ المسلم بالكتابية فهذا تخصيصٌ بنصٍّ لحِكْمة[1] .

ب – وهذا مِمَّا حَدا بابن عُمرَ رضى الله عنهما أن يُقيِّد جوازَ زواجِ الشخص المسلم بالكتابية كما جاء فى سورة المائدة : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة : ٥] فهذه الآيةُ استثنتْ الكتابياتِ من التحريم الوارد فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ [البقرة : ٢٢١] . والاستثناء هنا بنصٍّ إلهىٍّ صريح ، ومع هذا فإن ابن عمر باجتهاده قال : بعدم التزويج بالنصرانية – أى التى تعتقد بالتثليث أو تعتقد ببنُوَّةِ عيسى لله عز وجل – وقال ابن عمر – لا شِركَ أعظمُ مِن أن تقول : إن ربَّها عيسى . [رواه ميمون بن مهران عند أبى حاتم والبخارى] .

وكان الإمامُ الشافعى : يرى مثلَ هذا الرأى ، أى لمن تكون مُثلِّثةً أو تعتقد أن لله ابنًا أو شريكًا ، واختار رأى مَن قال : المرادُ بأهل الكتابِ فى الآية الإسرائيلياتُ ، أى اللواتى لا يعتقدْنَ بأن عُزيرًا ابنُ اللَّهِ سبحانه وتعالى .

[سورة المائدة / ابن كثير] .

جـ – هذا من الاجتهاد فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ وقد جاء الخلافُ فى أىِّ امرأةٍ منهم يجوز للمسلم الزواجُ بها ؟ مع التسليم بحكمةِ اللَّه عز وجل فى إباحته وجوازِه وبأن للمسلم أن يتزوَّج من نسائهم ، ولكن الاجتهاد أدَّى بابن عمر ومَن يَرى مثلَ رأيه إلى اشتراط عدم

---

(١) ويحرم على المسلم الزواج بالوثنيات وأشباههنَّ ، ويحل له نكاح الكتابيات المؤمنات بكتاب مُنزَّل – الإنجيل أوالتوراة – سواء كنَّ ذميّات أو غير ذمّيات ، مُستأمَنات أو غير مُستأمنات مع الكراهة .

شِركها واتخاذِها إلهًا مع اللَّه عزَّ وجلَّ ، أى تكون فى عقيدتها على أصل الوحْدانية ، علمًا بأنَّ تخصيصَ الكتابيةِ بالإباحة للمسلم أن يتزوَّجها جاء بِنَصٍّ إلهىّ يُطاع ، مع ملاحظةِ أن الزواج بالمسلمة خيرٌ وأفضل .

د - وهذا كان يقول به عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه ، فقد جاءعنه روايتان مضمونُهما : أنه نَهَى عن زواج المسلم بالنصرانية أو اليهودية تَنزُّهًا لا تَحريمًا : لئلَّا يزهدَ المسلمون فى المسلمات ، أو لكى لا يسوءَ الاختيارُ من غير المسلمات فيقعَ المسلمُ فيما لا يُرضيه .

قال ابن جرير : « إنما كره عمر رضى اللَّه عنه ذلك لئلا يزهد الناس فى المسلمات ، أو لغير ذلك من المعانى » .

وقد تزوَّج بعضُ الصحابة من النصرانية وهو حذيفة بن اليمان ، وتزوَّج بعضهم من اليهودية وهو طلحة بن عبيد اللَّه ، فهذا أمرٌ أباحه الشرع والخِلاف إنما هو فى التفسير وفى وجهات النظر - واللَّه أعلم - .

ثالثًا : لقد جاء النهىُ عن زواج المرأةِ المسلمة من اليهودى أو النصرانى صريحًا فى الحديث الذى رواه جابر بن عبد اللَّه رضى اللَّه عنهما ونقله ابن كثيرعن ابن جرير ، قال ﷺ : « نَتزوَّج نساءَ أهلِ الكتاب ولا يتزوَّجُون نساءَنا » .

أ - قال ابن جرير : « وما جاء فى هذا الحديثِ مُوافقٌ لشرْع اللَّه ، وإنَّ القولَ به - أى الفَتْوى به - ؛ لإجماعِ الجميع من الأمَّة على صحةِ القول به » أى انعقد إجماعُ الصحابةِ والتَّابعين وفقهاءِ الأمة وعُلمائها والمُفسِّرين وأهل الحديث على تحريم زواج المرأةِ المُسلمةِ من النصرانى أو اليهودى تَحريمًا باتًّا قاطعًا ومَن يَتعدَّ حدودَ اللَّه فقد ظلم نفسه ! .

قال الفقهاء : « لا تتزوّج المسلمةُ إلّا مسلمًا ، فلا يجوز تَزَوُّجها مُشركًا ولا كتابيًا ؛ يهوديًا كان أو نصرانيًا ، ولا ينعقدُ[1] النكاحُ أصلًا » .

ب – وإن عمر بن الخطاب رضى اللّٰه عنه الذى قال بكراهة زواج الشخص المسلم من اليهودية أو النصرانية خشيةَ الأخلاق الرديئةِ التى يُمكن أن تَظهرَ للمسلم بعد ذلك من وراء الجمال الظاهر ، فإنه قال فيما رواه زيدُ بنُ وهب : « المُسلمُ يتزوّج النصرانيةَ ، ولا يتزوّجُ النصرانىُّ المُسلمةَ » .

[رواه ابن جريروأشار إلى تقوية إسناده] .

جـ – لم يذهب أحدٌ من الفقهاء أو العلماء إلى تقرير المرأةِ المسلمةِ تحت غير المسلم ، وينبغى لأهل البصيرةِ ويجب عليهم دومًا أن يقفوا عند حدود اللّٰه ، وأن يطيعوا أمره ، وينتهوا عما نهى عنه اللّٰهُ ورسولُه ، ففى ذلك الخيرُ لنا فى الدنيا والفوزُ برضوان اللّٰه عز وجل والنجاة من المهالك فى الآخرة ، بفضل اللّٰه وإحسانه : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧١] .

وقد بيَّن اللّٰه عزَّ وجلَّ ، وبيَّن رسولُه ، ولم يسكت عليه السلام عن شىء أمره اللّٰه بتبليغه ، والحلالُ بيِّن والحرام بيِّن : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ والصلاة والسلام على رسول اللّٰه ﷺ .

* * *

(١) لفظ كتاب الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية على مذهب الإمام أبى حنيفة مادة ١٢٢ وهذا إجماع – طبعة بيروت – دار الندوة الإسلامية .

مُلْحَق :

في جواب عن سؤال للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن / أمريكا عن حُكْم زواج المسلمة باليهودى أو النصرانى « بغير المسلم » جاء عن مجلس مجمع الفقه الإسلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي ما يلى :

* زواج المسلمة بغير المسلم ممنوع شرعًا بالكتاب والسنّة والإجماع ، وإذا وقع فهو باطلٌ ولا تترتَّب عليه الآثارُ الشرعيةُ المترتِّبة على النكاح ، والأولاد المولودون عن هذا الزواج أولادٌ غيرُ شرعيِّين » [فتاوى المجمع صفحة ٤٠ القرار رقم ١١] .

* وجاء في صفحة ١١٦٠ وما بعدها من مجلة مجمع الفقه الإسلامي : قال تعالى : ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة : ١٠] فزوجُ المسلمةِ لابُدَّ أن يكون مسلمًا ، وقد أكد القرآن هذا التأكيد ليركز في نفوس المؤمنين أن زواج المسلمة بغيرِ المسلم باطلٌ ومُنكَرٌ .

قال الإمام الشافعي : المسلمة يَحْرم على كل مشركٍ كتابيٍّ ووثَنيٍّ نكاحُها بكل حال . [كتاب الأم : ٥/٥] .

* وجاء في المذهب الحنفى : أن زواج المسلمة بغير المسلم لا يجوز ، وقد قال اللّه في سورة البقرة : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة : ٢٢١] أى غير المسلمين من وثَنيِّين وكتابيِّين ؛ لأنهم يدعون المؤمنات إلى الكفر ، والدعاء إلى الكفر دعاء إلى النار ؛ لأن الكفر يوجب النار ، فكان نكاحُ الكافر المسلمةَ سببًا داعيًا إلى الحرام فكان زواجُها منه حرامًا .

* فلا يجوز إنكاحُ المسلمةِ الكتابيَّ ، كما لا يجوز إنكاحُها الوثنيَّ والمجوسيَّ ؛ لأن الشرعَ قَطع ولايَة الكافرين على المؤمنين بقوله تعالى : ﴿وَلَن

يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١] فلو جاز إنكاحُ الكافرِ المؤمنةَ لثبتَ له عليها سبيل – أى ولاية – وهذا لا يجوز.

* ومما جاء عند سحنون من المالكية قولُ الإمام على رضى اللَّه عنه: « لا يَنكحُ اليهوديُّ المسلمةَ ولا النصرانيُّ المسلمةَ ». وقال عبد اللَّه بن أبى سلمة: لا يصح أن تنكحَ المسلمةُ النصرانيَّ « فى جواب سؤال ». وقال القاسم بن محمد: ولا اليهودى، وقال غيرهما: فإن فَعلا ذلك فَرَّق بينهما السلطانُ.

قال ابن قدامة الحنبلى فى كتابه المُغنى: والإجماعُ منعقدٌ على تحريم تزوُّج المسلماتِ للكفار (٦١٧/٦).

* وجاء فى مجلة المجمع – أيضًا – صفحة ١١٨٢: أباح اللَّه للمسلم أن يتزوَّج الكتابيَّةَ ولم يُبِحْ تزويجَ المسلمةِ من اليهودى ولا من النصرانى اعتدادًا بقوَّة تأثير الرجل على امرأته، فالمسلمُ يؤمن بأنبياء الكتابية – ويزيد عليها إيمانه بخاتم الرسل محمد ﷺ –، فيوشك أن يكون ذلك جالبًا إيَّاها إلى الإسلام؛ لأنها أضعف منه جانبًا.

* وعن انعدام الكفاءة بينهما جاء فى صفحة ١١٨٣: إن الكفاءة قائمة بالكتاب والسنَّة بين المسلمين والمسلمات: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]، وفى الحديث: « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، وإلا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » الحديث.

[منتقى الأخبار مع نيل الأوطار].

وفى الحديث: « إن آل بنى فلان ليسوا بأوليائى، إن أوليائى المتقون حيث كانوا وأين كانوا » [زاد المعاد / الكفاءة فى النكاح].

وزوّج النبىُّ ﷺ ابنة عمته زينب بنت جحش وهى قرشية من زيد بن حارثة مولاه .

وإن الكافر سواء كان يهوديًّا أو نصرانيًّا أو غيرهما ليس كُفئًا للمسلمة بحال من الأحوال ولا يجوز أن تتزوَّجه مطلقًا إلا بعد أن يدخُل فى دين الإسلام ويشهد لله بالوحدانية ولمحمدٍ ﷺ بالرسالة ، ويؤمن بكل ما جاء فى الكتاب والسنة .

* إن أسلمت المرأةُ بعد العقد وقبل الدخول على الرجل الكافر بانت منه بمجرد إسلامها ولا تحلُّ له ، أمَّا التى أسلمت بعد الدخول وزوجُها بقى على اليهودية أو النصرانية أو المجوسية ونحوها وقد طمعت فى إسلامه فعليها أن لا تُمكِّنَه من وطئها ، ولا تجلس معه فى خَلوة سدًّا لذرائع الفساد ، فإن أسلم وهى فى عِدَّتها أى لم تُتمَّ ثلاثَ حيضاتٍ عادت إليه ، وإن لم يُسلم حتى خرجت من العِدَّة فإن شاءت تزوَّجت غيره وإنْ أحبَّت انتظرت إسلامَه ثم يُعقَد لها عليه من جديد ، بشرط عدم ملامسته لها وهو على كفره ؛ كما قال الرسول ﷺ لزينب : « إلَّا إنه لا يخلُص إليك ، فإنك لا تَحلِّين له » أى بسبب بقائه على الشرك ، فلمَّا أسلم عقد لها عليه من جديد .

قال مالك : إن انقضت عدَّتها فلا سبيل له عليها . أى : ما دام على نصرانيته أو يهوديته أو وثنيته ونحوها ، وقال : إن إسلام أحدِ الزوجين يفسَخ الزواجَ بلا طلاق .

* * *

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ

وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

[الحشر : الآية ٧]

رسالة :

وصايا نبوية غالية

* مع تميم الداريّ رضى اللّه عنه وحديث : « الدِّينُ النَّصيحةُ »
* مع أبى ذَرٍّ الغِفَارىّ رضى اللّه عنه وحديث : « أوصانى خَليلى بثلاثٍ » .

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

[آل عمران : ١٨]

تمهيد :

الوحدانيةُ والطاعة ..
أساسُ كلِّ خير وسببُ كلِّ فوز :
هو اللّهُ ربُّ كلِّ شيء ومَليكُه

هو اللّه : ذُو الحياةِ الكاملةِ الأبدية ، الأولُ بلا ابتداءٍ والآخِرُ بلا انتهاءٍ .

هو اللّه : القائمُ على أمور الخلْقِ ، لا يغيبُ من أمورهم شيءٌ عنه ، يُدبِّر لهم ما به قِوامُهم حتَّى يأتِيَ لكل شيء أجلُه .

الأرزاقُ والآجالُ والأحوالُ كُلُّها بمقدار ، لا يتأخرُ شيءٌ ولا يتقدَّمُ عَمَّا هو مُقدَّرٌ له ولا يَنقصُ ولا يُزاد .

قَيُّومِيَّةٌ دائِمةٌ كاملةٌ ، يَتغلْغلُ عِلمُه إلى خفيَّات الأمورِ ، ومَكنوناتِ الضمائر والقلوب ، لا سهْوَ ولا غفلةَ ، ولا فُتور ، ولا نُعاسَ ، ولا نومَ ؛ لأن ذلك وأمثالَه من صفاتِ الخلْق فهم يَعتريهم النقصُ ، ولا كمالَ لهم فى شيء ، والكمالُ المُطلَق له وحده ، والعِصْمةُ لأنبيائه ، وهم ينامون ، ويَشربون ، ويأكلون ، ويَتغوَّطون ، ويُصيبهم من الآفات والأمراضِ ما شاء اللّه مِمَّا لا يُنافى العِصمةَ فى التبليغ ، ولا ينافى الفِطنةَ وتمامَ العقلِ وسلامةَ التَّفكير ، فكلُّهم عبيدٌ ، نِعَمُ اللّه عليهم سابغةٌ ، والخالقُ العظيم : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . لا يَشغلُه أمرٌ عن أمر ، ولا ينام ، ولا يَنبغى له أن ينامَ .

هو اللّه : مالكُ المُلكِ ، ومُدبِّر الأمر ، الجميعُ عبيده ، وتحت قهرِه وسُلطانه ، لا مالكَ إلا هو ، ولا نافعَ ولا ضارَّ إلا هو ، ولا رازِقَ ولا حارم إلا هو ،

ولا مُحيىَ ولا مُميتَ إلا هو ، مُنزَّهٌ عن الولد والصاحبةِ والشريك والنِّدِّ ، وهو فى رحمته بعباده لا يحتاج إلى وسطاءَ بينه وبينهم .

عنَتْ الوجوهُ لسلطانه ، وخضعتْ أعناقُ الجبابرةِ لكبريائه ، وسيندم الغافلون عن كمال عظمتِه يومَ ينادى المُنادى : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر : ١٦، ١٧] .

وفى هذا اليوم لا يتجاسرُ أحدٌ أن يشفعَ لأحد عنده إلا بإذنه ، وهو الحكَمُ العدْلُ ، يُثِيبُ برحمته ، ويُعذِّب بعدْله .

هو اللّٰه : العليمُ الخبيرُ اللطيفُ ، يَرى أفعالَ عباده ، ويسمعُ نجواهم ، ويَطَّلعُ على خفايا نفوسهم ، عِلمهُ مُحيط بكل شىء ، لا يَغيبُ عنه مِثقالُ ذَرَّةٍ فى الأرض ولا فى السماء ، له كمالُ العِلم ، يَعْلَمُ ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون ، ولا يعلم الإنسانُ إلا ما علَّمه اللّٰه ، وما أنعم به عليه مِمَّا اقتضته الحكمةُ وكمالُ التدبير .

هو اللّٰه : علَّامُ الغيوب ، رَحِم عبادَه بإرسال الرسلِ ، وإنزالِ الكتبِ لتعليمهم ما ينفعُهم فى مَعادهم ومعاشهم ، فمن آمن فله الأمنُ ، ومن أبَى فله الفزَعُ والشقاء ، قالت الملائكةُ المُقرَّبون : ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة : ٣٢] .

فسبحان من ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٥] ، وعلى القدْر الذى يُطيقه الإنسانُ وبه قِوامُه . عِلْمُ الإنسان أشبهُ بِذَرَّةٍ هائمةٍ فى الكَون إذا قِيستْ بعِلم العلَّام .

هو اللّٰه : مُلكُه عظيمٌ ، وآياتُه - المشهودُ منها لنا والغائبُ - ناطقةٌ بكمال

الحكمةِ وبعظمةِ السلطان .

كرسيُّه : من آياتِ كمالِ قُدرتِه وسلطانِه ، وعرشُه : من براهين كمالِ مُلكِه وعِظَم مَلكوته .

هو اللّٰه : العليُّ الأعلى ، سَما بكماله أن يكونَ له شريك ، أو شبيه . آياتُه تدلُّنا على تَنزُّهه عن السوء ، ومصنوعاتُه ناطقةٌ بوجوده ، وبوحدانيته . وإن كُلَّ ما خَطر ببالِكَ فاللّٰهُ بخلاف ذلك ، فهو سبحانه لا يُشبِهُه أحدٌ من خَلقه تَنزَّه ، وتعالى ، وتقدَّس .

هو اللّٰه : العظيـمُ تسبحُ الرعدُ بحمده ، والـملائكةُ من خِيفَته ، ويسجدُ له مَن فى السموات والأرض طَوعًا وكَرهًا ، وظلالُهم بالغُدوِّ والآصَال : ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] مَن نَّازعَه فى كبريائه هَلك . فهو أعظمُ من كل عظيـم ، عَلا بذاته وصفاتِه ، وعَظُم خَيرُه وبِرُّه ، لا تنفَدُ خزائنُه ، ولا تَنقضِى عجائبُ كلامه .

هو اللّٰه : الذى لا إله إلا هو ، عالـمُ الغَيب والشَّهادةِ ، هو الرحمنُ الرحيـم .

هو اللّٰه : الذى لا إله إلا هو ، الـمَلِكُ ، القُدُّوسُ ، السلامُ ، الـمُؤمنُ ، الـمُهَيـمنُ ، العزيزُ ، الجبَّار ، الـمتكبر .

هو اللّٰه : الخالق ، البارئُ ، الـمصوِّرُ ، له الأسماءُ الحُسنَى ، هو العزيز الحكيـم .

هو اللّٰه : الـمُتفرِّدُ بالإلهية والرُّبوبية ، الـمُتفردُ بِنعُوتِ الجَلال وصفاتِ الكمال .

هو اللّٰه : ذو الجلالِ والإكرامِ ، من شهد له بالوحدانية خالصًا من قلبه : فأَقرَّ بقلبه ونَطق بلسانه ، وأدأبَ جوارحه فى طاعة ربه على مُقتضاها ، أَمِنَ عذابَه .

فوحّدوا ربَّكم ، ونزِّهوه ، وتقرَّبوا إليه بالإخلاص والـمَحبَّة ، وبذكْرِه وشُكره ، وطاعةِ أمره ، تفوزوا بسلامة النفسِ في الدنيا ، ونَجاتها في الآخرة .

وفي الحديث القدسي يقول اللَّه عز وجل : « إني أنا اللَّه ، لا إله إلا أنا ، مَنْ أقرَّ لي بالتوحيد دَخل حِصْني ، ومَن دخل حِصني أمِنَ عذابي » .

إن سلامةَ العقيدةِ وصحَّتها مفتاحُ كلِّ سعادة ، وبابُ كلِّ خير ، وسببُ الفوز بالسعادتين ، وهي أولُ ما يتواصَى به أهلُ العقل والحِكمة ، ويتـمسكُ به أولو البصائر والنُّهى ، عاملين بمقتضَى الكلـمةِ الـمُنجيةِ كلـمة : « لا إله إلا اللَّه محمدٌ رسولُ اللَّه » .

* * *

فَقلِّب أيها القارئ العزيز صفحاتِ هذه الرسالة بتدبُّر وعناية ولتكن غايتنا ما جاء القَسَمُ عليه في سورة العصر : بسم اللَّه الرحمن الرحيـم ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾ [سورة العصر] .

أحمد بن محمد طاحون

جدة : ١٤١٦ من الهجرة

١٩٩٥ من الـميلاد

(١) الدّينُ النصيحة
واختلافُها باختلاف المَقاماتِ

من جَوَامع كَلِمه ﷺ :

أخرج مسلم وأبو داود والنَّسائىُّ عن أبى رُقَيَّةَ تميم الدارى(*) (ابن أوس

(*) الراوى :

تميمُ الدارىُّ أو تميم الدَّيْرِىُّ ، من السابقين إلى الإسلام ، وليس له غير هذا الحديث كما قال ابن دقيق العيد(١) فى شرح الأربعين النووية ، وقيل : روى عن النبى ﷺ بضعة عشر حديثًا كلها من الصحاح (كما أشار الدكتور عدنان الخطيب فى كلمة له فى حفل مجمع اللغة العربية عام ١٤١٠هـ (١٩٨٩) ونشرتها مجلة اللغة العربية بدمشق المجلد الخامس والستون) وقال : ومن أشهر ما رواه قوله ﷺ : «الدين النصيحة ...» الحديث .

موطنه : فلسطين بالقرب من بيت المقدس .

الدارى : نسبة إلى الدار وهو جَدُّه المسمَّى بهذا الاسم ، وهو بطن من لخم القبيلة العربية اليمنية ، ولخم : اسمُه مالك بن عدى بن الحارث من كهلان ، من قحطان ، وقد هاجر بنوه من اليمن بعد سيْلِ العَرِم ، وكانت الهجراتُ العربية قد بدأت فيما بين عام ٢٥٠٠ و٣٠٠٠ قبل ميلاد المسيح ابن مريم عليهما السلام ، وقد تفرقوا أيدى سبأ - كما يقول المثل - إذ استقر بعضُهم فى الحيرة على حدود العراق وبعضُهم فى بلاد الشام ، كما قَصد فريقٌ منهم أرضَ فلسطين ، ونزلوا بالمنطقة التى بُنى فيها بعد زمان بيتُ المقدس ، وأنشئوا مدينة بيت لخم (بالخاء المُعجمة) التى سُميت فيما بعد : بيت لحم (بالحاء المهملة) ، وهو المكان الذى وُلد فيه عيسى ابنُ مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (راجع تحقيق اسم بيت لخم فى النجوم الزاهرة ج ٤: ٥٩ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٣) .

فبيتُ لحم ما هى إلا ديارُ لخم كان يسكنها بعضُ بطونها ، ومنهم أسرةُ تميم الدارى ، فتميم الدارى =

---

(١) الإمام العلامة محمد أبو الفتح القشيرى المنفلوطى ثم القوصى المعروف بتقى الدين ابن دقيق العيد المالكى الشافعى المتوفَّى سنة ٧٠٢ من الهجرة .

....

= عربیٌّ فلسطینی من جذورٍ يمنية .
أما الديرى : فنسبةٌ إلى الدّير إذ كان نصرانيًا قبل اعتناقه الإسلام ، وأقام فى دير مدة يتعبد فيه ويتأمل :
« فهو أبو رُقَيّةَ تميمُ بنُ أوس بن خارجة ، نُسب إلى جَدِّه دار ، ويقال : الديْرى - أيضًا - نسبة إلى دَيْر كان فيه قبل الإسلام يتعبد » .
إسلامه :
الأرجح أن تميمًا الداريَّ أسْلَم سنة سبع أو تسع من البعثة ، أى قبل هجرة النبى ﷺ إلى المدينة المنورة ، فقد وفد إلى مكة حاملًا من الهدايا أغلاها ثمنًا ، فقبل النبى ﷺ ما يَحِلُّ منها وردَّ ما لا يَحل - وإن كان ردُّه لراوِيَةٍ من عَتيق الخمْر كان قبل نزول آيات التحريم - قصد مكةَ تميمٌ على رأس وفدٍ من الداريِّين نحو عشرة أو ستة على اختلاف الروايات ، ولما وصلوا مكة قصَّ على النبى ﷺ ما دفعه إلى الحضور والمُبايعة ؛ لأنه كان تاجرًا يجوب البرَّ والبحرَ مع عِلْمٍ بما جاء فى الكتب السماوية عن قُرب ظهور نبيٍّ عربيٍّ أميٍّ وهو خاتم الأنبياء والمرسَلين ، وقد ظهرت له إرهاصاتٌ وعلاماتٌ تبشر بظهور هذا الدين الجديد الذى هو خاتِمةُ الأديان السماوية ، فلمَّا سمع أخبارَ بعثتِه ﷺ بادر بالسفر إلى مكة للمبايعة .
السرورُ به : سُرَّ النبى ﷺ من حديث تميم الدارى ، فقام إلى أصحابه وأعلمهم بما حدَّثه به تميم ، وأنه اعتنق الإسلام ، وجاء عند ابن عساكر فى تاريخ مدينة دمشق أن أبا هند الدارى قال : إن النبى ﷺ قال : « انصَرِفُوا حتى تسمعُوا بى قد هاجرتُ » قال أبو هند : فانصرفنا ، فلمَّا هاجر إلى المدينة قَدِمنا إليها .
العودة : بقى تميم الدارى فى المدينة المنوَّرة حتى مقتلِ الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فغادرها إلى موطن عشيرتِه فى فلسطين حيث عاش بقيةَ حياتِه فى قريةٍ بجوار بيت المقدس (بلدة عَينون) قال ياقوت : عينون من قُرى بيت المقدس .
ذكر العسقلانى : انتقل تميم إلى الشام بعد مقتل عثمان ، وسكن فلسطين ، وكان النبى ﷺ أقطعه بها قرية عَينون ، أى جعل له بيتَ عَينون ، وكذلك حَبْرَى وهى ما كانت تُسمَّى (حبرون) ثم سُمِّيَت (الخليل) فيما بعد ، إنْ فَتَح الله على المسلمين الشام وقد كان ، فقد جعل عُمَر ، رضى الله عنه ، ثلثها لابن السبيل ، وثُلثَها لعمارتها وتركَ لتميم الدارى وآلِه ثُلثًا وفاءً بالوصية .
وأشار ابن حبان إلى أنه مات بالشام وقبره ببيت جبرين ، وجبرين لغةٌ فى جبريل كما أن إسرائيل لغة فى إسرائين ، وبيت جبرين بُليدة بين بيت المقدس وغزة - والله أعلم .
بعض أحواله رضى الله عنه :
رَوَوْا أنه أولُ من أسرج السراجَ فى مسجد رسول الله ﷺ ، وقد ورد فى ذلك حديث عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أشار السيوطى له فى الموضوعات عن طريق عمر ، رضى الله عنه ، وقد جاء =

الدارى) رضى اللّٰه عنه أن النبى ﷺ قال : « إن الدينَ النصيحةُ ، قلنا : لِـمَن يا رسولَ اللّٰه ؟ قال : لله ، ولكتابِه ، ولرسولِه ، ولأئمَّةِ الـمسلـمين ، وعَامَّتِهم » .

[لفظ مسلم] .

= فيه : أن النبى ﷺ لمَّا رأى نورَ السراج فى المسجد ، سأل فأخبروه أن تميمًا الدارى هو الذى فعل ، فدعا له قائلًا : « نوَّرت الإسلام نوَّر الله عليك ، لو كانت لى ابنةٌ لزوجتكها » . وقد ورد هذا الحديث بطريق آخر غير رواية عمر رضى الله عنه - فالله أعلم بصحته .

• كان تميم أولَ من قصَّ فى الإسلام - أى اشتغل بالوعظ - بإذن من الخليفة عمر ، رضى الله عنه ، فكان يقرأ القرآن على الناس ويأمرهم بالخير ، وينهاهم عن الشر وقد أذن له عمر بالقصِّ يومًا واحدًا فى الأسبوع ، وزاده عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، يومًا آخر .

يبدو أنه آثر وفضَّل اعتزالَ الفتنة بعد مقتل عثمان ، ودليلُ ذلك رحيلُه إلى فلسطين وإقامته فيها حتى وافته منيتُه .

• كان عظيمَ التجارة فى البحر ، واشتهر بوفرة المال وبالتقوى ، وكثرة التهجد ، كما عُرِفَ عنه الدوام على قراءة القرآن حتى استحق لقب : « راهبُ أهلِ عصره وعابدُ فلسطين » . والراهبُ هو المترهِّب أى الذى يخشى الله عز وجل ، وقد أُطلق اللفظ على واحد الرهبان من النصارى .

• كان يقوم الليل بأفخر ثيابه وأغلاها ثمنًا .

جاء عن محمد بن سيرين : جَمَع القرآن على عهد رسول الله ﷺ : أُبَىُّ بن كعب وزيدُ بنُ ثابت وعثمان ابن عفان ، وتميم الدارى . وكان أُبَىُّ بنُ كعب يختم القرآن فى ثمانى ليالٍ ، وتميم يختمه فى سبع .

وقال خارجة بن مصعب : ختم القرآن فى الكعبة أربعةٌ من الأئمة : عثمان بن عفان وتميم الدارى وسعيد ابن جبير ، وأبو حنيفة النعمان .

• كان شديد الحرص على التمسك بالسنة النبوية الشريفة والآداب المحمدية .

كلمة : وما زال فى فلسطين وفى سورية من أحفاد تميم الدارى ، وكان من المهاجرين إلى دمشق من فلسطين قديمًا : محاسن الشرابيشى التميمى ، وكانت هجرتهم فيما يبدو فى القرن السادس الهجرى وقد نُسبت أسرة محاسن هناك إليه ، وعرفت باسم : « بنى محاسن » أو « المحاسنى » ونبغ منهم علماء وقضاة وفقهاء وأدباء ، وهم يرجعون إلى تميم الدارى فى نَسَبه أى : إنهم فَرْع الدوحة التى مَدَّت جُذورها فى فلسطين بعد أن استوطن أجدادُهم أرضَها منذ نحو خمسة آلاف عام بعد نزوحهم عن اليمن « والله أعلم » .

واللفظُ عند النسائى : « إنما الدينُ النصيحة ، قالوا : لِـمَن يا رسول اللَّه ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة الـمسلـمين ، وعامَّتِهم » ، وعند أبى داودَ بلفظ : « إن الدينَ النصيحةُ ، إن الدينَ النصيحةُ ، إن الدينَ النصيحةُ ، قالوا : لِـمَن يا رسول اللَّه ؟ قال : لله عز وجل ، وكتابِه ، ورسولِه ، وأئمةِ الـمسلـمين – أو الـمسلـمين – وعامتهم » . وفى رواية أبى هريرة عند الترمذى والنسائى نحوه .

الشرح وما اشتمل عليه الحديث :

قال الحافظ أبو نعيـم : هذا الحديثُ له شأنٌ عظيـم .

وقال محمد بن أسلـم : إنه أحدُ أرباع الدين .

وقال أبو داود : إن هذا الحديثَ أحدُ الأحاديث التى يدور عليها الفقه .

[من جامع العلوم والحكم] .

النصيحة :

قالوا : ليس فى كلام العرب كلـمةٌ أجمعُ لخيرى الدنيا والآخرة من كلـمة النصيحة . لهذا قال النبى ﷺ : « الدين النصيحة » أى : عِماده وقِوامُه .

وهى كلـمة جامعة يُعبَّر بها عن جملة ، وهى : إرادةُ الخير الذى تُبذَل النصيحةُ للوصول إليه . وقال الخطابىُ : معناها : حِيازةُ الحظِّ للـمنصوح له . ويتفاوت ذلك بتفاوت الـمقامات ، وليس يـمكن أن يُعبر عن هذه اللفظة بكلـمة واحدة تحصرها وتجمع معناها غيرها . وأصلُ النصيحة فى اللغة : الخلوص ، يقال : نصحتُ العسلَ إذا خلَّصتَه من الشمع ، لذا نجد مدارها فى جميع الـمقامات قائمًا على الإخلاص والـمحبة ، فالذى يُحب يَنْصَحُ لـمحبوبه فى الغيب كما ينصح له فى الشهادة ، فهو بالنسبة له سِرُّه وعلانيتُه سواء؛ إذ الإخلاص رائِدُهُ فى الحالتين . لذا قالوا : الحبُّ أفضلُ من الخوف ، أى فى هذا

المقام ، وهو مَقام النصيحة ، فقد ينصح المرءُ شخصًا فى حضرته ويُظهِرُ له الإخلاصَ لخوفه ، فإذا ما غاب عنه غشَّه ولم ينصح ، أما المُحب فَيُخلص لمن أحبَّ فى غيبته كما يُخلص له فى حضرته .

النصيحة ومقاماتها فى الحديث :

المقام الأول :

النصيحة لله عز وجل : وهى فى جوهرها : صحةُ الاعتقاد فى وحدانيته سبحانه ، وإخلاصُ النية فى عبادته .

قال الخطابى وغيره من العلماء : النصيحةُ لله تعالى معناها منصرفٌ إلى الإيمان به ، ونفْيِ الشركِ عنه وتركِ الإلحادِ فى صفاته ، ووصْفِه سبحانه بصفات الكمال ، ونعوتِ الجلال كلها ، وتنزيهِه عن جميع أنواع النقائص ، والقيام بطاعته ، واجتنابِ معصيته ، والحبِّ فى اللّه ، والبغضِ فى اللّه ، والجهاد فى سبيله ، والاعترافِ بنعمته والشكر عليها ، والإخلاص فى جميع الأمور ، والدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة والحثِّ عليها ، وتعليمها للناس مع التلطف بهم .

قال الخطابى : وحقيقةُ هذه الأوصاف راجعةٌ إلى العبد فى نُصْحِه نَفْسَه ؛ فإن اللّه سبحانه غنىٌّ عن نُصح الناصح . وورد أن الحَوارِيِّين سألوا نبىَّ اللّه عيسى عليه السلام : ما النصحُ ؟ قال : « أن تبدأ بحق اللّه قبل حقِّ الناس ، وإن عَرَض لك أمران : أحدُهما لله تعالى ، والآخرُ للدنيا بدأت بحق اللّه تعالى » .

[من أثرٍ رواه عبد العزيز بن رفيع ، ونقله صاحب جامع العلوم والحكم] .

وقال بعضُ أهل العلم : النصيحة المُفتَرَضَة لله : هى شدةُ العناية من الناصح باتباع محبةِ اللّه فى أداء ما افترض ، ومجانبةِ ما حرَّم ، أى التزام مجانبةِ

نهيه وإقامةِ فرضه . هذا إلى جانب إيثار محبةِ اللّه عند النوافل على مَحبة نفسه ، وذلك أن يَحضُرَ له أمران : أحدُهما لنفسه ، والآخرُ لربه ، فيبدأ بما كان لربه ، ويؤخِّر ما كان لنفسه .

المقام الثانى :

وهو النصيحة لكتابه تعالى : أى التصديقُ به ، والعملُ بما فيه . والناصحُ لكتاب ربه : يؤمن بأنَّ كلام اللّه تعالى وتنزيلَه لا يُشبهه شيءٌ من كلام الناس ، ولا يقدر على الإتيان بشيءٍ مثلِه أحدٌ من الخلق ، ثم هو يكون شديدَ الحبِّ لكلام ربِّه ، والتعظيـم لِقَدْره ، شديدَ الرغبةِ فى تلاوته والإقبالِ على تدبر آياته وفَهْمه ، ويسعى إلى تحسين التلاوةِ والخشوع عندها ، وإقامةِ حروفه فى التلاوة .والناصحُ يصدِّق بما فى القرآن ، ويقف مع أحكامه ، ويُحِلُّ حلاله ، ويُحرِّم حرامه ، ويعمل بِـمُحكَمه ، ويؤمن بِمُتشابِهه ، ويتفهم علومه بقدر ما يستطيع ، ويعتبر بأمثاله ، ويتفكرُ فى عجائبه ، ويجعل القرآن العظيـم أنيسَهُ ونورَهُ ليلَه ونهاره ، ويتخلقُ بأخلاق القرآن مقتديًا بحبيب الرحمن ﷺ ، ويتأدب بآدابه ، ويُديـم دراسته ، ويستعين بربه فى أن يقف عند حدوده ، ويقومَ لله بما أمره به ، كما يُحب ربُّنا ويرضَى ، ثم ينشر فى العباد ما فَهِم ، ويدعُوَهم إلى الإقبال على مائدة الرحمن .

أما المقام الثالث :

فهو النصيحةُ لرسوله ﷺ : أى التصديق بنبوَّته ، وبذلُ الطاعةِله فيـما أمر به ونَهى عنه ، إن الناصح لرسول اللّه ﷺ يسارع إلى مَحبَّته ، ويبذلُ الـمجهودَ فى طاعته ، ونصرةِ دينه ، ويؤمن بجميع ما جاء به ، ويُعادى من عاداه ، ويُوالى مَن والاه ، ويُحيى فى نفسه طريقتَه وسُنته ، ويبغضُ الابتداعَ فى دينه ، ويلزم الاتباع ، كما أنه يُعْنى بطلب سُنَّته وتَعلُّمِها ، والبحثِ عن أخلاقه وآدابه ، ويُعظِّمُ حقَّه ، ويُوقِّره ، ويسعى لنشر سُنَّته بقدر ما يستطيعه ونَفْى ما أُلصِقَ من الشُّبَه

بشيء منها ، ويتفقه فى معانيها ويدعو إليها ، ويتلطف فى تعليمها ، ويوقر المجالس التى تُتَدارَسُ فيها السنة .

والناصح لرسوله كذلك يُحب أهلَ بيتِ رسول اللّٰه ﷺ ، ويُحبُّ أصحابه ، ويُجانب المُبتدعين ، ويبغض مجالسةَ المُصرِّين على المخالفة .

أما المقام الرابع :

فهو النصيحة لأئمة المسلمين وذلك يَعنى : أن يُطيعهم فى الحق ويُعينَهم عليه ، ويجمعَ القلوبَ ، ولا يفرقَها .

وقد جاء فى المسند وغيره عن جبيربن مطعم رضى اللّٰه عنه أن النبى ﷺ قال فى خطبته بالخِيف بمنى : « ثلاثةٌ لا يُغَلُّ عليها قلبُ امرئٌ مسلم : إخلاصُ العمل لله ، ومناصحةُ ولاةِ الأمر ، ولزومُ جماعة المسلمين » . مُناصحة أئمة المسلمين تقتضى : الإعانةَ على الحق ، وطاعتَهم فيه وجمعَ الكلمة ، وعدمَ تفريق القلوب .

قال ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » : وأمَّا النصيحةُ لأئمة المسلمين : فحبُّ صلاحِهم ورُشدِهم وعدْلِهم ، وحبُّ اجتماع الأمة عليهم ، وكراهةُ افتراقِ الأمة عليهم ، والتدينُ بطاعتهم فى طاعة اللّٰه عز وجل ، والبغضُ لِمَن رأى الخروجَ عليهم ، وحبُّ إعزازهم فى طاعة اللّٰه عز وجل .

وقال أبو عمرو بن الصلاح : والنصيحة لأئمة المسلمين : مُعاونتُهم على الحق ، وطاعتُهم فيه وتذكيرُهم به ، وتنبيهُهم فى رِفق ولطف ، ومجانبةُ الوثوب عليهم ، والدعاءُ لهم بالتوفيق ، وحثُّ الأغيار على ذلك .

[جامع العلوم والحكم] .

ومن كلام ابن دقيق العيد فى شرح الأربعين النووية : معونتُهم على الحق

وتَرْكُ الخروجِ عليهم بالسيف ، وتأليفُ قلوب الناس لطاعتهم ، والصلاةُ خلفهم ، والجهادُ معهم ، وأن يدعوَ لهم بالصلاح (*) .

وإذا أُريد بأئمة المسلمين العلماءُ : فَنُصْحُهم يكونُ بقبول أقوالِهم وتعظيم حقِّهم ، والاقتداءِ بهم ما داموا على سنة نبيهم ﷺ وعلى طريقته وبأمره وبما جاء في كتاب ربهم يأمرون ، وعما نهى عنه اللَّه ورسوله يَنْهَوْن .

وما جاء في الحديث يُحْمَل على الأمرين : النصحُ لولاة الأمر ، والنصحُ للعلماء الناصحين .

توجيه :

وكان السلف إذا أرادوا نصيحةَ أحدٍ وعظوه سِرًّا حتى قال بعضهم : من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة ، ومَن وعظه على رءوس الخلائق فإنما وبَّخه ، وسئل ابن عباس رضي اللَّه عنهما عن أمر السلطان بالمعروف ونهيه عن المنكر ! فقال : « إن كنتَ فاعلًا ولابُدَّ ففيما بينك وبينه » [جامع العلوم والحكم] .

نُصْحُ ولاةِ الأمور لرعاياهم :

وكما جاء النصح لولاةِ الأمور ، فقد جاء كذلك نُصْحُ ولاةِ الأمور لرعاياهم : ولا شكَّ أن ذلك يكون بالسهر على مصالحهم ، والسعي فيما فيه خيرُهم ، والاجتهادُ في تحقيق الأمن والاستقرار لهم ، وتَفَقُّدِ أحوالهم ، وبذل

(*) خلاصة أقوال أهل العلم في ذلك قولهم :
أما النصيحة لأئمة المسلمين : فمعاونتهم على الحق ، وطاعتهم فيه ، وتذكيرهم به في رفق ولطف ، والتدين بطاعتهم في طاعة الله عز وجل ، وحب اجتماع الأمة عليهم ، وكراهة افتراق الأمة عليهم ، وحب إعزازهم في طاعة الله ، ومجانبة الوثوب عليهم ، وتأليف قلوب الناس لطاعتهم ، والصلاة خلفهم ، والجهاد معهم ، وأن يدعو لهم بالصلاح والتوفيق .

الجهد فى أن يتوافر قدرٌ من الكِفاية والرخاءِ، وإيجادِ الفرص المناسبةِ لذوى القدرات والكِفايات والمهارات المختلفة للعمل وتحقيق الذات(*) .

ومن نصيحة أولى الأمر لرعاياهم :

تحقيقُ العدل ، وطمأنةُ كلِّ إنسان على حقوقه ، وكما قال العرب قديمًا : ثلاثةٌ ليس لها نهايةٌ (الصحةُ ، والأمنُ ، والكفايةُ) .

ومن اجتهد فيها وأخلص فقد نَصح وأوفَى ، مع توجيه الأمةِ للحفاظ على

(*) قال فى الطحاوية وشرحها صفحة ٤٢٨ : « ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم ، ولا ننزع يدًا من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية ، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة » .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] . و فى الصحيح : قال ﷺ : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يُطع الأمير فقد أطاعنى ، ومن يَعص الأمير فقد عصانى » [رواه أبو هريرة] .

وفى الصحيحين : « على المرء المسلم السمعُ والطاعةُ فيما أحَبَّ وكَرِه ، إلا أن يُؤمر بمعصية فإن أُمِر بمعصية فلا سَمْعَ ولا طاعة » .

وقال رسول الله ﷺ : « من رأى من أميره شيئًا يكرهه فَلْيصبر ، فإنه من فَارق الجماعةَ شِبرًا فمات ، فميتتُه جاهلية » . [رواه ابن عباس] .

وقالوا : عن أدب العالم عند دخوله على الحاكم : وعقيدة أهل السنة فى ذلك : إشعار العالم للحاكم بالاحترام والسمع والطاعة دون مُقدمةٍ تُشعر بالنفاق ، وهو مذهبُ أهل السنة والجماعة وحقٌ من حقوق الإمام الحاكم بشرع الله تبارك وتعالى ، فإن طاعته قُربةٌ وعبادةٌ إن كانت فى غير معصية لعموم قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] [انتهى نقلًا عن حاشية مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية العدد ١٨ شهر ذى الحجة ١٤١٢هـ/يونيو ١٩٩٢م] .

وفى الحديث عند الشيخين واللفظ للبخارى عن ابن عباس جاء : « من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه ، فإن من فارق الجماعة شبرًا فمات ماتَ ميتةً جاهلية » .

وفى لفظ : « من خرج عن السلطان شبرًا مات ميتة جاهلية » .

وقد جاء فى أحاديث تقييد ذلك بلفظ : « ما لم تروا كفرًا بواحًا » .

شخصيتها ، والتمسكِ بآدابِ دينها ، والقيام بما فيه مرضاةُ ربِّها ، وسلامةُ عقائدها ، ونحو ذلك مِـمَّا يناسب الـمقام .

الـمقام الخامس :

أما النصيحة لعامة الـمسلـمين فتكون بإرشادهم إلى مصالحهم فى دنياهم وأخراهم ، وكفِّ الأذى عنهم وتعليـمهم ما جهلوه ، وأمرهم بالـمعروف ونهيهم عن الـمُنكر ، وأن يُحب الـمرءُ الـمسلـمُ لأخيه ما يُحب لنفسه ويكرهُ له ما يكرهُه لنفسه ، وأن يتعاونَ الجميعُ على الخير والبِرِّ ، مع الرفق بالضعيف ، ومساعدةِ الفقير ، والسعى فى مصالح العاجز ، ورعايةِ اليتامى والأرامل ، وبذلِ الخيرِ فى مواضعه بقدر الطاقة والجهد .

الـمشورة :

ومن أعظم أنواع النصح أن ينصحَ لـمن استشاره فى أمره ، ويقدم له الرأى الذى يعتقد صَوابَه ، وأنَّ الخيرَ له فيه ، فالـمستشارُ مؤتَمن ، ومن أشار على امرئٍ بأمرٍ وهو يعلـم أن الرشدَ فى غيره فقد خانه .

فائدة : النصيحةُ فرضُ كفاية ، إذا قام بها من يكفى سقط عن غيره ، وهى لازمةٌ على قدر الطاقة ، واللّٰه الـموفق .

وفى الجزء الرابع من كتاب سبل السلام فى تعليقه على الحديث ورقمه عنده (١٤٤٢) جاء : قال ابنُ بطال : فى الحديث دليلٌ على أن النصيحةَ تُسمَّى دِينًا وإسلامًا ، وأن الدينَ يقعُ على العمل كما يقع على القول . قال : والنصيحةُ فرضُ كفاية ، يُجزئُ فيها مَن قام بها ، وتسقط عن الباقين والنصيحةُ لازمة على قدْر الطاقة البشرية ، إذا علـم الناصحُ أن الـمنصوحَ يقبل نُصْحَهُ ويُطيع أمرَه ، وأمِن على نفسه الـمكروه ، فإن خَشِى أذًى فهو فى سَعَةٍ ، واللّٰه أعلـم .

تتمة للفائدة :

وصايا نبوية شريفة : التحذير من تفريق الجماعة :

عن ابن عمر رضى اللّه عنهما قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَن حمل علينا السلاحَ فليس منّا » [متفق عليه] .

وقوله : « فليس منا » أى ليس على طريقتنا وهَدْينا ، فإن طريقته ﷺ نصرُ المسلم والقتالُ دونه لا تَرويعُه وإخافتُه وحملُ السلاح لإرادة قتالِه ، وفى الحديث دليلٌ : على تحريم قتالِ المسلم والتشديدِ فيه [ومن أراد مزيدَ بيان فليراجع سبلَ السلام الجزء الثالث الحديث (رقم ١١١٦) وما بعده وكذلك شروح كتب الحديث] .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن النبى ﷺ قال : « من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة ومات ، فَمِيتتُه جاهلية » [أخرجه مسلم] .

وفى توجيه ولاةِ الأمر إلى العدل والرفق والنصح للرعية :

عن أبى مريم الأزدى رضى اللّه عنه ، عن النبى ﷺ قال : « مَن ولاه اللّه شيئًا من أمور المسلمين فاحتجَب عن حاجتهم وفقيرِهم ، احتجب اللّه دون حاجته » . [أخرجه أبو داود والترمذى] .

ورواه أحمد عن معاذ بن جبل بلفظ : « مَن وَلِىَ من أمورِ المسلمين شيئًا فاحتجَب عن أولى الضعفِ والحاجةِ احتجب اللّه تعالى عنه يومَ القيامة » . أى منعه من فضله سبحانه وعطائه ورحمته يوم القيامة .

عن مَعقِل بنِ يَسار رضى اللّه عنه قال : سمعت رسولَ اللّهِ ﷺ يقول : « ما من عبدٍ يَسترعيه اللّه رعيّةً ، يموتُ يومَ يموت وهو غاشٌّ لرعيَّتِه ، إلا حرّم اللّه عليه الجنة » [متفق عليه] .

ومن دعاء الرسول ﷺ وقد روته عَائشة رضى اللّه عنها وأخرجه مسلم :

« اللّهمَّ مَن وَلِىَ مِن أمر أمتى شيئًا فشقَّ عليهم فاشقُق عليه ، ومن وَلِىَ من أمر أمتى شيئًا فَرفَقَ بهم فارْفُقْ به » .

وفى الحديث : « ما من عبد يسترعيه اللّه رعيَّة فلم يَحُطْها بنصيحة لم يَرَح رائحةَ الجنة » [رواه معقل بن يسار] .

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

[سورة النساء : ٥٩]

(٢) أوصانى خليلى بثلاث

قال أبو ذرٍّ الغِفاريُّ رضى اللّه عنه : « أوصانى خليلى ﷺ بثلاث - ثم بيّن ذلك أبو ذرّ بما معناه -:

* أن أسمعَ وأُطيعَ ولو لعبدٍ مُجَدَّع الأطراف .

* وإذا صنعتُ مرقةً فأُكثِرُ ماءَها ، ثم أَنْظُرُ أهلَ بيتٍ من جيرانى فأُصِيبُهم منه بمعروف « فأصبْهم منه بمعروف » .

* وأن أصلِّيَ الصلاةَ لِوقتها ، فإن وجدتُ الإمامَ قد صلَّى ، فقد أُحْرِزَتْ صلاتى ولفظ الحديث : « فقد أحْرزتَ صلاتَك ، وإلا فهِيَ نافلةٌ » . [أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ومسلم والنّسائى والترمذى وابن ماجه وأحمد وغيرهم مع زيادة أو اختصار وتمّ ذكره هنا بمعناه] .

هذا الحديثُ الشريفُ اشتمل على ثلاث وصايا عظيمة الشأن :

الأولى : تتصل بإسهام كلِّ فردٍ فى دعْم أمنِ الجماعة ، وتسكينِ الفتن وإتاحةِ الفرص للاستقرار ، لتنطلقَ الأمةُ فى ظلِّ وحدتها نحو البناء والعمارة وإعدادِ القوة الاقتصادية والعِلمية والحربية ونحوها . فقد أمره الحبيبُ المُصطفى ﷺ بأن يسمعَ ويطيعَ وليَّ أمرِه ، وضَرَبَ المثلَ بالعبد المُجَدَّع الأطراف - أى المقطوع بعض أطرافه - أى حتى ولو كان أميرُك ووليُّ أمرك على هذا النحو ، ويقوم بالأمور على الوجه المرضى ، ويسعى فى خير الجماعة ، ولم يَظهر منه مبارزَةٌ لله ولا لرسوله ﷺ فإن طاعته تُساهم فى حَقْن الدماء ، وتسكين الدَّهْماء ، وتجنيبِ الناس ويلاتِ الفِتَن ومساوئها وغير ذلك مِمَّا هو مفصَّل فى مواضعه من كتب السنة والفقه .

وقد جاء بيانُ ذلك فى وصيةِ الرسول ﷺ لأبى الدرداء - أيضًا - عند

البخارى وغيره وفيها : « ولا تُنازِعَنَّ ولاةَ الأمرِ وإن رأيتَ أنك أنت » . فقد عُبِّرَ عن الأمر بالطاعة بالنَّهى عن ضِدِّها ، وهو النهىُ عن المنازَعة وإثارةِ الخلافِ والشِّقاق .

الوصية الثانية : تتعلق بالنفع المُتَعدِّى ورعايةِ حفظ الاستقرار والمودة والألفةِ مع الجيران ، لأن تعزيزَ أواصرِ المودةِ والمحبة بين الجيران يُسهم بشكل ذى فاعلية عظيمةٍ فى دعم أمنِ الأمة ، واستقرارِ الجماعة ، ففى الوصية حثٌّ على إهداء الجارِ جارَهُ ولو الشىء اليسير والذى عُبِّر عنه بزيادة ماءِ المرق عند طبْخ اللحم للإهداء منه ، وإن كان شيئًا يسيرًا ، لا يكلِّف ولا يُرهق « فأصِبْهُمْ منه بِمعروف » أى أعْطِهم منه شيئًا فإن كانوا فى حاجة كان خيرًا عظيمًا ، وإن لم يكونوا كذلك وجب أن يَقبلوا الهديةَ ويُثيبُوا عليها إن استطاعوا ، ففى ذلك توكيدٌ للألفة والمحبة ، وإشعارٌ بالرعاية ، وإزالةٌ لما قد يكون فى الصدور من شحناء وغيرها .

وفى الحديث عند البخارى وغيره عن أبى هريرة : « يا نساءَ المسلماتِ لا تَحقِرَنَّ جارةٌ لجارتها ولو فِرْسِنَ شاةٍ » .

والفرسِنُ : أدنَى جزءٍ من الأكارع كالخُفِّ والظِلْفِ وهو مَثَلٌ للشىء اليسير المقدور عليه لتلطيف الحياة بين الجيران .

وقد أخبر ابنُ عباسٍ عبدَ اللّه بنَ الزبير أنه سمع رسولَ اللّه ﷺ يقول : « ليس المُؤمنُ الذى يَشبعُ وجارُه جائع » وأخرجه البخارى والبيهقى فى شُعب الإيمان والحاكم ، أى : والحالُ أنه عالم بحال اضطرارِه وحاجته .

هذه إشارةٌ فى توضيح هذه الوصيَّةِ العظيمةِ ، وكم يُعطى الإسلام من الرعاية لأحوال الجيرانِ ، لأن الجيرةَ هى المَحاوِرُ - إذا صحَّ التعبير - التى تجمع عددًا من الأسر ، وتُكوِّن المجتمعَ الصغيرَ ، الذى هو جزءٌ متلاحِمٌ بالمجتمع

الكبير ، فإذا صلَح حالُ الجيران عاد ذلك على الأمة والجماعة الكبيرة فى المدينة والقرية بالخير والأمن والاستقرار .

أما الوصيةُ الثالثة : فتتعلق بالنفع الخاصّ وسَعْى الفردِ المسلم لخلاص مُهجته من عذاب يوم القيامة ، وتزوُّدِه من الخير رغبةً فى رحمة اللّه عز وجل .

وهذه الوصيةُ تَعنى المبادرةَ إلى أداء كلِّ صلاة من الصلوات الخمس فى أول وقتها « وصَلِّ الصلاةَ لوقتها » أي المُستحَبُّ والمختار « فإن وجدتَ الإمامَ قد صَلَّى فقد أحرزتَ صلاتك » : أى إن بادرتَ بأداء الفريضةِ فى أول وقتِها مع جماعةٍ صغيرة – مثلًا – فى مُصلَّى بيتك ونحوه ثم خرجتَ إلى المسجد ، فوجدتَ الإمامَ قد فرغ من صلاته ، فقد أحرزتَ وأديتَ الفريضةَ التى فرضها اللّه عليك .

« وإلا فهى نافلةٌ » : أى وإن وجدتَ الإمامَ فى صلاته فادخُلْ معه فى الصلاة وأدِّها معه ، فهى نافلةٌ لك تُثاب عليها بفضل اللّه وإحسانِه لأن الفريضةَ سقطتْ عنك بصلاتك فى أول الوقتِ ، وبخروجه للمسجد متوضِّئًا وإن كان قد أدَّى الفريضةَ مع جماعة أخرى لسبب مّا فى أول وقتها ، فَبِخُروجه يَحُوزُ فضيلةَ سقوطِ الخطايا بخطواته اليُمنى ، ورَفْعِ الدرجاتِ بخطواته اليُسرى ويزداد فضلًا إذا صلّى مع الجماعة فى المسجد مرةً أخرى(*) .

تعليل :

ولعلَّ فى الحديث الذى رواه عبد اللّه بنُ الصامت عن أبى ذرٍّ ما يفسّر لنا سببَ تأكيد الرسول ﷺ على المبادرة إلى أداء المكتوبةِ فى أول وقتها ؛ وفيه

(*) راجع سبل السلام شرح بلوغ المرام الحديث رقم (٣٧٣ جزء ٢ ، وفضل الله الصمد فى توضيح الأدب المفرد الحديث باب ٢ رقم ١١٣) .

قال أبو ذرٍّ : « أتيتُ النبيَّ ﷺ بوَضُوء - أى ماء للوُضُوء - فحرَّك رأسَه وعضَّ على شفتيه ، قلتُ : بأبى أنت وأمِّى ، آذيتُك ؟ قال ﷺ « لا » ولكنك تُدرِكُ أمراءَ - أو أئمَّةً - يُؤخِّرون الصلاةَ لوقتها » .

قلتُ : فما تأمرنى ؟ قال : صَلِّ الصلاةَ لوقتها ، فإن أدركتَ معهم - أى مع الجماعة الكبيرة - فَصَلِّه ، ولا تَقُولنَّ صَلَّيتُ فلا أُصَلِّى » أى لا تقولنَّ صليتُ الفريضةَ مع جماعة البيت مثلًا ، فلا أُصَلِّى مع الجماعة فى المسجد الجامع ؛ لأنه يَحْظَى بثواب الجماعةِ الأخرى ثوابَ النافلة وثوابَ خُطواتِه إلى المسجد - والله أعلم - [أخرجه البخارى فى الأدب المفرد وأخرجه الترمذى ومسلم وأبو داود] .

وفى لفظ عند البخارى - أيضًا - والنسائى ومسلم ، قال أبو العالية البرَّاء : مرَّ بى عبدُ اللَّهِ بنُ الصامت ، فألقيتُ له كُرسيًّا فجلس ، فقلت له : إن ابن زيادٍ قد أخَّر الصلاةَ ، فما تأمر ؟ فضرب فَخِذى ضربةً ثم قال : سألت أبا ذرٍّ كما سألتنى ، فضرب فَخِذى كما ضربتُ فَخِذَك ، فقال : « صَلِّ الصلاةَ لوقتها ، فإن أدركتَ معهم فصلِّ ، ولا تَقُلْ قد صليتُ فلا أصلى » . ولفظه فى رواية : « نُصلِّى يومَ الجمعةِ خلفَ أمراءَ يؤخِّرون الصلاةَ » وزاد فى آخره : « صلِّ الصلاةَ لوقتها ، ثم اذهبْ لحاجتك ، وإن أُقيمَت الصلاةُ وأنت في المسجد فصلِّ » . وفى رواية أبى نعامة جاء فى آخره « فصلِّ معهم فإنها زيادةُ خير » .

الذى يسبق إمام المسجد بجماعةِ خارجه :

وجاءت قصةُ هذه الحالة فى الحديث الذى رواه أبو جابر يزيد بن الأسود السُّوائى قال : « صليتُ مع رسول اللَّه ﷺ صلاةَ الصبح ، فلما صلى رسولُ اللَّه ﷺ ، إذا هو برجلين لم يُصلِّيا ، فدعا بهما ، فجِيءَ بهما تَرْعُدُ فَرائِصُهما ، فقال لهما : « ما منعكما أن تُصلِّيا معنا ؟ » قالا : قد صَلَّينا فى رِحَالِنا ، قال : « فلا تَفعَلا ، إذا صَلَّيتُما فى رحالكما ، ثم أدركتُما الإمام ولم يصلِّ فصَلِّيا معه ، فإنها

لكما نافلةٌ » .

[أخرجه أحمد والثلاثة وصححه ابنُ حبان والترمذى « وهذا لفظ أحمد »] .

هذان الرجلان صلَّيا الفريضةَ جماعة فى رِحالهما قبل صلاة الإمام فى المسجد ، ولما وصلا المسجدَ ، انتظرا حتى فرغ الإمامُ من صلاته ، فلمَّا عُلِم بحالهما هذا ، قال لهما ﷺ : « فلا تفعلا إذا صليتما فى رحالكما – أى المنزل الذى تنزلون فيه – ثم أدركتما الإمام ولم يُصَلِّ فصلِّيا معه فإنها » أى : الصلاةُ مع الإمام بعد صلاتهما الفريضة « لكما نافلة » والفريضةُ هى الأُولى سواء صُليت جماعة أو فرادى لإطلاق الخبر . كما قال محمد بن إسماعيل الصنعانى فى سبل السلام شرح بلوغ المرام وقال : وهذا الحديث يدل على مشروعية الصلاة مع الإمام إذا وجده يُصلى ، أو سيُصلى بعد أن كان قد صَلَّى جماعة أو فُرادى ، والأُولى هى الفريضةُ والأُخرى نافلة – كما صرح به الحديث – .

وقال الشافعى فى هذه المسألة : إن اللَّه تعالى يحتسب بأيهما شاء لقول ابن عمر ، لمن سأله عن ذلك : « أوَ ذلك إليك ؟ إنما ذلك إلى اللَّه تعالى يحتسب بأيهما شاء » [أخرجه مالك فى الموطأ] .

وإن ظاهر الحديث السابق وحديث أبى ذرٍّ يدل على عموم الإعادة مع الإمام فى المسجد إذا أدركه قبل الصلاة ، أو وهو يصلى ، بعد أن كان الشخصُ قد صلى الفريضة قبله ، وإليه ذهب الإمام الشافعى .

أما أبو حنيفة فقال : لا يعاد إلا الظهرُ والعشاءُ أمَّا الصبحُ والعصرُ فلا ؛ للنهى عن الصلاة بعدهما ، وأما المغرب فلأنها وترُ النهارِ فلو أعادها صارت شفعًا .

أما الإمام مالك فقال : إذا كان صلى الفريضةَ فى جماعة فإنه لا يُعيدها مع الإمام فى المسجد ، وإن كان صلاها منفردًا أعادها .

وإن هذا الحديثَ وحديثَ أبى ذرٍّ ظاهران فى خلاف ما قاله أبو حنيفة ومالك، بل إن حديث يزيد بن الأسود ظاهر فى أن القصة وقعت فى صلاة الصبح، فيكون أقوى فى رَدِّ ما قاله أبو حنيفة، ويُخَصُّ به عُمومُ النهى عن الصلاة فى الوقتين [والله أعلم].

صلاة الجماعة ووجوب الحرص عليها :

إن صلاة الجماعة تفضلُ صلاةَ الفرْد بسبع وعشرين درجةً وقد حثَّ رسولُ اللَّه ﷺ كلَّ مُكلَّف من الذكور على حضورِ الجماعةِ ما لم يمنعه مانعٌ شرعىٌّ من خوف أو مرض، أو مطر شديد أو ريح باردةٍ، يقع له منها الضررُ أو كان يخرج من فمه ريحٌ كريهةٌ من أكل كُرّاثٍ ونحوه.

وفى الحديث المتفق عليه: « صلاةُ الجماعة أفضلُ من صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجةً » [رواه ابن عمر وأخرجه الستة].

وفى الصحيحين عن أبى هريرة: « بخمس وعشرين جزءًا » ومقصودُ الجزءِ والدرجة واحدٌ، وقد ورد تفسيرُهما بالصلاة وأن الصلاةَ فى الجماعة بسبع وعشرين صلاةً فُرادَى، وفيه حثٌّ على الجماعة، وعدمُ التهاوُن بشأنها.

ومن أدلة وجوبِ الجماعة ما رواه أبو هريرة وأخرجه مسلم: أن رجلًا أعمَى أتى النبىَّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللَّه، إنه ليس لى قائدٌ يقودنى إلى المسجد، فَرخَّص له، فلما ولَّى دعاه، فقال: « هل تسمعُ النداءَ بالصلاة؟ » قال: نعم. قال: «فَأَجِبْ». فقد أمره بحضور الجماعة ما دام قريبًا من المسجد، ويسمع الأذان، ومن أدلة تأكُّد الجماعةِ ما جاء عن ابنِ عباس [مرفوعًا أو موقوفًا على الخلاف]: « من سمِع النداءَ فلم يأتِ فلا صلاةَ له إلَّا من عُذر »

[أخرجه ابن ماجه والدَّارَقُطنى وابنُ حبان والحاكم وإسناده على شرط مسلم].

وأخرج الطبرانىُّ فى الكبير من حديث أبى موسى أن النبىَّ ﷺ قال : « من سَمع النداءَ فلـم يُجب من غير ضَررٍ ولا عُذر فلا صلاةَ له » .

[وفى سنده قيسُ بنُ الربيع ضَعَّفه جماعةٌ ووثَّقه شُعبة وسفيان الثورى] .

وجاء حديثُ ابن عباس عند أبى داود بزيادة : « قالوا : وما العُذرُ ؟ قال : خوفٌ أو مرضٌ ، لـم يقبل اللّٰه منه الصلاةَ التى صلى » [بإسناد ضعيف] .

ومن كان له عُذرٌ يُرخَّص له فى عدم حضورها فى الـمسجد ، ولكن يُصلِّيها جماعةً حيثما كان ، ويجتهدُ فى ذلك ما استطاع .

وإن فى هذه التوجيهات النبوية الشريفة تأكيدًا على فضيلة الجماعة ، مع الحث على حضورها فى المساجد والمبادرة إلى الصلاة لأول وقتها ، وفى حديث عبد اللّٰه بن أم مكتوم عند أحمد وغيره وهو رجل أعمى ولم يكن يقدر على قائد يقوده كل وقت إلى المسجد ، وهو يسمع النداء بل والإقامة ، وقد قال له النبى ﷺ : « فاحْضُرْهَا » ، وفى لفظ عند ابن حبان « أتسمع الأذان ؟ قال : نعم . قال : فأْتِهَا ولو حَبْوًا » ، وفى هذا الحديث ونحوه دليلٌ لِـمَن قال بوجوب حضور الجماعة وعدم التهاون فى ذلك بحال إلا للأعذار التى بينها الشارع الحكيم .

[واللّٰه أعلم] .

* * *

---

* الراوى : « كان شحيحًا على دينه ، حريصًا على العِلْم » .

نسبه : هو جُندبُ بنُ جُنَادَة بنِ سفيان بنِ عُبيد بن حرام بن غِفَار وينتهى نسبه إلى مُضَر - ولقبُه أبو ذرٍّ .

إسلامه : أسلـم والنبىُّ ﷺ بمكةَ أولَ الإسلام.. وكان من السابقين إلى الإسلام حتى

قالوا : إنه كان رابعَ أربعة ، أو خامس خمسة .

فى جاهليته : وكان أبو ذرٍّ رجلًا شجاعًا ، وكان فى جاهليته يُصيب الطريق ويَنفرِدُ وحده بقَطعِه ، ويشنُّ الغارةَ على أموال الناس فى عَمَايةِ الصبح ؛ إمَّا ماشيًا أو على ظهر فرسه .

ثم اتجه بفكره إلى ملكوت السمواتِ والأرض حتى اطمأنَّ قلبُه إلى أن لهذا الكون إلهًا واحدًا فتألَّه واعتزل الأصنام .

الرحلة المباركة : رحل مع أخيه أنيس وأُمِّهمَا إلى مكان قريب من مكة ، ثم استأذنه أخوه فى الذهاب إلى مكة لحاجة له . يقول أبو ذر : فانطلق أنيسٌ فراث عليَّ - يعنى أبطأ - ثم جاء ، فقلت : ما حبسك ؟ قال : لقيتُ رجلًا بمكة على دينك يزعم أن اللَّه أرسله ، قال : فما يقول الناس له ؟ قال : يقولون : شاعرٌ ، كاهنٌ ، ساحرٌ . وكان أنيس أحدَ الشعراء ، فقال أنيس : واللَّهِ لقد سمعتُ قولَ الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعتُ قوله على أقراءِ الشعر فلا يلتئم على لسانِ أحدٍ بعدى أنه شِعر ، واللَّهِ إنه لصادقٌ وإنهم لكاذبون . بعد أن سمع أبو ذرٍّ كلام أخيه انشرح صدرُه للقاء النبى ﷺ ومعرفة ما يدعو إليه .

بدايته مع نور الإسلام :

فانطلق أبو ذرٍّ حتى قدِمَ مكة ، ونظر إلى رجل ظنَّه أضعفَهم ليسألَه عن النبى ﷺ ، فقال له : أين هذا الذى تدعونه الصابئ ؟ فأشار الرجلُ إلى أبى ذرٍّ ونادى قال : الصابئُ ... فأقبل مَنْ أقبل عليه يضربونه حتى خَرَّ مغشيًا عليه وقد أدْمَوه ، فلما أفاق أتى زمزمَ فاغتسل وشربَ من مائها ، وبَقِى بمكةَ ثلاثين بين يوم وليلة يتحينُ الفرصَ للقاء النبىّ ﷺ ، وهو يَخشى أن يسألَ الناسَ عنه ﷺ .

إسلامه : وفى ليلة هدأ المكان حولَ الكعبة ، وأبو ذرٍّ جالسٌ بجوارها إذ أقبل النبىُّ ﷺ ومعه أبو بكر الصديق فاستلما الحجرَ ، وطافا بالبيت ، ثم صلَّى فلمَّا قضى صلاتَه أتاه أبو ذرٍّ فحيَّاه بتحية الإسلام ، فقال النبىُّ ﷺ : وعليك ورحمة اللَّه ، ممَّن أنت ؟ قال : من غفَار .. ففكَّر الرسول ﷺ فى أمره قليلًا - وكانت غفار يقطعون الطريق - ثم سأله النبىُّ ﷺ عن أحواله ومُقامِه بِمكةَ ، واستضافه أبو بكر رضى اللَّه عنه ، ثم قال له رسولُ اللَّه ﷺ : « إنه قد وُجِّهتُ إلى أرض ذاتِ نخل ولا أحسبها إلا يثربَ ، فهل أنت مُبلِّغٌ عنى قومَك عسى أن ينفعَهم بك ويأجرَك فيهم » .

سفيرٌ إلى قومه : ملأ نورُ اليقين جوانب النفس الباحثةِ عن الحق ، واهتزَّ كلُّ شعوره لـما طلب إليه رسولُ اللّه ﷺ أن يرجعَ إلى قومه فيُخبرَهُم ويبلِّغَهم ليكون رسولَ رسولِ اللّه ﷺ فى غفار .

يقول ابن عباس : فقال أبو ذر : والذى نفسى بيده لأصرُخَنَّ بها بين ظَهْرَانَيهم – يقصد أنه سيجهر بإيمانه بين أهل مكةَ على الرغم من تضييقهم على المسلمين – فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته : أشهدُ أن لا إله إلَّا اللّهُ وأشهدُ أن محمدًا رسولُ اللّه .

وثار القوم فضربوه حتى أضجعوه ولـم يخلِّصْه من أيديهم إلا العباسُ حين أسرع نحوهم وقال : ويلكم إنه من غِفار ، وإن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم ، فأنقذه منهم ، وفى اليوم التالى عاد إلى مثلها ، وثاروا إليه فضربوه ، حتى أنقذه العباس من أيديهم مرةً أخرى .

فكان هذا أولَ إسلام أبى ذرٍّ رضى اللّه عنه .

إسلام أمِّه : ثم عاد أبو ذرٍّ إلى أخيه ، فأخبره بإسلامه ، فأخبره أنيس أنه هو أيضًا دخل فى دين اللّهِ وأنه أسلـم وصدَّق ، وعرض الإسلامَ على أمِّه فآمنتْ وصدَّقت .

فى غِفار : ثم توجَّهوا إلى غِفار ، ودعاهم أبو ذرٍّ إلى الإسلام وكان أثرهُ فيهم عظيـمًا إذ أسلـم نِصفُهم قبل أن يهاجرَ النبى ﷺ إلى المدينة ... وبعد الهجرة ... دخل بقيةُ غِفار فى الإسلام ، فجاءت قبيلةُ أسلـمَ فقالوا : يا رسولَ اللّه نُسلـم على الذى أسلـم إخوتُنا – أى غِفار – فأسلـموا هم أيضًا ، فقال رسول اللّه ﷺ : « غِفارٌ غَفَرَ اللّهُ لها ، وأسْلَمُ سالَمَها اللّهُ » .

[رواه أبو هريرة وأخرجه مسلـم والبخارى] .

طرفٌ من أعماله قبل الهجرة :

بعد أن أسلـم أبو ذرٍّ .. كان يعترض لعيراتِ قريشٍ ، فيقتطعُها لأنه كان فارسًا مشهورًا فيقول لَهم : لا أردّ إليكم منها شيئًا حتى تشهدوا أن لا إله إلا اللّهُ وأن محمدًا رسولُ اللّه ، فإن فعلوا ردَّ عليهم ما أخذ منهم ، وإن أبَوْا لـم يردَّ عليهم شيئًا ، فكان على ذلك حتى هاجر رسول اللّه ﷺ إلى المدينة المنورة ، ومضى بدرٌ وأحدٌ والخندقُ ، ثم قدِمَ أبو ذرٍّ فأقام بالمدينة مع النبى ﷺ .

إقامتُه بالرَّبذَة : والربَذَةُ مكانٌ قريب من المدينة المنورةِ ، وقد خرج إليه بإشارةٍ من خليفة المسلمين عثمان بن عفان ، وكان إذا سُئل عن ذلك رضى اللّه عنه ، يقول : « فذاك أنزلنى هذا

المنزلَ ولو أُمِّرَ عليَّ حبشيٌّ لسمعتُ وأطعتُ » ، وكان أبو ذرٍّ حريصًا على طاعة رسول اللّٰه ﷺ إذ أوصاه فقال : « اسمَعْ وأطِعْ ولو لعبدٍ مُجدَّع الأطراف » . وكان إذا لقيه جماعةٌ بالربذة وأرادوا إثارتَه يقول لهم : واللّٰهِ لو أن عثمان صلَّبني على أطولِ خشبةٍ أو أطولِ جبلٍ لسمعتُ ، وأطعتُ وصبرتُ واحتسبتُ ، ورُئيتُ أن ذاك خيرٌ لى ، ولو سَيَّرنى ما بين الأفق إلى الأفق - أو قال : ما بين المشرق والمغرب - لسمعتُ وأطعتُ ، وصبرتُ ، واحتسبتُ وَرُئيت أن ذاك خيرٌ لى ، ولو ردَّنى إلى منزلى لسمعتُ ، وأطعتُ ، وصبرتُ ، واحتسبتُ ، وَرُئيتُ أن ذاك خيرٌ لى .

صِدْقُه وزُهْدُه وتواضُعه وجراءتُه وسخاؤه :

كان يجود بِما عنده لجيرانه وأضيافه حتى ليبيتُ جائعًا ، قال عبد اللّٰه بنُ عمرو : سمعتُ رسولَ اللّٰهِ ﷺ يقول : « ما أقلَّت الغَبراءُ ولا أظَلَّت الخضراءُ من رجل أصدقَ من أبى ذرٍّ » . وعن أبى هريرة قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « ما أقلَّت الغَبراءُ ، ولا أظَلَّت الخضراءُ على ذى لهجةٍ أصدقَ من أبى ذرٍّ ، مَنْ سَرَّهُ أن ينظرَ إلى تواضعِ عيسى ابن مريمَ فلينظرْ إلى أبى ذرٍّ » . وفى لفظ : « من سرَّه أن ينظرَ إلى زُهْدِ عيسى ابن مريمَ فلينظر إلى أبى ذرٍّ » .وحَسْبنا شهادةُ رسولِ اللّٰهِ ﷺ وثناؤه عليه .

وقد مات رضى اللّٰه عنه ولم يتشبَّث من الدنيا بشىء على الرغم من اتساع الفتوح وإقبالِ الدنيا على المسلمين ، وقال عنه علىٌّ رضى اللّٰه عنه : « أبو ذرٍّ وعاءٌ مُلئ عِلمًا » وكان فى العلم مساويًا لأبى هريرة .

وصية غالية : ومن وصايا رسول اللّٰه ﷺ لأبى ذرٍّ ، قال : أوصانى خليلى بسبع : « أمرنى بحبِّ المساكين والدنُوِّ منهم ، وأمرنى أن أنظرَ إلى مَن هو دُونى ولا أنظرَ إلى من هو فوقى ، وأمرنى أن لا أسألَ أحدًا شيئًا ، وأمرنى أن أصِلَ الرحمَ وإنْ أُدْبِرَتْ ، وأمرنى أن أقول الحقَّ وإن كان مُرًّا ، وأمرنى أن لا أخافَ فى اللّٰه لومةَ لائم ، وأمرنى أن أُكثرَ من قول : لا حولَ ولا قوةَ إلا باللّٰه فإنهن من كنزٍ تحت العرش » .

ومن زُهده : وصفُوا متاعَ بيته بأنه لا يسوى درهمين ، وقالوا : لو جُمع ما فى بيته لكان رداءُ هذا الرجل أفضلَ من جميع ما فى بيته ، ومات وليس لديه ما يكفى كفنَهُ ، وكان موته سنة ٣٢هـ .

ومن آرائه : إنه ليس من وَعَى ذهبًا أو فضةً يُوكِى عليه إلَّا وهو يتلظَّى على صاحبه.

لهذا كان يَقْسِمُ عطاءَه يشترى لخادمه ما يكفيه لسنة ، ويشترى بالباقى فلوسًا .

كان يكره الولايةَ لنفسه ، وكان يقول لأبى موسى الأشعرى : لستُ بأخيك إنما كنتُ أخاكَ قبل أن تُسْتَعْمَل « أى تصير عاملًا » ذلك أن الرسول ﷺ قال لأبى ذرٍّ حين طلب منه الإمارة : « يا أبا ذرٍّ أراك ضعيفًا ، وإنها أمانةٌ ، وإنها يومَ القيامة خِزىٌ وندامةٌ إلا مَن أخذها بحقها ، وأدَّى الذى عليه فيها » . ولقيه أبو هريرة فسأله : هل تطاولتَ فى البناء ، أو اتخذتَ زرعًا أو ماشية ؟ فلما قال أبو هريرة : لا . قال له : أنت أخى ، أنت أخى .

من جرأته فى الحق قوله : ما زال لى الأمرُ بالمعروف والنهىُ عن المنكر حتى ما ترك لى الحقُّ صديقًا . ومن جراءته قال عنه علىٌّ : « لم يبقَ أحدٌ اليوم لا يُبالى فى اللّٰه لومةَ لائم غير أبى ذرٍّ ولا نفسى » – ثم ضرب بيده إلى صدره – ووصفه علىٌّ أيضًا : بأنه كان شحيحًا على دينه حريصًا على العلم .

عند موته : قال عند موته : سمعتُ رسول اللّٰه ﷺ مع نفرٍ يقول : « ليموتَنَّ رجلٌ منكم بفلاةٍ من الأرض تشهدُه عصابةٌ من المؤمنين » . فلمَّا قالت له امرأتُه عند موته : ليس عندى ثوبٌ يَسَعُك كفنًا ... وأخذتْ تبكى . قال لها : لا تبكى وَذَكَرَ ما سمعه من رسول اللّٰه ﷺ ثم قال : فكل مَن كان معى فى ذلك المجلس مات فى جماعة وقريةٍ ، فلم يبقَ غيرى ، وقد أصبحتُ بالفلاة أموت فراقبى الطريقَ فإنك سوف تَرَيْنَ ما أقول لك ، فإنى واللّٰهِ ما كذبتُ ولا كُذِّبْتُ . قالت : وأنَّى ذلك وقد انقطع الحاجُّ ؟ قال : راقبى الطريق . فبينما هى كذلك إذا هى بالقوم تُخِدُّ بهم رواحلُهم فأقبلوا حتى وقفوا أمامها وقالوا : ما لكِ ؟ فأخبرتْهُم عن حاجتهم لِكَفَنِ لأبى ذرٍّ ، فلمَّا دخلوا على أبى ذرٍّ : بشَّرهم بما سمع من رسول اللّٰه ﷺ وقال : قد أصبحتُ اليوم حيث تَرَوْن ولو أن ثوبًا من ثيابى يَسعُنى لم أُكفَّن إلا فيه ، ثم ناشدهم ألا يُكفِّنه إلا واحدٌ منهم يكسبُ مالَه بعرَق جبينه ومن جهْده الخاص . فقال فتًى من الأنصار : أنا صاحبُك ، ثوبان فى متاعى من غَزْل أمِّى ، وأحدُ ثَوْبَىَّ هذين اللذين علىَّ ، قال أبو ذرٍّ : أنت صاحبى فكفِّنى .

ورواية أخرى : أنه أوصى امرأتَه وغلامَه بوضْعه على قارعة الطريق بعد موته ، ليُعَانوا على دفْنه ، فأقبل رهطٌ فيهم عبدُ اللّٰه بن مسعود فلمَّا عرفوه بكى ابنُ مسعود وقال : صدق رسولُ اللّٰه ﷺ : « تمشى وحدك ، وتموتُ وحدك ، وتُبعَث وحدك » ثم نزل هو وأصحابه فوارَوه التراب .

فى بيته : كانت له نَمِرَةٌ يأتزرُ بها ، وأُخرى للمسجد وأعْنُزٌ يحلبها ، وأحْمُرٌ يحملُ عليها متاعَه وطعامه ، وخادمٌ يكفيه المهنة ، وكان يخشى من حسابه على الثوب الزائدِ ، وهو فضلُ

عباءة ، وقد ترك أتانَيْن وعَفْوًا وأعنُزًا وركائبَ ، والعفْو : الحمارُ الذكَرُ .

ومن أقواله : قال أبو ذرٍّ لعثمان : لا ترضَوا من الناس كفَّ الأذى حتى يبذلوا المعروف .

وقد ينبغى للمؤدِّى الزكاةَ ألا يقتصرَ عليها حتى يُحسِنَ إلى الجيران والإخوانِ ويصلَ القرابات. « رضى اللّٰه عنه » .

* * *

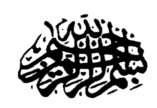
رسالة :

العائلة والأولاد

* * *

١- أطفالنا أكبادُنا تمشي على الأرض (مُقدِّمة عامة) ٨١
٢- الأبوَّةُ الحانية ، والبنوَّةُ الصالحة ٩٠
٣- في رعاية الناشئةِ إحسانٌ إلى أنفسنا ٩٨
٤- الثمرة الطيبة من تُربة صالحةٍ ورعايةٍ صحيحة ١٠٤
٥- برُّ الوالدين ، والولدُ الصالح نِعمة ١١٢
٦- المولود نِعمةٌ وبهجةٌ للقلوب ١١٩
٧- قصةُ ولَدٍ بارٍّ وأُمٍّ حانيةٍ (أبو هريرة وأُمُّه) ١٢٤
٨- توجيهاتٌ من السنَّة النبويَّة المُطهَّرة ١٣٥
٩- فلْنرحمْ أنفسَنا وفلذاتِ أكبادِنا من المُهلكات ١٤٤
١٠- كلمةٌ : في العُرس والزواج ١٥٢
١١- مَنْ أكرمُ الناس ؟ ١٥٨
١٢- كن لليتيم كالأب الرحيم ١٦٨
(أ) اليتيم في العائلة أخٌ للصغير وكالابن للكبير ١٦٨
(ب) من وصية الإسلام في مال اليتيم وتأديبه ١٧٢
١٣- من أدب المسلم مع الخادم والأجير ١٧٦

* * *



قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٤] .

* * *

من حقوق الوالِد والولد[1] :

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١١] .

* * *

من دعاء زكريَّا عليه السلام :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [آل عمران : ٣٨] .

* * *

(١) الوالد : الأم والأب ، والولد : الابن والابنة .

١- أطفالُنا ... أكبادُنا ...

تمشى على الأرض

« مقدِّمة عامَّة »

نظرةٌ شاملة ومُتطابقةٌ مع أصْل الفِطْرة :

الشريعةُ الإسلاميةُ السمحةُ تُكرِمُ الإنسانَ ، وتنظرُ إليه النظرةَ التى تتواءَمُ مع فِطْرَته ، وتتناسبُ مع طبيعة تكوينِه النفسىِّ والعقلىِّ ، المعنوىِّ والحِسِّىِّ وقد وَضَعتْ له الأُطُرَ الحِمائيةَ للحفاظ على جانِبَيْه : الروحىِّ والجسدىِّ لتصونَه من مُسبِّبات الضعف ، ومن مزالقِ الانحرافِ عن الوسَطِيَّةِ التى يُرجَى له منذ نُعومةِ أظافرِه أن يَنشأ ويَثبُتَ عليها ، لتُحققَ له التوازنَ بينه وبين نفسه والتوافُقَ بينه وبين المُحيطين به ، ثم إن هذه الشريعةَ الكاملةَ تُغذِّيه فى مراحل نموِّه المختلفةِ بما يُصحِحُ نظرتَهُ إلى الإنسان ، وإلى الكون المحيطِ ، حتى يألفَ وَضْعَ الأمور فى مواضعها الصحيحة ، وتقديرَ كلِّ أمر أو ظاهرةٍ على ما هى عليه ، ومن زاويةِ نوعِ التَّسخيرِ الذى هُيئت له الظاهرةُ أو الآيةُ التكوينيةُ دون لجوءٍ إلى طرَفى الإفراطِ والتفريطِ فى التفهُّم وفى إعطاءِ الأشياءِ قَدْرَها .

الأدوات والوسائل :

ثم إن للشريعة الإسلاميةِ أدواتِها ووسائلَها للوصول إلى غايتها الساميةِ فى رعاية الناشئةِ ، والحِفَاظِ على حقوق الإنسانِ منذ البدء ، أى منذ أن يكون جَنينًا ، ثم مُواكَبة هذه الرعايةِ بوسائلَ تتوافقُ مع كلِّ مرحلةٍ من مراحلِ نموِّه وفى جميع أطوارِ حياتِه ، بعد خُروجه من مأمَنِه فى الرَّحمِ إلى نور الحياةِ وبِدَايةِ تفاعُلِه سَلبًا وإيجابًا مع البَشرِ المُحيطين به ، إذْ لكلِّ منهم التزامٌ نحو هذا العضْوِ الجديدِ فى

الجماعةِ ، وهذا الالتزامُ مبنيٌّ على الرحمةِ ، الرفْقِ ، الحنانِ ، الشفقةِ ، الحبِّ ، الحَدَبِ ، وأداءِ الحقِّ والواجبِ نحو هذا الدُّعْمُوص[1] الذى يُشِيعُ البهجةَ فى النفوس ، ويملأُ المكانَ بحركةِ يديه ورِجليه وصوتِه ، وإذا زَحف أو مشَى سُرَّ الجميعُ بحركته هنا وهناك .

إن الشريعةَ السمحةَ تُظِلُّ الإنسانَ بكلِّ ما يُسعِدُه ، وتُمِدُّه بما يُعينه على تنظيم حياته ، وضبطِ سلوكه على أقوم طريق ، ليحيا حياة طيِّبةً ، ويهنأ بعيشةٍ راضيةٍ ، متوافقًا مع الفِطرة النَّقية التى فطر اللَّه الناسَ عليها ، مُحسنًا علاقته بخالقه ، متمتعًا بسلام دائم مع نفسِه وقومِه ، بل مع كلِّ ما يُحيطُ به ويقعُ عليه نظرُه ، أو تلمسُه يدُه ، أو يُدركه بوعيه ، وهذا النمطُ الرفيعُ من التوجيه الرشيد ، والتربيةِ الساميةِ ، يُجنِّبه كلَّ اضطرابٍ وقلق ، وينأَى به عن كل شرٍّ وانحراف .

إن هذا التوجيهَ الساميَ لخطوات الإنسانِ ومسيرةِ حياته مبنيٌّ على أسس نفسية وشعوريةٍ مُستمدَّة من العِلم التامِّ بماهية الإنسان ، ومن الرغبة الكريمة فى أن تتوافرَ له كلُّ عوامل السكينةِ والطمأنينةِ ، منذ أن يفتحَ عينيه على نور الحياة ، إلى أن يمضِيَ قُدمًا فى شبابه ساعيًا فى أداء دوره المقدَّرِ له على نحو يتسمُ بالصدقِ ، والأمانةِ ، والمهارة الكافية .

مرحلة الطفولة :

إن مرحلةَ الطفولةِ تَحظى بجانبٍ مُهِمٍّ من عناية الشريعةِ الإسلاميةِ الغرَّاء بالإنسان ، نجدُ هذه العنايةَ الساميةَ فى التوجيهات والأحكام التى تتعلقُ بالطفل

---

(١) الدُّعموص : جمعه الدعاميص والدعامص وهى دُوَيبّة تغوص فى الماء وتكون فى مُستنقع الماءِ لا تُفارقه . ومن معانى الدعموص : الدخّال فى الأمور ، والصبيُّ سيّاحٌ فى المنزل لا يُمنَع من دخول مكان ، ولا يحتجب منه أحد وإن مات قبل البلوغ كان مع أقرانه السيّاحين فى جنّةِ الخلد . وفى الحديث : « صِغارُكم دعامِصُ » [رواه أبو هريرة وأخرجه مسلم والبخارى وأحمد] .

فى كتاب اللّهِ عز وجل ، وفى سُنةِ الحبيب المُصطفى ﷺ ، ثم فى الأبواب التى تناولت بالشرح والبيانِ كلَّ ما لَهُ صِلةٌ بالطفل من حيث حقوقه ومن حيث واجبات مَنْ حوله من الكبار ، وغير ذلك ، فى كتب الفقهِ الإسلامى ، تلك الثروةُ العِلميةُ القيِّمة المقَنَّنَةُ تقنينًا يصعب كلَّ الصُّعوبةِ أن نجِدَ له مثيلًا لدى أمةٍ من الأمم ، كما أن هذه الثروةَ العلمية فى مُجملِها وتفاصيلها لم تحظَ حضارةٌ من الحضارات ، ولا مدنيةٌ من المدنيات القديمة والحديثة بشيء يُقاربها فى شُمولها وسلامتها وصحتها ، وفى الأمانةِ العلميةِ التى تبدو فى كل جزئيةٍ منها ، وفى الإخلاص الذى كان الدافعَ الأولَ للعلماء والفقهاءِ وتلامِذتهم فى كلِّ مرحلةٍ من مراحل تاريخ الفِكْر الإسلامى ، إذ كان الدافعُ خِدمةَ كتابِ اللّه عز وجل والسنةِ النبوية المُطهَّرة ، والحفاظَ على فتاوى الصحابةِ واجتهاداتهم واضحةً جليّةً ، فكانت ثمرةُ هذا الإيمانِ وهذا الصدقِ ذلك الفيضَ الزاخرَ بالعطاء فيما تركوه حيًّا نابضًا يُنير لنا الطريق ويرسمُ لنا خطواتِ الحياةِ على بصيرة وهُدًى : فى العبادات ، والمعاملات والمغازى والجهاد ، والأحوالِ الشخصية ، مِمَّا يتعلق بالأسرة وطريقةِ بنائها على نحو مستقيم صالح ، وبالطفلِ وحقوقِه وما له على أبيه وعلى أمِّه وعلى المجتمع والدولة ، بما فى ذلك الحِفاظُ عليه جنينًا ، وإسباغُ كلِّ أسبابِ الرحمةِ والإشفاق عليه وليدًا ، إمَّا على نحوِ فِطْرِىٍّ ينبعُ من حنان الأبوين ورحميِهما لولدهما ، وحبِّهما الطَبعِىِّ له ، وإيثار حاجاتِه وراحتِه على ما يكون لهما من ذلك ، وإمَّا على نحو تنظيمىٍّ بلغ الغاية فى الدِّقةِ والروْعةِ كما فى حال انفصالِ الوالدين ، وكيف يتمُّ إرضاعُ الطفلِ وإسكانُه وإعطاؤُه سائرَ حُقوقه ، وكذلك فى حالة موتِ الأم ، وما يجب على الوالدِ من الإنفاق والبذلِ ، بما يناسبُ الحالَ لِمن تقومُ بإرضاعه وحضانته مُراقِبةً ربَّها فى رعايته وحتى اللقيط خُصِّصت لأحكامه مواضعُها من كتب الفقه وغيرها من المصادر العلمية ذات العلاقة ، فالإنسانُ كيانٌ مُحتَرم ، وينبغى لنا أن نتيحَ له أن يتنفسَ فى مناخ فيه

رحمةٌ وشفقة ومحبةٌ للخير ، مع القيام بواجب الصيانةِ حتى يستوىَ الطفلُ على عُودِهِ ويَشُقَّ طريقَهُ استقلالًا .

الزواجُ وصفاءُ الانتسابِ وقُوَّته :

الحكمةُ من الزواج : إعفافُ النفس ، وتكثير النَّسل ، وإبقاءُ النوع ، وإن الزواجَ الـمُستقيـمَ على الفطرةِ الإنسانيةِ السليـمةِ النقيةِ والذى يتسقُ مع طبيعة التكوينِ النفسىِّ والوِجْدانىِّ والعقلىِّ والـمادىِّ للإنسان هو الزواجُ الذى يجمعُ بين ذكرٍ وأنثى ، كلٌّ منهما خالٍ من الـموانع الشرعيةِ ، وبعقدٍ شرعىٍّ ، فيه إيجابٌ وقَبولٌ وتراضٍ وشهودٌ وغير ذلك ، مِمَّا هو مُوضَّحٌ فى مظَانِّه ، فيـما يتصلُ بالولىِّ ، وبطريقة استئذانِ البِكْرِ والثَّيِّب ، وإعلانِ أمرِ هذا الزواج وإشهارِه والـمهْر ونحو ذلك .

الجمعُ بين شخصين (تعريف قبيحٌ هَدفُه التدمير) :

وهنا قد سمعنا عمَّن يُعَرِّف الزواجَ بأنه « الجمعُ بين شخصين » بهذا الإبهام ، ويقال : إن ذلك موجودٌ فى وثائق بعض الجماعات الأجنبية ، التى أطلقت العِنانَ للأهواء الـمُسِفَّة ، والأغراضِ القبيحة ، والشهواتِ الـمُتدنِّيةِ وهو تعريفٌ باطلٌ وعملٌ لا يَقْبلُه دِينُ اللّهِ ، ويأباه العقلُ الـمستقيـم ، والذوقُ السليـم ، ويتنافَى تـمامًا مع مُقتضياتِ الفِطرةِ الإنسانيةِ السليـمة ، التى ينبغى ألّا تُمْسَخَ بعوامل البيئةِ ومُكتسباتِها البالغةِ السوء ، فى مثل هذه الـمجتـمعات غير الإسلامية ، وإن بلادنا الإسلامية بريئةٌ من هذه الأمورِ ، والحمدُ لله ، بعيدةٌ عن كلِّ الاتجاهاتِ الـمنافيةِ لشرع اللّهِ فيـما يتصل بتكوين الأسرة .

إن كلَّ ذى دِين يأبَى هذا التعريفَ للزواج الذى لا يُقِرُّه شرعُ اللّه ويرفضُ أن يكونَ الزواجُ مسخًا أو تشويهًا لكرامة الإنسان ، وهدمًا للنواة التى يتكون منها الـمُجتـمع وتُبنَى الأمة ، وإلَّا فأين الحكمة وأين العَفافُ ؟ وكيف يُحقق هذا بقاءَ

النوعِ ؟ وأين موضعُ إشباع معانى الأبوةِ والأمومة ؟ وكيف يصنع مثلُ هذا الـمُجتمع أجيالًا يُقدِّمها لخدمةِ الأوطان ؟.

ألا : فَلْيَحْذرِ الذين يُخالِفونَ عن أمرِ اللّه الساعين لتدمير البناء السليم للأسرة ، ولكرامةِ الإنسانِ ، ليحذروا سوءَ العاقبة ، وحلولَ غضب اللّه عليهم فى الدنيا والآخرة .

إنَّ القواعِدَ والنظُمَ الـمُتعلقةَ بالأسرةِ والطفلِ على النحوِ الذى جاء بيانُه فى شرع اللّه هى التى تَحمِى حياةَ الإنسانِ من التلَفِ ، وتَصونُها من الضياع وذلك :

* بأن يكونَ الطفلُ ثمرةً لزواجٍ شرعىٍّ من أبوين تتوافرُ لهما كلُّ دواعى السلامةِ من مُخالفة الأصول والقواعدِ الشرعيةِ التى يجبُ تَحقُّقُها لصحة الزواج ، وتلك هى الثمرةُ الطبيعية .

* وإن انتـماءَ الولدِ إلى أبيه وأسرةِ أبيه ؛ فى نطاق الأسرةِ التى هى أساسُ بناءِ الأمةِ يُكسِبه توازنًا نفسيًّا ووجدانيًّا وطمأنينةً قلبية ، وعدمَ شعور بالضياع لأنه يعيشُ فى كيان له وَضْعُه ووزنُه ، لا تتلاشَى معه ملامحُ انتـمائِه الحقيقىِّ ويبقَى ذلك لذرِّيته من بعده ، وللذكور منهم مهما سَفُلوا ، وبهذا يحفظُ التاريخُ وَجْهَه الحقيقىَّ ولا تتلاشَى معالـمُه ، فَعِلْمُ الأنسابِ ركنٌ مُهِمٌّ وأساسىٌّ من تاريخ البشر .

* ومن هنا نُدركُ مَدى سوءِ ما يَجرى فى الدول الـملحدة والعالـم الـمَادِّىِّ من حولنا - أى من حول الدولِ الإسلاميةِ - من خُروجٍ على مُقتضياتِ الفطرةِ الإنسانيةِ السليـمةِ فى كثير من الحالات ، وشيوعِ التوجُّهِ إلى عدم الاكتراث بتكوين الأسر على أساس قويم وسليـم موافقٍ لقوانين الفطرة السليـمة والتى من أجلها خُلِق الذكر والأنثى ، ومطابق لـمبادئ شرعِ اللّه وضوابِطه ، إذْ إن هذا التوجُّهَ قد يُؤدِّى مع مرورِ الزمنِ إلى تضييع أُسس التكوين الأسرىِّ القويم الصحيح وإذابتها ، مع ما لهذا النمَط من التوجه السيئ من انعكاساتٍ نفسيةٍ

سلبيةٍ جسيمة الأثرِ على الفردِ والجماعةِ ومع ما تحمِلُه هذه التوجهات من بطلانٍ واضح ، ومجافاةٍ لِما ينبغى أن يكونَ ، خصوصًا فيما يتعلَّق بوضع الطفولةِ وشيوع عدم انتمائها الأسرىِّ الانتماءِ السليم الصحيح ، وذلك فى المجتمعات الملحدة المادية والتى أطلقت العِنانَ للأهواء والأغراض الذاتية تحت شعارٍ مظلوم وهو « الحرية الشخصية » وهل تلك حرية ؟ أعاذنا اللّه من شرِّ شياطين الإنس والجن .

* ومثْلُ هذا يقال عن مساوئ عملياتِ التبنِّى ، وهو أن يُنسَب الشخصُ إلى غير أبيه ، ويأخذَ اسمَه وبرغبةِ المُتبنِّى ويترتب على ذلك - فى المعتاد لدى هؤلاء - حقوقُ البنوَّةِ النسبيَّة زورًا وبهتانًا ، وهذا أمرٌ انحرافىٌّ ، مع ما فيه من الكذبِ والافتراءِ ووضْعٌ للأمر فى غير موضعه ، لذا حُرِّم التبنِّى فى الدين الإسلامى تحريمًا قاطعًا وجازمًا : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٤، ٥] .

وفى قوله تعالى : ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ . توجيهٌ فيه رحمة وشفقةٌ ، وتوجيهٌ إلى جانبِ من حَلٍّ مشكلاتِ اللقطاءِ ومجهولى النسَب (١) من

---

(١) اللقيط : هو الطفل غيرُ البالغ الذى يوجد فى الطريق ولا يُعرف نسبه وقد أوجب الإسلام حمايته ورعايته ، وجعل أخْذَه للرعاية من فروض الكفاية ، ويُحكَم بإسلامه متى وُجد فى بلاد المسلمين .
والذى يجده هو الأولى بحضانته ، وتأكيدًا للحيطة من أجل سلامة الطفل يشترط أن يكون الشخص : حرًا عدلًا أمينًا رشيدًا بحيث يجد الطفل البرىء مناخًا يترعرع فيه فى جوٍّ الرحمة والرفق .
ويُطلَب من الملتقط التبرعُ برعايته وتربيته والإنفاق عليه إما من مال الطفل إذا وُجد ومعه مال أو من بيت المال ، أو عن طريق سخاء ذوى النفوس الطيبة إذا كان مُربِّيه وحاضنُه غيرَ قادر على الوفاء بحاجاته ، وبصفة عامة يوجب الإسلام على الدولة حماية هؤلاء الأطفال وتمكينهم من النمو واكتساب الخبرات والقيم الصالحة وحمايتهم من الضياع ، ولكنهم لا يرثون مُربِّيهم ولا هم يرثون الطفل إن كان له مال بل مصيره إلى بيت المال إن ماتَ اللقيط وليس له وارث شرعى . =

الأطفال واليتامى الذين لا موردَ لهم ، ولا مأوى فمن قَبِلَهم فى ضيافته ، فهم ضيوفُه مهما طال زمنُ بقائِهم عنده لا يأخذون اسمَه ، ولا يَرثونه ، ولا يَرِثُهم إن ظهر لهم مالٌ ، أو تركوه بعد أن يكبروا ويكتسبوا ، ولا يصيرون محارمَ له ولا لأهل بيتِه ، حسب الحال من ذكورةٍ وأنوثةٍ ، وإنما هم إخوةٌ فى الدين والعلاقةُ علاقةُ شفقة ورحمة فحسب ، حيث يُعامَلُون معاملةَ الأخ والمساعدِ والمناصرِ بتبادل الرحمةِ والمحبةِ والاحترامِ : ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ ولعائلى هؤلاء أجرُهم وثوابُهم عند اللّهِ مع إخلاصِ النياتِ والنوايا ، وإعطائِهم الرعايةَ المُناسبةَ لأمثالِهم ، وحسب الحالِ والمستوى الاقتصادى فى الأسرة المُضِيفةِ لهم ، ومع رعايةِ آدابِ الشريعةِ وواجباتها .

* * *

= ورعاية لهذه النفس ، فإن الذى يتقدم مدعيًا نسبه من ذكر أو أنثى أُلحق به متى كان وجوده منه مُمكنًا ، وحينئذٍ يثبت نسبه وإرثه .

هذا بخلاف ولد الزنا فإنه يرث أمه وقرابتها وترثه أمه وقرابتها ولا توارث بينه وبين أبيه بإجماع المسلمين لانتفاء النسب الشرعى .

٢ - الأُبوّة الحانية ..
والبُنوّةُ الصالحةُ ...

الولدُ الصالح نعمةٌ ، ورحمةٌ ، وبهجةٌ لقلب أبويه ، ودُرَّةٌ ثمينة فى عقد أسرته ، وأداةٌ طيبة ، وعملٌ صالح لأمته ؛ لأن الولد إذا نشأ فى بيئةٍ طيبةٍ ورُبِّىَ تربيةً سليمةً ، وغذِّىَ بالقيم العاليةِ الثابتةِ نَفَعَ نفسه ، ونفَع الجماعة ، وكان للخيرِ مُحبًا ، وعليه مُعينًا ، وللشرِّ مُبغضًا ، وله مُجتنبًا .

وهذا دعاءُ أبى الأنبياءِ إبراهيمَ الخليلِ ، عليه الصلاة والسلام ، يؤكِّدُ سعادةَ النفس بالولد الصالح الذى يُرجى منه الخير ، ويُؤمَنُ شرُّه .

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٩] .

إنها نفسٌ طيبة رزقها اللَّه عز وجل ذريةً طيبة ، هى قُرَّةُ العَين ؛ لذا توجَّه الخليل إلى ربه أن يُثَبِّتَهُ وأولادَهُ على دينِه القَيِّم ، وعلى طاعته ، وأن يجعلَ ذلك فى ذريتِه ، إذ الإنسانُ بالنفسِ لا بالجسم ، بالروحِ لا بالـمالِ بالعقيدةِ الصحيحةِ ، والآدابِ الساميةِ ، لا بالأحسابِ والأنسابِ ، ولنتدبرْ دعاءَه : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ ﴾ [إبراهيم : ٤٠] دعا لنفسِه ثم دعا لذريتِهِ أن يكونوا حتى آخر لحظةٍ من الحياة ممن يعبدونَ اللَّه ويُطيعونَهُ ويؤدُّون الصلاةَ شُكرًا للـمُنعم الوهابِ ، ثم ألحَّ على اللَّه بالدعاء : ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ واللَّه يحب الـمُلحين فى الدعاء .

وأثنَى اللَّه على نبيِّه إسماعيلَ ، عليه الصلاة والسلام ، لِدَأبِه على توجيه أهله وأولادِه نحو الخير ، وتثبيتهم على طريق الطاعةِ والشكرِ ، وأداءِ حقوق الرب :

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥] .

وهذا خليلُ الرحمنِ وحفيدُه يعقوبُ عليهما السلام يتابعه فى وصية الأبناءِ بالثباتِ على دين اللّٰه عز وجل ، والانقيادِ لطاعته سبحانه ، وإسلامِ وجوهِهم له ، ففى هذا خيرُهم ونجاتُهم ، وسكينةُ نفوسهم : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢] أى : وصَّى إبراهيم عليه السلام بَنِيه بوصيةِ ربه له : ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١] ثم جاء يعقوبُ فوصَّى بها بنيهِ أحفادَ خليلِ الرحمنِ عليهم الصلاة والسلام ، إنها وصيةُ القلوب الطاهرة الحريصةِ على سلامة الأبناءِ من مزالق الأهواءِ ونزغاتِ الشياطين وحتى تَسلمَ مُهَجُهم وتنجو من عذاب اللّٰه ، ويفوزوا برضوان اللّٰه ورحمته .

وإن الأبَ العاقلَ الحكيم هو الذى يرحمُ ولدَه بإحسان تربيته ، وإحاطتِهِ بالرعاية والتوجيهِ السديد ، وتنميةِ نوازع الخير فى نفسه .

ولنتدبر صورةً كريمة لهذا الاتجاه الأبوىِّ الكريم فى رحمته بالولد ، هذه الصورةُ يرسمها لنا القرآنُ الكريم على نحوٍ يأخذ بالألباب ، ليعقوبَ عليه السلام وهو يُودِّع الدنيا ، ويستقبلُ الآخرةَ فيُجْرِى حِوارًا بديعًا رائعًا مع بنيه : ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾

[البقرة: ١٣٣] .

لا شك أن قلبه اطمأن لجواب بنيه ، واستقبل الآخرةَ قريرَ العَين لسلامة يَقينهم ، وارتباطهم بالسلسلةِ الذهبيةِ لأهل التوحيد النقىِّ الخالصِ من كل شائبة

من شوائب الشركِ أو الشكِّ ، وقد أكّدوا إخلاصَهم بتأكيدهم الانقيادَ التامَّ لأوامر اللّه ، وإخلاصِهم الطاعةَ له وحده ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

تلكم هي الذرِّيةُ التى تسرُّ القلب ، وتَسْعَدُ بها النفوسُ ، وتَصلح بها الحياةُ وتستقيمُ على يديها الأمورُ ، إنها لنماذجُ كريمةٌ للأبوة الحانية أعطاها اللّه الحكمة ، ومن أوتى الحكمةَ فقد أوتى خيرًا كثيرًا ، وقد قصَّ علينا اللّه قَصَصَهم ، وبيَّن لنا أحوالَهم ؛ لأنها النماذجُ البشريةُ الكاملةُ الصالحةُ لنقتدىَ ونعمل ، ونسير على هذا الصراطِ المُستقيم الذى يهتدى سالكُه بنور العلم والحكمةِ ، ولا يُفلح تاركُه .

وكلمة وأثر البيئة الصالحة :

إن هذا التكوينَ الطيبَ للأسرة وللأمةِ لا يمكن أن يَتمَّ إلا فى إطار الأسرة المستقرَّة القائمةِ على علاقةٍ وثيقةٍ من التعاون والرحمةِ بين الزوجين - الرجل والمرأة - بحيث يأتى النسلُ جزءًا متمِّمًا لنفسين كريمين ، يَحْمِلُ النسلُ اسمَ الأبِ انتماءً للأصلاب التى بها تتضحُ معالمُ الأنساب ، وتنمو الجماعةُ على نحوٍ مترابط ، تتوثَّق فيه العلاقاتُ الاجتماعيةُ جيلًا بعد جيلٍ على نحوٍ سليم ، يحفظ للأمة شخصيتَها المتميزةَ ، ويُوجِّه الأجيالَ الوِجْهةَ الصالحةَ اللائقةَ بالإنسان ومكانته .

الفوضى باسم الحرية دمار وضياع :

لذا كانت الفوضى فى العلاقات بين الجنسين مؤدِّيةً إلى تدمير البناء الاجتماعىِّ للأمة مع مرورِ الأيام ، وشعور الجيل أو الأجيالِ التى تنشأ عن هذا الغرسِ السيئ بالضياع وضعفِ النفس ، ويُوازى هذا فى سُوئه الكذبُ فى الأنساب والافتراءُ فيها بانتساب إنسانٍ إلى غير أبيه ؛ لأن ذلك عواقبُه وَخِيمةٌ فى الدنيا والآخرة ، وفى الحديث المُتفق عليه رواية سعدِ بن أبى وقاص رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « من ادَّعى إلى غير أبيه وهو يَعلمُ أنه غيرُ أبيه فالجنةُ

عليه حرامٌ » .

ورواية أبى هريرة رضى اللّٰه عنه : « لا ترغَبوا عن آبائكم ، فمن رَغِبَ عن أبيه فهو كُفْرٌ » [متفق عليه] .

وفى رواية أبى ذرٍّ : « ليس من رجل ادَّعَى لغير أبيه وهو يعلـمُه إلا كفَر » لأن فى ذلك سَترًا للحقيقة ، وإنكارًا للفضل ، وضياعًا لِمعالـم الترابطِ الأُسرى الذى هو قِوامُ الجماعة الـمُؤمنة القويةِ الـمتراحِمة ، القائمةِ على التناصر والتواصى بالحق والخير .

الانتماء إلى الأصلاب فطرة نقية :

إن الانتماءَ إلى الأصلاب يُعطى الناشئةَ ملامحَها الحقيقيّةَ ، ويُكسبها سكينةً ويُضيف إلى القوم رأيًا وقوةً وعزمًا ، ويَزيد الأسرةَ تراحُمًا ، والأمةَ قُوةً وَمَنعةً ويحفظ للقبيلة أو الجماعةِ تاريخَها ، ولقد ازدهر شرفُ الأنسابِ فى ظلال الإسلام وصار خيارُهم : خيارُهم فى الجاهلية خيارُهم فى الإسلام .

طهارةُ نسب الرسول محمد ﷺ :

ولنتأمل طهارةَ نسبِ الرسول محمدٍ ﷺ وانحدارَه من أصلابٍ نَقيّةٍ عن طريق الزواج والنكاح ، ومن ترائبَ طاهرةٍ ، فهو ﷺ ، أشرفُ ولدِ آدمَ حسبًا ، وأفضلُهم نَسبًا من قِبَل أبيه وأُمّه ، فهى ذريةٌ بعضُها من بعض ، فى الشرف والنقاءِ والصفاءِ ، وفى سلامةِ الأنساب ووضُوحِها ، ومتانةِ الأعراق وقد حُفِظَ لأجداده ﷺ الفضلُ جيلًا بعد جيل ، وقد جاء فى الحديث عنه ﷺ : « ما ولدتنى بَغىٌّ قَطّ منذ كنتُ فى صُلْب آدمَ ، فلم تزل تَنَازعُنى الأممُ كابرًا عن كابر ، حتى خَرجتُ فى أفضلِ حَيَّيـن فى العرب : هاشم وزُهْرة » فأبوه من بنى هاشم ، وأمُّه من بنى زهرة . [حاشية سيرة ابن هشام - الجزء الأول - صفحة ١١٠] .

ونقل ابن الجوزى فى « الوفا بأحوال المُصطفى » عن على بن أبى طالب رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « خرجتُ من نكاحٍ ، ولم أخرج من سِفاح ، من لدُن آدمَ ، إلى أن ولدنى أبى وأمّى ،ولم يُصبنى من سفاح الجاهلية شىء » . ونقل بمعناه من رواية ابن عباس وفيه : « لم يزل اللّه يَنقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مُصَفًّى مُهذَّبًا » .

وكان ﷺ يتحدث عن نسبته إلى قريش ، وعن فصاحة لسانه : قال ابن إسحاق : وكان رسول اللّه ﷺ يقول لأصحابه : « أنا أعْرَبُكم ، أنا قُرشىٌّ واسْتُرْضِعْتُ فى بنى سعدِ بنِ بكر » [سيرة ابن هشام – الجزء الأول – صفحة ١٦٧] .

وجاء عند مسلم عن واثلة بن الأسقع أن النبىّ ﷺ تحدَّث عن نسبه وطهارة آبائه وشرفهم فقال : « إن اللّه اصطفى من وَلَد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بنى إسماعيل بَنى كِنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشًا واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

وفى حديث العباس بن عبد المطلب جاء : « فأنا خيرُ – الناس – بيتًا وخيرهم نفسًا » وقال ﷺ للأنصار حين تذاكروا ما يتصل بنسبه : « ألَا إن اللّه خلق خَلْقه ، ثم فرّقهم فرقتين فجعلنى من خير الفريقين ، ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة ، فأنا خيركم بيتًا وخيرُكم نفسًا »

[رواه ربيعة ونقله ابن الجوزى فى الوفا بأحوال المصطفى الجزء الأول] .

فهذا النسب انتماءٌ إلى الأصلاب ، يَدْعَمه انتسابٌ كريم طاهر آخرُ من جهة أمّه ﷺ ، وقد شَرُفوا جميعًا به ، وزادوا عِزًّا ونُبلًا ونباهةَ شأن .

أبو بكر الصديق [النسَّابة] :

وكان أبو بكر الصِّدِّيق رضى اللّه عنه أنسبَ العربِ وأعلَمهم فى هذا

الباب ، مع اعتزاز العربِ بعلْم الأنساب ، وحِفظها جيلًا بعد جيل ، وكان رضى اللّه عنه ، يحضُ على تعلُّم الأنساب ، ويسعى لتعليم من يتوسَّم فيهم القدرة والنباهة ، وممَّا يؤكد فضلَ هذا الأمر : أن عمرَ بن الخطاب رضى اللّه عنه حين افتُتحت المدائنُ ، وأُتِىَ بسيفِ النُّعمانِ بنِ المُنْذِرِ ، دعا عمرُ إليه جُبيرَ بنَ مطعمِ بنِ عَدىٍّ بنِ نوفل بن عبد مناف بن قُصى يسألُه عن النعمان وكان جُبير رضى اللّه عنه من أنسب قريشٍ لقريش وللعرب قاطبةً ، فقال عمرُ : فمَن كان يا جُبيرُ ، النعمانُ بنُ المنذر ؟ يعنى ما أصولُه ؟ ما عُروقه التاريخية ؟ فأجاب جبير : النعمانُ كان من أشْلاءِ قُنُص بنِ مَعَدٍّ . أى : مِن بقايا أولادِ قُنص بن مَعدٍّ أى ابنِ عدنانَ وذريته ، وهؤلاء كانوا قد تفرَّقوا بعد معاركَ دارتْ بينهم ، وقَحْطٍ حَلَّ بهم بالحجاز ، فساروا نحو سوادِ العراق ، ثُم أجلاهم عنه من تغلَّب عليهم فتمزَّقوا أشلاءً وقِطعًا مُتناثرةً لَحِقت بقبائل العرب ، ودخلوا فيهم ، وانتسبوا إليهم .

فانظر كيف استطاع جُبير ، رضى اللّه عنه ، تحديدَ نسبِ النُّعمان بنِ المُنذر وردَّه إلى جُذوره برغم تَشتُّت قبيلتِه وتناثُرِها .

إن جبيرَ بنَ مطعم يعترفُ بالأستاذية فى هذه الدقةِ العلميةِ لأبى بكر الصديق رضى اللّه عنه فكان يقول : « إنما أخذتُ الأنسابَ من أبى بكر الصديقِ رضى اللّه عنه ، وكان أبو بكر أنسبَ العَرب »

[قصة جبير مع عمر فى سيرة ابن هشام صفحة ١٢ - الصلب والهامش الجزء الأول] .

وحسّان بن ثابت :

وتشعرُ بقوة وجمال هذا العِلْم وأنت تسمعُ لحسانَ بنِ ثابت رضى اللّه عنه يُنبيك عن جُذور الأنصار - الأوسِ والخزرج - أهل المدينةِ المنورةِ وأنصارِ رسولِ اللّه ﷺ ، فيقول : « والأنصارُ بنو الأوْس والخزرج ابنَىْ حارثةَ بنِ ثَعلبةَ بنِ

عَمرو بن عامرِ بنِ حارثةَ بن امرئ القَيس بنِ ثعلَبةَ بنِ مازنِ بن الأزد[1] بنِ الغَوْث .

والغوثُ تتصلُ سلسلةُ نَسَبِه بيعرُبَ بن قحطانَ أهلِ اليمنِ ، وكان حسَّانُ يقول عن نسبه :

يا أختَ آلِ فِراسٍ إننى رجلٌ من مَعْشَرٍ لهم فى المجْدِ بُنيانُ
إمَّا سألتِ فإنَّا معشرٌ نُجُبٌ الأَسْدُ نِسبتُنا والماءُ غَسَّانُ

والأَسْدُ لغةٌ فى الأزْد ، وتلك قطرةٌ من بحرٍ فى هذا البابِ ومُجرَّد أمثلة تنبيهًا على فضْل هذا البابِ ، وتأكيدًا لكرامة قوةِ الانتسابِ إلى الأصلاب .

تحريم الطعن فى الأنساب :

ومِمَّا يُؤَكِّد شرفَ الانتسابِ إلى الأصلابِ ما جاء من تغليظ النهى عن الطعْن فى الأنساب احترامًا لتلك الرابطةِ الإنسانيةِ التى بها تتضحُ معالمُ شخصية المرء طفلًا وشابًا ورجلًا وشيخًا ، فقد جاء عند مسلم عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « اثنتان فى الناسِ هما بهما كُفرٌ : الطعنُ فى الأنساب ، والنياحةُ على الميِّت » .

إن نسبَ المرءِ إلى أبيه وارتباطَهُ بسلسلة آبائِه وأصلابهِ يُكسبه قوةً فى الشخصية وطمأنينةً نفسيةً ، فإذا التقَى مع هذا حلاوةُ الإيمانِ ، وصِدقُ اليقين ، وسلامةُ الدِّين كان الخيرُ أعمَّ ، والسكينةُ أعظمَ ، واكتَسى الإنسانُ وقارًا وسماحةَ نفسٍ وتواضُعًا كريمًا بفضل إيمانه بالدين الحق وانقيادِه لتعاليمه وآدابه .

إنَّ كلمة : يا أبتِ ، على لسان الابن لها وقعٌ جميل على القلب والنفس

---

(١) الأزد : هو أبو حيّ من اليمن ، وهو أزدُ بنُ غوث بن نبتِ بنِ مالك بن كهلان بن سبأ (الصّحاح للجوهرى وقد أشار إلى أن الأسْد بالسين أفصح من الأزد) قال هم : أزْد شَنُوءَة ، وأزدُ عُمَانَ وأزْدُ السَّراة .

ومثلها قولُ الأبِ لابنه : يا بُنيّ ، وانظر قولَ يوسف عليه السلام لأبيه يعقوب : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ .

[يوسف : آية ٤] .

وتأمل قولَ يعقوبَ الأبِ عليه السلام لأولاده : ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : آية ٨٧] .

وتدبر ما لهذا الحوار من حلاوة وجمال فى ظلال أسرةٍ كريمةٍ خُصَّتْ بسورة كاملة من كتاب اللّٰه عزّ وجلّ .

* * *

٣ - فى رعاية الناشئة ..
إحسان إلى أنفسنا

[أولادنا هم الصحفُ التى نَنقشُ عليها خبراتِنا ، وتَوجُهاتِنا ، ليضيفوا هم لـمَن بعدهم ، وبذلك تظل حياةُ الإنسان فى نماء مستمرٍّ ، وتتعدَّل ظواهرُ حياته ، أو يتغير تشكيلُ جوانبَ منها جيلًا بعد جيـل ، حسب نـوعِ اللَّبِنَات الفكريـة ، أو الصورية التى تُضاف أو تنشأ كلَّ حين] .

خبراتنا وأولادنا :

إننا نبنى ، ونَشيدُ ، ونكتبُ ، ونبتكر ، ونخترع ، ونزرعُ ، ونُمهِّد بذلك لأطفالنا الذين يُطِلُّون على الدنيا بوجوهٍ بريئة ، وقلوبٍ نقيَّة طاهرة ، وهؤلاء يكبرون ويستلـمون الزِّمامَ ليُضيفوا ما شاء اللَّه لهم أن يُضيفوا لِمن يَلونَهم ، وهكذا مضت الحياة منذ آدمَ ، وتَمضى على السُّنَنِ الـمقدَّر لها ، حتى يَرِث اللَّه الأرض ومن عليها .

كيف لا نمنحهم كل رعاية وعناية ؟

إن أطفالنا اليوم هم بُناةُ الغد ، وهم رجالُه : مُفكِّروه ، وسواعدُه ، ودروعُ أمنه ، وحماةُ استقراره ، وهم فى الإسلام مُستودَعُ أماناتِ الآباء ؛ يحفظون الدِّين ، وينقادون لربِّ العالـمين ، ويَبقَوْن على العهد ما بَقِى لهم على الأرض نَفَسٌ ، هم حلقةٌ ذهبيةٌ فى سِلسلة أُسَرِهم وقبائلهم التى يتكوَّن من مجموعها تاريخُ الأمة ، وتكتسب الأمةُ منعَتَها ومزاياها من امتزاجها وتضافر جهودها ، لتقديـم أحسنِ ما عندها وعند أفرادِها من خدماتٍ وأعمالٍ بها يتحقق الرخاءُ والازدهارُ ، والترقى الـمنشودُ الذى يعود خيرُه على الجميع ؛ فالتعاون شعارهم ،

والإخلاصُ حاديهم ، وقصدُ الخير للجميع غايتُهم .

وقد أجرى اللّهُ الكريم عادته بأن من قَصد الخير وُفِّقِ له ، ويُسِّر عليه ، ومن نوى صالحًا ثُبِّتَ عليه بفضل اللّه وإحسانه .

إن أطفالنا يحملون أسماء أُسرهم وآبائهم ، وإن الإسلام يوجب علينا إحسانَ تربيتهم ، وإعدادهم إعدادًا طيبًا ليكونوا أهلًا للكرامة فى الدنيا وللفوز والنجاة فى الآخرة ، وإذا أحسنًا تربيتَهُم فقد أحسنا إلى أنفسنا .

إن الأبوةَ حنانٌ ورحمةٌ وإن فلذاتِ الأكبادِ هم الأوْلى بهذه الرحمةِ التى تُحيط الناشئةَ بسياج من الرعاية والعنايةِ يُجنِّبهم أسبابَ الهلكة والضياع ، ويُرشِّد مَسالكَهم على طريق الخير والنجاح : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم : ٦] .

وهذا هو الذى حدا بإبراهيمَ الخليلِ ويعقوبَ عليهما أفضلُ الصلاة والسلام إلى تأكيد الوصيةِ بالدِّين ، والثبات على توحيدِ الإله وطاعتِه والانقيادِ لأمره وإسلام الوجوهِ له حتى تنقضى الحياة ، وظلت تلك الوصيةُ على ألسنتهم يُلِحُّون بها على الأبناء ويذكّرونهم بها حينًا بعد حين، وقد كانت تلك آخرَ وصايا يعقوبَ وهو يفارق الدنيا ، وقد اطمأن قلبه إلى سلامة موقفِ أبنائِه من الحق وتمسُّكهم به ، وسيرِهم على منهاج آبائهم الصالحين .

ونموذج للأبوة الحانية :

وإن المتدبِّر فى وصايا لقمانَ الحكيم - عليه السلام - لَيَرَى نَموذجًا رائعًا ومؤثرًا للأبوة الحانية ، والقلب الكبير ، والمربِّى الكريم ، والحكيم ذى الفكر المستقيم ، والرأى السديد ، وقد سُمِّيتْ إحدى سورِ القرآنِ باسمه ؛ فيها آياتٌ بينات ، وحِكَمٌ مُفصَّلات ، ووصايا لبناء النفس الإنسانيةِ بناءً سليمًا مكتملًا

يشمل : القلبَ ، والعقلَ ، والجسم ، والخُلق .

وأولُ قاعدة فى هذا البناء : طهارةُ القلب بتوحيدِ الإلهِ وإخلاصِ الطاعةِ له وحده سبحانه : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ ﴾ [لقمان : ١٣] نهاه عن أعظم الظلم وهو الظلمُ الذى لا يُغفَر لصاحبه ، إذا مات مُصِرًّا على الإنكار أو الشركِ فى الأفعال ، أو الأقوال ، أو النيّاتِ ، وإنّ النهيَ عن الشىء يَقتضى اجتنابَهُ والحذرَ منه ، ولزومَ ضِدِّه والثباتَ عليه وهو التوحيدُ النقىُ الخالصُ من كل شائبةٍ من شوائبِ الشركِ ، فالتوحيدُ الخالصُ هو أساسُ كلِّ خير ومنبعُ كلِّ بركة ، وسِرُّ كل رحمة .

ومن مُقتضيات التوحيدِ شكرُ المنعم ، وإدآبُ الجوارح فى خدمته وخشيتُه فى السرِّ والعلانية ، لذا أمر اللّه العبد بقوله : ﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ ﴾ [لقمان : ١٤] . وبرُّ الوالدين ، وطاعتُهما ، والوفاءُ بحقوقهما والقيامُ على خدمتهما ، وخفضُ الصوتِ أمامهما ، ولينُ الكلام لهما وحُسن الخُلق معهما ، والدأَبُ على راحتهما هو عينُ شكرِهما ، كما أن طاعةَ اللّه وعبادتَه ، والإخلاصَ فيها ، والقيامَ بفرائضه ، و كثرةَ ذِكْره وحمدِه ، هو عينُ الشكر الذى من أجله خُلق الإنسان ، ومُنح السمعَ والبصرَ والعقلَ والفهمَ وسُخِّر الكونُ لخدمته .

تربية الضمير وصَقْله :

ثم إن ما يُسَمَّى « الضمير » فى عالم المدنية المعاصرة لا يصلُح وحده للحكم على الأمور ، وتحديدِ ما هو حَسَنٌ ، وما هو قبيح ، وما ينبغى وما لا ينبغى ؛ لأنه بطبيعته مُتذبذبٌ متقلِّب ، لا يستقرُّ على حال ، فقد يَرضى عن شىء فى حال ، ويسخط عليه فى حال ، حسب تَغيُّر المزاج ، والمكان والزمان ، وتؤثر فى توجيهه النزعاتُ العِرقية ، ونوعُ التربية ، ومُتقبّلاتُ البيئةِ والوسط والعُرف ، والرُّفقة ونحو ذلك ، لذا نجد الجمَلَ قد استَنْوَقَ فى المجتمعاتِ المُنحَلَّة ، وفى البيئات الملحدة التى أباحت ما لا يجوز عقلًا وذوقًا أن يُباح ،

وما تأباه الفِطرةُ السليمة التى هذّبها دينُ اللّه .

أمّا الضميرُ الذى هَذّبه الدين الحقُّ ، وصَقلته شريعةُ اللّه ، فإنه ينظر إلى الأمور على بصيرة ، وينطلق فى المسير على هداية الدين ، وإرشادِ المشرِّع الحكيم : فالخيرُ خيرٌ ، والشرُّ شرٌّ ، والحلالُ حلالٌ ، والحرامُ حرامٌ ، كما بين اللّه ورسولُه ، وتأسيسًا على مقتضيات الفطرةِ الإنسانيةِ النقيةِ التى رُبِّيَتْ تربيةً صالحة تستمدُّ مُقوِّماتِها وعناصرَها من أوامر اللّهِ ونواهيه ، وهو سبحانه أعلمُ بعباده وبِما ينفعهم ، وما يضرُّهم ، وما تصلُح به نفوسُهم وأحوالُهم .

إحياء الوازع الدينى : وبعد الإيمان بوحدانية الإله ، يجىء إحياءُ الوازع الدينى فى النفس وإيقاظُ الرقابة الإيمانية فى القلب ، وتنبيهُ الضمير حتى يظلَّ على طريقه المُستقيم ، جاء على لسان لقمان : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان : ١٦] .

يا بنىّ : نداءُ الأبوةِ يتكررُ فى هذه الوصايا والدروسِ القيّمة للإشعار بقُرب الابن من قلب الأب ، وإشعارِ الابنِ بشفقَةِ الأبِ وحُنوِّه وخوفِه الذى يدفعه إلى إحاطة الابنِ بالنور الذى يُوضحُ له معالمَ طريق حياته .

ثم انظر إلى المَثل الذى ضربه ليقرِّبَ المعانِيَ المُرادةَ من العقل والقلب ويجعلَها كأنها ماثلةٌ أمام العين ، وإن حبةَ الخردلِ مَثَلٌ لأدنَى ما يُوزن ، فلو كان هذا الجِرمُ الصغيرُ مطروحًا فى السموات على عظمة بنيانها وحجمها وأجْرامِها واتساع جوانبها ، أو مطروحًا فى الأرض كذلك ، أو كان فى جوف صخرةٍ صَمّاء لا يدخلُها ضوء ، فإن ذلك يقعُ تحت عِلم اللّه لا يغيبُ عنه فكذا أعمال العبد مهما أسرَّ ما أسرَّ منها ، أو اختفى بها عن عيون الناس ومهما كانت صغيرةً أو كبيرة ، قولًا أو فعلًا ، أو نيّةً وعزمًا ، فإن اللّه عز وجل يُريها لصاحبها يوم

الحساب ويُجازيه عليها إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشرٌ ، إنه مَثَلٌ يَصْقُلُ ضميرَ المُؤمن ،ويُحيى قلبَه ، ويجعل رقيبَه من نفسه فيقفُ عند حدودِ اللّٰه عز وجل .

إن لقمانَ حقًّا نموذجٌ سامٍ عظيمٌ للمربِّين والآباء والأمهات والمرشدين فى منهجه وأسلوبه الرفيع فى تنميةِ الفضائل الثابتةِ فى نفوس الناشئة ، وإذا استقام ضميرُ المرءِ تجنبَ المُهلكات ، والمُوبقات فيسلم له عقلُه ، وبدنُه ونفسُه ، ويصير عضوًا صالحًا نافعًا لذاته ولغيره .

وإذا صحَّ الإيمانُ ، وقوى الوازعُ الدينى ، أقبل الإنسانُ على طاعة اللّٰه وإن أعظم العباداتِ الصلاةُ ، فقد أمر اللّٰه بها جميعَ المرسَلين والأنبياء ووصَّى بها جميعُ أولياء اللّٰه الصالحين أولادَهم وأهليهم وطلبوا من اللّٰه العونَ على أدائها والمحافظةِ عليها : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وكلمة « يا بنى » مع كل وصية لها وقعٌ جميل فى النفس وتكرارُها يستميل المنصوح : ﴿ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ ﴾ [لقمان : ١٧] .

إن إقامةَ الصلاةِ تتصلُ بالنفع الذاتى ، فَمَن أدَّاها نَفَع نفسه ، وأنقَذ مُهجتَه ، وأسعد رُوحَه ،ومن كان على هذا النحو من التربية الرشيدةِ يُنصح بأن يكونَ له دورٌ فى النفع المُتعدِّى على حسب إمكاناته ، وفى حدودِ الآدابِ الشرعية ، يُوجِّه غيرَهُ إلى الخير ، ويَنصَحُ له بالرجوع عن الشرِّ ، ويصبرُ على أداء ما يُمكنه فى هذا السبيل ، يصبر على الطاعة ، يصبر على المشقة ، يصبرُ عن المعصية ، ويصبرُ إذا لحقه أذًى محتسبًا راضيًا كافًّا جوارحَه عما يُسخط اللّٰه .

الوقار والتواضع والخُلق الكريم :

ثم إن بناء النفس المُطمئنةِ بالإيمان الصحيح ، وبالطاعةِ والانقياد وإحياءِ الوازع الدينىّ فى القلب ، ومراقبةِ اللّٰه فى السرِّ والعلن ، وأداء الفرائض وإيصال الخير للناس ، إن هذا كلَّه لا يكتمل جمالُه ورَوْنقُه ، ولا يتمُّ قبولُه إلا من النفس

التى تتواضعُ لله عز وجلَّ ، وتضعُ النِّعَمَ فى مواضعها الصحيحة التى خُلقت لها ، وهُيئت من أجلها ، ويتسمُ صاحبُها بالحِلـم والوقار والسكينة ولينِ الجانبِ وسَعةِ الصدْر والخُلق الكريـم والتواضُع لعباد اللّه : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أى لا تتكبرْ على عباد اللّه ، احذرْ هذا ؛ لأن الكبرياءَ لله وحده فمن نازعه فى كبريائه قَصمه وأذلَّه : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ إيَّاك والاختيالَ والعُجبَ فأنت من الطين ، وإلى الطين والناسُ كلُّهم لآدمَ وآدمُ من تُراب ، وإن اللّه يبغضُ أهلَ الاختيال والعُجب والتعالى على الناس لأىِّ سبب : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : ١٨] بل عليك بالقصد والتوسطِ والاعتدالِ والرفقِ فى كل أمورك ويظهرُ ذلك فى مشْيك وخفضِ صوتِكَ ، فلا ترفعْه فوقَ الحَاجة ، فى مُخاطباتك ومعاملاتِكَ ، إذ الصوتُ العالى مِن غير سببٍ مُوجبٍ له قبيحٌ ويُضرب له الـمثلُ بصوت الحمارِ الذى هو أبغض صوتٍ إلى الناس : ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٩] .

هذا نموذجٌ رائعٌ لنفس إنسانيةٍ عظيـمة ضُرب بها الـمثلُ فى الحكمة وبُعدِ النظر ، واستقامةِ الفكر ، والحنانِ الأبوىِّ الذى هو نموذجٌ تُوجَّه إليه الأنظار ، ويلتفت إليه أهلُ العقلِ والحِكمة فى مجال رعايتهم لفلذات الأكباد .

إذ لا ينبغى أبدًا أن يُتركوا هَملًا ، أو يُلقَى بهم فى خِضَمِّ الحياةِ قبل التسلُّح بالدِّين والخُلق الكريـم ، والعِلـم الـمُفيد ، وَجِدِّيَّةِ الاستقامةِ على مبادئ الفطرة النقية الطاهرة ، التى نَمَّاها دينُ اللّه ، وهذَّبها ، وبصَّرها ورشَّد مسالكها وتوجُّهاتها ، فاستقام العبدُ على طريق الراشدين أولياء اللّهِ الصالحين .

* * *

٤ - الثمرة الطيبة من تُربةٍ صالحة ورعاية صحيحة

[ووضوح تاريخ كل شعب ونقاؤه]

العلاقةُ بين الرجل والـمرأةِ والـميلُ الطبعىُ بينهما أمرٌ فِطرىٌّ اقتضته الحكمةُ الإلهيةُ فى إطار النظام الكونىِّ البديع الـمُتناسق ، الذى وُزِّعت فيه الوظائفُ وأنماطُ التسخيرِ الـمتعدِّدَةُ لصالح تكامُل الحياةِ على اليابسةِ ليتسنَّى لآدمَ وأولادِه من بعدِه أن يقوموا بِما كُلِّفوا به ، ويَنهضوا بالأعباء التى أشار إليها نبىُّ اللَّه صالح عليه السلام فى إيجاز بليغ مُعجز إذ قال لقومه : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود : ٦١] فهى أعباءٌ باطنةٌ وظاهرةٌ ، روحيةٌ ومادِّيةٌ عَمليَّة ، ومن خلال هذه العلاقةِ التى تتـم عن طريق الزواج الشرعىِّ يتـمُّ التكاثر ، ويَبقى النوعُ إلى الآماد الـمقدَّرة فى لوح القدَر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

[الحجرات : ١٤] .

وإن هذا التعددَ بين الشعوب والقبائل ، وإن اختلافَ السماتِ وتنوُّعَ الـملامح والقُدرات والهِباتِ داعيةٌ إلى التآلف والتعارفِ لا إلى التناكُرِ والتناحرِ : ﴿ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ ذلك أن التعاون أمرٌ تَفرضه حاجاتُ الإنسان وضروراتُ حياته ، ومنذ قديـم الزمانِ وهذا التعاونُ قائمٌ من أجل تبادلِ الخيرات والبركاتِ ، ونقلِ الخبراتِ من بيئة إلى أخرى ، وقد نما هذا التعاونُ على مرِّ السنين ، وكرِّ الأعوام ، حتى صار فى زماننا أمرًا ملموسًا للكبير والصغير ، والحاضرِ والبادى ، والدانى والبعيد ، ففى عُمْق إفريقيا مثلًا نجد الـمنسوجَ اليابانىَّ والبريطانىَّ والفرنسىَّ وغير

ذلك كما نجد خطوطَ الإنتاج المجلُوبةَ من أقصى الشرقِ أو الغرب ، وحتى فى مجال المأكولات المحفوظة والطازجةِ ، مِمَّا يُمكِّن الإنسانَ من تحقيقِ التكامل المنشود لسدِّ حاجاته . وكما يقول المثل :

فالناسُ للناسِ من بَدْوٍ ومن حَضَرٍ   بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعرُوا خَدَمُ

وتلك حكمةٌ عاليةٌ ، وعِبرةٌ نافذة ، وإن البقاءَ والنماءَ للأصلح ، ومن كان أتقى قلبًا ، وأنقى باطنًا ، وأقومَ طريقًا ، وأهدى وأرشد فهو القوة التى تَبنى ولا تَهدم ، وتجمع ولا تُفرق ، وتُرشِّد ولا تُضلِّل ، مِمَّا يوجب على أهل الدين الحق أن يكونوا مناراتٍ على طريق الحياة ، يُمِدُّون شجرتَها بالعناصر الحية التى تجعلها أكثرَ صلاحية ، وأعظمَ نفعًا ، وأكثر خيرًا ، وتُكسبها رونقًا وجمالًا وبهاء ، بحيث يتفيأ الإنسانُ ظلالَها الرحيمة فى أمن وسكينة ورِضًى .

الأساس :

إن الأساسَ الذى تتكون منه الشعوبُ والقبائلُ هو « الأسرة » إذ الشعبُ هو الجمْعُ العظيم المنتسبون إلى أصل واحد ، و « الشعبُ » : يَجمع القبائلَ و « القبيلةُ » تكوينها من « العَمائر » و « العِمَارةُ » تتألفُ من البُطون و « البطنُ » يضمُّ بين جناحيْه : الأفخاذَ ، و « الفَخِذ » يتكوَّن من الفَصائلِ ، و « الفصيلةُ » هو ما اصْطُلِحَ على تسميتها : بالأسرة الصغيرةِ التى تجمعُ بين جناحَيْها : الأبَ والأمَّ وأولادَهُما ، وهؤلاء يكونون فى المعتادِ فى إطار أسرةٍ أكبرَ تتكون من عددٍ من الأفراد أو الأسرِ الصغيرةِ التى تَجمعُ الأعمامَ وأولادَ الأعمام ، والإخوةَ وأولادَهم ، مِمَّن ينتسبون إلى جَدٍّ واحدٍ يَحتويهم تحت اسمِه ، وتُسمَّى الأسرةُ أيضًا بالعائلة .

وللتوضيح بمثال : فإن أولادَ العباس عمِّ النبى ﷺ : « فصيلةُ عباس » وهم جزءٌ من « فَخِذٍ » هم « بنو هاشم » ، وهؤلاء من « بَطْنٍ » هُم « قُصَيٍّ » الذين هم جزءٌ من « عِمارةٍ » هى : « قريشٌ » وقريشٌ إحدى قبائل « كِنَانَة » ، وكنانة من

شَعْبِ « خُزيمة » .

ولا شكَّ أن هذا التقسيمَ ونحْوَه إنما تـمَّ التوفيقُ إليه لِتظلَّ حلقاتُ السلسلةِ مُترابطةً ، والـملامحُ الخاصةُ بكل شعبٍ وما تفرَّع منه بيِّنةً واضحة وبذلك يحفظ التاريخُ البشريُّ نقاوتَه ، ما دامت بدايةُ الأساس سليـمةً .

التكوين وعناية الإسلام به :

الاختيار :

رغَّب الإسلامُ فى الزواج وحثَّ الشبابَ القادِرَ على أعبائه على الـمُبادرة إليه ، لِما فى ذلك من الـمنافع والـمصالح الجمَّة التى تعود على الفرد والجماعةِ ، وفى الحديث الـمُتفق عليه يقول عبد اللّٰه بن مسعود رضى اللّٰه عنه : قال رسول اللّٰه ﷺ : « يا معشرَ الشبابِ ، مَن استطاع منكم الباءَةَ فليتزوَّجْ ، فإنه أغضُّ للبصر ، وأحصنُ للفرج ، ومن لـم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وِجَاء » والباءَةُ : تَعنى القدرةَ على أعباء الزواج ، بحسب الوسَط والزمن مع الطاقة اللائقة به . والوِجَاء : تـمثيلٌ للعِفَّة التى هى ثمرةٌ لضبْطِ النفس والاعتدال وقوةِ إرادةِ الـمُؤمن التى يُنمِّيها الصومُ والإمساكُ عن الـمُفطِّرات أيَّامًا من كل شهر ، مع ما فى العبادة من تعويدٍ على الـمُراقبة والـمُلاحظة ، والوِجاءُ فى أصله : الخِصَاءُ وقد شُبِّه الصومُ فى تعويد أهلِ الصيام على ضبط شهواتهم ودفعها عند الحاجة لوقاية أنفسهم بالخِصاء الذى يَمنع صاحبَه ويحولُ بينه وبين الوِقاع .

ومع حَثِّ الإسلام على الزواج جاء نهيُه عن الرهْبنةِ نهيًا قاطعًا وجازمًا ما دامت القدرةُ على الباءة متوافرةً فعن ابن مسعود قال : كان رسول اللّٰه ﷺ يأمرنا بالباءة ، وينهَى عن التبتُّل نهيًا شديدًا ، ويقول : « تزوَّجوا الولودَ الودُود ، فإنى مُكاثِرٌ بكـم الأنبياءَ يومَ القيامة » [أخرجه أحمد وصححه ابن حبان] .

والتبتُّل : أصله القطعُ ، والـمرادُ الانقطاعُ للعبادة وتركُ الزواجِ لهذا .

ثم انظرْ إلى حِرص الإسلام على حُسن اختيار الزوجة بأن تكونَ مِمَّن يُتوقَّع منهنَّ كثرةُ الوِلادة ،وذلك يكون فى المعتاد بالنظر إلى حال قَرابَتِها كالأخت والعمَّة والخالة ونحو ذلك ، وبأن تكون « وَدُودًا » أى مُحبَّبة بكثرة ما هى عليه من خصالٍ طيبةٍ ، وحسنِ خلقٍ ، وحياءٍ ، ومن بيئةٍ مستورة الحالِ تُعين على طاعة اللّه .

وحسن الاختيار له ثمراته الطيبة :

وإن الاجتهاد فى حُسن اختيار الزوجةِ يُساعد كثيرًا على تجنيب النسلِ الصفاتِ الوراثيةَ السيئةَ من الناحيتين البدنيةِ والنفسيةِ ؛ لذا أكد الإسلامُ على تحرِّى الخلق الكريم والبيئةِ الصالحةِ فى ضوء هدايةِ الإسلام ، وتحرِّى التديُّنِ والتوجُّهاتِ الطيبةِ لديها ولدى أسرتها ، ونرى هذا واضحًا فى الحديث الذى رواه أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : «تُنكحُ المرأةُ لأربع : لِمالها ، ولحسبِها ، ولجمالها ، ولدِينها ، فاظفَرْ بذاتِ الدِّين تَرِبتْ يَدَاك » [متفق عليه] .

والحسب : المراد به الفعلُ الجميل للرجل وآبائه .

وتَرِبت يداك : معناه فى الأصل : التصقتْ بالتراب من الفقر ، ولكنها جاءت فى كلام العربِ على صورة الدعاءِ ، ولا يُراد بها الدعاءُ ، ولكن يراد الحثُّ والتحريض .

إنه توجيهٌ نبوىٌّ كريم إلى تحرِّى الدِّين عند اختيار الشابِّ شريكةَ حياته إذْ الداعى إلى الزواج عند الرجل أحدُ هذه الأربع : الثراءُ ، وعراقةُ الأصل والنسبِ ، وكذلك الجمالُ ، وآخرُها : الدِّين كما هو مُشاهَد من أحوال الناس فوجَّه الرسول ﷺ الهممَ إلى جعلِ الدينِ والصلاح فى أعلى قائمةِ المُرجِّحات لاختيار الزوجةِ ، فإذا وجدوا ذاتَ الدين كان خيرًا وبركة ؛ لأن الزواجَ سكنٌ وسكينةٌ وهو السبيل لإنجاب الذرية التى تحظى من ذوى العقل والحكمةِ بالعناية والرعايةِ ،

وتهيئةِ الـمناخ الصالح لنموِّها على أفضل وجه مُمكن ، فإذا توافر مع الدين الـمالُ ، أو الجمالُ ، أو الحسب فبها وَنِعْمَتْ ، وإذا توافرت الأسباب كلُّها كان فضلًا من اللَّه وإحسانًا .

وفى إطار التأكيدِ على قصد اختيار ذاتِ الدين ، جاء بيانُ ما قد يُوقع الـمرءَ فى مشاكل سوء الاختيار ، إذا هو غفل عن البحث عن هذا الجانب أولًا ، ففى حديث ابن عمر عند البزار وابن ماجه والبيهقى : « لا تَنكِحُوا النساءَ لحُسْنهنَّ فلعله يُرديهِنَّ ، ولا لِـمالهنَّ فلعله يُطغيهِنَّ ، وانكِحُوهنَّ للدِّين ، ولأَمَةٌ سوداءُ خَرقاءُ ذاتُ دِينٍ أفضل » .

وعند مسلـم والنسائى : « الدنيا مَتاعٌ ، وخيرُ مَتَاعِها الـمرأةُ الصالحةُ »

[رواه عبد اللَّه بن عمرو] .

صفة المحبَّبة فى هذا المجال :

وإذا وُفِّق الإنسانُ للـمرأة التى تُعنى بنفسها وتسرُّ زوجَها إذا نظر إليها وتكون مطيعةً سمحةً ، سهلةً فى معاملة زوجها ، أمينةً على نفسها ، وعلى ماله ومالها ، كان ذلك أدعَى إلى استقرار الحياة الزوجية ، وسببًا قويًّا فى تثبيت أركان الأسرة ، وفى حديث أبى هريرة عند النسائى : « قيل : يا رسولَ اللَّه أىُّ النساء خيرٌ ؟ قال : التى تَسرُّه إن نظر إليها ، وتُطيعه إن أمرها ، ولا تُخالفُه فى نفسِها ومالِه بِما يَكره » .

وفى الحديث : « مَن رزقه اللَّهُ امرأةً صالحةً فقد أعانه على شَطْرِ دِينه فلْيتَّقِ اللَّهَ فى الشَّطْر الباقى » . [رواه أنس وقال الحاكم : صحيح الإسناد وأخرجه الطبرانى] .

العناية بتربية الفتيات :

إن الزوجةَ هى سِرُّ زوجِها وضجيعتُه ، وأمُّ أولاده ، والأمينةُ على الـمنزل

والـمال ، فتوجيهُ الجهود إلى حُسن تربيةِ الفتيات منذ نشأتهنَّ ، والعنايةُ بتوجيههن الوجهةَ الصالحة ، وتعويدِهن على أداء العبادات ، مع تنميةِ الوازِع الدينى فى نفوسهن ، وتبصيرِهن بأوامره ونواهيه ، إن هذا يُعطى أعظمَ الثمرات ؛ لأن الـمرأة قِوامٌ أساسيٌّ فى بناءِ الأسرة ، وإذا صلَحت الأسرُ عزَّت الأمةُ ، وازدهرت ، وقوىَ جانبها .

لهذا جاء الحثُّ على حُسن رعايةِ البنات ، والقيام بتربيتهن على أفضل وجه ، والترغيب فى الرفق بهن والصبر على التوجيه والإحاطة بكل صنوف الإحسان حتى تستغنىَ البنتُ عن بيت أبيها أو أخيها بزوج تنفردُ معه بتكوين أسرة جديدة ، وقد عقد الإمام البخارى بابًا فى « الأدب الـمفرد » تحت عنوان : « باب من عال جاريتين أو واحدة » وفيه عن عقبةَ بنِ عامر رضى اللَّه عنه أنه قال : سمعت رسولَ اللَّه ﷺ يقول : « مَن كان له ثلاثُ بناتٍ وصَبرَ عليهنَّ ، وكساهُن من جِدَتِه ، كنَّ له حجابًا من النار » [وأخرجه أيضًا ابن حبان وأحمد] .

وفيه تأكيدُ حقِّ البنات فى الرعاية والصيانةِ والتوجيهِ وَفْق مرامى الشريعة وآدابها ، فهنَّ ولا شكَّ يحتجْنَ إلى قدْرٍ زائدٍ فى مجال التربية والرعايةِ عن الذكور ، حتى تصيرَ البنتُ مهيَّأةً للقيام بدورها على الوجه الـمرغوب فاهمةً لواجباتها ، مدركةً لوظيفتها ، وبذلك ينال الـمربى الـمؤمنُ هذا الثوابَ العظيـم ، وهو النجاةُ من النار ، والفوزُ بجنات النعيـم .

وفى الحديث الذى رواه ابن عباس رضى اللَّه عنه : « ما من مسلـم تُدركه ابنتان ، فيُحسِنُ صُحبتَهُما إلا أدخلتاه الجنة » وإحسانُ الصحبة إنما يتـم بالرعاية ، والرحمة والصبر على التربية والتوجيه ، وجاء مثله عن جابر بن عبد اللَّه رضى اللَّه عنه وفيه : « يُؤويهنَّ ويَكفيهنَّ ، ويَرحمهنَّ ، فقد وجبت له الجنةُ ألبتة ، فقال رجل من القوم : وثِنتين يا رسولَ اللَّه ، قال : « وثنتين » . وزاد أحمد : فرأى القوم

أن لو قال « وواحدة » لقال : وواحدة .

وفى رواية أبى سعيد الخدرى رضى اللّٰه عنه جاء الترغيبُ للآباء والإخوة فى الإحسان إلى البنات ، وفيه : « لا يكون لأحدٍ ثلاثُ بنات ، أو ثلاثُ أخواتٍ ، فيُحسن إليهن إلا دخَل الجنة » زاد بعض الرواة : « أو بنتان أو أختان » .

وقد جاء فى الحكمة على لسان نمير بن أوس قاضى دمشق فى عهد هشام بن عبد الملك : « الصلاحُ من اللّٰه ، والأدبُ من الآباء » أى : الصلاح من عطية اللّٰه وبتوفيق منه سبحانه ، وهذا هو الحق ، لكنْ لا يتغافلُ الآباءُ عن الأخذ بالأسباب ، ولا يتوانى الأبُ ما وسِعَه الجُهد فى أدب الأبناءِ وحسنِ تربيتهم ، البنين منهم والبنات .

عن أيوبَ بن موسى عن أبيه عن جدِّه - مرفوعًا - : « ما نَحَلَ والدٌ ولدَه من نَحَل أفضلَ من أدبٍ حَسن » أخرجه الترمذى وقال : حديث غريب[1] والولدُ يشمل الأنثى والذكر . ونَحَل : أى أعْطى ووهَبَ .

ورَوَى ابن ماجه عن ابن عباس - مرفوعًا - « أكرِمُوا أولادَكم ، وأحْسِنوا أدَبهم » . و من الإكرام اختيار الاسم الحسَن .

وأصاب الشاعر الحكيم المُعاصرُ فى التعبير عن مقاصد هذا الأمر :

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتها ... أعددتَ شَعبًا طيِّبَ الأعْراق

إن تهيئةَ الفتاةِ بالتربية السليمة ، وتجميلها بمحاسن الآداب ، ومعرفة الحقوق والواجبات ، وتقوية الوازع الدينىّ فى نفسها ، أمرٌ يوجبه الإسلام لِما للأنثى من دورٍ مُهمٍّ فى بناء الحياة ، وتقديم أجيالٍ صالحةٍ للنهوض بالتبعات .

مثل للتوضيح :

ومع توجيه الرسول ﷺ باختيار ذاتِ الدِّين فإنه ﷺ حذَّر من التسرُّع

(١) الحديث الغريب : هو ما يجيء عن طريق صحابىٍّ واحد .

انجذابًا بالجمال الذى يُمكن أن يَحمل جراثيمَ نفسيةً وخُلقية من حياةٍ بعيدةٍ عن السلامة والصحةِ والاستقامة المطلوبة لأهل الإسلام ، ففى الحديث الذى رواه أبو سعيد جاء : « إيَّاكم وخَضراءَ الدِّمَنِ قيل : يا رسول اللَّه وماذا ؟ قال : « المرأةُ الحسناءُ فى المنبِت السوء » قال ابن عدى : تفرَّد به الواقدى واللفظ فى « المواهب اللدنية بالمنح المحمدية » للإمام القسطلانى قال : ومعناه : أنه كَرِه نكاحَ الفاسدة ، وقال : إن أعراقَ السوء تَنزِعُ أولادَها .

أما تفسير المثلِ الذى ضربه ﷺ فى الحديث للمرأة الحسناء التى رُبِّيَتْ تربيةً فاسدة ، فى بيئةٍ غير مواتية : فهو أن الريحَ يَجمَعُ الدِّمنَ وهو البَعْرُ فى البُقعة من الأرض ، ثم يركبُه السافى - أى التراب - فإذا أصابه المطرُ أنبت نباتًا غضًّا ناعمًا يهتزُّ ، وتحتَه الأصلُ الخبيث ، فيكون ظاهره حَسنًا وباطنُه قبيحًا فاسدًا .

والدِّمن : جمع دِمنة وهى البعرة .

وفى هذا الإطار جاءت الآثارُ بتوضيح هذا الأمر؛ لينشأ الأطفالُ من بيئة ، وفى بيئة طيبة تؤتى ثمارًا حسنة ، ومن ذلك : « تخيَّروا لنُطَفِكم فانكِحُوا الأَكْفاء ، وأنكِحُوا إليهم » و : « انظر فى أىِّ نصابٍ تضعُ وَلَدَكَ فإنَّ العِرقَ دسَّاس » .

وبالنسبة للخاطب جاء قوله ﷺ : « إذا جاءكم مَن تَرضَوْنَ دِينَه وخُلقَه فزوِّجوه ، إلا تفعلُوه تكن فِتنةٌ فى الأرض وفسادٌ كبير » ، فانظر هذا التكامل والنظرةَ الشاملة من أجل أجيال صالحة .

ما أحوجَ الناسَ إلى رحمة الإسلام ، ونُظمِه للحياة من أجل استقرار حياة الإنسان ، وأمنه وسكينته ، والحفاظ على تاريخ كلِّ شعب نقيًّا واضحًا من أجل التعاون والتكامل ، وازدهار حياة البشر ونموها فى الطريق الصحيح .

* * *

٥ - برُّ الوالدين :
والولدُ الصالح نعمة

قال الله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ ﴾ [العنكبوت : ٨] .

وقال سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

أوصَى اللَّه عز وجل بالوالدين ووصيتُه سبحانه واجبةُ الاتِّباع ، وأمر بالإحسان إليهما ، وحثَّ على الرفق بهما ، وإيصال الخير إليهما ، والعنايةِ بكشب مرضاتِهما ، وألزمَنا إطاعتَهُما فيما لا معصية فيه لله عز وجل : ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان : ١٥] .

من أعظم الأعمال وأنفعها :

إن الإحسانَ إلى الوالدين ، وحُسنَ الأدب معهما ، وخَفضَ الصوتِ عند مُخاطبتهما ، ولينَ القول لهما ، والقيامَ بخدمتهما فيما يحتاجان إليه وتطييبَ خاطرهما لَـمِن أعظم الأعمالِ وأنفعِها وأكثرِها ثوابًا بعد توحيد اللَّه عز وجل ، وأداءِ فرائضِه والإخلاص فى عبادته سبحانه ، ولنسمع اللَّه عز وجل يقول لعباده : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

ويقول عز وجل : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان : ١٤] .

ويقول : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [النساء : ٣٦] .

قَرَنَ الأمرَ بشكر الوالدين بالأمر بشكره توكيدًا لفضلهما وعظيم حَقِّهما .

إن السعى فيما يُرضى الوالدين لَـمِن أعظم الأسباب التى تجعل الإنسان أهلًا لِـمرضاة الرب ولنيل ما عنده سبحانه من الرحمة ، وفى حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما قال : « رِضا الربِّ فى رضا الوالد ، وسَخَطُ الربِّ فى سخط الوالد »

[أخرجه البخارى فى الأدب المفرد وغيره] .

والوالد : لفظٌ يُطلقَ على الأب كَما يُطلق أيضًا على الأم .

وكان أبو هريرة رضى اللّه عنه إذا عاد إلى الدار صاح بأعلى صوته : عليكِ السلامُ ورحمةُ اللّه وبركاته يا أُمَّتاه ، فَتُجيبه : وعليك السلامُ ورحمة اللّه وبركاته ، فيقول لها : « رَحِمَكِ اللّهُ كما ربَّيتنى صغيرًا ، فتقول : وأنت ، فجزاك اللّه خيرًا ، ورضى اللّه عنك كما بَرَرْتنى كبيرًا »

[البخارى : الأدب المفرد ، والراوى أبو مُرّة مولى أم هانئ بنت أبى طالب] .

من الدعوات المستجابات :

إن هذه الدعوةَ من أمٍّ تقدَّمت بها السنُّ لولدها البارّ لَـمِن أعظم ما يُدَّخر للإنسان فى ميزان حسناتِه ، وهى من الدعوات المستجابات ، التى يحرص على الحصول عليها كلُّ إنسان من أبويه ، إذ تصدرُ الدعوةُ من قلبيهما بإخلاصٍ ومحبةٍ ثمرةً لطاعة الولد ، وكريم خلُقه ، وصِدْقه فى خدمته لهما وعمله دومًا على كسْب رضاهما ، ولنتّقِ بحسْنِ الخُلق وطاعةِ الوالدين دَعْوتَهما على ولدهما ، ففى الحديث الذى رواه أبو هريرة وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد أن النبى ﷺ قال : « ثلاثُ دعواتٍ مُستجاباتٌ لَهُنَّ لا شك فيهنَّ : دعوةُ المظلوم ، ودعوةُ المسافر ، ودعوةُ الوالدين على ولدهما » [وأخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه وأحمد] .

دعوة للبارِّ كما هى دعوةٌ على العاقِّ :

ولنتأمل تأكيدَ الحبيب المصطفى ﷺ على أن هذه الدعواتِ تُفتح لها

أبوابُ السماء ، وإن دعوةَ الوالدين المستجابة كما تشمل الدعوةَ على الولد العاقّ ، فإنها تشملُ أيضًا الدعوةَ لولدهما البارّ ، فطوبَى لِمن يسعى فيما يُرضى أباه ، ويُرضى أمَّه ، ويجتنبُ أسبابَ تَغيُّر قلبيهما ، وليحذر إغضابهما .

احذروا أسباب غضبهما :

ذلك لأن الأبوين يتحمَّلان أذى الولد ، ويصبران ، ويعفُوان ، ويصفحان ؛ لِما أودع اللَّهُ فى قلبيهما من الرحمة والحنان ، ولكن إذا انقطع رجاؤهما من بِرّه ومن حُسْن خلُقه معهما فإنهما قد يفزعان بالدعاء عليه ، وهما فى حالة هى أشبهُ بحالة المُضطر فى شدة ارتباطِ قلبيهما باللَّه عز وجل ، وهنا كما قال الرسول ﷺ تُستجاب دعوتُهما ولا شكَّ بإذنه سبحانه ومشيئته .

والحكيمُ من الآباء والأمهاتِ هو الذى يدعو لولده ، ويصبرُ عن الدعاء عليه ، ولذا فإن الإنسانَ العاقلَ من الأبناء لا تصدرُ عنه إساءةٌ إلى والديه أو إلى أحدهما ، ولا يُضيِّع حقوقَهما فى الطاعة والبرِّ والإحسان إليهما .

ولا ننسى أن الأبوين يُربِّيان ولدَهما ، ويسعيان فيما يُصلحه بوفور الشفقة وبغاية الرحمة والمحبةِ له من غير طمَع فى أجر أو مكافأة ، ولذا وجب القيامُ بخدمتهما مع الإحسانِ إليهما بحبِّ القلب ، ووَجَبَ تكريمُهما والعرفانُ بفضلهما ، وإنَّ جاحدَ معروفهما يحتاج إلى معالجة قلبِه ، ومراجعةِ نفسه ؛ لأن ذلك من أعظم الجحود بعد الإشراك باللَّه عز وجل ، إذ إن من أكبر الكبائر عقوقَ الوالدين والتصرفَ معهما بما يُسخطهما ويُغضبهما ، وفى الأثر : « يفعلُ العاقُّ ما يشاء أن يفعلَ فلن يدخلَ الجنة » .

وفى الحديث : « إياكم وعقوقَ الوالدين فإن الجنةَ تُوجَد ريحُها من مسيرة ألفِ عام ، ولا يَجدُ رِيحَها عاقٌّ ولا قاطعُ رَحِم » .

[رواه جابر بن عبد اللَّه ، وأخرجه الطبرانى] .

وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : « رَغِم أنفُه ، رَغِم أنفُه ، رَغِم أنفه ، قالوا : يا رسولَ اللّهِ ، مَن ؟ قال : مَن أدرك والديه عند الكبر أو أحدَهما ، فدخل النار » [أخرجه البخارى فى الأدب المفرد] .

وعند مسلم وأحمد : « فلم يدخله الجنة » . وفى هذا تحذيرٌ من التفريط فى خدمتهما ، وإهمال شأنهما ، وعدم الوفاءِ بما لهما من الحق والدِّين عند ولدهما .

مهما خدمناهما فلن نوفِّيهما ديونَهما :

إن الولدَ مهما بلغ من الاجتهاد فى طاعة الوالدين أو أحدِهما ، ومهما صنع من الرقة واللطف فى معاملتهما ، فإنه لن يفىَ لهما بما قدَّماه ، ولن يكافِئَ نصيبًا مِمَّا صنعاه ، وكيف يبلغُ الولدُ مهما أرضاهما مكافأةَ شفقةِ الوالدين بالإنفاق ، وبتَحمُّلِ المشاقِّ ، والسهرِ فى الليالى ، وبذلِ الجهد فى طرْد وتَجنُّب ما يُحزِن الولدَ ، ودفْع ما يُؤذيه من الحرِّ والبرد ، وإبعادِه عن أسباب السقم والغمِّ ، والمبادرةِ إلى تلمُّس أسباب العلاج إذا مرض ، هذا إلى ما فعلته الأمُّ وهو أضعفُ ما يكون وأحوجُ ما يكون للتغذية والتنمية والتنظيفِ وسائر صنوفِ التربية ، والأبُ يشارك فى كل ذلك ، فهل بعد ذلك يظن أحدٌ أن برَّه لوالديه يُعَدُّ مكافأةً لحسن صنيعهما ، إنه مهما بلغ من حُسن الأدب معهما والطاعة فإن عمله أدنى مِمَّا قدَّماه ، ولا يساوى قطرةً من بحر حنانهما وعطفهما وخدمتهما .

وإذا كان ذلك مع البِرِّ بهما وطاعتهما ، فماذا يقال عن العقوق ونسيانِ الجميل ؟ ماذا نقول عمن يُبكى أمَّه أو أباه ؟ ماذا يقال عمن يُقصِّر فى الخدمة وهما فى حاجة إليها عند الكبر أو المرض ونحوهما ؟ يقول ابن عمر : « بكاءُ الوالدين من العقوق والكبائر » [أخرجه البخارى فى الأدب المفرد] .

وفى الحديث الذى رواه عامرُ بن واثلة (أبو الطفيل) عن على بن أبى طالب

أن النبى ﷺ قال : « لعَن اللّهُ مَن لعَن والديه » [أخرجه البخارى] .

واللعنُ : الطردُ من رحمة اللّه ، وقد نهى اللّه عز وجل عن الإساءة إليهما ولو بأدنى لفظ أو بالكلمة التى تدلُّ على التضجُّر من الخدمة أو التأفُّف منهما : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

أى مهما كان من خدمتك لهما ، ووقع ما لا يُرضيك فلا تقلْ لهما إلا الكلمة التى تطيِّب الخاطر ، وتَسرُّ القلب .

الحفاظ على كرامتهما :

ومن واجبك لِحفظ كرامتهما حَيَّيْن أو مَيِّتين ألا تجعلَهما عرضةً للإهانة وألا تكون سببًا فى شتمهما والإساءةِ إليهما . يقول عمرو بن العاص كما عند البخارى فى الأدب المفرد : « من الكبائر أن يستسبَّ الرجلُ لوالده » ، أى : يكون سببًا لسبِّ الوالدين بأن يشْتم أحدًا أو يؤذىَ أحدًا ، وفى ذلك يقول أبو هريرة : « لا تمشينَّ أمامَ أبيك ، ولا تجلسْ قَبْله ، ولا تَدْعُه باسمه ، ولا تستسبَّ له » . أى لا تعرضْه للسب وتجرَّهُ إليه .

الولد الصالح نعمة :

إن أدبَ الابن ، وحسنَ خلُقه ، وسلامةَ دينه ، وبِرَّه بوالديه ، ووفاءه لهما فى حياتهما وبعد موتهما لَـمِن أسباب الرحمةِ ، فمن بَرَّ والديه بَرَّه أولادُه ، وسعدت نفسُه بهم ، ومن دعا لوالديه واستغفرَ لهما بعد موتهما كان ذلك فى ميزان حسناتِهما ورافعًا لدرجاتهما بفضل اللّهِ ورحمته ، يقول أبو هريرة : « تُرفَع للميت بعد موتِه درجَتُهُ ، فيقول : أى ربِّ أىُّ شىءٍ هذه ؟ فيقال : ولدُك استغفر لك » [البخارى : الأدب المفرد] .

قال محمد بنُ سيرين : كنا عند أبى هريرة ليلة فقال : « اللَّهم اغفر لأبى

هريرة ، ولأمّى ، ولـمن استغفر لهما » . قال ابن سيرين : فنحن نستغفرُ لأبى هريرةَ وأمّه حتى ندخلَ فى دعوته ، رضى اللّٰه عنهم .

وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « إذا مات العبدُ انقطع عملُه إلا من ثلاث : صدقةٍ جارية ، أو عِلْمٍ يُنتفع به ، أو ولدٍ صالح يدعو له » [أخرجاه فى الصحيح والنسائى وأبو داود والترمذى] .

و « ولد صالح » أى مؤمن ؛ لأن الصلاحَ لا يكون إلا بعد الإيمان ، والصلاحُ يدلُّ على أنه مستقيمٌ على الحق وصالحِ الأعمال والنيات ؛ قال أهل العلم : « ويحصل الثوابُ بكل عمَل صالح من الولد ؛ لأن اللّٰه يُثيب العبدَ – بفضله – بكل فِعْل يتوقفُ وجودُه بوجْهٍ ما على كَسْبه مباشرةً أو تَسَبُّبًا » . والولد كسْبُ أبيه .

ومن شأن الولدِ الصالح أنه لا ينسى الدعاءَ لوالديه الـمؤمنين بعد موتهما ، وأن يُكرمَ أهلَ مودَّتهما ، ويبرَّ من له قرابةٌ بأبيه وبأمه ، ولو بالسؤال وإلقاءِ السلام وتفقُّد الأحوال ، وأولى الناسِ بالفضل والصدقة هم الأقرب فالأقرب .

إن خدمةَ الوالدين تقتضى الإخلاصَ وأن تصدرَ عن إيمان بِحقهما ، ومن حيث إن رضا اللّٰهِ فى رضا الوالدين ، فمن فعل ذلك فهو من الفائزين .

وفى الحديث : « من برَّ والِدَيه طوبَى له ، زاد اللّٰه عز وجل فى عمره » .
[رواه سهل بن معاذ عن أبيه معاذِ بن أنس الجهنى . وأخرجه البخارى والطبرانى] .

وفى الحديث الذى رواه الـمقدام بن معد يكربَ : « إن اللّٰه يُوصيكم بأمهاتكم ، إن اللّٰه يُوصيكم بأمهاتكم ، إن اللّٰه يُوصيكم بأمهاتكم ، ثم يُوصيكم بآبائكم ، ثم يُوصيكم بالأقرب فالأقرب » [البخارى وابن ماجه ، وأحمد والحاكم] .

وتوجيهات للوالدين :

وفى الحديث : « رَحِم اللّهُ والدًا أعان ولدَه على بِرّه » .

أى : لم يَحْمِله على العقوق بسبب سوءِ عمله .

وفى الحديث : « من حقِّ الولدِ على الوالد أن يُحسِن أدَبه ، ويُحسِنَ اسمَه » . وجاء رجل إلى عبد اللّه بن المبارك فشكا إليه بعضَ ولده فقال : « هل دعوتَ عليه ؟ قال : نعم . قال : أنت أفسدتَه » .

ولا شكَّ - أيضًا - أن القدوةَ فى البيت لها أثرٌ كبير فى التكوين الخُلُقىِّ والنفسىِّ للأولاد ، والوالدُ العاقلُ هو الذى يلزمُ صراطَ العدل والتوسُّطَ فى حياته ويلتزمُ طاعةَ اللّه ، ويجتنبُ ما يُغضبُ اللّه ، ويعمل دومًا على إيجاد جو التَّوافُقِ والوئام والسكينة فى البيت ، ويكون هو والأمُّ المعلمَ والمرَبِّىَ والموجِّهَ بالرفق واللينِ والقدوةِ الصالحة ... وبهذا يَبرُّون أبناءَهم ويساعدونهم على بِرّهم .

اللّهم اغفر لنا ولوالدينا وارحمهما كما ربيانا صغارًا .

* * *

فى الحكمة

أخاكَ أخاك إنَّ من لا أخَا له ... كَساعٍ إلى الهَيْجَا بغَيرِ سلاحِ

أسلوب إغراء أى : الزَمْ أخاك فى النسب أو فى الدِّين لا تُخاصِمْه ولا تَخْذُلْه ، أى كونوا يدًا واحدة .

٦ - المولود نعمة وبهجة للقلوب

[التسمية – الحلق – العقيقة – معرفة قدْر النعمة]

الحمد لله المنعم الوهاب ، يَهَبُ لِمن يشاء إناثًا ويهب لِمن يشاء الذكور على مقتضى حكمته سبحانه وإرادته ، والمولود نِعمةٌ تَبعث أهلَه على شُكر المُنعم وحمْدِه سبحانه ، وتسأله المزيدَ من فضله وإحسانه والتوفيق لحسن تربيته .

إن من حكمة تشريع الزواج تكثيرَ النسلِ ، إذ فيه قوةٌ للأمةِ وإبقاءٌ للنوع وتحقيقٌ لِمَصالح وجودِ الإنسان وسعيه لعمارة حياته ، ويتأتّى ذلك بتنوُّع الخبراتِ والمهاراتِ والقدرات وتعاون الجهود وتضافرها .

وإن النبيَّ ﷺ لَيباهِي الأنبياءَ يومَ القيامةِ بكثرة أمته .

إن المولودَ يُضفى على الأهل شعورًا بالسعادة والسرور ويملأ الدارَ مرحًا وحبورًا بصوتِه المحبَّبِ إلى النفوس ، وحركاتِ يديه ورجليه ، وإليه تتوجهُ عنايةُ الأبِ والأم ، ورعايةُ المُحيطين به وفرحتُهم .

وشكرُ النعم المتجدِّدةِ يقتضينا المزيدَ من التواضع والطاعةِ والانقياد لأوامر اللّه عزَّ وجلَّ .

الحمدُ لله على سلامة المولود :

حدَّث عبد اللّه بنُ دُكَين[1] أنه سمع كثير بنَ عبيد قال : « كانت عائشةُ

---

(١) عبد الله بن دكين بضم أوله وثّقه الإمام أحمد ، وضعّفه غير واحد ، واختلف قولُ ابن معين فيه .

رضى اللّه عنها إذا وُلِدَ فيهم مولود (يعنى فى أهلها) لا تسأل : غلامًا ولا جاريةً ؟ تقول : خُلِقَ سَويًّا ؟ فإذا قيل : نعم . قالت : الحمد لله ربِّ العالـمين »

[البخارى : فى الأدب المفرد] .

أى : تَحمدُ اللّه على سلامة المولود ، وعلى سلامة أمّه ، ويُسْرِ ولادتها له ، وفى هذا دلالةٌ على السرور بالمولود وسلامتِه ، غلامًا كان أو أنثى فكلاهما نعمةٌ وعطاءٌ من رب العالـمين ، كما كانوا يتوجهون إلى اللّه بالدعاء للمولود بالعافية والبركة فى دينِه وعقلِه وبكل ما فيه خيرُه وحِفْظُهُ .

ماذا تفعل العائلة ؟

يُستحب لِمَن وُلد له ولدٌ :

* أن يحمدَ اللّه عز وجل على هذه النعمة .

* أن يدعوَ اللّه له بِما ينفعُه فى دينه ودنياه . كأن يقولَ : « اللَّهُمَّ إنِّى أُعيذُه بِكَ وَذُرِّيَّتَه من الشيطانِ الرَّجيم ، اللَّهمَّ أنْبِتْهُ نباتًا حَسَنًا ، اللَّهمَّ اجْعَله قُرةَ عَيْنٍ لِوالِدَيْه » .

* أن يؤذِّن فى أذنه اليمنى .

* أن يختار له اسمًا حَسنًا ، ويُشِيعَه فى يومه السابع .

* أن يحلق رأسَه يوم سابعه أيضًا ، ويتصدقَ بوزن شَعْرِه فِضَّة أو ذهبًا إذا تيسَّر له ذلك .

* أن يُختَن الغلامُ يومَ سابعه ، على المختار ، فإن أُخِّر ففى اليوم الأربعين .

* وفى ختان الغلام وهو صغيرٌ مصلحةٌ ورفقٌ به ؛ لأن الجلدَ بعد التمييز يَغْلُظ ويخشُن .

* ووليمةُ الخِتان تُسمَّى (الإعذار) .

وفى اليوم السابع يُعَقُّ عنه ، فإذا لم يتيسَّر ففى الرابع عشر ، وإلا ففى اليوم الواحد والعشرين ، فإذا لم يتمكن ففى أىِّ يومٍ يتيسرُ له .

ما العقيقةُ ؟

العقيقة : نوعٌ من إظهار النعمة والتحدثِ بها على سبيل الشكرِ للمنعم سبحانه وتعالى على ما رَزَق ووَهب .

والعقيقةُ : تتمُّ بذبح شاةٍ تصلحُ للأضحية ، أى تُختار سالمةً من العيوب سمينة ، عمرُها ستةُ أشهر فما فوقها ، وتُذبح للذكر وللأنثى .

أمَّا لحمها : فيجوز التفريق منه نَيِّئًا ، كما يجوز طبخُه وإقامةُ وليمةٍ والدعوةُ إليها ، مع تقديم شىء منها للمحتاجين .

ما حُكمُ العقيقة ؟

العقيقةُ سُنَّة وقد عَقَّ النبىُّ ﷺ عن الحَسَن والحُسين شاةً شاةً ، وعقَّ الصحابةُ رضى اللَّه عنهم .

ويرى الإمامُ الشافعى والإمام أحمدُ وغيرُهما أنها شاتان عن الغلام وشاةٌ عن الجارية ، لحديث عائشة رضى اللَّه عنها فى هذا الشأن .

ومَن دُعى إلى وليمةِ العقيقة ونحوها أجاب ، ففى ذلك إيناسٌ وزيادةُ محبةٍ للخير ، وتقويةٌ للصلة بين الناس . وإجابةُ الدعوةِ للوليمة واجبةٌ عند جمهورٍ من الصحابة والتابعين .

آثار وأحكام :

وقد جاء عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما : « أن النبى ﷺ عقَّ عن الحسن

والحسين كبشًا كبشًا » . [رواه أبو داود وصححه ابن خزيمة وابن الجارود] .

وزاد البيهقى والحاكم وابن حبان من حديث عائشة رضى اللَّه عنها : « يوم السابع ، وسمّاهما ، وأمَر أن يُمَاطَ عن رأسيهما الأذى » .

قال الحسن البصرى : إماطة الأذى : « حلقُ الرأس » .

وأخرج البيهقى من حديث جابر رضى اللَّه عنه : « أن النبى ﷺ عقَّ عن الحسن والحسين وخَتَنهُما لسبعة أيام » .

والعقيقة عند جمهور أهل العلم سُنَّةٌ ، وعند بعضهم ، ومنهم داود واجبةٌ وقد جاء فى حديث أخرجه الإمام مالك : « من وُلد له ولدٌ فأحبَّ أن ينسكَ عن ولده فليفعل » وفيه دليل على أنها سنة . وأن ينسك : أى أن يذبح شاة للمولود .

جواز التأخير :

وأخرج البيهقى عن عبد اللَّه بن بريدة عن أبيه أن النبى ﷺ قال : « العقيقةُ تُذبح لسبع ، ولأربعَ عشرةَ ، ولإحدى وعشرين » .

ومن الآثار الواردة :

عن سَمُرَةَ بنِ جُندبٍ رضى اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « كلُّ غلامٍ مُرْتَهَنٌ بعقيقته ، تُذبح عنه يوم سابعه ، ويُحلَق ، ويُسمَّى »

[رواه أحمد والأربعة وصححه الترمذى] .

جاء من حديث أبى رافع عند الإمام أحمد أن النبى ﷺ قال لفاطمة رضى اللَّه عنها : « احلقى رأسَه وتصدَّقى بوزنِ شَعْرِه فِضَّة » . وكان النبىُّ ﷺ قد ذبح عنه عقيقته - كما سبق - .

اختيار الاسم :

ينبغى لنا اختيارُ الاسم الحَسن للمولود . وأحبُّ الأسماء إلى اللَّه : عبد اللَّه وعبد الرحمن ونحوهما وكذلك أسماء الأنبياء ، ولقد كان النبى ﷺ يُغيِّر الاسم غير اللائق إلى اسم حَسنٍ ترتاح نفسُ صاحبه له .

تَحْنيكُ المولود بتمْر :

جاء فى الصحيحين عن أبى موسى رضى اللَّه عنه قال : « وُلِد لى غلامٌ فأتيتُ النبيَّ ﷺ فسمّاه « إبراهيم » وحَنَّكَهُ بتمرةٍ ، ودعا له بالبركة » .

معنى التحنيك : أن يضع شيئًا من التمرة ونحوها برفق فى حَنكِ المولود حتى ينزل إلى جوفه منه شىءٌ ، ويقوم بذلك واحدٌ من أهلِ الرفق والخير والصلاح .

الأذان عند الوِلادة :

جاء عند أبى داود والترمذى : « أن النبى ﷺ أذَّن فى أُذن الحسن والحُسين حين وُلدا » . والمراد الأذن اليمنى [رواه الحاكم وفى إسناده عاصم بن عبيد اللَّه ضعيف] .

وفى بعض المسانيد : « أن النبيَّ ﷺ قرأ فى أذن مولودٍ سورة الإخلاص »

[من سبل السلام ، شرح بلوغ المرام] .

وكذلك يُسَنُّ الدعاءُ له - كما سبق - فيالَسعادةِ العائلةِ بوليدها المحبوب ، وبطلعتِه البهيّة ، وحركةِ يديه ورِجليه التى تملأُ النفوسَ سرورًا وفرحًا ، وما أحلَى نغماتِ صوتِه وهو يصرخ أو يبكى ، إنه لأجملُ لحْن يقعُ على فؤاد الأمِّ والأبِ والمُحيطين .

* * *

٧ - قصةُ ولدٍ بارٍّ وأمٍّ حانيةٍ
أبو هريرة وأُمُّه (رضى اللّه عنهما)

« استخلصوا الآدابَ والأحكامَ بعد القراءة والتأمل »

[قد نشأتُ يتيمًا ، وهاجرتُ مسكينًا ، وكنتُ أجيرًا لبُسْرة بنت عمران أخت عُتْبة بن غَزْوان ، فالحمد لله الذى جعل الدينَ قِوامًا ، وجعل أبا هريرة إمامًا] [أبو هريرة]

أبو هُريرةَ اسمٌ لطيفٌ على اللسان ، وصاحبُه لطيفٌ خفيفٌ على القلب محبوبٌ لدى كلٍّ من يَسمعُ باسمه .

أبو هريرة الفقيرُ العظيمُ الشأنِ ، العالى المَقام ، الرفيعُ القدر بين أفضلِ جيلٍ من بنى الإنسان ، وهم جيلُ أصحابِ رسولِ اللّه ﷺ .

شهادة من الأكابر :

قال عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما : « أبو هريرة خيرٌ منى وأعلم » . مع أن ابنَ عمرَ من السابقين فى الإسلام ، ومن أوائل المهاجرين ، واستُصغِرَ فى غزوة أُحد ، كما كان عبد اللّه إمامًا متينًا واسعَ العِلم ، وافِرَ النُّسُك ، متينَ الديانة ، عظيمَ الحُرمة ، كبيرَ القدر ، قال عنه النبى ﷺ : « عبد اللّه رجلٌ صالح » وقال عنه الإمام مالك رضى اللّه عنه : « أفْتَى الناسَ ستين سنة ، أُعطِىَ القوةَ فى الجهاد والعبادة ، والمعرفة بالآخرة والإيثار لها » .

ومع ذلك شَهِدَ لأبى هريرة بالعلم والفضل ، ومِمَّا يشهد لذلك أن أحدًا من الصحابة كلِّهم لم يأتِ عنه ما جاء عن أبى هريرة من عدد الأحاديث : فقد روَى : (٥٣٧٤) خمسة آلاف وثلاثمائة حديث وأربعة وسبعين حديثًا .

وإنَّ ما رواه حَبْرُ الأمة وفقيهها عبدُ اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما (١٦٦٠)

ألفٌ وستُّمائةٍ وستون حديثًا .

لقد كان أبو هريرة أحدَ أكابر علماء الصحابة ومنهم : ابن عباس ، وابن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت رضى اللَّه عنهم وجزاهم عنا خير الجزاء .

إسلامه وهجرته :

أبو هريرة من قبيلة دَوْس التى كانت تقيم فى تَبَالة وهى على مسيرة سبع ليال من مكة - من جهة الطائف - وكان رئيسُ هذه القبيلة « الطُّفيْلُ بنُ عمرو الدوسى » من السابقين إلى الإسلام بعد أن سمع القرآن من رسول اللَّه ﷺ بمكة ، وسمع من رسول اللَّه ﷺ دعوتَه إلى التوحيد ونبذِ الشركِ والأصنام فقال : « فلا واللَّهِ ، ما سمعتُ قولًا قطّ أحسنَ منه ، ولا أمرًا أعدلَ منه » . قال : « فأسلمتُ وشهِدتُ شهادةَ الحق » ثم عاد إلى قبيلته يدعو إلى الحق وخالص الإيمان ، فأسلم أبوه وأسلمت أمه ونفرٌ قليل ، فعاد إلى النبى ﷺ يشكو انصرافَ قلوبِ قومه إلى اللَّهو وشَغْل القلبِ والبصرِ بما يضرُّ ولا ينفع وقال : « يا نبىَّ اللَّه ادعُ اللَّه عليهم » فقال ﷺ : « اللَّهم اهدِ دَوسًا ، ارجعْ إلى قومك وارفُقْ بهم » أى : فى الدعوة . فرجع وثَابر ، وببركة دعاءِ الرسول ﷺ هدى اللَّهُ منهم خلقًا كثيرًا للإسلام ، ومنهم أبو هريرة رضى اللَّه عنه ، أمَّا أمُّ أبى هريرة فبقيتْ على دينها وأصرَّت عليه زمنًا .

هجرته :

هاجر أبو هريرة رضى اللَّه عنه إلى المدينة فيمن هاجر من دَوْس مع شيخ قبيلته الطفيل بن عمرو الدوسىّ ، وكانت هجرتهم متأخرة ؛ قال الطفيل : « فلم أزل بأرض دَوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسولُ اللَّه ﷺ إلى المدينة ،

ومضى بَدْرٌ وأُحد والخندقُ ، ثم قدِمتُ على رسول اللَّه ﷺ بمن أسلم معى من قومى ، ورسولُ اللَّه بخيبر ، حتى نزلتُ المدينةَ بسبعين أو ثمانين بيتًا من دَوْس ، ثم لحقنا برسول اللَّه ﷺ بخيبر ، فأسْهَمَ لنا مع المسلمين » .

فكان أول لقاء لأبى هريرة رضى اللَّه عنه مع حبيبه المُصطفى ﷺ بخيبر .. وكم كانت فرحةُ قلبه ، وسرورُ نفسه ، بلقائه مع مَن تَعلَّق القلبُ بحبه وتوقيره وآمنَ بالنور الذى جاء به من عند ربه .

اسم أبى هريرة :

جاء عند بعض أهل السِّير أن أبا هريرة قال : اسمُ أبى : « عبدُ عمرو » ، وكان اسمى : « عبدَ شمس » ورجَّح هذا ابنُ خزيمة ، وقال : أما بعد إسلامه فلا أُنكر أن يكون النبىُّ ﷺ غيَّر اسمَه ، وسمَّاه : « عبد اللَّه » ، وقال ابن عبد البر : الذى تسكن إليه النفسُ أن اسمه : « عبدُ الرحمن بنُ صخر » ، وقال بلفظ آخر : إلا أن عبدَ اللَّه أو عبدَ الرحمن هو الذى يسكن إليه القلب فى اسمه فى الإسلام .

وقال الإمام البخارى فى الأدب المفرد : قال موسى : كان اسم أبى هريرة « عبد اللَّه بن عمرو » ولعله كان له اسمان قبل إسلامه ، كما أشار ابنُ خزيمة لهذا الاحتمال .

وعلى أىِّ حال فقد اختلف أصحابُ التاريخ والسِّير فى اسمه ، واسمِ أبيه على نحوٍ من ثلاثين قولًا - كما قال الأمير الصنعانى فى سُبل السلام - .

كان أبو هريرة رقيقَ القلب ألوفًا مؤلَّفًا عطوفًا ، وكان ذات يوم ، يلعب بقطَّة صغيرة (هِرَّة) ويُلاطفها رِقَّةً لها ؛ فرآه النبى ﷺ فكنَّاهُ بلقب هو : « أبو هريرة » وقد غَلب عليه الاسمُ اللطيف الرقيق وما يسمع به أحدٌ إلا أحبَّه ، ورقَّ له

رضى اللَّه عنه ، وذلك بفضل مَحبةِ الرسول ﷺ له ودعائه له رضى اللَّه عنه .
تلك قصتُه وقصةُ إسلامه وهجرته ، فماذا كان من قِصَّته مع أُمِّه من الدروس والعِبر والأحكام ؟ ننتقل إلى ما يلى :

معه ومع أمّه :

أُمّه ملأت عليه حياته فنِعْمَ الابنُ البارُّ :

نشأ يتيمًا رضى اللَّه عنه وحَدبتْ عليه أُمُّه وأعطتْه ما تُعطى الأمّهاتُ أولادَهن ؛ من الحنان والرقة والرعاية ، والسهر والخدمة ، فوق ما يُمكن أن يُقدمه الولد البارُّ للأم ، وهو كبير ، أضعافًا مُضاعفة ، مهما خَدَم ، وبَرَّ ورَقَّ وأطاع وسهر لأجلها ، ومهما أسْمعها من لطيفِ القول ، وحُلوِ الكلام ، ما يملأ قلبها سرورًا ويزيده رِضًى عنه .

أحبَّ أبو هريرة أُمَّه ، وكانت تملأ عليه حياته ، ودأب فى الحصول على مرضاتها ، شأنه فى ذلك شأن كلِّ ولدٍ سَليم العقل ، مُستقيم الفِكر ، نقىِّ القلب سوىِّ النفس ، حَسَن الخُلق ، يعطى كلَّ ذى حَقٍّ حقَّه .

أسلم أبو هريرة ، وشرح اللَّه صدرَهُ للحق والهُدَى ، وزالت عن قلبه غشاوةُ الشركِ والشكِّ ، وعَرَف الطريقَ الصحيح إلى اللَّه عز وجل ، الإلهِ الواحدِ الأحدِ الفردِ الصمدِ الذى لم يَلد ولم يُولد ولم يكن له كُفُوًا أحد .

أحبَّ أبو هريرة محمدًا رسولَ اللَّه ﷺ وآمن إيمانًا جازمًا عن دليل ويقين بأنه لا نجاةَ فى الآخرة من عذاب النار وحرِّ جهنمَ إلا باتباعه والاقتداءِ به والائتمارِ بِما جاء به من الأوامر ، والانتهاءِ عمَّا ينهى عنه من عقائدِ الجاهليةِ ومساوئها الأخلاقية والاجتماعية ، مِمَّا يُنافى سلامةَ الفِطرة الإنسانية السليمة .

تأخُر إسلامِها وقلقُ ولدِها :

ولكنَّ أمَّك يا أبا هريرة تخلَّفت عن قبول دعوةِ الداعى إلى اللّه ، وإلى خيرى الدنيا والآخرة ، وأبتْ الاستماعَ إلى ما يدعو إليه رسولُ اللّه ﷺ مبلِّغًا عن رَبِّه يدعو بالرفق والحسنى والإقناع .

إنك تُحب أمَّك يا أبا هريرة ، وهى أوْلَىٰ الناس برحمتك و بِبرِّك ورِفْقِكَ وبهذا أوصاك دينُك ، إنها وصيةُ اللّهِ عزَّ وجلَّ إلى خَلقه ، بأن يعبدوه سبحانه لا يشركون به شيئًا ، وبأن يُحسنوا إلى والديهم ، ويَبروهُم مؤمِنين أو كَافِرين .

ولكن ما فائدةُ الحبِّ إذا لم تَشعَ جُهْدَك فى إنقاذها من أسباب العذاب والهلكة ، مع الحِفاظ على أدب الخطابِ وخفضِ الصوت أمامها ؟

سَعَى أبو هريرة فى دعوته أمَّه ما وَسِعَه الجهد والطاقَةُ ، كما كان يسعى فى خدمتها و بِرِّها ، واللطف بها ، وإدخالِ السرور على نفسها ، بعد خدمة دِينه وطاعةِ ربِّه .

عَرْضُه الإسلام عليها :

دأب الصحابىُ الجليلُ العالم العارف بربه على دعوة أمّه إلى الإسلام فى رِفق وأدب جَمٍّ ، كما دأب على خدمتها ورعايتها والسعْى فى طمأنينة نفسها .

كان رضى اللّه عنه رحيمًا بها ، شفيقًا عليها ، ينظر إلى الآخرة ، فيُرعَبُ على مصير أمِّه إذا هى بقيت على دينٍ غير دينِ الإسلام .

لقد انتقلت أميمةُ بنتُ صُبيح بن الحارثِ الدَّوْسىّ أمُّ أبى هريرة من عبادة الأوثان إلى النصرانية ، ولكن بعد الإسلام لا يجوز لإنسان أن يَبقَى على دين آخر ، فالإسلام هو الدينُ العامُّ لجميع البشر ، وبه خُتِمَتْ الأديانُ الإلهيةُ وعلى جميع الناس أن يبادروا إلى الدخول فيه ، واتباع نبيِّه محمدٍ ﷺ وترك ما هم عليه

من يهودية أو نصرانية أو بُوذية أو غيرها .

يعرضُ عليها الإسلام فى أدب ورِفق :

كان أبو هريرة يعرضُ عليها الإسلام ، وهو يقدِّمُ لها الطعام أو يكنسُ لها المكان ، أو يضعُ لها فِراشَها لتستريح أو تنام ، وكانت أمُّه أميمةُ بنت صبيح تأبى ، وتُصِرُّ على ما هى عليه !.

يا أبا هريرة .. أمَّك .. أمَّك .. أمَّك ، إذا لم تَسْعَ بصبرٍ ودأبٍ ؛ رحمةً لها وشفقةً عليها لإنقاذها من الضلال والكفر .. ففى أىِّ خيرٍ تسعى أعظم من هذا السعى وأبقَى ، وأنفع ، وأعظمَ بِرًا ، إنه البرُّ بمن حملتك وأرضعتك وربَّتك صغيرًا ، وحنَتْ عليك وأنت كالعصفور الضعيف لا يستطيع أن يفعل شيئًا .

بداية الخير وبشائره :

يقول أبو هريرة رضى اللَّه عنه : « إنَّ أمِّى كنتُ أريدها على الإسلام فتأبى فقلتُ لها فأبت » [البخارى فى الأدب المفرد] .

وممَّا هيَّج آلامه ، وأثار أحزانَه من أجلها ، وجعل خوفَه عليها أعظمَ وأشدَّ ما نراه فى قوله رضى اللَّه عنه فى لفظ عند مسلم : « فدعوتُ أمى يومًا فأسمعتنى فى رسول اللَّه ﷺ ما أكْرَهُ » .

ابْكِ يا أبا هريرة .. ابْك يا أبا هريرة ، هذا كان حالَه ولسانَ حاله فى هذه الفترة ، وكيف لا ؟ وهى أمُّه ، أعظمُ الناس فضلًا عليه يقول : « فأتيتُ رسولَ اللَّه ﷺ وأنا أبكى فقلتُ : يا رسول اللَّه ، إنى كنتُ أدعو أمِّى إلى الإسلام فتأبى علىَّ فدعوتُها اليومَ فأسمعتنى ما أكْرَه » . [لفظ مسلم] .

وفى لفظ البخارى : « ادْعُ اللَّه - لها - يا رسولَ اللَّه » .

أشفق الحبيبُ المُصطفى على حواريِّه الحَبر العظيم أبى هريرة ، وأشفق على

أمّه .. كما كانت شفقتُه على الأمة جميعها ، « فدعا - لها - رسولُ اللّه ﷺ » .

ما أعظمَ فرحتَك اليوم يا أبا هريرة بدعوة رسولِ اللّه ﷺ لأمّ أبى هريرة بالهداية إلى الحقّ وخالصِ الإيمان!! .

اذهَبْ إلى الدار يا أبا هريرة فدعوةُ رسولِ اللّه ﷺ أسرعُ منك إليها بإذن اللّه يقول : « فخرجتُ مستبشرًا بدعوة رسولِ اللّه ﷺ » [لفظ مسلم] .

وصل إلى الدار فوجد البابَ مُغلقًا قال : « فأتيتُها وقد أجافت عليها الباب » . أى : رَدَّتْه وأغلقته . [لفظ البخارى] .

وعند صاحب الإصابة : « فسمعتْ أمِّى حِسَّ قَدَمَىَّ ، فقالت : مكانَكَ يا أبا هريرة ، وسمعتُ خَضْخَضَةَ الماءِ » أى صوت ماءٍ يُغتسلُ به على غالب الظن .

لعله يا أبا هريرة اغتسالُ الطهر من دَنس الكفر والشرك للانتقال إلى طهارة الإيمان والتوحيد . كان قلبه يخفق شديدًا ، كما كان قويَّ الرجاء والأمل فى سَبْقِ دعوةِ رسول اللّه ﷺ إلى قلب أمّه . قال : « ولبستْ أمِّى دِرْعَها - قميصَها - وأُعْجِلَتْ عن خِمارها ففتحت البابَ » . [الإصابة] .

إنها لم تتأنَّ حتى تضعَ الخمار على رأسها ووجهها لشدَّةِ عَجَلتها إلى إدخال السرورِ على قلب ولدها ، وعلى إظهار النعمة بالدخول فى الإسلام والنطقِ بالشهادتين مرةً بعد مرةٍ ، فرحًا وسرورًا بِما هداها اللّه إليه .

فقالت : « يا أبا هريرة ؛ إنى أسلمتُ » .

ما أعظمَ سرورَكَ يا أبا هريرة ! فقد خرجَتْ أمُّك من الظلمات إلى النور ومن الحَيرة إلى اليقين ، بفضل اللّه عز وجل ، ثم ببركة دعاءِ رسول اللّه ﷺ .

أبو هريرة يطلب المزيد من الرحمة لأمه :

قال : « فأخبرتُ النبيَّ ﷺ، فقلتُ : ادْعُ اللَّه لى ولأمى ، فقال ﷺ : « اللَّهمَّ عبدُك أبو هريرةَ وأمُّه ، أَحِبَّهُمَا إلى الناس » [لفظ البخارى] .

ولفظ مسلم : « اللَّهمَّ حَبِّبْ عَبْدَك هذا - يعنى أبا هريرة - وأمَّه إلى عبادك المُؤمنين ، وحَبِّب إليهم المُؤمنين » .

حبيبٌ إلى قلوب الناس :

وإنه ببركة هذا الدعاءِ الشريف صار أبو هريرة حبيبًا إلى قلوب الناس فى حياته وبعد مماته ، كما أن القلوبَ تتفتَّحُ بالسرور والشفقةِ والمحبةِ حين تسمع اسمَ أمِّه أو قصتَها مع ولدها .

يقول أبو كثير السُّحَيمىُّ الأعمى : سمعتُ أبا هريرة يقول : « ما سمِعَ بى أحدٌ يهوديٌّ ولا نصرانىٌّ إلَّا أحبَّنى » [لفظ البخارى] .

أى ببركة هذا الدعاء . وعند أحمد : « ما خلق اللَّه مؤمنًا يسمعُ بى ولا يرانى إلا أحبَّنى » .

ويسعى أبو هريرة فى طلب المزيد من الرحمة لأمِّه منتفعًا ببركات وجود رسول اللَّه ﷺ بينهم ، وشفقته عليهم ، وحرصه على ما ينفعهم فى دينهم وآخرتهم ودنياهم .

يقول محمد بن سيرين رضى اللَّه عنه : « كنا عند أبى هريرة ليلةً ، فقال : « اللَّهم اغفِرْ لأبى هريرة ولأمِّى - أى أمِّ أبى هريرة - ولِمَن استَغْفَر لهما » .

إنه يطلب لأمِّه المغفرةَ والرِّضْوان بعد طلبها لنفسه ، وهذا من أعظم أبوابِ بِرِّ الولدِ بوالديه ، ثم يحشدُ لها القلوبَ والألسنةَ بطلبه من اللَّه ، وهو المُؤمن

الولىُّ الصالحُ النقىُّ – أن يغفرَ لكل مؤمنٍ يطلبُ المغفرةَ له ولأمِّه : « واغفِر لِمن استغفر لهما » . يقول محمد بن سيرين « فنحن نستغفِرُ لهما حتى ندخُلَ فى دعوةِ أبى هريرةَ » [رواية البخارى فى الأدب المفرد] .

فالذى يطلب المغفرةَ لأبى هريرة ، ولأمِّ أبى هريرةَ فقد حَظِى بدعاء رجلٍ صالح ، وهو أبو هريرة بأن يغفرَ اللّٰه لِمن استغفر لهما .

ونحن والقرّاء نقول : اللّٰهم اغفِرْ لى ولأبى هُريرة واغفِرْ لأمِّ أبى هريرة ، وارضَ عنهما وعن سائر أصحابِ رسول اللّٰه ﷺ والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين ؛ لنحظَى بالدخول فى بركات دعوةِ أبى هريرة رضى اللّٰه عنه .

من أقوال أبى هريرة :

عن عاصم ابن بهدلة عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : « تُرْفَعُ للمَيِّت بعد موتِه درجتُه ، فيقول : أى ربِّ ، أىُّ شىءٍ هذه ؟ فيقال له : ولدُك استغفر لك »

[البخارى فى الأدب المفرد] .

ومن مَرويَّاته : عن عبد الرحمن بن يعقوب ، عن أبى هريرة : أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « إذا مات العبدُ انقطع عنه عملُه إلا من ثلاث : صدقةٍ جارية ، أو علمٍ يُنْتَفَع به ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له » .

[أخرجه مسلم فى صحيحه والبخارى فى الأدب المفرد والنسائى وأبو داود والترمذى] .

فالوالد يعود عليه بعد موته صلاحُ ولده المُؤمن ؛ لأنه من كَسْبه ، كما يعود عليه بالخير دعاؤه للوالد – أى الأم أو الأب أو هما معًا – واستغفاره لهما ، وفى هذا حَضٌّ لأهل الإيمان بأن يذكروا آباءَهم وأمهاتِهم بالدعاء وطلبِ المغفرة والرحمةِ دومًا .

ومن أدب أبى هريرة مع أمِّه :

حكى أبو مُرَّةَ واسمه يزيدُ وهو مولى أمِّ هانئ : أن أبا هريرة كان يستخلفه مروانُ بنُ الحكَم ، أى إذا خرج مروانُ وهو والى المدينة المنورة إلى مكة المكرمةِ للحج - مثلًا - كان يستخلفُ أبا هريرة على المدينة ، وكان أبو هريرة يكون بذى الحُليفة ، ثم يعود إلى المدينة ، وكانت أمُّه فى بيت وأبو هريرة فى بيت (أى غرفة مستقلة) .

قال الراوى : فإذا أراد أبو هريرة أن يخرجَ وقف على بابها فقال : السلامُ عليكِ يا أُمَّتاهُ ورحمةُ اللَّه وبركاتهُ ، فتقول : وعليك يا بُنَىَّ ورحمةُ اللَّه وبركاته ، فيقول أبو هريرة : رَحِمَكِ اللَّهُ كما رَبَّيتِنى صغيرًا ، فتقول : « وأنت رَحِمكَ اللَّهُ كما بَرَرْتَنى كبيرًا » [رواه أبو مُرَّة] .

قال الراوى : ثم إذا أراد أن يدخل صنع مِثلَه .

وركِبَ أبو مُرَّة مع أبى هريرة ذاتَ يوم إلى أرضه بعقيق المدينة ، وتكون أمُّه هناك ، فإذا دخل أرضَه صاح أبو هريرة بأعلى صوته : عليكِ السلامُ ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه يا أمَّتاه ، تقول الأمُّ الحانيةُ : وعليك السلامُ ورحمةُ اللَّه وبركاته . فيقول أبو هريرة : « رَحمكِ اللَّهُ كما ربَّيتِنى صغيرًا ، فتقول : يا بُنَىَّ ، وأنت فجزاك اللَّه خيرًا ، ورضى عنك كما بَرَرْتنى كبيرًا »

[رواه سلمةُ بنُ دينار القاصُ الزاهدُ الأعرجُ وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد] .

فهذه صورٌ من الأدب الرفيع ، والبِرِّ ، والرحمة ، فيها إرشادٌ للأولاد وللأمَّهات والآباءِ فيما يَليق للجميع أن يصنعوه ، وفيما تكون عليه العلاقةُ بينهم ، وما تتسمُ به من الذوق الرفيع والعِرفان بالجميل والحنان .

ومن وصية أبى هريرة لشابٍّ رآه يمشى مع رجل فقال له : ما هذا منك ؟

أى : ما قرابةُ هذا منك ؟ فقال : أبى . فقال له : « لا تُسمِّ أباك باسمه ، ولا تـمْشِ أمامه ، ولا تجلسْ قبله ، ولا تستسِبَّ له » .

[رواية هشام بن عروة عن أبيه عند البخارى فى الأدب المفرد] .

ولا تستسِبَّ له : أى لا تشتم أحدًا فيشتم أباك ، وقوله : ولا تـمشِ أمامه ؛ هذا من الأدب مع الأب ، ومع الأخ الأكبر ، إلا إذا كان المشْىُ ليلًا فى الظلام ، فالمفضَّل أن يمشىَ الولدُ أمام أبيه يُجنِّبُه العثرات .

ولعل من المناسب أن نختم هذا بتوجيه النبى ﷺ لأمته : « لا يشكرُ اللّٰه مَن لا يشكرُ الناس » .

[رواه أبو هريرة رضى اللّٰه عنه ورضى عن أمه وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد وأبو داود والترمذى وغيرهم] .

ذلك أن من تمام شُكْرِ نِعَمِ اللّٰه عزَّ وجلَّ أن يشكرَ المرءُ الوسائلَ والوسائطَ ، ومن لـم يشكر مَنْ به وصلتْ إليه نِعَمُه سبحانه ، فكأنه لـم يُوفِّ شُكر اللّٰه تعالى . وأعظمُ الخلْق فضلًا ومعروفًا على الإنسان أمُّه وأبوه ، وليس فوق معروفهما فيما يصنعُه الناسُ لبعضهم البعض من الخدماتِ معروفٌ يكافئُ أو يقاربُ معروفَهما .

اللّٰهم اجعلنا من الشاكرين لنعمك البارِّين بالوالدين .

* * *

٨ - توجيهات
من السُّـنَّة النَّبوية المُطهَّرة

أولاً : الأسرة :

قال رسول الله ﷺ : « كُلُّكم راعٍ ومسْؤولٌ عن رعيَّته : فالإمام راعٍ ومسؤول عن رَعِيَّته ، والرجلُ راعٍ فى أهله وهو مسْؤولٌ عن رَعيَّته ، والـمرأةُ فى بيتِ زوْجها راعيةٌ وهى مسْؤولةٌ عن رعيَّتها ، والخادم فى مالِ سيِّده راعٍ وهو مسؤول عن رعيته » ، قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : فسمعتُ هؤلاء من النبى ﷺ ، وأحسبُ النبى ﷺ قال : « والرجلُ فى مالِ أبيه راعٍ ومسْؤولٌ عن رعيَّته ، فكلُّكم راعٍ ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيَّته »[1] .

[هذه رواية البخارى ومسلم والراوى عبد الله بن عمر] .

ثانيًا : أولادنا « البنين والبنات » :

قالت عائشة رضى الله عنها : دَخَلَتْ علىَّ امرأةٌ معها ابنتان لها تسأل ، فلـم تجد عندى شيئًا غيرَ تَمْرةٍ واحدةٍ ، فأعطيتُها إيَّاها فقَسَمتْها بين ابنتيها ، ولـم تأكل منها ، ثم قامت فَخَرجتْ ، فدخل النبىُّ ﷺ ، فأخبرتُه فقال النبىُّ ﷺ : « مَن ابْتُلِى من هذه البناتِ بشىءٍ فأحْسَنَ إليهنَّ كُنَّ له سِتْرًا من النار » .

[أخرجه البخارى ومسلم والترمذى] .

---

(١) الرعاية تختلف بتنوع المسؤوليات : فرعاية الإمام الأعظم : حياطةُ الشريعة بإقامة الحدود والعدل فى الحكم ، ورعاية الرجل فى أهل بيته : سياسته لأمرهم وإيصالهم حقوقهم ، ورعاية المرأة : تدبير أمر البيت والأولاد والعاملين فى البيت والنصيحة والإخلاص للزوج فى كل ذلك ، ورعاية الخادم : حِفظُه ما تحت يده والقيام بما يجب عليه من خدمة .

وعند ابن ماجه : « فصبر عليهنَّ ، وأطعمهنَّ ، وسقاهنَّ ، وكَساهنَّ » .

وزاد الطبرانى من رواية ابن عباس رضى اللّه عنهما : « فأنفق عليهن وزوجهنَّ ، وأحْسَنَ أدَبَهُنَّ » .

وزاد البخارى فى الأدب المفرد من حديث أبى سعيد : « فأحْسَن صُحبتَهُنّ واتقى اللّه فيهنَّ » .

وفى لفظ الترمذى : « مَن ابتُلى بشىءٍ من البنات فصبر عليهنَّ ، كُنَّ له حجابًا من النار » .

قال أنسُ بنُ مالكٍ رضى اللّه عنه ، قال رسولُ اللّهِ ﷺ : « مَنْ عَالَ جاريتين حتى تبلُغَا جاء يومَ القيامة أنا وهو ، وَضَمَّ أصابعَه » [اللفظ فى مسلم] .

واللفظ عند الترمذى : « مَنْ عَالَ جاريتين دخلتُ أنا وهو الجنَّةَ كهاتين وأشار بأصبُعيْه » [(1)] .

رحمة الولد :

روى ثابت عن أنس رضى اللّه عنهما قال : « أخذ النبىُّ ﷺ إبراهيمَ فقبَّله وشمَّه » . [اللفظ فى البخارى وأخرجه مسلم بمعناه] .

وفى الحديث : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويَعْرِف حقَّ كبيرنا » .

[رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد وأحمد] .

---

(1) فى هذا كله ما يدل على بركة إعالة البنات أو الأخوات والقيام عليهن بالتأديب برفق ، والتعليم والصبر عليهن وإعدادهن للحياة الزوجية ، وقد وردت الآثار بالحث على تربية الأولاد - الذكور والإناث - واختيار الأسماء الحسنة لهم وتعويدهم على أداء الفرائض ، وتعليمهم ما ينفعهم ورعايتهم بما يعدُّهم للحياة الطيبة .

وروى جابر بنُ سمُرة مرفوعًا : « لأنْ يُؤَدِّبَ الرجلُ ولدَه خيرٌ من أن يتصدَّق بصاع » . وعن عمر بن سعيد مرفوعًا : « ما نَحَلَ والدٌ ولدَه من نِحْلَةٍ أفضلَ من أدب حسن » [شرح الحديث رقم٩٢ فى الأدب المفرد] . والعناية بتأديب الأولاد وتربيتهم ورعايتهم من أعظم الرحمة بهم فى مستقبل حياتهم .

ثالثًا : الأب والأم . . فى بِرِّهما :

قال أبو هريرة رضى اللّه عنه : جاء رجلٌ إلى رسول اللّه ﷺ ، فقال : يا رسول اللّه ، من أحَقُّ الناسِ بحُسْنِ صحابتى ؟ قال : « أُمُّكَ » قال : ثم مَنْ ؟ قال : « أُمُّكَ » قال : ثم مَنْ ؟ قال : « أمُّكَ » قال : ثم مَنْ ؟ قال : « أبوك » .

وفى رواية قال : « أمَّك ، ثم أمَّك ، ثم أباك ، ثم أدناك فأدناك » . وذلك فى جواب مَن سأل : مَن أبَرُّ ؟ [أخرجه البخارى ومسلم] .

وفى الحديث الذى رواه ابن عمر : « بِرُّوا آباءَكم تَبَرُّكم أبناؤكم ، وعِفُّوا تَعِفَّ نساؤُكم »

[أخرجه الطبرانى بإسناد حسن وجاء عنده عن عائشة وعند الحاكم بمعناه عن أبى هريرة] .

عن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جدِّه رضى اللّه عنه قال : قلتُ : يا رسولَ اللّهِ ، مَنْ أبَرُّ[1] ؟ قال : « أمَّكَ » قال : قلتُ : ثم مَنْ ؟ قال : « أمَّكَ » قال : قلتُ : ثم مَنْ ؟ قال : « أمَّك » قال : قلتُ : ثم مَن ؟ قال : « أباك ، ثم الأقربَ فالأقربَ »

[رواه الترمذى وعند أبى داود باختصار بعض ألفاظه وإسناده حسن] .

---

(١) البر : الإحسان وهو فى حق الوالدين والأقربين ضد العقوق ، والعقوق هو الإساءة إليهم والتضييع لحقهم ومنه البار وجمعه بَرَرَةٌ والبَرُّ جمعه أبرار والفعل بَرَّ يَبَرُّ .

رابعًا : ومن حقوق الأبوين :

أنت ومالك لأبيك :

عن عبدِ اللَّه بن عمرو بنِ العاص رضى اللَّهُ عنهما : أن رسول اللَّه ﷺ أتاه رجلٌ ، فقال : يا رسول اللَّه ، إن لى مالًا وولدًا ، وإنَّ أبى يَجْتاحُ مالى[1] فقال : « أنت ومالُكَ لأبيك ، إن أولادَكم من أطيبِ كسْبكم ، فكُلُوا مِن كسب أوْلادِكم » .

أخرجه أبو داود فى باب : الرجل يأكل من مال ولده ، وأخرجه ابن ماجه فى باب : ما للرجل من مال ولده ، وأخرجه أحمد وابن ماجه من حديث جابر وقال المنذرى : رجاله ثقات ، وأخرجه غيرهم من طرق أخرى .

قال الحافظ فى الفتح : فمجموعُ طرقه لا تَحطُّه عن القوة وجَواز الاحتجاج به .

قال أبو هريرة رضى اللَّه عنه : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « رَغِمَ أنفُه ، رغم أنفُه ، رَغِمَ أنفُه » ، قيل : مَنْ يا رسول اللَّه ؟ قال : « مَنْ أدركَ والديه عند الكِبَر ، أوْ أحدَهما ، ثم لـم يدخل الجَنَّةَ » . [هذه رواية مسلم] .

واللفظ فى الترمذى : « رغم أنفُ[2] رجلٍ أدركَ عنده أبَوَيْه الكِبَرُ - أو أحَدَهما - فلـم يُدخلاه الجنة »[3] .

خامسًا : الخدمة والرعاية :

عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضى اللَّه عنهما قال : جاء رجلٌ إلى رسول اللَّهِ ﷺ فاستأذَنَه فى الجهاد ، فقال : « أحَيٌّ وَالِدَاك ؟ » قال : نعم قال :

---

(١) يَجتاح : الاجتياح هو الاستئصال ومنه سُميت الجائحة وهى الآفة التى تُصيب الزرع ، فتُقفّى أثرها .

(٢) (رغم أنفه) الرغام : التراب ، ورغم أنفه أى لصق بالتراب .

(٣) قال الشيخ محيى الدين النووى . معناه : أن برهما عند كبرهما وضعفهما بالخدمة والنفقة وغير ذلك - سبب لدخول الجنة فمنْ قَصَّر فى ذلك فاته دخولُ الجنة ، وأرغم الله أنفه .

« ففيهما فجاهِدْ » [أخرجه الجماعة] .

وفى رواية لمسلم قال : أقبل رجلٌ إلى رسول اللّهِ ﷺ فقال : أبايعُك على الهجرة والجهاد ، أبتغى الأجرَ من اللّه ، قال : « فهل من والديك أحدٌ حيٌ ؟ » قال : نعم ، بل كلاهما حَيٌ ، قال : « فتبتغى الأجرَ من اللّه ؟ » قال : نعم ، قال : « فارْجِعْ إلى والدَيْك فأحْسِنْ صُحْبَتهما » .

وفى أخرى لأبى داود والنَّسَائى قال : جاء رجلٌ إلى رسول اللّه ﷺ فقال : جئتُ أُبايعك على الهجرة ، وتركتُ أبوىَّ يبكيان ، فقال : « فارْجِعْ إليهما فأضْحِكْهُما كما أبكيتهما »[1] .

سادسًا : الأدب والصيانة :

عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضى اللّه عنهما قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن من أكبر الكبائرِ أن يلعنَ الرجلُ والِدَيْه ، قيل : يا رسولَ اللّهِ وكيف يلعَنُ الرجلُ والدَيْه ؟ قال : يَسبُّ الرجلُ أبا الرجلِ ، فيسبُّ أباه ، ويسبُّ أمَّهُ فيسبُّ أمَّه »[2] . [اللفظ فى الصحيحين] .

---

(١) هذا الحديث ورد بألفاظ أخرى منها ما عند النسائى قال ﷺ لطالب الخروج إلى الجهاد : « هل لك أم ؟ » قال : نعم ، قال : « فالزمها ، فإن الجنة عند رجلها » . وقال جمهور العلماء : يحرم الجهادُ إذا منع منه الأبوان أو أحدهما بشرط أن يكونا مسلمين ؛ لأن برهما فرضُ عين عليه والجهادُ فرض كفاية ، فإذا تعين الجهادُ فلا إذن ، ويشهد له ما أخرجه ابنُ حبان من طريق أخرى عن ابن عمر : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عن أفضل الأعمال ؟ قال : « الصلاة » قال : ثم مَهْ – أي ثم ماذا ؟ قال : « الجهاد » قال : فإن لى والدين ، فقال : « آمرُك بوالديك خيرًا » فقال : والذى بعثك بالحق نبيًا لأجاهدنَّ ولأتركنَّهما ، قال : « فأنت أعلم » وهو محمول على جهاد فرضِ العَين توفيقًا بين الحديثين .

(٢) من عقوق الوالدين سبهما لأنه إساءة للوالدين فى مقابلة إحسانهما ، وكفران حقوقهما ، لذا كان ذلك من أكبر الكبائر حتى ولو كان الولد متسببًا فى سبهما أو سب أحدهما كأن يكون سيئ الخلق يشتم الناس فيسبون أباه ويسبون أمه .

وقد جاء فى الأدب المفرد للبخارى قال عبد اللّه بن عمرو بن العاص : « مِن الكبائرِ عند اللّه تعالى أن يستسبَّ[1] الرجل لوالده » . أى : أن يكون سببًا لسبِّ الوالدين . [رواه عروة بن عياض عنه] .

وعند مسلم والبخارى : « من الكبائر شتمُ الرجلِ والديه » إلخ .

[من رواية ابن عمرو] .

غاية الطاعة :

قال عبد اللّه بنُ عمر رضى اللّه عنهما : كانت تحتى امرأةٌ أُحِبُّها ، وكان عمرُ يكرهُها ، فقال لى : طَلِّقْها ، فأبيتُ ، فأتى عمرُ رسولَ اللّه ﷺ ، فذكر ذلك له ، فقال لى رسولُ اللّه ﷺ : « طَلِّقها » .

[أخرجه الترمذى وأبو داود وقال الترمذى حديث حسن صحيح ، وصححه ابن حبان] .

قالت أسماءُ بنتُ أبى بكر رضى اللّه عنهما : « قَدِمَتْ علىَّ أمِّى وهى مُشركةٌ فى عهد رسولِ اللّهِ ﷺ ، فاستفتيتُ رسولَ اللّه ﷺ ، قلتُ : قَدِمَتْ علىَّ أمِّى وهى راغبةٌ ، أفأَصِلُ أمِّى ؟ قال : نعم ، صِلِى أُمَّك » .

زاد فى رواية ، فأنزل اللّهُ فيها : ﴿ لا ينهاكم اللّه عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ﴾ [الممتحنة : ٨] . [أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود] .

وفى رواية البخارى ومسلم جاء : « قدِمَتْ علىَّ أمِّى وهى مُشركةٌ فى عهد قريش - إذْ عاهدوا رسولَ اللّهِ ﷺ - ومُدَّتِهم » .

وفى رواية لمسلم : « وهى راغبةٌ راهبةٌ » .

---

(١) يستسب أى يُعرضه للسبِّ ويَجره إليه .

وعند أبى داود : « قَدِمَتْ علىَّ أمِّى وهى راغبةٌ فى عهدِ قُريش ، وهى رَاغِمةٌ مُشركةٌ ..»[1] الحديث .

سابعًا : الخالة كالأم :

عن عبد اللّٰه بن عمر رضى اللّٰه عنهما : أن رجلًا أتى النبىَّ ﷺ فقال : « يا رسولَ اللّٰه ، إنى أصبتُ ذنبًا عظيمًا ، فهل لى من تَوبة ؟ فقال : هل لك من أمٍّ ؟ قال : لا ، قال : فهل لك من خالة ؟ قال : نعم ، قال : فَبِرَّها »[2] .

[أخرجه الترمذى وصححه ابن حبان والحاكم وذكره الترمذى بإسناد آخر مُرسَلًا] .

وعن البراء بنِ عازِب رضى اللّٰه عنهما : أن النبى ﷺ قال : « الخالةُ بمنزلةِ الأُم »[3] .

ثامنًا : من الوفاء لوالديه :

جاء عن ابن عمر رضى اللّٰه عنهما : أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « إنَّ أبَرَّ البِرِّ أن يَصِلَ الرجلُ أهْلَ وُدِّ أبيه » - أى بعد وفاته -

[أخرجه البخارى فى الأدب المفرد ومسلم وأحمد والترمذى] .

واللفظ فى مسلم : « إن من أبرِّ البِرِّ صِلَةَ الرجلِ أهلَ وُدِّ أبيه بعد أن

---

(١) راغبة : الرغبة الطلب ، والمراد : أنها جاءت طامعةً تسألنى شيئًا . أفأصلُ أمى ؟ الصلة : العطية والإنعام ، مدَّتهم : أرادت بمدتهم : الزمان الذى كان رسولُ الله ﷺ ترك قتالهم فيه وَوادَعهم - أى بعد صُلح الحديبية . وراغمة : أى كارهة للإسلام ساخطة على ابنتها . وراهبة : خائفة أن تردَّها ابنتها خائبة .

(٢) فى هذا الحديث ما يدل على أن صلَة الرحم ، وطاعةَ الوالدين ، والبرَّ بالأم والخالة ونحوهما من الطاعات التى تقرب المؤمن من ربه ، والحسناتُ يُذهِبنَ السيئاتِ ، ومن الحسنات برُّ الأمِّ وبرُّ الخالة كما فى الحديث - والله أعلم - .

(٣) أى فى البر والصلة .

يولَّى »[1] .

وجاء عن ابن عباس رضى اللّٰه عنهما : أن رجلًا قال : يا رسولَ اللّٰهِ ، إنَّ أُمِّى تُوفِّيت ولـم تُوصِ ، أفينفعُها أن أتصدَّق عنها ؟ قال : « نَعَمْ » .

[أخرجه البخارى فى الأدب المفرد وصحيح مسلم والنسائى وأبو داود] .

وفى الحديث الذى رواه أبو بكر بن حزم عن رجل من الصحابة : أن النبى ﷺ قال : « إنَّ الوُدَّ يُتَوَارَث » – أى يرثُه الأبناءُ عن الآباء وهو وُدُّ المسلمين الأوفياء لدينهم ولسنة نبيهم .

وعن ابن عمر قال : مَرَّ أعرابىٌّ فى سفر ، فكان أبو الأعرابى صديقًا لعُمر رضى اللّٰه عنه ، فقال للأعرابى : ألستَ ابنَ فلانٍ ؟ قال : بَلى ، فأمر له ابنُ عمر بحمارٍ ، كان يُسْتَعقَبُ – أى يركبه مرة والبعير مرة – ونَزَع عمامتَه عن رأسه فأعطاه ، فقال بعض من معه : أما يكفيه درهمان ؟ فقال ابن عمر : قال النبى ﷺ : « احْفَظْ وُدَّ أبيك ، لا تَقْطعْه فَيُطفِئَ اللّٰهُ نُورَك » [فى الصحيحين وعند أحمد] .

تاسعًا : العدْلُ بين الأولاد :

[اعدِلُوا بين أولادكم فى العطية ليَعدِلوا بينكم فى البِرِّ إنَّ العدل بين الأولاد يُثَبِّت المحبة والرعاية بينهم ويساعد على تطهير النفوس من آثار الحسد والتباغض فيشبون على الاحترام المتبادل] .

عن النعمان بن بشير رضى اللّٰه عنهما قال : أعطانى أَبى عطيةً ، فقالت عَمْرَةُ بنتُ رواحةَ : لا أرضى حتى تُشهِدَ رسولَ اللّٰه ﷺ ، فأتى رسولَ اللّٰهِ ﷺ فقال : إنى أعْطيتُ ابنى من عَمْرةَ بنتِ رواحةَ عطيَّةً فأمرتْنى أن أُشهِدَك

---

(١) يولى : أى يموت الوالد ، أى بعد أن يَغيبَ الوالد أو يموت ، هذا ومن الوفاء للوالدين إكرامُ أصدقائهما ، وإنفاذُ عهودهما ، وصلةُ الرحم التى لا تُوصل إلا بهما ، والدعاءُ لهما .

يا رسولَ اللّه .

قال : « أعطيتَ سائرَ وَلَدك مِثْلَ هذا ؟ قال : لا » . فقال النبىُّ ﷺ : « فاتقوا اللّهَ واعْدِلوا بين أولادِكم » . قال : فرجع فَرَدَّ عطيَّته (*) .

* * *

(*) منح بشيرُ بنُ سعد رضى الله عنه ولده النعمان وهو غلام صغير عطيَّة خصَّه بها دون أخواتِه وإخوتِه فتنبهت الأمُّ لذلك وطلبتْ منه أن يُشْهِدَ رسولَ الله ﷺ أنه أعطاه ذلك على سبيل الهِبة .

وذهب بشيرٌ ومعه ولدُه الصغيرُ إلى رسول الله ﷺ ، وأخبره بما نواه ، فسأله رسولُ الله ﷺ : أكُلَّ ولدِك نحلته مثلَه ؟ قال : لا ، فلم يشهد الرسول ﷺ على هذه الهبة ، وجاء فى بعض روايات هذا الحديث أنه قال له : « فأرْجِعْه » ، وفى بعضها : « أشْهِدْ على هذا غيرى » . وفى رواية فقال : « فلا تُشْهِدنى إذًا فإنى لا أشهدُ على جَوْر » . وفى رواية لجابر : « فليس يصحُّ هذا وإنى لا أشهدُ إلَّا على حقٍّ » . وفى رواية للشعبى عند مسلم : « اعْدِلُوا بين أولادكم فى النُّحْل كما تُحِبُّون أن يَعْدِلوا بينكم فى البِرِّ » . وفى رواية الشعبى عند أحمد : « إنَّ لبنيك عليك من الحق أن تَعدِلَ بينهم ، فلا تُشْهِدنى على جَوْر » .

وفى هذا الحديث برواياته المتعددة ما يرشد المسلمين إلى أنه تجب المحافظةُ على ما فيه التآلفُ بين الإخوة والبعد عما يُوقع الشحناءَ بينهم أو يُورث العقوق للآباء .

قال المهلب : فى هذا الحديث ما يدلُّ على أن الإمامَ يردُّ الهبة والوصية مِمَّن يَعْرف منه هُروبًا من بعض الورثة .

إنَّ تفضيل بعض الأولاد على بعض فى العطية لغير سبب شرعى حرامٌ أو باطلٌ وممن قال بالبطلان طاووس ، والثورى ، وعن أحمد بن حنبل : إن كان للتفاضل سبب كأن يكون أحدُ الأولاد مريضًا جاز وإلا فلا . وكثير من أهل العلم قالوا : إن كان التفضيل فى العطية يؤدى إلى العقوق فهو حرامٌ لا مكروه ، والأحاديث الواردة تؤكد التحريم (والله أعلم) .

(٩) فلنرحم أنفسنا وفلذات أكبادنا من المهلكات

قال اللَّه تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

من دعاءِ أخٍ لأخيه جاء عن ثابت عند البخارى فى الأدب المفرد أن أنس ابنَ مالكٍ ، رضى اللَّه عنه كان إذا دعا لأخيه قال : « جعل اللَّه عليه صلاةَ قومٍ أبرار ، ليسوا بظَلَمةٍ ولا فُجَّار ، يقومُون الليلَ ، ويَصومون النهار » .

وفيه تنبيهٌ إلى فضْل الصُّحبة الصالحة ، والزُّمرة المؤمنة الخيِّرة التى تُعين على الخير ، وتدعو به لأنفسها ولإخوانها ، ومن طلَبَ الخيرَ أُعين عليه بفضل ربه .

نفسك أمانة :

إن الإنسان أمينٌ على نفسه ، فقد وهبه اللَّه سلامةَ البدن ، ومنحه المالَ والقدرةَ على الكسب ، ومَيَّزه عن سائر الحيوانِ بالعقل والفهم ، وأباح له كلَّ حلال طيب مِمَّا يُفيده ، ويُعينه على طاعةِ المُنعم الوهاب ، ويساعده على السعى والعمل .

وحرَّم اللَّه على عباده كلَّ خبيث وضارٍّ صيانةً للنفس ، وحفاظًا على السلامة البدنية والعقلية ، كتحريم الخمر ، ولحم الخنزير ونحوهما ، وتحريم كلِّ ما يُضعف البدنَ ويجعله عرضةً للفتور والتخاذُل ، أو يُضعف العقلَ ويدفعُ بالمرء إلى زاويةِ الانكسار والانكماش والشعورِ بالذل والهوان .

قالت أمُّ سلمةَ رضى اللّه عنها : « نَهى رسولُ اللّه ﷺ عن كلِّ مُسكر ومُفتِّر » [أخرجه أبو داود] .

المخدرات دخيلة علينا :

ولـم يَعرف أهلُ الإسلام استخدامَ المواد المخدِّرة والمُفتِّرة إلا بعد مجىء التتارِ إلى بلاد الإسلام(1) ؛ لهذا لـم يذكرها الأئمة الأربعة ، إذ لـم تَظهر حاجةٌ داعية إلى تنبيه الناس ، أو تبصيرهم بموادَّ بعينها لعدم معرفتهم بتلك الموادِّ الفتاكةِ بالنفس والجسم .

الأصول الخمسة ووجوب الحفاظ عليها :

لقد أمر الإسلامُ بالحفاظ على خمسة أصولٍ ، وكلُّ إنسان أمينٌ عليها وهي : الدِّينُ ، والنفسُ ، والنسْل ، والعقل ، والمال ؛ وهذه الأُصول هى الأُسس للبناء والعمارة وخوْض الحياة بشجاعة وهمَّةٍ وبصيرة .

إن الدين أغلى على المؤمن من نفسه التى بين جنبيه .

وإن الحفاظ على سلامة العقل واجبٌ على كل فرد ، وقد حرَّم الإسلام كلَّ ما يُفقده صحوتَه وإدراكَه ، أو يجعل العقلَ عرضة للاختلال والضعف فعقلُ الإنسانِ الذى هذَّبه الدِّينُ هو مِصباحُه ودليله ، وبه كرامتُه .

وإن المخدراتِ والإدمانَ لَمن أكبر الأسباب المؤدِّية إلى الضعف والذهولِ والخبل ، فكيف يَرضى عاقلٌ لنفسه أن يُورد نفسه موارد التهْلكة ؟ .

وإن المال دِعامةٌ للمعيشة ، ووقايةٌ من ذلِّ الحاجة ، ونعمة يصون بها الإنسانُ ماء وجهه ، ويحققُ لنفسه حياةً أفضلَ ، ويُهيئُ لأهله وسائلَ العيش

---

(1) أى فى القرن السابع من الهجرة .

الكريم ، ويكوِّن الأسرةَ المستقرة ، ويحقق طموحه فى مجالات الكسب الحلال الطيب ؛ لذا كانت سلامةُ الأموال من الإهدار والتعدِّى أمرٌ واجب ، فلا نفقةَ إلا فيما يعود على الإنسان فى مصالحه الصحيحة العاجلة أو الآجلة وبلا إسرافٍ ولا تقتيرٍ ، كلٌّ حسب حاله ، وقد حرَّم الإسلامُ إنفاقَ المال فيما يعود على الجسم بالضرر ، أو على العقل والنفس بما يُسيء إلى سلامتهما وصحَّتهما .

كما حرم الإسلامُ تحريمًا قاطعًا المتاجرةَ فيما حرَّمه اللَّه ، فلا يجوز لِمسلم أن يبيعَ ويشترىَ أو يُصنِّع فيما فيه ضررُه وهلاكُه ، كالخمر والموادِّ المخدرة ونحوهما ، لذا كان البائعُ للمحرَّم ، والمشترى والمصنِّع والوسيط ونحوهم ، كلهم آثمون مُنحرفون عن جادَّة الحق والخير .

إن العبر فى حياتنا كثيرة : كم ألجأت المكيفات القاتلةُ مستورَ الحال إلى التسوُّل والاستجداء! .

كم ضيعت من كرامات ، وأنزلت أقوامًا من عِزِّ السعادة والبهجة والطمأنينة النفسية والأسرية إلى ذلِّ الحاجة والاستخذاءِ والقلق ... فكيف يرضَى عاقلٌ لنفسه أن يستمر فى طريق الهلكة والضياع ؟.

كم أذابت هذه المخدراتُ السامةُ نضرةَ الحياة من شبابٍ كانوا أملًا لأهليهم وأوطانهم ، فصيرتهم كُهولًا متخاذلين ، زائغى البصر والفِكر ، يعيشون عالةً على هامش الحياة .

كيف يدمِّر الإنسان نفسه ؟

إن المُدْمِنَ يُدمِّر حياته باختياره ، ويخالف صراحةً قول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩] .

من الحكمة فى التحريم :

إن الإسلام حرَّم الخمر ؛ لأنها تُغطِّى عقلَ شاربها ، وتُفسد نفسيته وتدفعه إلى شرورٍ ومآثمَ كثيرةٍ ، فهى أمُّ الخبائث ، وإن الأصنافَ التى ابتكرها تجارُ السموم تأكل المخَّ أكلًا ، وتؤدى إلى إضعاف العقلِ وذهابه . كما تجعل الإنسانَ الكريم القوىَّ أسيرًا ضعيفَ الإرادةِ ، مستسلمًا لأعوان الشيطان ، كالكُرة يتقاذفُها الصبيان .

إن الهيروين والكوكايين وأمثالهما موادُّ تَجلب الدمارَ النفسىَّ و البدنىَّ ، وتُبدِّد مال الإنسانِ وجهدَه ونشاطه ، وتجعل أسرته عرضة للضياع .

فكيف يَقبل عاقلٌ كريم لنفسه أن يقع فى مثل هذه الشِّباك القاتلة ؟

وفى الحديث الشريف : « كفَى بالمرء إثمًا أن يُضيِّع من يقوت »

[رواه ابنُ عمرو وأخرجه أبو داود والنّسائى والحاكم] .

تبصير الشباب واجب :

فليتبصَّر كلُّ شابٍّ ، وليَحذر الرُّفقةَ الضارَّة ، ولْيستقِمْ على طريق الطاعة فى نورِ الإيمان وإرشادِ الدين . إيَّاك أيها الشاب أن تُجرِّب ، فإن تجربة واحدةً من بعض هذه السموم عن طريق الأنف ، أو الفم ، أو العضل ، أو العروق تستنزف قُواك ، وتُوقعك صريعًا وفريسةً لتجار لا ضمائرَ لهم ، يقفون لك من وراء ستارٍ ، يأكلون أموالَ الناس سُحتًا . وفى الحديث : « إن اللّه يكرهُ لكم ثلاثًا : قيل وقال ، وإضاعةَ المال ، وكثرةَ السؤال » .

[من حديث رواه أبو هريرة وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد وابن خزيمة وغيره] .

الحياة الطيبة بالاستقامة :

جاء عن سلمة بن وردان ، عن أنس عند البخارى ، أن رجلًا سأل النبى

ﷺ : أىُّ الدعاء أفضل ؟ قال : « سل اللّٰه العفوَ والعافيةَ فى الدنيا والآخرة » . فإذا أُعطيتَ العافيةَ فى الدنيا وفى الآخرة ، فقد أفلحتَ .

إن التمتع بالحلال الطيب من المأكل والمشرب يساعد الإنسان على أداء دوره فى الحياة ، وهومتمتعٌ بحيوية ونشاطٍ وسلامةٍ وصحة ، كما أن فى ذلك - كما جرت العادةُ وقضت سُنةُ الحياة - سلامةَ التفكير ، واتزانَ النفس وهدوءَ الخواطر ، فإذا ما اعتاد الإنسانُ فى بيته النومَ المبكر واليقظةَ فى البكور ، وإعطاءَ الجسم حقَّه ، فإنه يسلَمُ من الاضطراب ، والآفاتِ النفسيةِ والعصبية التى قد تُعرقل مسيرة حياته .

النشأة والقدوة :

وإن الشاب الذى ينشأ فى بيئة هذا شأنُها ، وينشأ على طاعة اللّٰه عز وجل وأداءِ فرائضه ، والوقوفِ عند حدوده ، ومعرفةِ الحقوق والواجبات ، هذا الشابُّ هو الذى يَنعم فى مستقبل أيامه بحياة أسريَّةٍ مُستقرة ، وإن واجب الآباء أن يُهيئوا أولادَهم وفلذاتِ أكبادهم نفسيًا ،وبدنيًا وعقليًا لهذه الحياة التى هم مُقبلون عليها لا محالة ، وأن يحيطوا الناشئةَ بكل رعاية وعناية ، فهم حبَّاتُ القلوب ، وسلامتُهم من أى بادرةٍ للانزلاق فى هاوية الإدمان ومَباديه ، أمرٌ واجب على جميع المُحيطين بهم .

إن الولد الصالحَ نعمة ورحمةٌ وبهجةٌ لقلوب أبويه وأهله ، وعملٌ صالح لأمته ، فإذا ما نشأ تحت ظلٍّ رعاية واعية ، ورُبِّى تربية سليمة وغذِّى بأخلاق الدين وهدايته : نفع نفسه ، ونفع الجماعة ، وكان للخير محبًا وعليه مُعينًا ، وللشر مُبغضًا ، وله مجتنبًا ، وفى صالح أمته ساعيًا مجدًّا .

إن تبصير فلذات الأكباد بمساوئ المخدرات أمرٌ واجب ، وتحذيرهم من

أىّ تجربة فى هذا المجال أمرٌ تُحتمه ضرورةُ الحِفاظ عليهم ، مع وجوب القدوة السليمة فى البيت ، وليكن الأبُ بمنأى عن هذا الخطر الداهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم : ٦] .

ملاحظة التغيرات :

إن تفقُّدَ أحوال الولدِ خصوصًا إذا صار له ميلٌ إلى الانزواء ، ورغبةٌ فى كثرة الخروج من البيت ، وإلحاحٌ فى طلب المالِ أكثر من حاجاته المُعتادة ، وكذلك حين تَظهر أماراتٌ تُوحى باضطراب عصبىٍّ أو بدنىٍّ ، إن هذه الأحوالَ وأمثالها تُوجب علينا بَسْط رعايةٍ وعناية أعظم ، وبحثًا عن الصديق والمخالِطِ للأولاد ، وملازمةً لأولادنا برفق ورحمة فى أكثر أحوالهم ، ويُوجب علينا ذلك كله مصارحةً بطريقة لَبِقَة ، ومكاشَفةً لتدارُكِ أىِّ بادرةٍ توقع المسكينَ فى شِراك الملاعين من تجار المخدرات ومُدمنيها الأشرار ، وذلك قبل استفحال الأمر ووقوعِه فريسةً فى هذا الشر .

وفى الحديث : « المُؤمنُ غِرٌّ كريمٌ ، والفاجرُ خَبٌّ لئيم »

[رواه أبو هريرة وأخرجه أبوداود والترمذى والبخارى] .

والمقصود هنا أن المتمرسَ على الشر ، وهو الخَبُّ يكون خدَّاعًا مكارًا ، فينبغى التحرزُ من عِشرته؛ لأنه يعمل على إيقاع الإنسانِ الذى يكون على سَجيَّته الطيبةِ ، على إيقاعِه فى الشر والإثم لعدم خبرته بطبائع الناس .

طِبٌّ نبوى :

ونصيحة نبويةٌ أخرى تصلح بها أمورُ الناس فى حياتهم ومعايشهم ومعادهم ، وهى من جوامع كَلِمه ﷺ يقول حين سُئل عن النجاة : « أمسِكْ عليك لسانك ، ولْيسعْكَ بيتُك ، وابْكِ على خطيئتك » [رواه عقبة بن عامر وأخرجه الترمذى] .

وإن التوجيه باستقرار الإنسان فى بيته بعد قضاء أعماله ، توجيهٌ تربوى ونفسىٌ عالى القيمةِ ، إذ ينصرف أفرادُ الأسرة إلى شئون حياتهم ، ومُعايشةِ أولادهم أكبرَ قسطٍ ممكن من اليوم ، وإلى ملاحظةِ كلِّ سلوكٍ وإبداءِ المشورة والنصح فى حينه ، إلى جانب أن البكاءَ على الخطيئة إذا وقعت ، والندمَ عليها فيه تجديدٌ للإيمان ، وبعثٌ على العمل الصالح ، وعلى الاستزادةِ من الخيرات دومًا ، وهذا يُهذِّب الضمير ، ويُنمِّى نوازعَ الخير فى النفس ، مع إمساك اللسانِ عن الشرِّ والسوءِ فتسلم للإنسان نفسُه وحياتُه ، ويحيا حياةً طيبة مطمئنَّ القلب مرتاح الفؤاد ، راضيًا قانعًا ، ساعيًا فيما يعود عليه وأهله بالخير وبمزيد من السكينة .

ومن العلاج :

وإن الإقبال على العبادة ، وحضورَ الجماعات ، وتلاوةَ القرآن ، والإكثارَ من ذِكر اللّه ، وملازمةَ الاستغفار مع المُداومة وقوةِ الإرادةِ ، لَمِن أعظم الدواء ، وأنفعِ الطبِّ وقايةً وعلاجًا للنفوس : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٧، ٥٨] .

برنامج لطب النفوس من القلق ونحوه :

فَمَن أقبل على كتاب اللّه تلاوةً وسماعًا وتدبُّرًا ، وشغَلَ وقته بالاستغفار والتسبيح والحمدِ والتكبير ، وجدَّد إيمانه دومًا بكلمة التوحيد ، هذا إلى أداء الصلواتِ فى أوقاتها ، وحضورِ الجماعات ؛ من فَعل ذلك بإخلاص ومحبةٍ وصِدق يقينٍ صَرَف اللّه عنه بفضله الهمَّ والحزن ، وأعانه على الاستقامة ، وملأ قلبه سكينة ، ونفسه طُمأنينة ، ومع الإخلاص والمُداومةِ على الطاعة تَقْوى إرادةُ العبد ، ويزدادُ تعلُّقه بالمُثُل العُليا للإسلام ، وانقمعت فى نفسه نوازعُ الشر ، وازدهرت شجرةُ الخير ، واجتنب كلَّ ما ينافى خُلقَ المسلم وقِيَمَ الإسلام ، وابتعد عن

المُهلكات ، وأقبل على المبرّات والخيرات ، وصدقَ فيه قولُ الحبيب المُصطفى ﷺ بفضل اللّه : « المُؤمنُ القوىُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللّه من المُؤمن الضعيفِ وفى كلٍّ خير ، احرِصْ على ما ينفعُكَ واسْتَعِنْ باللّه ولا تَعْجَزْ » .

[من الحديث الذى رواه أبو هريرة ، وأخرجه أحمد ومسلم]

وإن الحرصَ على النافع يدعونا إلى لزوم الحلالِ الطيبِ والاستقامةِ على الطريقة المَرضِيَّة ، وإن الاستعانةَ باللّه تُقوِّى العزمَ على طريق الخير وعلى تركِ كلِّ ما لا يُرضى الرحمن ، وتبعثُ على طلَب مَرضاة اللّه دومًا . وفى هذا خيرُ الدنيا والآخرة . ومَن قَصَد الخير ، وسَعى واجتهد ، وفَّقَهُ اللّه بفضله وإحسانه .

* * *

(١٠) كلمة :
فى العُرس والزّواج

عن أنس بن مالك : أن النبى ﷺ رأى على عبد الرحمن بن عوف أثرَ صُفرة فقال : « ما هذا » ؟ قال : يا رسولَ اللّه ، إنى تزوجتُ امرأةً على وزْن نواةٍ من ذهَب ، قال : « فبارك اللّه لك ، أوْلِمْ بِشاة » [متفق عليه ، واللفظ لمسلم] .

والنواةُ من ذهب قدَّروها بربع دِينار ، وقيل : ما قيمتُه خمسةُ دراهِم من الفِضة . وفى هذا الحديث دليلٌ على أنه يُدعَى للعروس بالبركة ، وقد نال عبدُ الرحمن بنُ عوف بركةَ الدعوةِ النبوية حتى قال : « فلقد رأيتُنى لو رفعتُ حجَرًا لرجوتُ أن أُصِيب ذهبًا أو فضة » . وفى الصحيح قال ﷺ لجابر حين تزوّج : « بارك اللّه عليك » .

الوليمة : وفيه دليلٌ على أن الوليمةَ سُنةٌ فى العُرس ، وفى حديث أبى هريرة مرفوعًا : « الوليمةُ حقٌّ وسنة ، فمن دُعى ولم يُجِب فقد عَصى »

[أخرجه البخارى والطبرانى فى الأوسط] .

وفى رواية ابن عمر المُتفق عليها : « إذا دُعى أحدُكم إلى الوليمة فليأتها » . ولمسلم : « إذا دعا أحدُكم أخاه فليُجِب عُرسًا كان أو نَحوه » .

الدعاء : وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ كان إذا رفَّأ إنسانًا إذا تزوج قال : « بارك اللّه لك ، وبارك عليك ، وجمع بينكما فى خير »

[رواه أحمد والأربعة وصححه الترمذى وغيره] .

وهذا دعاءٌ فيه خير عظيم ، دعاء بالبركة وبالموافقة للمتزوِّج بينه وبين

أهله ، و بحُسن العِشرة بينهما ودوامها ، وتحقيقِ المودَّةِ والتعاونِ والرحمةِ بينهما ، وفيه : أن الدعاءَ للمتزوج سنة .

ويستحبُّ أن يقال لكل واحدٍ من الزوجين : بارك اللَّه لكلٍّ واحدٍ منكما فى صاحبه ، وجمع بينكما فى خير .

وإن المتزوج يُسنُّ له أن يدعوَ بما أفاده حديثُ عَمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ : « إذا أفاد أحدُكم امرأةً ، أو خادمًا ، أو دابةً فلْيأْخُذْ بناصيتها ، وليقُل : اللَّهمَّ إنى أسألك خيْرَها ، وخيرَ ما جُبِلَتْ عليه ، وأعوذ بك من شرِّها وشرِّ ما جُبِلَتْ عليه »

[رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه] .

النهى عن التبتُّل :

وفى الحديث : « تزوَّجوا الولُودَ الودُودَ فإنى مُكاثرٌ بكم الأنبياءَ يومَ القيامة » [أخرجه أحمد وصححه ابن حبان] . والراوى أنس وقال : « كان رسولُ اللَّه ﷺ يأمرنا بالباءةِ ، وينهانا عن التبتُّل نهيًا شديدًا » .

والتبتل : الرغبةُ عن الزواج والانقطاعُ عنه للعبادة أو للعُزوف لأمرٍ ما ، ويكون النهىُ أشدَّ إذا كانت للشخص قدرةٌ . وفيه ترغيبٌ فى الإكثار من النسل لِما فى ذلك من البركة فى الرزق والقوةِ للأمة .

والمرأة الولودُ هى كثيرة الوِلادة ، ويُعرف ذلك فى البِكْر بحال قَرابتها .والمرأة الودودُ هى المحبوبةُ بكثرة ما هِى عليه من خِصال الخير وحُسن الخُلق ، والتحبُّبِ إلى زوجها ، ومثل هذه تجتهد فى كشب مودة أهله وحُسن العشرة لهم ، وتكون خير عون للزوج فى بناء الأسرةِ المسلمة المستقرَّة ، كما أنها تكونُ خيرَ عون على انتهاج زوجِها طريقَ الرشد والاستقامة ، مع التعاون على طاعة اللَّه عز وجل فى كل ما أمر به اللَّه سبحانه .

والمكاثرة : هى المفاخرةُ وفيه جوازُها فى الآخرة ، ووجهُ ذلك أن الذى تكون أمتُه أكثرَ عددًا فثوابُه أكثرَ ؛ لأن للنبى مِثلَ أجرِ من اتبعه .

المبادرة إلى الزواج :

وقد حثَّ الإسلام الشبابَ على المبادرة إلى الزواج عند القدرة ؛ لِما فى الزواج المُبكِّرِ من الفوائد الجليلة ، التى تعود على الأسرة وعلى الأمة .

ففى حديث عبد اللَّه بن مسعود قال : قال لنا رسول اللَّه ﷺ : « يا معشرَ الشباب ، من استطاع منكم البَاءَةَ فليتزوَّج ؛ فإنه أغضُّ للبصر ، وأحصَنُ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء » [متفق عليه] .

أى : من كانت له قُدرة على مُؤنة الزواج وتكوينِ الأسرة ، فلْيبادِرْ تحقيقًا للعِفَّة والصِّيانة . ومن لم تكن لديه القدرةُ المُعينةُ فليستعِنْ باللَّه ، وليُقبِلْ على الطاعة ولْيَصُمْ تطوعًا ، إذ فى الصوم تدريبٌ على إيقاظ الضمير وإحياء المُراقبة وضبطٍ لأهواء النفس ، وتقويةٍ للإرادة الخيِّرة ، وتَوجُّهٍ نحو الخير والصلاح . ومِمَّا يُعين على الاستطاعة تيسيرُ الناس أمرَ الزواج والمعونةُ على تحقيقه ، ومن ذلك يُسْرُ المهورِ ، والمُساندةُ بقدْر المُستطاع فى بداية تكوينِ أسرةٍ جديدة .

المهر : فمِمَّا يُعين الشبابَ على تكوين الأسرة المستقرةِ فى الوقت المناسب، تيسيرُ أمور الزواج ، وتعاونُ الأسرتين ، وسهولةُ المهر ، والرضا بمستور الحال المرضىِّ الخُلُق والدِّين ، الذى يُرجَى خيره ، ويُؤمَن شَرُّه ، ويُشَامُ منه الثباتُ على طريق الاستقامة .

عبرة من قصة أمّ سُليم :

لما خطبها أبو سُلَيم قالت : « واللَّهِ ما مثلُك يُرَدُّ ، ولكنك كافرٌ ، وأنا مسلمة ، ولا يَحِلُّ لى أن أتزوَّجك ، فإن تُسلم فذلك مَهرُك ،ولا أسألك غيره

فأسْلَم ، فكان ذلك مَهْرَها » [أخرجه النسائى ، وصححه عن ابن عباس] .

بما معك من القرآن : وقد قال النبى ﷺ للخاطب الذى لم يكن يملك شيئًا ، سِوى ما عليه من الثوب ، قال له : « انظُرْ ولو خاتمًا من حَديد » ، فلم يجد ، ثم سأله : ما معك مِن القرآن ؟ قال : معى سورةُ كذا وسورةُ كذا عدَّدها . قال ﷺ : « تَقرؤهنَّ عن ظهْرِ قَلب ؟ » قال : نعم ، قال : « اذْهَبْ فقد ملَّكتُكَها ، بما معك من القرآن » [متفق عليه ، والراوى سهل بن سعد الساعدى] .

وفى رواية أبى هريرة عند أبى داود : « قُم فعلِّمْها عِشرين آية » .

وقد استدل أهلُ العلم بذلك ونحوه على أن الصَّداق يَصِحُّ بكل ما يتراضَى عليه الزوجان ، أو مَنْ إليه ولايةُ العَقْد بما فيه منفعة ، وضابِطُه : أن كلَّ ما يصلُح أن يكونَ قيمةً وثَمنًا لشىء يَصِحُّ أن يكونَ مهرًا . وكل إنسان بحسب استطاعته ، دون تحميلِ أعباءٍ تُثقِل ظهْرَ الأسرةِ الجديدة ، التى نُريد لها الاستقرار والطمأنينة ، فَمِن يُمنِ المرأة حُسنُ خُلقها ويُسرُ مَهرها ، وطاعتُها لشريكِ حياتها . وإن كلَّ مَن يُعين على تكوين أسرةٍ مسلمةٍ راجيًا وجْه اللّٰه عز وجل ؛ فإن له الجزاءَ الأوفَى بإذن اللّٰه تعالى .

الأسرة :

قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾

[الفرقان : ٥٤] .

ففى هذه الآية الكريمة برهانٌ على كمالِ القدرة الإلهية وكمالِ الحكمة ، فهذا الإنسانُ جاء من نُطفةٍ مَهينَةٍ كانت مُغَيَّبةً فى أصلابِ آبائه ، ثم هوَ ينتسب إلى أبيه ، ويعيشُ فى ظِلال أسرته متمتعًا بالعَطف والتراحُمِ والرعايةِ والكَلاءةِ ، بما أودعه اللّٰه فى قلبى الأبِ والأم من الرحمة والحنان .

وحين يأتى الأوانُ يتزوج المرءُ ، ويصير له أصهارٌ وأختان ، وتتوسعُ دائرةُ الرابطة الأسرية ، مِمَّا تتحقق معه الحِكمةُ التى أشارت إليها آيةُ سورة الحجرات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الآية : ١٣] . ومن أقوى أسبابِ التعارف والتآلف هو مدُّ جسور العلاقاتِ الإنسانيةِ عَبْرَ الزواج ، فتزدادُ الروابط ، ويتأكدُ التآلفُ المُفضِى إلى التعاون على الخير .

الأسرة أساسٌ لا بديلَ له :

إن تكوين الأسرة السليمة هو الأساسُ الملائم لفطرة الإنسان ، والعِمادُ القويُّ الذى لا غِنى عنه لبناء الأمة التى تَتضحُ فيها الأنساب ، ويتمتعُ الفردُ فيها بالانتماء إلى آبائه وأسرته ، وفى ظلال الدِّين القيِّم تزدهرُ العلاقاتُ الأسرية ، وتنمو العواطفُ الشريفةُ فى النفوس ، والقيمُ الساميةُ الفاضلةُ بفضل آدابِ الدين وتوجيهه ، وتَكْتسى الأسرةُ دعمًا وقوةَ رابطةٍ بفضل التأكيد على بِرِّ الوالدين ، وحُسنِ تربية الأولاد ، والتعاونِ والمودةِ والرحمةِ بين أفرادها ، وتأكيدِ العملِ على رعاية الأقاربِ والأرحامِ والأصهار ، وتفقُّدِ أحوالهم وإيصالِ البر والخيرِ إليهم ، ولو بالسؤال والكلمةِ الطيبة .

حديثٌ وشرفُ الانتماءِ إلى الآباء :

وفى تأكيد منزلةِ الأسرةِ من الأمة فى مجموعها ، وبيان شرفِ الانتساب إلى الآباء ، ووضوحِ الأعراقِ - جاءت أخبارٌ صحيحةٌ منها ؛ أن أبا هريرة قال : سُئل رسول اللَّه ﷺ : أىُّ الناس أكرم ؟ قال : « أكرمُهم عند اللَّهِ أتقاهم » ، أى إذا التقَى مع النسب شرفُ التقوى والصلاح كان فى ذلك الخيرُ والبركة ، وكان أنفعَ وأجدى على الأمة . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فأكرمُ الناسِ

يوسفُ نبيُّ اللّه ، ابنُ نبيِّ اللّه ، ابن نبيِّ اللّه ، ابنِ خليل اللّه » . أى : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فعن مَعادنِ العرب تسألونى » . قالوا : نَعم . قال : « فخيارُكم فى الجاهلية خِيارُكم فى الإسلام إذا فَقُهوا » [فى الصحيحين] .

وفيه تمثيلُ القبائل والأَسَر بالمعادن لِما فيهما من الاستعداد المُتفاوت ، فالناسُ متفاوتون فى النَّسبِ بما يكون لهم من المكارم والفضائل، كما تتفاوتُ المعادنُ من وُجوه عِدة . وإن شرفَ النسب مع التواضع والرفقِ والخلقِ الكريم يزدهرُ مع شرف التديُّن والإخلاص لله فى السر والعلانية : « إن أكرمَكم عندَ اللّه أتقاكم » ، وسيأتى مزيد بيان لهذا فى الفصل التالى (١١) بإذن اللّه .

وقالوا فى الحكمة :

كن ابنَ مَن شِئتَ واكتسِبْ أدبًا ... يُغنيكَ مَحمودُه عن النَّسَبِ

ولقد جمع أعمامُ رسولِ اللّه ﷺ وأبناؤهم مِمَّن أسلَمُوا بين شَرفِ النسب وكرَم الدينِ والفِقْه فيه ، ولم ينفعْ أبا لَهبٍ وأمثالَه مِمَّن ماتُوا على العنادِ والكُفر ، لم تنفعه قرابتُه من رسولِ اللّه ﷺ ولا مكانةُ نسبه من قريش ، وهذا مثلٌ يُقاس عليه ، فإن كل إنسان مسئول عن نفسه أمام اللّه عز وجل .

* * *

١١ - مَنْ أكرمُ الناس ؟
والـموازين الصحيحة للتفاوت
والـمسلـمون جميعهم أمام الأمر والنَّهى سواء

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : سئل رسول اللّه ﷺ : أىُّ الناسِ أكرم ؟ قال : « أكرمُهم عند اللّه أتقاهم » . قالوا : ليس عن هذا نسألُك . قال : « فأكرمُ الناس يوسفُ نبىُّ اللّه ، ابنُ نبىِّ اللّه ، ابنِ نبىِّ اللّهِ ، ابنِ خليل اللّه » . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فعن معادنِ العربِ تسألونى ؟ » . قالوا : نعم . قال : « فخيارُكم فى الجاهلية خِيارُكم فى الإسلام إذا فَقُهوا » [أخرجه البخارى ومسلم] .

أكْرمُ : اسمُ تفضيل من الكرَم بفتح وسطه ، وهو اسمٌ جامع لأنواع الخير مع الشرف والفضائل ، وأصل الكرم : كثرةُ الخير ، ويُطلق على أخلاق الإنسان ومحامده وأفعاله الـمشكورة .

والإنسان إذا كان تقيًّا كان كثيرَ الخير ، وكثيرَ الفائدة فى الدنيا ، ويُبشَّر - بفضل اللّه - بالدرجات العُلا فى الآخرة .

فى طريق أهل الكرم :

وإن الشرف حقًّا هو التقوى التى تبعثُ الإنسانَ على التزام الخير واجتناب الشر ، فيكون التقىُّ فى نفسه صالحاً ، وهو فى تفاعُله مع غيره مُصلحًا .

وإن العاقل البصيرَ يختار الإيـمانَ والتقوى ، ويلزمُ طريق القدوةِ الحسنة ، يكتسب الـمزيد من الفضائل ، ويجتهد فى طاعة مولاه ، ويصرف الهِمَّة إلى الأعمال الصالحة ، ويصبر على الـمداومة عليها ، مُوطِّنًا العزمَ على مفارقة

المعاصى ، كابحًا عِنانَه عن أسباب الوقوع فى الآثام .

ولقد كان أصحاب رسول اللّه ﷺ ورضى اللّه عنهم حريصين على الخير يسألون عنه ، ويلزمونه ، وفى هذا الحديث سألوه ﷺ : عن أكرم الناس ؟ إذ الناسُ تتفاوت منازلُهم بتفاوت ما هم عليه من الشرف والفضائل ، وما يتزيَّنون به من الآداب والقيم الساميةِ الثابتة المستمدَّة من الوحى السماوى .

فبين لهم الحبيبُ المُصطفى ﷺ فى جوابه ، أن أكرمَ الناس عند اللّه أتقاهم لله ، وأخشاهم له فى السر والعلانية ، الذين يستحضرون عظمةَ اللّه فى قلوبهم دومًا ،لا يلتفتون إلى الناس ، يُضىءُ لهم نورُ الشريعة السمحةِ طريقَهم ، فيه يسيرون ، وبهدايته يتصرفون .

فمن كان شريفَ النسب ، عظيمَ الحسب ، تقيًّا نقيًّا صالحًا ، فقد جمع الحُسنين ، وتُوِّج بتاجين ، وازدان بشَرفين ، ويا بُشَراه .

حسب بلا تقوى ، مصباح بلا ضوء :

وقد نبَّه القرآنُ العظيم على هذه القضية كى لا يغترَّ أحد بنسَب أو حسب أو قُربى من نبىٍّ أو ولىٍّ ، فيسلكَ بسبب هذا الاغْتِرار مسالكَ أهل الجهل ، فيتخبطَ فى الظلمات ، ثم يُحشرَ فى زُمرة الهالكين إذا هو قضى عُمره بلا تقوى ، ولا عمل صالح ، ولنسمع اللّه عز وجل يقول : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وقد كان الحبيبُ الهادى ﷺ نفسُه أخشَى الناس لله ، وأتقاهم له ، وأطولَهم قيامًا بالليل ، وأكثرَهم مراقبة ، وأعظمَهم ملازمةً للخوف حتى فاضت روحُه إلى بارئها ، وهو مَن هو عند اللّه عز وجل ، وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما

تأخر .

ولذا نبه الرسول الحبيب ﷺ ؛ على أن شرفَ النسبِ وحده لا يُغنى صاحبَه عند ربِّه ، ولا يَكفيه لنيل الدرجاتِ والشمولِ بالرحمات فى يومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى اللّٰه بقلب سليم .

وماذا إذن ؟

لكى يحظَى أهلُ البصيرة والنُّهى ، بنجاة مُهجِهم ، وتخليص أرواحِهم ، ونَيْل ما عند اللّٰه من الرحمة ، لابدَّ لهم من سلوك طريقها ، واتخاذِ الأسباب المؤدِّيةِ إليها بفضله سبحانه وإحسانه وتوفيقه ، لابدَّ لهم من الإيمان الصحيح ، واليقين الصادق ، والعِلم ، واكتسابِ العمل الصالح ، والطاعة لله ولرسوله مع الإخلاص ، والثباتِ على طريق الاستقامة : أى الإيمان والعمل الصالح حتى آخرِ العُمر .

لذا لـمَّا سألوا عن أكرم الناس ؟ ذكَر رسولُ اللّٰه ﷺ ما هو أحرى بالتقديم وهو المعنى الذى يَحتاج إليه كلُّ راغبٍ فى النجاة ، فقال : « أكرمُهم عند اللّٰهِ أتقاهم » . من غير انتماءٍ إلى شرف الآباءِ والافتخار بفضائلهم .

نموذج ومثال من البشر :

فلما قالوا : ليس عن هذا نسألك . ضرب لهم مثلًا التقت فيه أسبابُ الشرف فى ذاته وخصاله ونسبِه وعِلمه وفقهه وكرَم أخلاقِه مع مجْد الآباءِ وجمالِ الصورة وحُسن السيرة ، فقال : « أكرمُ الناس يوسفُ نبىُّ اللّٰه ، ابنُ نبىِّ اللّٰه ، ابنِ نبىِّ اللّٰه ، ابنِ خليل اللّٰه » فقد أعطاه اللّٰه من كمال الصفات البدنية ، والنفسية والعقلية ، والروحية خيرًا كثيرًا ، مِمَّا جعله مَضربَ الأمثال : فى الصبر ، والعِفة والطهر ، والحِكمة ، وبُعد النظر ، وجمالِ الخَلْق حتى قُلن : ﴿ مَا هَٰذَا

﴿بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف : ٣١] . وحقًّا كان مَلكًا كريمًا فى سموِّ نفسه ، وتقواه ، وفى عفافه ، ووفائه ، وصفاءِ قلبه من كُدورات الحسد والعداوات ، وفى دأبه على إصلاح أحوالِ الناس بما أوتى من الفقه والفِطنة والعلم ، وفى حسن مخاطبته للنفوس البشرية لاستمالتها إلى الحق وخالص الإيمان ، إلى جانب ما عُرف عنه من العفو والصفحِ وصلةِ الأرحام ، والبِر بهم ، عليه وعلى نبينا أفضلُ الصلاة وأتم التسليم .

حقًّا : إنه نموذجٌ كريم لشرف النسب وشرفِ الحسَب الذى هو التقوى وصالحُ الأعمال ، وهذا فضلُ اللَّه يؤتيه من يشاء من عباده .

الناس معادن :

ثم إن السائلين أرادوا أن يتوجَّه القولُ نحو الحال التى هم فيها ؛ ليستزيدوا معرفةً وتبصِرةً بمواقف العربِ من الدعوة ، بعد أن أكرمهم اللَّه باصطفاء خاتم رسله منهم ، وازدانت حياتُهم بنور دعوته ﷺ .

ولـمَّا قالوا : لا نسأل عن أمر يوسفَ عليه السلام ؛ لأنهم كانوا قد علموا من أمر يوسف ما جاء به الوحى ، وبلَّغه الحبيب الـمُصطفى ﷺ ، وبه وبجميع الأنبياء والـمرسَلين آمنوا وصدَّقوا .

فأجابهم : « فعن معادنِ العربِ تسألونى » . قالوا : نعم[1] .

---

(١) ونحن نعلم أن العرب فى جاهليتهم كانت لهم مفاخرهم ولكل قبيلة أيامُها وأمجادُ آبائها وبذلك كان فخرُهم ، وبالكثرة والوفرة كان اعتزازهم ، وحفلت قصائدُ شعرائهم فخرًا واعتزازًا ، ومنها أخذت آدابهم وأخلاقهم ومكارمُهم بل وأنسابهم . وكان فَخرُهم في الجاهلية ومدحُهم يدور حولَ الكرم ، والنجدة وإغاثةِ الملهوف ، والشجاعةِ ، والإقدام ، وقهرِ المغلوبِ ، ولو تسلُّطًا وبغيًا وإجارة المستجير ، وحماية الحوزة ، وكثرة العدد ، وما كان للآباء من نحو هذه المفاخر التى تتفاوت أقدارُهم فيها مثل الاتجاه الجاهلى فى قول الفرزدق : =

والـمراد : بمعادن العرب : أصولهم التى ينتسبون إليها ، ويتفاخرون بها ففيه تَمثيلُ القبائل والأنسابِ بالـمعادن ، ووجْهُ الشَّبَه : الاستعدادُ الـمُتفاوت .

أو شَبَّهَهم بالـمعادن من ناحيةِ أنهم أوعيةٌ للشرف كما أن الـمعادنَ تكون أوعيةً للجواهر الثمينة ، وهذه الأوعيةُ مقادير ، وكذلك هم فى قَبول الإسلام وأَخْذِهم ما جاء به الوحى ، وفِقههم فيه على مراتب لا تُحصى .

قالوا : إن الناس متفاوتون فى النسب بالشرف والضَّعَة كتفاوت الذهب والفِضة فى الـمعادن ، وكذا تفاوتهم فى الإسلام بالقبول بفيض اللّٰه بحسب العلـم والحكمة على مراتب . [مجمع البحار من شرح الأدب الـمفرد] .

ولفظ : « الـمعدن » يدلُّ على أن تفاوتهم لا يُحصى كما لا يُحصى تفاوتُ الذهب والفضة فى الجَودةِ واللون والثِّقَل ، وقوله ﷺ يدل على أن هذا التفاوتَ وإن كان فِطريًّا لكنّ ازدياده وانتقاصَه وكذا إزالته فى اختيار الإنسان : أى بالإيمان والحِسبة فى الأعمال ، وبصرف الهِمَّة فى اكتساب الفضائل والنُّزوعِ عن الرذائل ، وكذا النزوع عن اختيار الكفر ، وعن الكسل فى تحصيل الفضائل ، إلى جانب البُعد عن ارتكاب الأعمال القبيحة ، وبذلِ الهِمَّةِ فى صرف القبائح عن النفس .

فرق : « فالإنسان له كسْبٌ واختيارٌ يرفَعُه أو يَضَعُه »

« ولا يَخفَى أن الجواهر لا اختيارَ لها فى تفاضُلها ، وإزالةِ الرداءةِ وإقلالِ الثمن وانتقاصِه ، أو زيادةِ الجَودة والبهاء ، وإغلاءِ الثمن .

= أولئـك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرُ الـمَجـامع

وتلك نزعة جاهلية برزت مرة أخرى فى العصر الأموى لأسباب سياسية ودواع شخصية . أما بعد الإسلام – بغضّ النظر عما برز فى العصر الأموى من اتجاه جاهلى – فقد اعتدل الميزان ، وتهذبت المقاييس ، وصار الشرفُ هو التقوى والعمل الصالح .

بخلاف الإنسانِ فإنه إن كان كالـمعادن فى نجابة أصوله ، أو خَساسة عناصره ، إلا أنه إذا اختار الإيمان ، واكتسب الأعمالَ الصالحة ، وتوجَّه بالنية الصحيحة ، ارتفعت درجاتُه من فضل اللّٰه تعالى ، ولا يكون رهينًا فى درجة وُلِدَ فيها » . [من شرح الأدب المفرد] .

شرف النسب والدين :

نعم : إن شرفَ النسب وحده لا يُغنى الإنسانَ لا فى دنياه ولا فى أُخراه ، وللمرء منزلتان : منزلةٌ من بيت وُلد فيه وتربَّى ، ومنزلةٌ باختيار الإيمان والنية الصالحة ، وإفراغِ الجُهد فى الأعمال الحسَنة ، وجهادِ النفسِ لله ، وبذل المال لوجهه الكريم سبحانه ، وطلبِ العلم ، والازديادِ والتمرُّن فى الفقه .

فمن شاء أن يستحقَّ رفْعَ درجاتِه عن المنزلة التى وُلد فيها ، فإن ذلك يكون بمقتضى سلامةِ الإيمان ، وبالعملِ الصالح الذى به ينمو الإيمان ، والإخلاص فى الطاعة ، ومن كان على نقيض ذلك استوجب الحطَّ عن المنزلة التى وُلد فيها . فكل إنسانٍ بما اختار لنفسه وبما عمل .

وفسَّر المحدث الدهلوى هذا المَثَل أى « معادن العرب » بقوله :« فالناسُ متفاوتون فى مكارم الأخلاق ، ومحاسنِ الصفاتِ على حسب الاستعداد ، فمَن كان مستعدًّا لقبول المآثر ، وجميلِ الصفات والتفوُّق على الأقران فى الجاهلية ، فهو أشدُّ استعدادًا لقبول المعالى والأوصاف الرفيعة بعد الإسلام » .

فمن أقبل على الإسلام برغبة وصدق وإخلاص ، وعملٍ واتِّباع ؛ فإنه يزكِّيه ، ويطهِّره ويرفع مَقامه عند اللّٰه بفضله وإحسانه .

وعلى هذا : فما معنى : « فخيارُكم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام » .
وبالمثال يتضح الحال : فإن العباس بنَ عبد المطلب رضى اللّه عنه تختلف حالته عن أبى لهبِ بنِ عبد المطلب ، وهما أخوان : فالأولُ جمع مع النسبِ الشريفِ صحةَ الإيمان وسلامةَ اليقين ، والجهادَ فى سبيل اللّه ، والعملَ الصالح ، والفهمَ فى الدين ، فهو من الخيار فى الجاهلية الخيار فى الإسلام ، والآخرُ لم ينفعه نسبُه لسوء اختياره وضلاله ، قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ . فقد لعنه اللّه عز وجل – والعياذُ باللّه .

إن الإنسان إذا دخل فى دين اللّه ، وتفقَّه فى الدين ، وعمل بما عَلِم وكان قبل الإسلام من ذوى المآثر : مثل أبى بكر الصديق ، عمر بن الخطاب ، حمزة ابن عبد المطلب، عثمان بن عفان وغيرهم ، فإنه يكون من خيار الناس فى الإسلام كما كان من خيارهم قبله ، وبقدر تقواه وعمله الصالح وجهاده يكون له من الفضل على أقرانه ما شاء اللّه وقَدَّره له . ولنتدبَّر قولَ اللّه تعالى : ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ [النساء : ٩٥] . فهذا نوعُ تفاوتٍ لا يَخْفى ، ومن سورة الحديد : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ [آية : ١٠] والإطارُ العامُّ لهذا التفاوت فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [المائدة : ٤٨] . وفى الحديث : « لَوْ وُزِن إيمانُ أبى بكْر بإيمان هذه الأُمَّةِ لرجَح إيمانُ أبى بكر » أو كما قال ﷺ .

وفى تحريم الصدقةِ على بنى هاشم نوعُ تفاوتٍ تكريمًا وتشريفًا ، وهذا فضلُ اللّه يؤتيه من يشاء ، وطوبَى للجامع منهم بين شرفِ النسبِ وشرف التقوى والعمل الصالح .

تخصيصٌ بعد تَعميم لتأكيد أن النسبَ وحده لا يكفى :

ولـمَّا نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

قال ﷺ : « يا معشرَ قريش » : أو كلمة نحوها « اشْتروا أنفسَكم ، لا أُغنى عنكم من اللّه شيئًا ، يا بنى عبدِ مناف لا أغنى عنكم من اللّه شيئًا ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنكَ من اللّه شيئًا ، يا صفية عمة رسول اللّه لا أُغنى عنكِ من اللّه شيئًا ، يا فاطمة بنت محمدٍ سَلينى من مالى ما شئتِ لا أغنى عنكِ من اللّه شيئًا » [أخرجه البخارى ورواه أبو هريرة] .

قال ذلك رسول اللّه ﷺ وهو منتصبٌ على قدميه فوق الصفا امتثالاً للأمر بإنذارِ عشيرتِهِ الأقربين ، وتخويفهم عقوبة اللّه ، إن لـم يُبادروا إلى شرف الدخولِ فى الإسلام ، وقد خُصِّصُوا بعد أمره ﷺ بالإنذار العامِّ فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر : ١ ، ٢] لئلا يتوهم أحدٌ أنهم ليسوا كالأجانب - أى عن رسول اللّه فى النسب - فى التكليف كغيرهم ، لحُرمتهم وقَرابتهم منه ، وقد أكّد رسولُ اللّه ﷺ أن الناس جميعًا فى مقتضى الإيمان وتَبِعَاتِه سواءٌ ، فهو لا يُغنى عن ابنته فاطمة ولا عن عشيرته الأقربين شيئًا ، فكلٌّ واحد مسئول عن نفسه أمامَ اللّه عزَّ وجلَّ .

تنبيه : وإذا كان هذا بالنسبة لابنة الرسول نفسه وأهله وخاصته منهم فمِن باب أولى يكونُ الأمرُ بالنسبة للمنتسبين لبنى هاشم ونحوهم وقد تفرَّعوا ، وكذا الذين ينتسبون إلى بعض أصحابِ الفِرق أو الطُّرق أو المشايخ إذ التكليفُ لا يسقُط عن أحد أبدًا ، حتى عن أشرفِ الخلق رسول اللّه ﷺ ؛ فقد كان أعبدَ الناس لله ، وأخشاهم له ، وأصبرهم على طاعته ، وأكثرهم حمدًا وشكرًا حتى لَقِى ربَّه ، وكان أبو بكر على مكانته من قلب الرسول يقول : « إنى لا آمَنُ مكرَ اللّه ولو كانت إحدى قدمىَّ فى الجنة » . وفى الحديث : « ومن أبطأ به عَمَلُه لـم

يُسرع به نسبُه » [أخرجه مسلم عن أبى هريرة] .

شرف النسب والمساواة :

إن شرفَ النسبِ مع التواضُع واللِّين يزدهرُ مع شرف التديُّن والإخلاصِ لله فى السرِّ والعلَن ، وعن عائشة مرفوعًا : « أنزِلُوا الناسَ منازِلَهم » .

إن القرآنَ والسنةَ الصحيحة يوضحان ويؤكدان : أن الناس يتساوون فى الحقوق والواجبات ، لا فَضْلَ لعربىٍّ على عجمىٍّ ولا لأوربىٍّ على إفريقىٍّ إلا بالتقْوى والعمل الصالح ، وهم جميعًا أمام أمرِ اللّه ونَهْيه سواء ، ولا تَحمِلُ نفسٌ إثْمَ نفسٍ أُخرى .

وقد قَرَّر ﷺ بأمر ربِّه أن لا يُسامَحَ أحدٌ فى إقامة الحدِّ عليه ، إن ارتكب ما نهاه الشرعُ عنه ، أو تعدَّى حدودَه ، ولـم يَقْبل عليه السلام شفاعةً فى امرأة مخزوميةٍ شريفة قُرشية سرَقت وقال : « والذى نفسى بيده لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقَت لقطعتُ يدها » .

العلم والتعلُّم والاستنباط :

وإن الإسلام يُعطى العلـمَ والفِقْهَ فى الدين والإخلاصَ فى الطاعة الحظَّ الأوفَى من التكريـم ، لذا فإن أصحابَ الـمُروءات ومكارم الأخلاقِ فى الجاهلية إذا أسلـموا وفَقُهوا ، وأخلصوا فى اتِّباعهم الكتابَ والسنةَ وأخلصوا فى العمل والطاعة – فهم خيارُ الناس وأفاضلهم : « فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا » وفَقُه مثلَّثُ الوسَط فى الـماضى ، وهو بكسر القاف يكون بمعنى : الفهْم والعِلـم ، وفى حالة الضمِّ يكونُ مَعناه : صاروا فقهاء علـماء ذوى قدرة على استنباط الأحكام ، وفى الحديث الذى رواه معاوية وجاء فى الصحيح : « من يُرِدِ اللّهُ به خيرًا يُفَقِّهْه فى الدِّين » . وإذا حَسُنتْ أخلاقُ الـمؤمنِ ، واجتهد

فى التعلُّم والفهم ، وعمل بأوامر الله واجتنب نواهيه ، واتبع الرسولَ ﷺ ارتفعت درجتُه فى سُلَّم الكمالِ الإنسانى بفضل الله .

ففى الحديث الذى رواه أبو هريرة : « خيرُكم إسلامًا ، أحاسنُكم أخلاقًا إذا فقُهوا » [أخرجه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد] .

والله أعلم والصلاة والسلام على رسول الله .

* * *

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة هود]

(١٢) كن لليتيم كالأب الرحيم

أ- اليتيم فى العائلة أخٌ للصغير وكالابن للكبير

حث الإسلام على الرحمة ، والراحمون يرحمهم الرحمن ، ودعا إلى الرفق بكل ضعيف ، والإخلاص لكل قليل الحِيلة ، ضعيفِ الخِبرة ؛ الإخلاص له فى النصيحة وفى المشورة والرعاية إذا كان تحت يده قريبًا كان أو غريبًا ، كما حرّض الإسلام مُعتنقيه على لزوم الأمانة فى كل أمورهم ومعاملاتهم ؛ الأمانةِ فى العبادات ، وفى الودائع ، وفيما تحت يده من أموالٍ له أو لغيره ، وفيما لديه من أسرار غيره ، كما حثه على الأمانة فى توجيه النفوس التى تحت يده ، والحفاظِ على ما لَهَا من الأموال ، والقيام بالواجب نحو رعايتهم فى أنفسهم وتثمير أموالهم ، إن كان أبًا أو وصيًا أو كفيلًا وراعيًا لِمَنْ فقد أباه وهو دون البلوغ ، غير قادرٍ على التصرُّف بنفسه فى أموره وأمواله .

وإنَّ كفالةَ اليتيم والقيامَ على نفسه وماله بأمانة وإخلاص ، لَمِنْ أعظم القُربات ، وأنفع الأعمال ؛ فاليتمُ أعظمُ مظاهر الضعف الإنسانى ، وإن اليتيمَ الذى فقد أباه وحُنوَّه ورعايته لأولَى الناس بالبرِ والرحمة والرفق ، حتى تسكنَ نفسه ، ويطمئنَّ قلبه ، ويأخذَ حظَّه من التربية ، واكتسابِ الخبرة والتعليم ، سواء كان له مالٌ يُنفَقُ عليه منه أم لا ، إذْ كافلُ اليتيم الفقير يُضاعف أجرُه وثوابه ، ومع الإخلاص والرِّضَى يُبارَك له فى داره وماله وأهله .

إن اليتيم حبيبُ اللَّه عز وجل ، وإن أحبَّ البيوت إلى اللَّه عز وجل هو البيت الذى يأوى يتيمًا ويُكرمه ابتغاءَ وجه اللَّه عز وجل ، ففى الحديث الذى رواه أنس رضى اللَّه عنه وأخرجه الحاكم والبيهقى والأصبهانى ، قال اللَّه عز وجل فيما

أوحاه إلى يعقوبَ بن إسحاقَ عليهما السلام : «إنى لم أُحِبَّ شيئًا من خلْقى حُبِّى اليتامَى والمساكين» فطوبى لمن يرحم مَن يحبه رَبُّ العزَّةِ والجلال ، ويحنو عليهم ، ويقدم لهم الخيرَ الذى ينفعهم فى دينهم ودنياهم .

وفى الحديث الذى رواه ابن عمر رضى اللَّه عنهما وأخرجه الطبرانى والأصبهانى : «إن أحبَّ البيوتِ إلى اللَّه بيتٌ فيه يتيم مُكرَّم» .

وفى رواية أبى هريرة رضى اللَّه عنه عند ابن ماجة ومسلم ، وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد : «خيرُ بيتٍ فى المسلمين بيتٌ فيه يتيم يُحسَنُ إليه ، وشرُّ بيت فى المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُساء إليه ، وأنا وكافلُ اليتيم فى الجنَّة كهَاتين» . وأشار ﷺ بأصبعَيه السبابةِ والوُسطَى .

إن كافل اليتيم هو القيِّمُ الذى أُنيطَتْ إليه مسؤوليةُ القيام بأمر اليتيم ومصالِحِه ، من أهله أو من غيرهم ، ولكى ينالَ هذا الجزاءَ الأوفَى من البركة فى الدنيا ، والنعيم والمغفرة فى الآخرة ، عليه أن يُحسن إليه - كما أشار النبى ﷺ فى الأحاديث - والإحسانُ إليه إنما يكون بالقيام عليه بما فيه صلاحُه فى بدنه ، وفى عقله ، وفى رُوحه ونفسِه ، يُعنَى بطعامه وشرابه عنايتَه بأولاده وأهلِ بيته ، وبكسائه ، ونظافتِه ، وسلامتِه وعافيته ، كما يُعنى بتربيته وتعليمِه وإكسابِه المهاراتِ والخبرات اللازمة والملائمةَ له ؛ ليشقَّ طريقَه فيما بعد معتمدًا على اللَّه ثم على جهوده ونفسِه ، كما يُعنَى بتقويم خُلقه وتعويده منذ صِغره على أداء الفرائض ، والقيام بالواجبات .

وهذا من التقوى التى تقرِّب العبدَ من ربه ، ولنتدبَّر قوله تعالى من سورة النساء : ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الآية : ٩] .

نعم : فلْيراقب اللّٰه المسلمُ فى اليتامى ، وليخشَ عاقبةَ التفريط أو الإفراط فى شأنهم وأموالهم وتربيتهم ، فَكِلا طَرَفَىْ قصْدِ الأمور ذميم ، وخيرُ الأمور أوساطها ، إذ إهمالُ شأن اليتيم وتركُ الحبل له على الغارب تسوءُ عواقبُه كالقسوة عليه ، والضغطِ على نفسه ورُوحِه بالمعاملة السيئة وبالإعراض عنه وإنما الرحمةُ مع الحزم والإخلاص ، وكما تُحب أن يكونَ ولدُك وفلذةُ كَبدِك ، مع فهم مقاصدِ الدين واتِّباع توجيهاتِ الكتاب والسنة فى رعاية اليتيم .

ولنتدبرْ فضْلَ إكرام اليتيم فى الدنيا والآخرة ، كما أخبر الصادقُ اليتيمُ ليلفتَ أمته إلى هذا الأمر العظيم ذى الأثر الحسن : ففى الحديث الذى رواه أبو موسى عند الطبرانى والأصبهانى جاء : « ما قعَد يتيمٌ مع قوم على قَصْعتهم ، فيقربَ قصعتَهُم شيطان » وفيه إشارة إلى ضمِّ اليتيم إلى مائدةِ أهلِ البيتِ ومساواته فى ذلك بهم ، وبذلك تَحِلُّ البركةُ فى طعامهم وشرابهم ، هذا من بركات الدنيا .

أما فى الآخرة فلنقرأ معًا الحديث الذى رواه أبو هريرة عند أبى يَعلى - وإسناده حسن إن شاء اللّٰه كما قال - وفيه يقول الحبيب المصطفى ﷺ عن نفسه : « أنا أولُ من يَفْتحُ بابَ الجنة إلا أنى أرى امرأةً تُبادرنى ، فأقول لها : ما لكِ ، ومَن أنتِ ؟ فتقول : أنا امرأةٌ قعدتُ على أيتام لى » . وجاء بمعناه عند أبى داود رواية عوف بن مالك الأشجعى رضى اللّٰه عنه ، وأثنى فيه على امرأة من السابقات إلى جنة الخُلد ، قد مات زوجُها وترك لها أطفالًا صغارًا ، وهى ذاتُ مَنصِب وجمال ، ولكنها حبستْ نفسَها على يتاماها حتى كبر واستقل مَن كبر ، ومات صغيرًا منهم من مات ، وقد احتسبتْ أجرها وصبرها راغبةً فيما عند اللّٰه من الرحمة .

وانظر أثر رعايةِ اليتيم ، والحُنوِّ عليه ، ولينِ الجانب معه ، والرحمة به فى

تنمية نوازع الخيرِ في قلبِ الإنسان : المعلمِ ، والكفيلِ ، والأمّ والأخ الأكبر ونحوهم ، لنرى فضلَ هذا العمل العظيم الشأن .

فقد جاء عند الإمام أحمد من رواية أبى أمامة رضى اللّٰه عنه أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « مَن مسح على رأس يتيم - أى عطف عليه رحمةً وشفقةً - لم يَمْسحْه إلا لله ، كان له فى كلِّ شعرة مرّت عليها يدُه حسنات ، ومن أحْسَنَ إلى يتيمة ، أو يتيم عنده ، كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين » . وفرّق ﷺ بين أُصبعيه السبّابةِ والوسطى .

ولما شكا رجل إلى رسول اللّٰه ﷺ قسوةَ قلبه ، قال له : « أتُحِب أن يَلينَ قلبُك ، وتُدرِكَ حاجتَك ؟ ارْحَم اليتيم ، وامسحْ رأسَه ، وأطعِمْه من طعامك يلنْ قلبُك ، وتُدرِكْ حاجتك » [رواه أبو الدرداء واللفظ عند الطبرانى] .

وجاء بمعناه مع اختصار عند أحمد رواية أبى هريرة وفيه : « امْسَحْ رأسَ اليتيم ، وأطعم المسكين » . ورجاله رجال الصحيح .

وانظر إلى فضل هذه الرحمة وتلك الرعاية مع التلطُّفِ فى معاملة اليتيم ومحادثته فى الحديث الذى رواه أبو هريرة وأخرجه الطبرانى ؛ وفيه يقول الحبيب المصطفى ﷺ : « والذى بَعثنى بالحق لا يُعذِّبُ اللّٰه يومَ القيامة مَن رحِمَ اليتيم ، وألان له فى الكلام ورحم يُتمَهُ وضعْفَه ، ولم يَتطاول على جاره بفضلِ ما آتاه اللّٰه » .

هذا بعض ما جاء فى فضل رعايةِ اليتيم والرحمة له .

فماذا إذنْ فى أسلوب معالجة أمواله ، وتأديبه وتربيته .

* * *

(ب) من وصية الإسلام
فى مال اليتيم وتأديبه

جعل الإسلامُ اليتيم بمثابة الأمانة الغالية يجدُ الحفظَ والرعاية والرحمة من الوالى القائم بأموره، ومن الجماعة المُحيطة به، حتى يشعر بالطمأنينة والسكينةِ، والأمن، وتستقرّ نفسُه فلا يشعرَ بامتهانٍ، ولا بقلق وانزعاج، فيشبَّ سويًّا فى صحة نفسية جيدةٍ تساعده على التوافق مع المحيطين والمُتعاملين معه، على أساس تبادُل الاحترام والتقدير؛ إذ بِحُسن الرعاية والأسلوب السليم فى تربيته يخلو قلبه من الضغينة، وتعتدل نظرتُه إلى الناس وتصفو نفسه مما يُكدِّرها نحو الآخرين.

يقول اللّه عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ وهذا من أدب الإسلام فى معاملة اليتيم؛ نَهَى عن زجْره والضغطِ على نفسه بما يَقتضى إشعاره بالإذلال، وهذا النهىُ يتضمن الأمرَ باحترامه وإشعاره بالحنوّ والتقدير وبالرعاية السليمةِ والرحمة، إذ النهىُ عن شىءٍ يَقتضى الأمرَ بِضدِّه.

وقد ذمَّ القرآنُ الكريم من يُشعر اليتيمَ بالمذلة والإهانة وجعل هذا النمط من المعاملة أمارةً على أنَّ الشخص لا يرجو ثوابًا، ولا يخاف عقابًا، ولا يفكِّر فى يوم الحساب، ولنتدبر قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾. ودَعُّ اليتيم يَعنى زجْرَه ودفْعَه استخفافًا بشأنه سواءٌ كان فى كفالته أو فى كفالةِ غيره، فهذا عملٌ من شأنه ألَّا يصدرَ إلا عن المكذبين بالحساب والجزاء، وفيه توجيهٌ وإرشاد لأهل الإسلام الذين يخافون يومًا تتقلَّب فيه القلوبُ والأبصار، ويُجزَى كلُّ امرئٍ بما قدَّمت يداه.

وإن من الرحمة باليتيم حُسنَ تأديبه ، وتهيئته لتحمُّل مسؤولياته ، بعد البلوغ وإيناسِ الرشد والقدرة على التصرف ، فيؤخذ اليتيم بالرفق والحزم فى تعليمه ، وتأديبه ، وإكسابِه المهاراتِ والخبرات اللازمة ، بعيدًا عن القسوة والقهر ، ولكن كما يُعامل الإنسانُ المعتدلُ الواعى لمرامى الدِّين أولادَه وفلذاتِ أكبادِه ، فلا غلظةَ ، ولا إهمالَ ، بل يتحاشَى طرفَى الإفراط والتفريط ، وجاء فى الأدب المفرد للبخارى باب بعنوان : « كُن لليتيم كالأب الرحيم » وهذه العبارةُ من وصايا داود النبىّ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وفيها : «واعلمْ أنَّك كما تَزرعُ تحصدُ» فإن أخلصتَ فى رعاية اليتيم وتأديبه حصدتَ الخير والبركة فى الدنيا والآخرة .

ومع الرحمة أشار فى هذا الباب إلى الحزم عند الاقتضاء ؛ فنقَل البخاريُّ عن أسماءَ بن عبيد بنِ مخارق الضبعىّ أنه قال للإمام محمد بن سِيرين التابعىّ الجليل ، قال له : عندى يتيم ؟ أى يسأله عن أفضل أسلوبٍ فى معالجة أموره وتأديبه ، فقال ابنُ سيرين له : « اصنعْ به ما تصنعُ بولدِك اضْرِبه ما تضربُ ولدَك » أى كما يُربى الأبُ المتَّزِنُ المعتدل ولدَه ، يُربى يتيمَه ، ويُشعره بحنان الأبوةِ ورغبتها فى صلاح الولد ، فولىُّ اليتيم قد يلجأ إلى ضَرْبه ، لكى لا يقعَ فيما هو أشدُّ له من الضرب .

وروى البخاريُّ تحت باب « أدب اليتيم » عن شُعبة عن شُميسةَ العَتكيَّة قالت : جاء الحديث عن أدب اليتيم عند أمِّ المؤمنين عائشةَ رضى اللّٰه عنها فقالت : « إنى لأضربُ اليتيمَ حتى يَنبسِطَ » [راجع الجزء الأول الأدب المفرد باب ٧٩] .

واليتامى الذين كانوا تحت رعاية أمِّ المؤمنين إنما هم بنو أخيها ولا شكَّ فى شدة محبتها لهم ، وتحنُّنها عليهم .

وتريد عائشة بقولها : « حتى ينبسط » أنها تضربه ضربًا قد يُسبب له بعضَ

الألـم فيتـمدَّد على الأرض ، كما جرت عادةُ الصبيان إذا أغضبهم أحد فإنهم يَنبطحون على ا لأرض ويتـمرَّغون ويَبكون .

وإن الـمسلـم الذى يرغب فى الخير لليتيـم كما يُحب لأولاده وأعزِّ الناس لديه ، فإنه ينبغى له أن يُحاسب نفسَه فى ضرْب اليتيـم أو ما يُشبه الضرب من العِتاب ونحوه ، بأن يبينَ له الأسباب ، وفى موقفٍ واضِح فى ذهن اليتيـم فإذا كان الولىُّ يعرف من نفسه الصدقَ والشفقةَ على يَتيـمه فلا بأس من ضربه ضربًا لا يَخدِشُ جِلدًا ، ولا يَكسِر عَظمًا ، ولا يُقبِّح وَجهًا .

إننا برعاية اليتيـم وحُسن تربيته وتعليـمه وتأديبه على مُقتضَى أوامر الشرع وتوجيهاته نكسبُ إنسانًا صالحًا لنفسه ، نافعًا لأُمته وقومه مَصدرَ خيرٍ وبرٍّ .

وقد أخرج البيهقى فى السنن الكبرى حديثًا مرسَلًا عن الحسن العرنىِّ قال : « جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن فى حِجْرى يتيـمًا فأضرِبُه ؟ قال : ما كنت ضاربًا فيه ولدَك » .

مال اليتيـم :

هذا فيـما يتصل بالتأديب والتوجيه والتربية ، أما فيـما يتصل بمال اليتيـم فإن الإسلامَ أمر بالـمحافظة عليه ، وتثميره على الوجه الـملائم للـمال ، كما أمر بتدريب اليتيـم قبل سنِّ البلوغ على معالجة أمورِه بنفسه ، والـمشاركة فى إدارة ماله ، واكتساب الـخِبرة فى مَجال تنميةِ هذا الـمالِ وتثميره ، على حسب ما يكون عليه الحال : من تجارة أو زراعةٍ أو صناعةٍ ونحو ذلك ولنتدبر التوجية القرآنىَّ فى هذا الـمجال : ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ [النساء : ٦] . وابتلاءُ اليتامى هو اختبارُهم بإتاحة الفرص أمامَهُم تحت إشراف الوصى للتصرُّف والتدرُّبِ فإذا بلغوا الحلُـمَ ورُؤِى منهم

الرُشد ، فحينئذٍ تُسلَّم إليهم أموالُهم كاملة بنمائها غير منقوصةٍ وغير مُبدَّل منها شيء ، فلا يَطمع الوليُّ فيما يروقُه من الحيوان أو العقار ونحوه ، ويعطى اليتيمَ الأخسَّ ، فهذا من خيانة الأمانة ونَهَى عنها الإسلام أشدَّ النهى .

ففى سورة النساء : ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [الآية : ٢] .

وفيه النهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم كما نُهوا عن أن يُعطوا اليتامَى الأدنى ويُؤخذ من أموالهم ما هو أثمنُ وأغلَى ، أو كما قال الزهرى : « لا تُعطِ - حيوانًا - مهزولًا ، ولا تأخذ سمينًا » فأكلُ مال اليتيم ، أو تبديلُه على هذا النحو إثم عظيم ، وذنبٌ كبير .

إن آكلَ مال اليتامَى بغير حقٍّ إنما يأكل نارًا تَشوى جوفَه ، فآكل مالِ اليتيم يُبعث من قبره والنارُ تَخرج من فمِه ، كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو بَرزَة وأخرجه ابنُ مردويه وبعضُ أصحاب السنن ، ألم تروا أن اللَّه يقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء آية : ١٠] .

قال الشعبىُّ : « مالُ اليتيم على وليِّه كالميتة والدم فإن كان مُحتاجًا فبقدرِ الضرورة يأكل منه ولا يزيد ، وإن كان غنيًّا استعفف ، واللَّه عز وجل يقول : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴾ [النساء آية : ٦] .

هذا بعضُ ما نتواصى به من أدب المسلم وتوجهاته مع هذه الودائع الضعيفةِ التى يَمتحِنُ اللَّه بها إيمانَ أهلِ الإيمان .

* * *

(١٣) من أدب المسلم
مع الخادم والأجير

كان نبينا الهادى ﷺ أعظمَ الناس رفقًا وحلـمًا وأشدَّهم تواضعًا وبرًا ، تواضع لله فأعلى اللَّه قدره ، ورفع منزلته وأعطاه من الـمِنَح الربانيةِ ما لـم يُعط أحدًا من خلقه ، كان ﷺ رفيقًا بالضعيف والفقير ، رحيـمًا بالخادم والأجير ، وكم أوصى بالشغالين والأجراء والخدم ، ووضع من القواعد والقِيَم ما يضمن لهم حقوقَهم ، ويحفظ عليهم كرامتَهم ، ويصون إنسانيتهم من الإهانة والازدراء ، فهم إخوانٌ امتحن اللَّه بهم من يكونون تحت يده ولولا تنوُّعُ الـحِرف والـمِهنِ لـما استقامت حياة الناس ، ولـما ازدهرت .

كما وجَّه أصحابَ الحرف وأهلَ الخدمة ، وأوصاهم ﷺ بالإتقان والأمانة ، والوفاء ، والإخلاص ، وحِفظِ ما تحت أيديهم وأداء العمل على الوجه الـمُرضى الصحيح .

وكان لدى النبى ﷺ موالٍ وإماءٌ وخدمٌ ، فوجدوا خيرًا وبرًّا ورفقًا وتقديرًا واحترامًا ومواساة ، فشعروا بالصحبة ، ولـم يشعروا بالخدمة رضى اللَّه عنهم .

ولنسمع من مُذكرات أنس بنِ مالك بن النضر الأنصارى الخَزرجى قصةَ التحاقه بخدمة رسول اللَّه ﷺ ، وما لقيه نحو عشرِ سنين من معاملةٍ فيها قدوةٌ لكل ذى بصيرة وقلبٍ سليـمٍ ، يقول أنس : قدم النبى ﷺ الـمدينة وليس له خادم ، فأخذ أبو طلحة بيدى - وهو زيد بنُ سهل زَوجُ أمِّ أنس - فانطلق بى حتى أدخلنى على النبى ﷺ ، فقال : « يا نبى اللَّه ، إن أنسًا غلامٌ كيِّس لبيب ، فلْيخدمْك » قال أنس : فخدمتُه فى السفر والحضَر مَقدَمه الـمدينة ، حتى تُوفى

ﷺ ، ما قال لى عن شيء صنعتُه : « لـمَ صنعتَ هذا هكذا ؟ ولا قال لى لشيء لـم أصنعه : ألا صنعتَ هذا هكذا ؟ » . [أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وأحمد] .

وفى رواية الترمذى زيادة : « فما قال لى أفّ قط » .

كان أنس ابنَ عشر سنين وقت قدوم النبى ﷺ الـمدينةَ والتحاقِه بخدمته والذى أهّله فى رأى أبى طلحةَ أنه غلامٌ متيقظ عاقل صبور ، لذا جاء رسولَ اللّه واستأذنه أن يُلحقه بخدمته ﷺ ، وإن الغلام فى مثل هذه السنِّ يُتوقَّع منه نوعُ تراخٍ فى العمل ، أو رغبةٌ فى اللعب ، أو خطأ ، فوجَد حِلـمًا ورفقًا ولـم يُعاتب على شيء من ذلك ، ولـم يُظهر النبىُّ ﷺ حتى مُجرَّد التأفُّفِ من تصرفٍ لـم يرقه من أنس فيـما يتعلق بواجبات الخدمة فى البيت ، أمَّا ما يخصُّ الواجباتِ الشرعية من عبادة وآداب ، أو يختص بحقوق غيره ﷺ من الناس فكان لا يتسامح فيه مع أحدٍ من أصحابه أو أهل بيته ، أو خدمه .

وقصةُ وصيفةِ أمِّ الـمؤمنين هند بنت أبى أميةَ الـمخزومى « أم سلـمة » وانشغالها باللعب عن أداء عملٍ كانت ستُكلَّفُ به ، نتعلـم منها ما ينبغى لنا من ضبط النفس مع الضعيف ، وسَعةِ الصدر ، والنظرِ إلى العاقبة ، خشيةَ أن يسوقنا الغضبُ والقدرةُ إلى التجاوز والإساءةِ بما نؤاخَذ عليه فى الآخرة وهناك لا تضيع الحقوق : « كان النبى ﷺ فى بيتِ أم سلـمةَ فدعا وصيفةً لها ، فأبطأت ، لانشغالها باللعب ببهيـمة ، فاستبان الغضب فى وجهه فقامت أمُّ سلـمةَ تنظر فوجدتها تلعبُ ، فأتت بها النبيَّ ﷺ وقالت : يا رسولَ اللّه إنها لَتحلِفُ ما سمعتكَ ، وفى يده سِواك فقال : « لولا خشيةُ القِصاص يومَ القيامة لأوجعتُك بهذا السواك » . [الأدب الـمفرد للبخارى والطبقات لابن سعد] .

فانظُر إلى النفس الـمطمئنةِ وخشيتها من العاقبة ، وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة عند البخارى فى الأدب الـمفرد والبيهقى وغيره : « مَن ضرب ضربًا

ظلـمًا اقتُصَّ منه يومَ القيامة » .

إن الخادم فى البيت ، والأجيرَ ، والغلامَ الذى يخدم أو يتعلمُ صناعةً ويكتسب مهارةً فى متجر أو مصنع أو ورشة ، هؤلاء وأمثالَهم إخوانُنا وفى أمانتنا ، لهم حقُّ الاحترام والتقديرِ والـمعاملة الحسنة ، والتوجيهِ بلُطف ، ففى كلام الرسول للوصيفة توجيهٌ بأنها أخطأت ، ولكن دون أن يُثيرَ الخوفَ فى قلبها ، أو يُشعرها بالـمَهانة ، ومن وصيته لعلىّ بن أبى طالب وقد أعطاه غلامًا يخدمه قال : « لا تضربه ، فإنى نُهيتُ عن ضرْب أهلِ الصلاة ، وإنى رأيتُه يُصلى منذ أقبلنا » . [رواية أبى أمامة وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد وأحمد] .

والأجير مسلمًا كان أو غيرَ مسلم له حقُّ الاحترام والتقدير ، ولأهل الصلاة والصلاح أكثرُ من حقٍّ فى أعناقنا لإعانتهم على الاستقامة .

وغَضب ابنُ عمرَ على غلام له لأنه صَرَف له ذهبًا أو فضّةً ، فأَنْظَرَ بالصرف ، أى صَرَفه إلى أجلٍ وهذا حرام ، فضربه تنبيهًا وتأديبًا ، وقال له : « اذهب فخُذ الذى لى ولا تصرِفْه » . [البخارى فى الأدب المفرد عن يزيد بن قسيط] .
وفى موضع آخر عن زاذان ؛ أبى عمر ، أن ابن عمر ضرب غلامًا ، ورأى بعد ذلك أنه لم يكن له ذنبٌ ، أو أنه ضربه فوقَ ما ينبغى ، فتألّم له واعتذر وأعتقه لوجه اللّه عز وجل ، راجيًا أن يكونَ ذلك كفارةً لإثمه فى ضربه[1] ولما سئل عن ذلك قال : « سمعتُ النبى ﷺ يقول : مَن ضَرب مملوكَه حدًّا لم يأتِه ، أو لطم وجهَه ، فكفارتُه أن يُعتقه » . [الأدب المفرد للبخارى - باب ٩٣] .

أى يُندب ذلك رحمةً ورجاء الثوابِ ، ورأى سلمانُ الفارسىُّ رضى اللّه عنه إهمالًا من خادمه ، وعدمَ صيانةٍ لعلَفِ الدابة فقال له : « لولا أنى أخاف القصاصَ

---

(١) إلى هنا القصة مذكورة بمعناها وتفسيرها لا بلفظ عن زاذان .

- أى يومَ القيامة - لأوجعتُكَ ضربًا » .

[رواية سلمة بن معاوية أبى ليلى فى الأدب المفرد] .

وقال النبى ﷺ مؤدِّبًا ومعلمًا لأبى مسعود البدرى : « اعلَمْ أبا مسعود ، لَلَّـهُ أقدرُ عليك منك عليه » وكان يضرب غلامًا له فندم وقال : « يا رسولَ اللّه فهو حرٌ لوجه اللّه » ويبدو أن الضربَ كان لغضبٍ على الغلام ، وفيه تجاوزٌ لأنه ﷺ قال له : « أمَا إن لو لمْ تفعلْ لمسَّتك النار » .

[عند مسلم وأبى داود والترمذى ، وفى الأدب المفرد] .

ويحذرنا ﷺ من الإهانة والإذلالِ بالكلمة ، أو بالضرب ، خصوصًا ضَربَ الوجه ولطمَهُ حفاظًا على كرامة الإنسان : ففى رواية أبى هريرة فى الصحيحين وعند أبى داود وأحمد : « إذا ضرَب أحدُكم خادمَه فليجتنِبْ الوجْه » وخُصَّ الخادمُ لمزيد اعتناءٍ بأمره ، وإن كان النهىُ عن هذا عامًّا لأن الوجه مِرآةُ الإنسان ، وأعضاؤه لطيفةٌ نفيسةٌ ، وفى ضرْبه مَضَرَّة نفسيةٌ ومادية فقد يحدث فيه شىء من الشَّيْنِ أو الشرِّ ، وكذلك يُنهىَ عن شتمه وتقبيحه : « لا تقولوا قَبح اللّه وجهه » .

[رواه أبو هريرة وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد وابن حبان] .

الرفق والرحمة :

وينبغى لنا أن نُكلِّفَ الخادمَ والأجيرَ بما يُطيق ، وإلَّا أعنَّاه على عمله مع العناية بكسوةِ الخادم وطعامه : « فمَن كان أخوه تحتَ يديْه ، فليُطعِمْه ممَّا يأكل ، وليلبِسه ممَّا يلبس ، ولا تُكلِّفوهم ما يَغلبُهم - أى يشقُّ عليهم - فإن كلَّفتُموهم ما يَغلبهم فأَعِينوهم » . [رواية أبى ذر فى الصحيحين ، وعند بعض أصحاب السنن] .

وفى رواية أبى هريرة : « أعينوا العاملَ من عمله ، فإن عاملَ اللّه لا يَخيب » . [عند البخارى وأحمد] .

يعنى الخادِمَ ونحوه ، وفيه توجيهٌ بمراقبة اللّٰه وتوفيةِ العامل حقوقَه .

أمانة الخادم :

والخادمُ المسلم إذا أدّى حقَّ ربِّه ، وحقَّ عمله بإخلاص وأمانةٍ له أجران كما فى حديث أبى هريرة فى الصحيحين وعند أحمد ، وعن ابن عُمَر بمعناه .

هذا بعضُ أدب المسلم فى معاملة إخوانه الذين جعلهم اللّٰه تحت يده ويجب علينا أن نشكر اللّٰه دومًا أن جعلنا مسلمين من أهل الدِّين القيِّم .

* * *

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾

[الأنبياء : ٩٢]

رسالة :

كيف نربي ناشئتنا ؟

الإهـــــداء :

ژ إلى كلِّ مسلم ومسلمة .

ژ إلى الـمُربِّين من آباء وأُمَّهات ومعلِّمين ومُعلِّمات ومُوجِّهين .

ژ إلى كل مسؤولٍ عن التربية والتعليـم .

* * *

« للراغبين فى الخير وللناشرين الحق فى الطباعة والترجمة بدون إذنٍ آخر لهذه الرسالة وغيرها من الكتب والرسائل المؤلَّفة والـمحقَّقَة على أن يوزِّع الناشرون ١٥٪ من الكتب مجانًا لطلاب العلم والخير »

المؤلف

أحمد بن محمد طاحون

جدة : طبعة عام ١٤١٧ من الهجرة

١٩٩٦ من الـميلاد

تمهيد :

إن الأمَّةَ المسلمةَ التى ترجو الخيرَ لأبنائها ، وتريد أجيالًا صالحةً نافعةً تَنهضُ بالتبِعَات ، وتَفِى بالمسئوليات ، وتستقيم فى أخلاقها وفى أعمالها ومسالِكها ، ينبغى لها أن تستمدَّ مُقوماتِ التربيةِ وأُسُسَها من مبادىء الإسلام وأن تَصُوغ هذه الأجيالَ وفقَ شرائعه ، وفضائِله ، وقيَمِه ، ومُثُلِه العُليا للحياة .

وتلك مُحاضرةٌ أُلقيت فى مدرسة « الإمام ابن تيمية المتوسطة » بمدينة جدة - المملكة العربية السعودية - ثم بعد نحو تسع سنواتٍ تمَّ نشرها فى مجلة (التوعية الإسلامية فى الحج) فى موسم عام ١٤٠٣ من الهجرة .

إن الرجاء عظيمٌ فى أن يُعنى رجالُ التربيةِ المسلمون بالبحث فى « تربية الفرد المسلم والجماعة المسلمة » على أسُسٍ مستمدَّة من ديننا ، وأن تكونَ « التربيةُ فى الإسلام » دعامةً أساسيةً فى مناهج معاهدِ المعلِّمين والمعلِّمات وكلياتِ التربيةِ فى البلادِ الإسلامية[1] .

أحمد بن محمد طاحون

جدة : عام ١٤٠٤ من الهجرة

١٩٨٤ من الميلاد

---

(١) كتاب الأدب المفرد للإمام البخارى نافعٌ فى مجال التربية وتقويم المسالك والتوجُّهات وشمل حياة الفردِ والجماعة والعلاقات الاجتماعية من جوانبها المتعدِّدة على نحو رائع وعظيم المنفعة وهذا الكتاب مفيد جدًّا لطلاب معاهد التربية وكلياتها وللمعلمين والموجِّهين والوعاظ وعلماء الأخلاق وقد شَرَحه في مجلدين عالمٌ هندىٌّ مُلقب بـ « فضل الله الجيلانىّ » وهذَّب شرحه أحمد بن محمد طاحون واقتصر فى شروحه على ما يساعد أبناء عصرنا على تناوله بيُسر وسهولة وطُبع هذا التهذيب عام ١٤١٥ هـ (١٩٩٥م) وللسيد مُحِبّ الدين الخطيب مُختصرٌ لهذا الكتاب القيم ، وأخرج أحاديثه والآثار الواردة فيه الباحث المصرى الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى بدون شروح ولا توضيحات .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾

[سورة الرحمن ١ - ٤]

* * *

* « أجرُ المعلّم كأجر الصائم القائم » .

* « علّموا ولا تعنّفوا ، فإنَّ الـمُعلّم خيرٌ من المعنّف » .

* « وقّروا مَن تتعلّمون منه ، ووقّروا مَن تعلّمونه » .

[كلمات شريفة مأثورة]

* « ليس منَّا مَن لم يرحم صغيرنا ، ويعرف حقَّ كبيرنا »

[رواه ابن عباس وأخرجه أحمد]

* تعلّموا العِلمَ ، وتعلّموا للعلم السكينةَ والوقار ، وتواضَعُوا لـمَن تتعلّمون منه »

[رواه أبو هريرة ، وأخرجه الطبرى]

* * *

مكانة الأبناء :

أولادُنا هم فلذَات أكبادِنا ، وقطعةٌ من نفوسنا ، أو هم كما قال الأُول «أكبادُنا تمشى على الأرض ...» وعلى هذا .. فلا مناصَ من حُبِّهم والإخلاصِ لهم ، فتلك عاطفةٌ طبيعيةٌ يكادُ يستوى فيها الناسُ كافةً ، وأساسُ هذه العاطفةِ الكريمة حيوىٌّ صِرفٌ مُستمدٌّ من لُحمَةِ الدَّم ، وطبيعةِ الحياة ولهذا كانت تربيةُ الناشئةِ موضِعَ عناية البشرِ منذ أقدم العصور ، حتى عصرِنا هذا .

أسباب اختلاف فلسفة التربية :

إن كلَّ أمةٍ من الأمم تعملُ على أن تَصوغَ أبناءَها وَفقَ ما ارتضتهُ من قِيم ، وما تُؤمِنُ به من مبادئَ، ومُثُلٍ عُليا .. ومن هنا نشأت اختلافاتٌ واسعةٌ فى فلسفات التربية ، وأُسسِها ، ووسائِلها بين الأمم ، والمجتمعاتِ البشرية وذلك ناشئٌ من اختلاف المبادئ وتباين المُثُلِ التى تؤمنُ بها كلُّ أمةٍ . ولتوضيح ذلك نسوق الأمثلةَ التالية :

* إن الأمةَ التى تُؤمنُ بالدينِ السماوىِّ ، وتُلزِمُ نفسَها بأحكامه ، وتطبقُ شرائعَهُ ، وتَشتقُّ قِيمَهَا ، وفضائلَها من كتاب اللّه ، وسُنَّةِ رسولِه ﷺ .. إن هذه الأمة الكريمةَ تُرتِّب قِيمَ الأشياءِ فى هَدى أوامرِ الدين ، ونواهيه .. وفى نور عقائدِه ، وما دعا إليه من فضائل :

فالإيمانُ باللّه ، وطاعتُه والتحلِّى بالأخلاق التى دعا إليها الدينُ وحبَّبها إلى نفوس المؤمنين .. كلُّ ذلك تعملُ الأمةُ المتدينةُ على غرسه وتنميته فى نفوس الناشئة ، كى يَشُبَّ الناشئُ عالمًا باللّه ، وبأنه واحدٌ لا شريكَ له ، وعالمًا بكل ما يليقُ به سبحانه من صفات الكمال ، ونُعوتِ الجلالِ والجمالِ وبأنه سبحانه مُنَزَّهٌ عن كلِّ نقصٍ ، لا يُشبهه أحدٌ من خلقه :﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] . وليشبَّ الناشئُ - أيضًا - على طاعة اللّه عز وجل ، مُتحلّيًا بكل جميل من الفضائل الثابتة والأخلاقِ الساميةِ التى دعا إليها الدينُ ، وحبَّبها إلى نفوس الـمؤمنين ، ففيها سكينةُ قلوبهم ، واتِّزانُ أشخاصِهم ، وسعادتُهم ، يَشبُّ الناشئ فى ظلال هذه الرعاية على حبِّ الخير والحقِّ ، راغبًا فى معالى الأمور مُتحلِّيًا بالصدق ، والأمانةِ ، والعفَّةِ ، والشجاعةِ ، والرحمةِ والكرم ، والوفاء .. وبكل صفةٍ من صفاتِ الخيرِ والنبلِ التى دعا إليها الدين .

إن الأمةَ التى تُؤمنُ بالدين الحقِّ وتلزمُ نفسها بأحكامه وشرائعهِ تصوغُ أبناءَها على أساسٍ مستـمدٌّ من مبادئ الدين الحق وفضائلهِ ومثله العليا تُربيهم على نحوٍ متكامل يشمل جوانبَ الفردِ : الروحيةَ ، والعقلية ، والجِسمية ، ليتحقق له التوازن الـمنشودُ ، ولتصحَّ نظرتُه إلى الكون والحياة ، وإلى الإنسان ، ويلزَم الوسطيةَ فى مسالكه ، وآرائه ، وأعماله ، فلا إفراط ولا تفريط ، ولا إسراف ولا تقتير ، لا تهورَ ولاجُبْنَ ، ولا كبرَ ولا استخذاءَ ، ولا شركَ فى الاعتقاد ولا إنكار ، إنما هو الإيـمانُ بالوحدانية وبأن اللّه هو الإلهُ الواحد الـمُتَفَرِّدُ بالإلهية وبالربوبية وبالكمال فى الذات والصفات والأفعال ، هذه النفسُ الـمُتَّزِنة فى عقائدها وأعمالها وأخلاقها هى النفس التى تتربَّى تربيةً صالحة متكاملة مُستـمدةً من الوحى الإلهى .

* وعلى النقيض من ذلك ، نجد أمـمًا تربى أبناءَها على أساس النزعةِ العقليةِ الـماديةِ البحتةِ ، غيرَ عابئةٍ بالأديان السماوية والحياةِ الروحية - كما نرى أممَ الغرب اليوم ، والأمم التى سارت على درب الـملحدين والـمنكرين - .

وإن الأمة التى تفلسفُ نظمَ التربيةِ على هذا الأساس القاصرِ ، لاشكَّ أنها تخالفُ طبيعةَ الأشياء ، لأن الإنسانَ ليس تكوينًا ماديًّا فحسب ولكنه جسمٌ

وروحٌ ، عقلٌ ووجدانٌ ، صُورةٌ ومعنى ، ولذا فإن هذا اللونَ القاصر من التربية يُنشئُ جيلًا ، لا يعبأُ بعالم الروح ، ولا يقيمُ للأخلاق الفاضلة وزنًا ، وتنطبع فى نفسه صورةٌ معكوسةٌ للمثُل العُليا .. كما أن هذا اللونَ من التربية العقليةِ البحتةِ يَطمِسُ فى النفس نورَ الفطرةِ التى فطَر اللّهُ الناسَ عليها .

ومما تجدر الإشارةُ إليه فى هذا المقام أن الرسولَ الهادىَ ﷺ ، قد أشار إلى مساوئ مِثلِ هذا اللونِ من التربية ، وبيَّن فسادها وقصورَها وأثرَها فى انحراف الناشئةِ عن مُقتضى الفطرةِ السليمة .. فقال ﷺ « كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفِطرةِ ولكنَّ أبويه يُنصِّرَانه ، أو يُهوِّدَانِه ، أو يُمَجِّسانه .. » .

[رواه أبو هريرة ، وأخرجه البخارى ومسلم] .

وفى هذا الحديثِ الشريفِ بيانٌ واضحٌ لأثر البيئة ، وخطرِ أسلوبِ التربيةِ فى صوغ الناشئةِ وإعدادِهم ..

فحين تكونُ مناهجُ التربية وأساليبُها مُتفقةً مع طبيعة الإنسان – الجسميةِ والعقليةِ والروحية – فإنها فى هذه الحالةِ تُثمِرُ أطيبَ الثمرات ، وتُعطى أحسنَ النتائج ، وبها تظفرُ الأمةُ بأجيالٍ مُتَّزنةٍ تحملُ أمانةَ الإسهام فى بناء المجتمع ، والوفاءِ بحقوقه ، والنهوض بواجباته على أفضل وجه .

أما حين تكون مناهجُ التربيةِ وطرقُها قاصرةً على الجانب الجسمى والعقلى فإنها لا تُثمر إلا أجيالًا فِجَّة – غير ناضجة – وشبابًا ضعيفَ النفس ، مطموسَ البصيرةِ سيئَ الخُلق .. لا يرى من دنياه إلا ما تقعُ عليه حواسُّهُ من طعام ، وشراب ، ولذةٍ ، وشهوةٍ ، وتنطبعُ فى وجدانه صورةٌ غيرُ صحيحةٍ للمثُل والأخلاق ، ويسهلُ انسياقُه وراءَ ما يُزيِّنُه الهَوى العَارضُ والرغبةُ الخاصةُ .

ومن هنا .. فإننا لا نعجَبُ حين نعلمُ أو نرى أن الشبابَ فى المجتمعات المنحلَّةِ يَجرى وراء كلِّ صَيحَة ، ويندفعُ خلفَ كلِّ فِكرة ، وهذا هو السرُّ فى شيوع الفوضى الأخلاقية فى تلك المجتمعات ، واندفاع الشبابِ فى تيَّار الغرائزِ الحيوانية ، بلا تنظيم ، وعلى غير هُدًى .. ممَّا يؤذِنُ بانهيار مثلِ تلك المجتمعاتِ طال الزمنُ أو قصر[1] .

التربية فى الإسلام :

ونحن حين نسأل : كيف نُربى ناشِئتَنا ؟ .. إنما نُريد أبناءَ المسلمين فى أمةٍ أراد اللَّه عزَّ وجلَّ أن تكونَ الأمةَ الوسَطَ ، وأكرَمها بالإسلام ، وأنعمَ عليها بهداية السماء .. أمةٍ تعتزُّ بكتاب ربِّها .. وتتمسكُ بُسنَّة نَبيِّها ، فهو مُعلِّمُها الأعظم وقائدُها وهاديها فى مناهج الحقِّ والخير .

ولابد من الإشارة إلى أن التربيةَ فى مفهومها الحقيقىِّ إنما هى عمليةُ نُمُوٍّ مُستمر منذ بدايةِ مرحلةِ الطفولة الأولى ، إلى أن يتمَّ إعدادُ الناشئ للحياة إعدادُه لتحمُّل مسئولياتِه الاجتماعية ، والوفاءِ بما تتطلبه من حقوق وواجبات .

والتربيةُ فى مفهومها الصحيح - كذلك - تتناول أو تشملُ الجوانبَ الجسميةَ ، والعقليةَ ، والأخلاقيةَ ، على أن تُراعَى فى كلِّ مرحلةٍ من مراحلِ النموِّ

---

(١) وأمامنا مَثلٌ واضحٌ على انهيار المجتمعات والأمم الملحدة التى لا تؤمن بدين الله بعد إعداد هذه الرسالة بسنوات ونحن حين إعداد هذه الحاشية فى عام ١٤١٧هـ (١٩٩٦م) - فقد رأينا انهيار مجتمع « الاتحاد السوفيتى » الرهيب السابق وتفكُّك عُرَاه واستقلالَ كثيرٍ من الدول التى أُقهرت على الانضمام إليه بقوة السلاح والبطش ، ونرى بأنفسنا ونسمع عن المحاولات الجارية للدول الإسلامية هناك لإعادة تنظيم حياتها وإحياء شرائع الإسلام وعباداته ومبادئه ونظمه للحياة وإقامة المدارس ووضع المناهج لتفهيم الناشِئةِ هناك شرائع دينهم وما يطلبه منهم من الحقوق والواجبات والعبادات وغير ذلك ، أما الدول الملحدة فستظل فى حيرة وتخبُّط وشرٍّ وفساد إذ لا استقرار ولا هداية إلا بدين الله الحق .

الجسمىِّ والعقلىِّ خصائصُ كلِّ مرحلة ، وحاجاتُها أولًا ، وتنميةُ كلِّ الجوانب المشار إليها سابقًا ، بصورة مُتكافئةٍ ثانيًا ، ونَعنى بها الجوانبَ الجسميةَ ، والعقليةَ ، والخُلقيةَ ، حتى يَشبَّ الناشئُ سليمَ البِنيةِ قوىَّ الجسم ، قوىَّ العقل ، قوىَّ العقيدة ، عالىَ الخلق ، كريمَ النفس مرضىَّ السلوك ، محمودَ السيرةِ بين الناس ، وينمو فى نفسه حبُّ الخير وكراهةُ الشرِّ ، وحبُّ الحقِّ وكراهةُ الباطل ، ولا يكونُ إمَّعةً ينساقُ وراءَ أصحابِ الأهواءِ والأغراضِ الشاذَّةِ غير المتفقةِ مع نظرة الدين وقيَمه .

ومِمَّا تجدرُ الإشارةُ إليه أن الإسلامَ قد سبق نظمَ التربيةِ الحديثة إلى ضرورة العناية بتربية الفردِ تربيةً مُتكاملة ، وكان للإسلام فضلُ الامتياز على هذه النظم فى نواحٍ كثيرةٍ ؛ منها عنايتُه بالجانب الروحىِّ فى الإنسان ، ذلك لأن الإنسان بفطرته وبطبيعته رُوحٌ ونفسٌ ، قبل أن يكون مادةً وصورةً .. والتربية التى تُهمل الجانبَ الروحىَّ فى الإنسان إنما هى تربيةٌ ناقصةٌ ، لا تَفى بكلِّ حاجات الإنسان ، ولا تصلُ به إلى الكمال الإنسانىِّ المنشود .

الجوانب التى عُنى بها الإسلام :

عُنى الإسلام - كما قلنا - بتربية الفرد تربيةً مُتكاملةً تشمل جوانبه ، أو خصائصَه الجسميةَ ، والعقليةَ ، والروحيةَ ، والخلقيةَ .. ونحن لا يعوزُنا الدليلُ إذا أردنا أن نتناولَ هذه الجوانبَ بشىء من الإيضاح :

الناحية الجسمية :

فقد عُنى الإسلام كلَّ العنايةِ بتربية الجسوم ، والحرصِ على سلامتها وعلى صَونها من كل ما يضرُّ أو يُؤذى ، وَوِقايتها من المُهلكات ، ونحن إذا تدبَّرنا حكمةَ الإسلام وأسلوبَه ومنهاجَه فى هذا الجانب ، لأقررنا ، وأقرَّ المنصفون من

غير المسلمين بعظمة هذا الدين ، وشمولِ مبادئِه الهاديةِ .

وإليكم نماذجَ لعناية الإسلام بالجانب الجسميِّ فى الإنسان :

لقد حرَّم الإسلام تَعاطى الخمور .. ولقد أثبتت التجاربُ والبحوثُ أن للخمر أضرارًا بالغةَ الخطورة على صحة الإنسان ، فضلًا عن أنها مُوبقةٌ للعقل ، مُضعفةٌ للنفس .. ولنفس الأسباب حرَّم الإسلامُ المخدِّرَ والمُفتِّرَ ونَهى عن تعاطيه ، ونحن نعلم أن المخدِّرَ يُفقد مُدمِنَه الإرادةَ ، ويُحيلُه إلى شبَحٍ يسيرُ بين الناس ، وكأنه لضعفه وتخاذلِ قُواه ، فى عدادِ الأموات ويجرُّه الإدمانُ إلى شرورٍ لا تليق بكرامته ، وإلى عواقبَ وخيمة ، وهكذا حرَّم الإسلامُ كلَّ ما يضرُّ الجسم ، أو يُنهِكُ قُواه ، أو يسببُ له عِللًا وأمراضًا ؛ كتحريم أكلِ لحم الخنزير ، والميتةِ والدم .. ولأجل ذلك - أيضًا - أمر الإسلامُ بالاعتدال فى الطعام ، وأمَر بالتداوى عند الشعور بالمرض .. وعُنى أشدَّ العنايةِ بنظافة البدن .. ونَهى عن الإفراط الذى يؤدى إلى إضعاف البنيةِ ، ولو كان هذا الإفراطُ فى العبادة والطاعة .. ومن وصايا الرسول ﷺ فى ذلك : « إن لبدَنك عليك حقًّا ..»[1] . وهى كلمةٌ جامعةٌ .. ونحن نذكر أن المعلمَ الهادىَ ﷺ نهى بعضَ أصحابه عن صيام الدهر .. حين أرادوا ذلك قائلًا لهم : « ولكنى أصومُ وأُفطرُ ..» . كما نهى آخرين أرادوا قيامَ الليل لا ينامون أبدًا مع نيَّاتهم فى العُزوف عن الزواج قائلًا : « وأُصلى وأرقدُ ، وأتزوَّج النساء »[2] . وكان عمر رضى اللّه عنه يضربُ من يتماوتُ ويُظهرُ الضعفَ والمسكنةَ ويقول له : « .. لا تُمِت علينا دِينَنا أماتَك اللّه » . وضرب رجلًا كان يصومُ أبدًا .. ونهاه عن ذلك أشدَّ النهى .. مُقتديًا فى

(١) قالها ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه حين دَفعهُ خوفُه من عذاب النار إلى صيام النهار وقيام الليل للعبادة وإهمال أهله ، فلم يقبل منه هذا الإفراطَ وقال له : « إن لربك عليك حقًّا ، ولبَدَنكَ عليك حقًّا ، ولأهلك عليك حقًّا فأعطِ كلَّ ذى حقٍّ حقَّه » .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى وفيه النهى عن التبتُّل أى الإعراض عن الزوَاج مع القدرة عليه .

ذلك بهاديه ﷺ .

هذا .. ونحن نعلمُ أن الإسلام يُعدُّ أبناءَه للجهاد ، والجهادُ يقتضى أن يكونَ المسلمُ مُدربًا على ألوان من الرياضة البدنيةِ وألوان من التدريب على تحمُّل المشاقِّ والجلَد .. لهذا فإن الإسلام حبَّب إلى المسلمين كلَّ رياضة تتهذبُ بها الأبدانُ ، وتقوى الجسومُ ؛ ولقد جاء فى الأثر الإسلامىِّ بصدد التربيةِ الجسمية : « .. علِّموا أولادَكم السباحةَ ، والرمايةَ ، وأن يَثِبُوا على الخيل وَثبًا ..» .

وأوْجَزُ ما يقال فى هذا المجالِ أن الإسلام لم يَصُدَّ المؤمنين عن رياضة تَقْوى بها أبدانُهم ، وتُعِدُّهم لتحمُّل تبعاتِ الجهاد ، وحماية العقيدة .

هذا عن عناية الإسلام بتربية الجسوم والأبدان .

الناحية العقلية :

عُنى الإسلام بالعقل ، وكرمه غايةَ التكريم ، وحفزهُ على التفكير والنظر والتدبر فى الكون المحيطِ به ، وفى النفس الإنسانية ، وفى كتاب اللّه عز وجل نقرأ : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس : ٦٨] . ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ [النساء : ٨٢] . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢] . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [الروم: ٢٣] . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٢] . ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٢] . ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ ﴾ . [يونس : ١٠١]

كما لفتَ القرآنُ الكريمُ أهلَ العقل والبصيرة إلى السماء وكواكبها ، وإلى الأرض ومكنوناتها ، وما عليها من الجبال والزروع والبحار والأنهار ، والطرق الممهدة والدواب ، وما فى محيطها من الطيور والهواء ، لفتهم إلى ذلك وغيره للتفكر والتأمل للاستدلال بالمصنوع على وجود الصانع العظيم

القادر، وبجمال الآياتِ الكونية وتَناسُقها على وحدانية الخالق وعلى كمال قدرتِه وكمال حكمته وعلمِه وعظمته سبحانه، وليسْعَوا للانتفاع ببركات الأرض، واتخاذِ الأسباب الصحيحة لعمارة الحياة، وترقية أحوالهم ومعايشهم: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾. [آل عمران: ١٩٠].

كما حثَّ الإسلامُ على تثقيف العقلِ وتبصيره بألوان المعرفةِ، وعلى تنميته بكل نافعٍ من العلوم، وحَسبُنا في بيان فضل الإسلام في هذا الجانب أن اللَّه نَفَى المساواةَ بين مَن عنده عِلمٌ، ومَن لا عِلمَ عنده، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. [الزمر: ٩].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾.

[فاطر: ١٩: ٢٢].

وكلُّ هذه الآياتِ المباركاتِ تنفى المساواةَ بين أحياءِ القلوبِ بالمعرفة باللَّه وبالعلم النافع، وأضدادهم من أموات القلوب بسبب عدم العلم بحقوق اللَّهِ وما يَليق بجلاله وعظمته، وبسبب التخبط في ظلمات الجهالة.

وقد أخبرنا النبيُّ ﷺ أن اللَّه يُحبُّ العلماء فقال: «أوحَى اللَّه إلى إبراهيم عليه السلام: إنى عليمٌ، أُحبُّ كلَّ عليم ..».

وفى الحديث الذى رواه حذيفةُ عند الطبراني وغيره: «فضلُ العلمِ خيرٌ من فضلِ العبادةِ».

وحثَّ الإسلامُ على طَلَبِ العلم، وطلَب إلى المسلمين أن يبذلوا في هذا السبيلِ غايةَ جُهدهم، وألا يتقاعسوا عن طلب كلِّ نافع ومُفيدٍ من علوم الدين أو

علوم الدنيا .. ولنتأمل ما رُوى عن النبى ﷺ : « .. مَن ظنّ أن للعلم غايةً ، فقد بَخسَهُ حقَّه ، ووضَعه فى غير منزلتِه التى وضَعَه اللَّه بها حيث يقول : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ » [الإسراء : ٨٥] .

وفى هذا حفزٌ لهمم المسلمين ، ليستزيدوا من العلم ، وليبحثوا عن المجهول فى عالم النفس والكونِ المحيط بهم .. فطالبُ العلم فى نظر الإسلام يُشبهُ السابحَ فى البحر ، ليس يرى أرضًا ، ولا يعرف طولًا ولا عرضًا .

وممَّا أمر اللَّه به نبيَّه ﷺ : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

وكان من دعاء النبى ﷺ : « لا بارك اللَّه فى يوم لا أزدادُ فيه علمًا » .

وأوجَزُ ما يقال فى هذا المقام أن الإسلام لم يَصُدَّ المسلمين عن عِلم نافعٍ ، بل إنه جعل الحكمة والمعرفة ضالةَ المؤمنِ أنّى وجدهما فهو أحقُّ الناس بهما .

الجانب الروحى :

وإذا كان الإسلام قد كرَّم العقلَ هذا التكريمَ ، وحثَّ المسلمين على التزوُّد من ينابيع العلم والثقافة والمعرفة ، فإن أشرفَ العلوم وأعلاها قدرًا هى العلومُ الدينيةُ ؛ لما لها من أثر فى تبصير الفردِ بحقائق دينه وواجباتِه نحوه ، ولما لها من أثر فى تنمية الجانبِ الروحى وصفاء النفس وتهذيب الوجدان ، وصَقلِ الضَّمير وتبصيرِه ، وتوجيه العقلِ الوِجهَةَ الصالحةَ النافعةَ .

والعلوم الدينيةُ ينبغى أن تنالَ مزيدًا من عناية المسئولين عن تربية الأجيالِ المسلمةِ فى جميع الأقطار الإسلامية ، والتى يوجد فيها مسلمون .

فالتفقُّه فى الدين فرضٌ على كل مسلم ، ومسلمة ؛ يقول النبى ﷺ : « ..الفقهُ فى الدين فرضٌ على كلِّ مسلم ، ألا فتعلَّمُوا ، أو علِّموا ، وتفقَّهوا ولا تموتوا جُهالًا ..» .

وفى الحديث الذى رواه أنس عند ابن ماجةَ وغيره : « طلبُ العلمِ فريضةٌ على كل مسلم ..» . وفى الحديث الذى رواه معاويةُ عند البخارى ومسلم : « من يُرد اللَّهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ فى الدين » .

وفى العناية بالتربية الدينيةِ تحصينٌ لنفوس الناشئةِ من غوايةِ الشيطان ، أولًا وتحصينٌ لها من تيارات الأفكار الشاذَّةِ ، والمبادئ الضالةِ المنحرفةِ التى تسعى إلى تقويض النفوس وهدمِ القِيَم السليمة والمُثلِ الكريمة التى جاء بها الدينُ ، لتحلَّ مَحلَّها الفوضى ، وسوءُ الخلق ، وخرابُ الضمائر ، وفسادُ الحياة .

إن الأمم التى انحلَّت وانساقت وراء الأهواءِ والأغراض الخاصة تسعى بكل ما تملكُ من وسائلِ اتصالٍ بالصورة والكلمةِ والصوتِ إلى توجيه مساوئها نحو الأمم التى تتمسكُ بدينها ، وتتحلَّى بالفضائل الساميةِ والأخلاق الكريمة التى جاء بها الإسلام لصالح الإنسان ، وهذا يُوجب على الموجِّهين والمربِّين والمفكِّرين والمسئولين عن الناشئة فى بلادنا الإسلامية أن يعملوا بكل جهدٍ مُنسَّق ومدروس لحمايتهم وتنمية العواطفِ الشريفة فى نفوسهم ، وتحصينهم بالعلم النافع ، والأدبِ الرفيع ، والفهم الصحيح فى ضوء الكتاب والسنة .

العقيدة وواجبُنا :

ونحن حين نتحدثُ عن التربية الدينية ، نُذكِّر المسلمين بأن اللَّه فرض على الفرد المسلم أن يكونَ عالـمًا بربِّه ، عالـمًا بما يجب أن نؤمنَ به من توحيده وحقِّه سبحانه وحده فى العبادة ، وبما يليق به سبحانه من صفات الكمالِ والجلال .. لهذا فإنه تجب العنايةُ بالعقيدة فى مناهج التربية على أساسٍ من كتاب اللَّه وسنةِ رسولِه عليه السلام .. فالمرءُ إذا صحَّت عقيدتُه كمُلَ بناءُ شخصيتِه وصحَّت نظرتُه إلى الحياة والكونِ ، وسعى إلى تكميل نفسِه بالفضائل .

إن العقيدةَ الصحيحةَ النقية هى الأساس الأوّلُ فى بناء شخصية المسلم ، وهذا ينبغى أن يكون مَحِلَّ عناية المربّين والمسئولين عن التربية فى البلاد الإسلامية .

التدريب العملى والقدوة والمناهج :

ومع العناية بالعقيدة ، يجبُ أن يُعوَّدَ الناشئُ على طاعة اللّٰه عز وجل وعلى أداء العبادة ، وتبدأ العنايةُ بذلك حين يبلغُ الطفلُ السابعةَ من عمره ، ويصحب ذلك تعليمُه الضروريَّ من صفات أداءِ الصلاة ، مع التدريب العملى عليها ، وعلى الوضوء – ولا شكَّ أن البيتَ دَورُه حيويٌّ فى هذا المجال – ثم نتدرج مع الناشئ حتى يشبَّ وقد تفقَّه فى الدين .. ذلك لأن التفقه فى الدين فرضٌ واجبٌ على كل مُكلَّف ، يقول الهادى الحبيبُ ﷺ : « .. ما عُبد اللّٰه بشىء أفضلَ من فقهٍ فى الدين ، ولَفَقِيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألفِ عابدٍ ، ولكلِّ شىءٍ عمادٌ ، وعمادُ الدين الفقه ..» .

وكان أبو هريرة راوى هذا الحديث يقول : « لأن أجلسَ ساعةً فأفقَه أحبُّ إلىَّ من أن أُحيىَ ليلةً إلى الصباح » . [لفظ البيهقى ورواه الطبرانى] .

إننا فى عصرٍ أَهمَلَت فيه كثيرٌ من الأمم أمرَ التربية الدينية بحيث لا نجد للدين فى مناهج التعليم مكانًا يليقُ به ، وذلك ناشئٌ عن الموجةِ العقليةِ التى تجتاح مناهجَ التعليم فى الغرب ، وانتقل أثرُها إلى كثير من أمم الشرق ، فلم تقم هذه الأمم ، أو لم يقُم المسئولون عن التربية الدينية والتعليم فيها بواجبهم على الوجه الأكمل إزاء العناية بالدين وبالتربية فى معاهد العلم .. لهذا فإننا لا نعجَبُ إذا رأينا موجاتٍ من الانحلال الخلُقى ، واضطراب القيم تجتاحُ الشبابَ فى كثير من أمم الشرق .. وإنها – واللّٰه – لمسئولية كبيرةٌ تقعُ تبعاتُها على الأسرة ، أولًا وعلى المسئولين عن التربية والتعليم ، ثانيًا .

إن الدينَ والتربيةَ الدينية ينبغى أن يَحتلا المكانةَ اللائقة بهما بين الموادِّ الدراسية فى معاهد العلم منذ المرحلةِ الأولى فى المدرسة الابتدائية وما قبلها، وتزدادُ العنايةُ بالعقيدة وسائرِ الموادِّ؛ من فِقهٍ وتفسير وحديثٍ وسيرة وأخلاق، وغير ذلك من العلوم التى تُبصِّر الناشئةَ بأمور دينهم مع مراعاة مراحل النموِّ العقليِّ التى يمرُّ بها المتعلمون .. هذا مع عناية المسئولين المستمرة بالتربية الدينية والتوجيه الخلقيِّ المستمرِّ، وذلك كعقد الندواتِ وإلقاءِ المحاضراتِ فى المدارس والمعاهد مما يترك آثارًا طيبة فى نفوس الشباب وعقولهم، ويبصِّرهم بحقائق الحياة وبمبادئ الإسلام الهاديةِ الكريمةِ، حتى تزدادَ هذه المبادئُ من نفوسهم تَمكُّنًا، وتتحولَ آدابُ الإسلام وقيمُه وفضائلُه إلى مسالكَ عمليةٍ، وبذلك يسعدُ الفردُ، وتسعدُ الجماعة .. وإن هذه العناية الكريمة بالتربية الدينية تساعدُنا على بناء شبابنا المسلم بناءً سليمًا ومتكاملًا، ولكى نُحصِّن عقلَه ونفسَه ضدَّ التياراتِ الغربية، والقيم الفاسدة، وموجاتِ الانحلالِ والتفسُّخ الأخلاقى التى انتشرت فى المجتمعات المنحلة، وحتى يندفعَ الشبابُ المسلمُ بعقيدته النقية الصافية، وبطاعته لله عز وجل فى مدارج الكمالِ الإنسانيِّ، وحتى لا يفتِنهُ زيفُ المذاهبِ المادية، فيجرِىَ وراءَ القُشور والظواهرِ مُقلدًا فى الأخلاق والعوائد بما لا يليقُ بالإنسان المسلم، الذى ينبغى له أن يكونَ نموذجًا للإنسانية فى أرقى صُورها، وفى كمالها النفسيِّ والعقليِّ والخلقيِّ والرُّوحيِّ.

الجانب الخلقى:

الإسلامُ كما عرفنا عُنى كلَّ العناية بتربية الجسم والعقلِ، وعُنى بالجانب الروحىِّ فى الإنسان، كذلك عُنى أشدَّ العنايةِ بالأخلاق؛ لارتباطها الوثيق بالجانب الروحى، ولصلتها بالعلاقات الإنسانية والمعاملات بين الناس،

وبتفاعل الفرد مع الجماعة ، فالـخُلق الكريـمُ الفاضل ثمرةٌ طيبةٌ من ثمرات الإيـمان الصادق .. وقد أثنى اللَّه عز وجل على نبيه الكريـم ﷺ فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٣] . وقال الرسول ﷺ : « إنما بُعثتُ لأُتـممَ مكارمَ الأخلاق » .

وفى مجال التربيةِ الخلُقية ، ينبغى مراعاةُ مرحلةِ الطفولة الأُولى ، لأنها أساسٌ متينٌ للبناء فى الـمراحل التالية :

فالطفلُ فى الـمرحلة الأولى من حياته يكتسبُ العاداتِ الطيبةَ ، والأخلاقَ الفاضلةَ عن طريق التعوُّد ، ويتمُ ذلك فى محيط الأسرة أولًا ، ثم فى محيط الـمدرسة ثانيًا .

وتعتـمدُ التربيةُ الخلقيةُ أساسًا على كسب الفضائل ، وكسبِ العادات السليـمة ، وسلوكِ الطريق الذى يرتقى بالناشئ إلى ما يُحقق له الخيرَ والفائدة والـمنفعة ، كذلك يُحقق له مُجانبةَ الطريقِ الذى يُؤدى إلى الضرر .. أى الذى يُؤذى الناشئ أو يضُرُّ بغيره ، مـمَّن يعيشُ معه فى جماعة واحدة .

ومـمَّا تجب ملاحظتُه فى الفترة الأُولى من حياة الناشئ :

– ألا تُـجابَ رغائبُ الطفل دائمًا ، أى أن الكبارَ لا ينبغى أن ينزلوا على إرادته بصورة مستـمرَّةٍ .. وذلك لكى يتعودَ الناشئُ على أن هناك حدودًا يجبُ أن يقفَ عندها ويلتزمَها .. ولكى يتعودَ أيضًا على كبتِ الرغباتِ غير السليـمةِ ، وذلك مخافةَ أن تَستحكمَ هذه الرغباتُ فتتحكمَ فيه ، وفى تصرفاتِه فى مستقبل أيامه .

– وأسلوبُ التوجيه فى هذه الـمرحلةِ من حياة الناشىءِ ينبغى أن يكونَ مؤسَّسًا على الرفق ، واللينِ ، والرحمةِ .. بعيدًا عن القسوة ، أو التأنيب .

– وبالتوجيه السليم ، برفقٍ ولينٍ ورحمةٍ ، يتعودُ الطفلُ على أن الحياةَ ليست له وحده ، بل هى له ولغيره ممَّن يعيشون معه فى محيط الأُسرة .. وبذلك ينشأ الطفلُ مُقدِّرًا للأمور ومُستعدًّا لمقابلة الحياةِ بما فيها من أخذ وعطاء وغضبٍ ورضًا ، ويسهل فيما بعد تعليمُه ، وتَسلُسُ قيادتُه فى مناهج الخير .

– وبعد أن تتفتحَ مداركُ الناشئ للحياة ، – ويبدأُ ذلك من بلوغه العاشرةَ تقريبًا – فإنه فى هذه المرحلةِ يحتاجُ إلى كثير من العناية ، فى مجال التربية الخلقية ..

– أن تجعل الأُسرةُ جوَّ البيت نقيًا من كل ما يمكن أن يؤثر فى عقله أو نفسه تأثيرًا له أضرارُه ، ممَّا هو مضادٌّ للقيم الفاضلة والأخلاق الحميدة التى رضيها اللّه لعباده .

وفى تلك المرحلة من حياةِ الناشئ ينبغى مراعاةُ الأمور التالية :

– أن تكونَ العلاقةُ بينه وبين الكبار – من أباءٍ ومعلمين – تكونَ قائمةً على أساس من الاحترام المتبادَل والتفاهمِ ، وفى حنانٍ ورِفقٍ مع الحزمِ والرعاية .

– أن نبتعدَ عن أسلوب القسوةِ والضغطِ ، لأن الضغطَ يقتلُ فيه الشخصيةَ ويُضعِف إرادتَه .

وفى هذا الدور ينبغى أن تُفصَّلَ له الفضائلُ الثابتة ، ونُبَصِّرَه بما فيها من خيرٍ وبما لها من أثر طيبٍ فى حياة الفرد والجماعة ، ثم نتدرج فى تبصيره بأنواع الشرِّ والقبائح التى نَهى عنها القرآنُ الكريم ، وحذَّرنا منها نبىُّ الهدى عليه السلام مع بيان الآثار السيئةِ لهذه القبائح والرذائل بقدر ما يُطيق استعدادُ المتعلم العقلىُّ والنفسىُّ فى كلِّ مرحلةٍ من مراحلِ نمُوِّه .

- وفى مجال التربيةِ الخُلقية لأبناء المسلمين ينبغى أن تكونَ الفضائلُ والمُثُلُ العُليا الكريمة ، مستمدَّةً من كتاب اللّهِ عز وجل ومن سنة الهادى محمد ﷺ .. فالرسولُ عليه السلام هو القدوةُ الطيبةُ والأسوةُ الحسنةُ لطالبى الكمال النفسىِّ والخلقىِّ .. فإذا كان القرآنُ الكريمُ قد فصَّل لنا الفضائلَ والأخلاقَ الكريمة ، وبيَّنها ، فإن حياةَ النبىِّ ﷺ تُوضحُ لنا هذه الأخلاق ، وتُفصِّلها بألوانها الحقيقية ، وتطبيقاتِها العملية .

- لهذا تجبُ العنايةُ بالقصص القرآنى ومراميه وأهدافه النفسية والعقلية والخُلقية التهذيبية ، كما تتوجَّهُ العنايةُ القصوى نحو الآداب النبويةِ والسِّيرة الطاهرةِ العَطِرة ، فى كل مرحلةٍ من مراحل التعليم وإبراز جوانب القدوةِ فى سيرة الحبيبِ الهادى عليه السلام أمامَ الناشئة وبطريقة تُناسبُ كلَّ مرحلةٍ من مراحلِ نُموِّهم العقلى .

ويَجب أن يُعنى المربُّون بتدريس حياةِ النبىِّ محمدٍ ﷺ فى جميع مراحلها وجوانبها فقد كان ﷺ طفلًا ، وشابًّا ، وشيخًا ، وكان والدًا وزوجًا ، وجارًا ، وصاحبًا ، وجُنديًّا ، وقائدًا ، ومهاجرًا ، وفاتحًا ، وتاجرًا ، ومُضطَهدًا ، وقاضيًا ، ومعلمًا .. وكان عليه السلام فى كلِّ هذه المراتب على اختلافها ، هُو هُو ، لم يتغيَّر طبعُه ولا خُلُقه ، ولا اختلفت معاملتُه للناس ؛ فهو الصادقُ الأمين ، السخىُّ الشهمُ ، الرحيمُ ، العفُوُّ ، وهو فى الشدة الصابرُ على النائبات ، الثابتُ عند المُلِمات .. وهو بذلك وغيره من كريم الخلالِ ومكارم الأخلاقِ المثلُ الأعلى للقُدوة الكاملةِ .. وصدق اللّه العظيم : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

هذا مع العنايةِ بسيرِ السلفِ الصالحِ من الصحابة والتابعين وغيرهم .

خلاصة :

ممَّا سبق يتضحُ لنا أن الإسلامَ عُنِىَ كلَّ العنايةِ بالتربية ، وشَمِلت عنايتُه جميعَ الجوانب ، حتى يتمَّ نُموُّ الفردِ نموًّا متكاملًا ؛ نموًّا يشمل جِسمَه ورُوحَه ، وخُلقَه ، وعقلَه ، وبهذا النمطِ العالى من التربية الراقية نعمل على إيجاد المواطن الصالح الذى يَعرفُ حقوقَه وواجباتِه ، وإيجادِ الفردِ المسلم القوىِّ الذى يَعيشُ بعقيدته الصحيحة ، وخُلقِه القوىِّ وعقلِه الواعِى يعيشُ قوةً خيِّرة .. نافعة .. بنَّاءة .

إن هذه التربيةَ العاليةَ الراقيةَ كانت حُلمَ المصلحين والفلاسفة منذ أقدمِ العصور ، ولكنهم ضلُّوا الطريقَ إليها حتى ظهرَ الإسلام ، فأنار الطريقَ لذوى البصائر والنُّهى ، وصحَّح لهم المسار ، وهداهم إلى كل خير وحقٍّ وجَمال ، ووجَّه العقلَ الوِجهةَ الصالحةَ النافعةَ ، كما وجَّه قوى الإنسانِ نحو البناء والعمارة وحبِّ الخير للإنسان ، والتمسكِ بالحق والعدلِ وصالح الأخلاق .

الجيل الرائد :

إن الإنسانيةَ منذ أقدم العصور ، وهى تحلمُ بالجيل الرائد ، وتودُّ لو تظفرُ به ، هذا الجيلُ الرائدُ كان حلمَ دُعاةِ الإصلاح ، وأمنيةَ الحكماءِ من أهل العلم من أقدمِ الأزمنة ، ولكنَّ الإنسانيةَ فى مُختلف أوطانها ، ومن سَحيقِ عُصورِها لم تشهد الجيلَ الرائدَ فى عقيدته وفضائِله ومسالكِه إلا مرةً واحدة .. مرةً واحدةً حين فُوجئت أقطارُ الأرض بإقبال هذا الجيلِ العظيم من صَحَارى أرضِ العرب من هذه الأرض الطيبةِ .. هذا الجيلُ الذى ربَّاه محمدٌ ﷺ على مبادئِ الحقِّ والخيرِ والهُدى ، خرج هذا الجيلُ يؤسسُ للبشر حياةً جديدةً ينعمون فى ظلالها الرحيمة بالحرية ، والإخاء ، والمساواة ، والرحمةِ ، والعدل ، والتعاطفِ ، والتكافلِ ، والعلم .

خرج الجيلُ العظيـمُ الذى ربَّاه محمدٌ عليه السلام ليبشرَ الدنيا بنور جديدٍ يُخرجُهم من ظلمات الجهلِ والحيرة والكفرِ إلى نور العلم ، يَحمِلون للناس منهاجًا كاملًا للحياةِ الإنسانيةِ العزيزة الفاضلة ، ويُقيـمون للدنيا صرحًا عاليًا من الأخلاق الكريمة والفضائل الثابِتة ، ويَبنون حضارةً وارفةً ينمو فى رحابها العلمُ وتزدهر الثقافةُ الصحيحة ، ويسعدُ بنو البشر .

إن هذا الجيلَ الرائدَ من الـمسلمين الأول ، ربَّاهم محمدٌ ﷺ على هَدى من وحى اللَّه ، وبهذه التربيةِ العاليةِ الهاديةِ صَعدوا فى مدارج الكمالِ النفسىِّ والخُلُقىِّ والعقلىِّ .. فكانت نفوسُهم الخيِّرةُ تفيض رحمةً وعطفًا وحنانًا ، وبَهروا العالـم بصدقهم ، ووفائِهم ، وبتواضعهم وإخلاصهم .

كانوا فى مواطن البأس وعند الشدائدِ أبطالًا مغاويرَ ، وكانوا فى معرض الحق يُذعنون للعدل والإنصافِ ، سمَت نفوسُهم عن الدنايا .. وتفانَوْا فى نصرة الحق ونشرِ الخير والحبِّ والسلام ، وجاهدوا فى اللَّه حقَّ جهاده فأنقذوا البشرَ من الـمهانة والإذلال لغير اللَّه عز وجل وتدبّر قوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [سورة الفتح : ٢٩] .

خاتمة :

إن الـمسلمين ما هان شأنهم ، وما ضَعُف أمرُهم .. إلا حين انحرفوا عن منهاج الإسلام ، وحين لم يحسنوا القدوة برسول اللَّه ﷺ .

ونحن – المسلمين – إذا أردنا لأنفسنا عزًّا ومجدًا وسُؤددًا ، علينا أن نعود إلى جوهر ديننا .. أن نعودَ إلى سبيل محمدٍ الهادى ﷺ .. علينا أن نُربِّىَ الأجيالَ المسلمةَ على هذا النمَط العالى ، من الرجولة الحقَّة والإنسانيةِ الكريمة ، النمطِ الذى لمسناه فى المسلمين الأُول ؛ إذ كانوا قوةً فى العقل ، وقوةً فى الروح ، وقوةً فى الخُلق ، وقوةً فى الجسم .

ومن للإنسانية اليوم .. برجل عقيدةٍ كأبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه ..؟ أو بمؤسس عظيم كالفاروق عمر ..؟ أو بقائد فذٍّ كخالد بن الوليد ..؟ أو فقيهٍ مجاهدٍ كعلىِّ بنِ أبى طالب ..؟ رضى الله عنهم ، وعن كل الصحابة والتابعين الذين كانوا بمثابة مشاعِلِ هدايةٍ ، بفضل إيمانهم القوى بالله ، وتمسكهم بالفضائل التى جاء بها الإسلام .

الشباب الذى نريده

إننا لكى نُربىَ ناشئتنا تربيةً عالية ومتكاملة وشاملةً ، يجب أن نصوغَهم صياغةً تتفقُ مع ما نؤمن به من عقائد ومثلٍ عُليا كريمة ، مستمدةٍ من كتاب الله عز وجل ، ومن سنة نبيه ﷺ .

وإننا بهذه التربيةِ العالية لا نخدم أمتَنا فحسب ، وإنما نخدم البشر جميعًا ، لأننا نُريهم نمطًا من الشبابِ تَفْتَقِدُه أمُّ الأرض :

- شباب يتمسك بعقيدة التوحيد ، ويعقد عليها قلبه وفؤادَه وعقله .
- شباب يُلزم نفسَه بطاعة الله عز وجل .
- شباب مستقيم على منهج الحق ، ثابت على مبادئ الأخلاق الفاضلة .
- شباب لا تخدعُه عن الحق والخير مظاهرُ الانحلال الخُلقى الذى تردَّت فيه

طوائفُ الشبابِ الذى رُبّى تربيةً ناقصة وفاسدةً فى المجتمعات غير الإسلامية ، وبمناهج غير إسلامية ، وعلى أنماطٍ من المسالك غريبة عن قيم الإسلام .

- شباب يواجه بإيمانه وبوعيه الإلحاد والمُلحدين والمُفْسِدينَ أنّى وجدهم ، ويردُّ كيدَهم إلى نحورهم ؛ لأنه تحصَّن بالعقيدة الصحيحة ، وتسلَّح بالإيمان الصادق ، وبالخلق الكريم ، هذا النمطُ من الشباب المسلم لن تجد الأفكارُ المادّيةُ الأرضيةُ - التى هى من صُنع شياطين الإنس - إلى نفسه سبيلًا بل إن كلَّ فكرةٍ خبيثة لَتتلاشَى أمام صلابته وصِدق يقينهِ وإخلاصه لمبادئ دينه الكريم ، وأمام فهمِه ووعيه وسَعةِ أفقه ، ومتانة أخلاقه وطهارته .

إن مسئولية الكبار - من آباء ومعلمين وموجِّهين - فى عصرنا الحاضر لمسئولية عظيمة ، لأنهم يحملون الأمانة التى حملها أولو العزم من الرسل .. وما أكرمها من أمانة .. وما أعظمها ..! .

وإن المُربين المسئولين عن توجيه الأجيالِ المسلمة .. إنهم بإخلاصهم لدينهم ، وبتفانيهم فى تربية أبناء أمتهم لمُثابون من اللّٰه عز وجل .

* * *

المرءُ مع مَنْ أحبَّ :

حديث أنس بن مالك فى الصحيح : أن رجلًا سأَل النبىَّ ﷺ : متى الساعةُ يا رسولَ اللَّه ؟ قال : « ما أَعْدَدْتَ لها ؟ » قال : ما أَعْدَدْتُ لها من كثيرِ صلاةٍ ولا صومٍ ولا صَدقةٍ ، ولكنى أُحِبُّ اللَّهَ ورسولَه ، قال : « أنت مع مَن أحببتَ » .
وحديث أبى موسى فى الصحيح قال : قيل للنبى ﷺ : الرجلُ يُحِبُّ القوم ، ولَـمَّا يَلْحَقْ بهم ، قال : « المَرْءُ مَعَ من أحبَّ » .

رسالة :

من أدب المسلم وتوجيهاته

تمهيد : « الأغنياء المفلسون » ٢٠٧
١ – من أدب المسلم مع رسُل اللهِ وأنبيائه « وما شرفت به أمة خاتم المرسلين ﷺ » . ٢١١
٢ – القرآن العظيم نور المسلم وشفاء قلبه ٢١٧
٣ – حياةُ القلْب بذِكْر الله ٢٢٣
٤ – حُسن التوكُّل على الله من أعظم أسباب السعادة ٢٣٠
٥ – حُسْن الخلُق بهاءُ المؤمن وسبيلُه للنجاح ٢٣٤
٦ – كَرَمُ النفسِ وسَعةُ الصدر ٢٤٠
٧ – الخِلْقةُ صنْعَةُ اللهِ : تُحْتَرمُ ولا تُهان ٢٤٤
٨ – المنافسة فى المكارم شرف ، والحسدُ مرض ٢٤٨
٩ – خُذ الرفيقَ قبل الطريق ٢٥٢
١٠ – الصدقُ طمأنينة ، والكذبُ رِيبة ٢٥٦
١١ – جيرانُك دِرْعُك وذراعُك ٢٥٩
١٢ – يا ربِّ : سَلْ هذا فيمَ قَتَلنى ؟ ٢٦٥
١٣ – بابُ التَّوبة رَحْمَةٌ عظيمةٌ ٢٧٣
١٤ – دروس لأهل البلاء ولأهل النعماء ٢٧٩
١٥ – من أدب المسلم والمسلمة عند المصيبة والتَّعزية ٢٨٥
١٦ – من التوجيهات المبارَكة لإزالة الهمّ وقضاءِ الدَّين ٢٩٠
١٧ – من أدب الطعام والشراب ٢٩٤
١٨ – فى التسمية والحمد ٣٠٠
١٩ – الكسب وأدب التجارة ٣٠٥
كلمة ختامية :
محاسبةُ النفس وإعدادُها ٣١١

* * *

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[سورة الأنعام : ١٦١ - ١٦٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد :

الأغنياء المفلسون

توجيه نبوى شريف :

روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال لأصحابه يومًا : « أتدرونَ من المُفلسُ ؟ » ، قالوا : المفلسُ فينا من لا درهم له ولا متاعَ ، فقال ﷺ : المُفْلسُ من أمتى من يأتى يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيام وزكاةٍ ، ويأتى قد شتَم هذا ،وقذَف هذا ، وأكَل مالَ هذا ، وسفَك دمَ هذا ، وضرَب هذا ، فيُعطَى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فَنِيتْ حسناتُه قبل أن يُقضى ما عليه أُخِذ من خطاياهم فطُرِحت عليه ، ثم طُرح فى النار » . [أخرجه مسلم وغيره] .

المعاملات وثيقة الصلة بالعبادات :

ربط الإسلامُ الخُلُقَ الحسن والمعاملاتِ بين الناسِ بالتديُّن وبالتقوى أوثقَ ربطٍ إذ إنَّ حقوقَ العبادِ شأنُها عظيم وخطرُها جسيم ، وقد يكون فينا من يُحافظ على أداء الفرائض والعبادات ، ولكنه يتخوَّض فى أموالِ الناس ولا يتحرَّى الحلالَ والحرامَ . وقد يغُشُّ أو يمدُّ يدَه للرشوة ، أو يأخذ حقوقَ غيره ، أو يمتنع عن ردِّ الأمانة يريد بذلك الغنى لنفسه بأموال غيره من الناس فى الدنيا ، ولكنه المُفلس حقًّا فى يومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلَّا من أتى اللَّهَ بقلبٍ سليم .

ويدخُلُ مثله فى زُمرةِ المفلسين الشخصُ الذى يغتابُ الناسَ ، ويتحدث عنهم بما يكرهونه ، أو يسعى للإساءة إليهم والغضِّ من شأنهم ، ومثله من يسبُّ الناسَ أو يُؤذيهم بلسانه أو بيده ، وكذلك من يَحملُ فى نفسه الحقدَ والنميمةَ

ونحوهما .

وإن المسلم يعلم أن سوءَ الخُلُق يُفسدُ على المرء المسلم أعمالَه الصالحة كما جاء فى الحديث : « إن الخُلق السيئَ يُفسدُ العملَ كما يُفسدُ الخلُّ العسلَ » . [أخرجه الطبرانى فى الكبير والأوسط والبيهقى] .

وفى الحديث : « أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا » . وزاد فيه محمد ابنُ نصر المروزى : « إن المرءَ ليكُونُ مؤمنًا وإنَّ فى خُلقِه شيئًا فيُنقصُ ذلك من إيمانِه » .

المعاملات الطيبة من خصال أهل التقوى :

إن إحسان العِشرة للناس ، والحفاظَ على حقوقهم ، ورعايةَ عهودِهم ، وأداءَ أماناتِهم إليهم ، وحُسنَ الخُلق معهم ، لَمِن خصالِ التقوى ، وإن كلَّ عبادةٍ أمرَنا اللَّهُ بأدائها ، وكلَّ طاعةٍ نتقرَّبُ بها إليه سبحانه إن لَم تُنبتِ الخيرَ فى نفوسِنا ، وتظهر ثمرتُها الطيبةُ فى معاملاتِنا ؛ فإن صاحبَها يكون فى حاجةٍ إلى أن يُراجع نفسَه ، ويُحاسبها ويزنَ أعمالَه قبل أن تُوزنَ عليه ، ولنتدبر قولَ اللَّهِ تعالى فى الصلاةِ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ .

[العنكبوت : ٤٥] .

ولنتدبر ما جاء فى شأن الصدقة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ . [البقرة : ٢٦٤] . لنرى كيف يكون إيذاءُ الفقير بالقول أو بالفعلِ مُضيِّعًا لثواب الصدقة ! . كما نهى اللَّه عز وجل عن المعصية وسوء الخُلق فى وقت أداء الحج : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ . [البقرة : ١٩٧] .

والصائمُ الذى لا يُمسكُ لسانَه وجوارحه عن الشرِّ والسوءِ ليس له من

صيامه إلا الجوعُ والعطشُ ، وقِس على ذلك ؛ إن الإسلام يريدُ من أتباعه أن يعيشوا على إخلاصٍ وصفاء ومودَّة من القلب ، يأمنُ بعضُهم بعضًا ، ويثقُ بعضُهم فى بعض ، يتعاونون على جلب الخير ودفع الضرّ ، ويُحب المسلمُ لإخوانه ما يُحبُّ لنفسه ، ويكرهُ لهم ما يكرهه لنفسه ، ويربط بينهم الإخاءُ والمحبةُ والتراحم والتعاطف .

وفى هذه الرسالة « من أدب المسلم وتوجُّهاته » - إن شاء اللّه - :

جوانبُ من أدب الإسلام وتوجيهه للمسلم فى خاصة نفسه ، وفى علاقته بأهله وجيرانه وإخوانه ، وفى معاملاته وسعيه لتوثيق روابط الأخوّة والثقة والتعاون على الخير بين الناس ، والإقبال على شغل نفسه ووقته بما يعود عليه بالخير وطمأنينة القلب وراحة الضمير . وأترك للقارئ الكريم أن يتابع الرسالة بأسلوبها السهل ووضوح معانيها وقُرب لُغتِها من لغة الحياةِ ، ولمسها لجوانب فيها خيرٌ ونفعٌ بإذن اللّه .

جعلها اللّه فى ميزان الحسنات وصلى اللّه على الحبيب المصطفى وعلى آله وصحبه .

أحمد بن محمد طاحون

جدة : ١٤١٧ من الهجرة
١٩٩٦ من الميلاد

* * *

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[الأنعام الآية : ١٥٣]

(١) من أدب المسلم مع رسل الله وأنبيائه
« وما شرُفت به أمةُ خاتم المرسلين ﷺ »

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ .

[النساء : ٦٤] .

وقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . [التوبة : ١٢٨] .

إن رسل الله وأنبياءه هم أعظم الناس قدرًا ، وأعلاهم منزلة ، وأرفعهم شأنًا ، وأشدُّهم قربًا من الله عز وجل .

توقير الأنبياء واجب :

ولقد أثنى الله عز وجل على خاتم رسله وعلى سائر إخوانه من النبيين والمُرسلين صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد شمل ثناءُ الربِّ عز وجل أتباعَهم الذين أخلصوا الطاعةَ لله وأحسنوا الاتِّباع لرسل الله ، وفى يوم القيامة يُكرم الله عز وجل بفضله وإحسانه مَن استقام على الطريق المستقيم وأطاع الله ورسولَه ، فيُحشر فى زمرة الذين أنعم الله عليهم ورحمهم كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ . [النساء : ٦٩ ، ٧٠] .

وذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء من عباده ، مع التفاوت فى الدرجات وفى الكمالات الإنسانية ، إذ إنَّ رسل الله فى الذروةِ العليا من الكمالين : فى الخِلقةِ

والخلُق ، فقد عصمهم اللّٰه ، ورزقهم الفطانةَ والحكمةَ وسلامةَ الفِكر وسدادَ الرأى ، إنهم النورُ للناس فى ظلمات الحياة ، وإن مقامهم لأعلى المقامات وأشرفُها وأكرمُها ، وهم صفوةُ الخلق ، لم يَصدر عنهم إلا ما فيه مرضاةُ الرب ، وما يُوافق لما شرعه لهم ، أو خصَّهم به لحكمةٍ ربانيةٍ فيها الخيرُ والصلاح .

لذا نُهى أهلُ الإيمان عن صدور ما يُشعرُ بنقص فى حق الصفوةِ الذين هم رسلُ اللّٰه وأنبياؤه ، الذين هم أتمُّ الناس خَلْقًا ، وأحسنهم خُلقًا ولنتدبر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ . [الأحزاب : ٦٩] .

فقد رموهُ بما لا يليق فوبَّخهم ربُّ العالمين ، ونهى عن التشبه بهم فى سوء فعالهم ، فموسى عليه السلام كإخوانه المرسلين ، عبدٌ ربانىٌّ معصومٌ مما لا يليق بمقام الرسالة ، وطهارة النبوة ، وفطنةِ المرسلين ، وتمام الرجولة وسلامة البنية .

وفى هذا السياق كان علىُّ بنُ أبى طالب رضى اللّٰه عنه يقولِ عن داود عليه السلام : « من حدَّث بحديث داود على ما يرويه القُصَّاصُ جلدتُه مائةً وستين » .

أى : من تلك القصص التى نسبها إليه أربابُ البدع والأهواء من بنى إسرائيل ، وأقحموها على كُتبهم ، ومنها ما تسرَّب - فيما بعد - إلى بعض كتبِ التفسير ، ولكنَّ العلماءَ بيَّنوا ما فيها من زَيف وكذِب ، ومنها قولُهم إن داودَ أرسل « أوريا » إلى الجهاد مرارًا ، وأمر أن يُقدَّم حتى يُقتل لغرض فى نفسه نحو أهلِه « أى ليتزوج امرأته » فمثلُ هذه القصة من نسج الخيال وفيها افتراءٌ على نبىٍّ طاهرٍ أحبَّ اللّٰه ، وأحبه اللّٰه ، وكان من أزهد الناس وأعبدهم لله .

العصمة من الأمراض المنفِّرة :

وكما عصمهم اللّٰه من العيوب البدنيةِ والأخلاقيةِ ، والنفسية ، فقد

عصمهم من الأمراض المنقّرة ونحوها ، ومن الأدلة على ذلك أن العباسَ رضى اللّه عنه لما تحدَّث عن « ذات الجنب » أى القُرحة التى تُصيب المرءَ داخلَ جنبِه ، والرسولُ ﷺ فى مرضِ موتِه ، قال عليه السلامُ لهم : « إنَّ ذلك لداءٌ ما كان اللّه عزَّ وجلَّ ليقذفنى به » . [رواه أسامة بن زيد / سيرة ابن هشام] .

الأدب الواجب :

هذا وغيرُه يوجب على العاقل ذى اليقين الصادق إذا تحدَّث عن نبىٍّ أن يلزمَ حدودَ الأدب ، واللفظَ اللائقَ ، مع التوقير والاحترام ، وأن يتحاشى الخوضَ فى صفةٍ لا تليق بمقام النبوةِ ، وأن يبتعدَ عن الكذب مُجتنبًا طرفَى الإفراطِ والتفريط .

ونحن نجدُ هذا التأديبَ للعباد فى مثل قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ ﴾ . [النور : ٦٣] .

أى : لا تدعوه باسمه مُجرَّدًا كما يدعو بعضكم بعضًا ، بل ادعوه بالنبوة والرسالة : يا نبىَّ اللّه ، يا رسول اللّه .

وفى قوله : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ . [الفتح : ٨، ٩] .

فالتسبيح لله وحده ، أمَّا التعزيرُ والتوقيرُ فيمكن إرجاعهما إلى الرسول ﷺ[1] : أى لتنصروا دينه ، وتحترموه مع التعظيم والإجلال لمقام النبوة ورعاية الأدبِ الواجبِ مع النبى ﷺ وطاعته .

خاتم الرسل وأمته :

لقد بعث اللّه نبيه محمدًا ﷺ شاهدًا لله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره

(١) وعند رعاية هذا المعنى فى التلاوة يوقف عند « وتوقّروه » ثم يستأنف من « وتسبحوه »

وشاهدًا على الناس بأعمالهم يوم القيامة .

وبعثه بشيرًا للمؤمنين بالثواب والنعيم ، ونذيرًا ومخوفًا للملحدين بالعذاب المقيم .

بعثه ربه داعيًا إلى توحيد اللّه وعبادته وحده وإلى نبذ الأصنام والأنداد وكلّ ما يُعبد من دون اللّه ، فهو ﷺ سراجٌ منير بالقرآن ، وجعل اللّه أمره ظاهرًا بالحجة والبرهان كالشمس في إشراقها وصفائها .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾ .

[الأحزاب : ٤٥ - ٤٧] .

إنه أشرفُ الخلق ، وإن نفسه لأزكى النفوس وأطهرُها ، وأطيبُها ، وأعزُّها .

إنها نفسُ أعلم الناس باللّه ، وأتقاهم لله ، وأخشاهم له ؛ وأعظمهُم ثقةً باللّه وتوكلًا عليه .

إنه أغنى الناس باللّه ، وأصدقُهم ، وأبرُّهم ، وأعبدُهم لمولاه وأرضاهم عن اللّه ، وقد رضى اللّه عنه ، فلم يغضب عليه أبدًا ، كما أنه لم يُغضب ربّه أبدًا ، حتى لحِق بالرفيق الأعلى .

ناداه ربُّه باسم النبوة والرسالةِ تشريفًا وتكريمًا لعبدٍ كان أشدَّ الناس تواضعًا لربه ، وتأديبًا للعباد حين يتحدثون عنه ﷺ .

من المزايا والمواهب العظام :

وهب اللّه نبيَّه محمدًا ﷺ كلَّ خُلق كريم ، وجعل السكينةَ لباسَهُ ، والبرَّ شِعاره ، والتقوى ضميره ، وجعل الحكمةَ مَنطِقَه ، والصدقَ والوفاء طبيعتَه والعفوَ

والـمعروف شيـمته .

جعل اللّه الحقَّ شريعته ، والعدلَ سيرتَه ، والرحمةَ سجيتَه ، والهُدى إمامَه ، والإسلامَ ملتَه .

هدى به اللّه من الضلالة ، جمع به القلوبَ بعد الفُرقة ، وألَّف به بين أمـم مُتفرقةٍ وقلوبٍ كانت مُختلفة ، فصاروا بفضل اللّه إخوانًا .

وأمتُه مرحومةٌ :

وجعل اللّه أمتَه خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس : يأمرون بالـمعروف ويَنْهَوْن عن الـمنكر ، يتواصَوْن بالحق وبالصبر ، مُصدِّقين لـما جاءت به جميعُ الرسل وبما أنزل اللّه عليهم من الكتب .

إنها أمةُ التسبيح والتحميدِ والتكبير والتوحيدِ والثناء ، لا يفتُرون عن ذلك فى مساجدهم ، وفى مجالسهم ، ومضاجعهم ، ومنقلَبهم ، ومثواهم ، يُصلُّون قيامًا وقُعودًا ، ويُقاتلون فى سبيل اللّه ، ويُطهِّرون الأطرافَ والوجوة ، وهم الغُرُّ الـمُحجَّلون يومَ الدين ، من آثار الوضوء .

إنها الأمةُ الـمرحومةُ ، الأمةُ الـمنصورة ، بفضل اللّه ، يَهْـدون بالحق وبه يَعدِلون ، يُقيـمون الصلاة ، ويُؤتون الزكاة ، ويُوفون بالعهد .

يرحمون الضعيف ، ويُحسنون إلى الـمسكين ، ويُوَقِّرونَ الكبير ، ويبرُّون الآباء ، ويجتمعون على وليِّ الأمر فى الـمعروف ، متناصحين ، متعاونين على البرِّ والتقوى ، مُتواضعين ، حُلـماء ، أمناء ، صادقين .

أخذوا عن نبيهم محاسنَ الآداب ، ومكارم الأخلاق ، فكانوا أمةَ الرحمةِ والرفقِ ، والعفو والإحسان والأُلفة والـمحبة .

قال تعالى فى الثناء على هذه الأمة : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ

بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ . [آل عمران : ١١٠] .

وقال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ . [البقرة : ١٤٣] .

وفى تشريف خاتم الرسل يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ ﴾ . [الفتح : ١٠] .

وتشريف أصحابه :

وفى الثناء على أصحابه لما بدا منهم من الإخلاص له والمحبة والتفانى فى الطاعة يقول سبحانه : ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ . أى : من الإخلاص والطاعة والرغبة فى إعلاء كلمة الله : ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ . [الفتح : ١٨] .

وفى الثناء عليه ﷺ وعلى أصحابه الأطهار الأبرار أهل الصلاة والرحمة والطاعة والشدة فى الله جاء قوله سبحانه : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ ﴾ .

[الفتح : ٢٩] .

إنها أمة الأمم ، وصاحبةُ السيف والقلم ، وبعدلها وعلمها انقشعت الظُّلم ، وبرحمتها وبرِّها وسخائها كان الخيرُ الأعمُّ ، وبحلمهم ووقارهم وصدق إيمانهم سكنت الفتن ، وركدت ريحُ الشرِّ والإحن ، ورفرفت رايةُ الخير ، وارتفع منارُ الهداية والأمن : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ . [الأنعام : ٨٢] .

* * *

(٢) القرآن العظيم

نورُ المسلم وشفاءُ قلبه

قال الله تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ . [المائدة : ١٥ ، ١٦] .

إنه كلامُ رب العالمين ، نورٌ وهدايةٌ ، أعجزَ الخلقَ لفظُه الوضَّاءُ ، نزل به الروحُ الأمينُ ، على قلب خاتم المرسلين والنبيِّين بلسان عربيٍّ مبين : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ . [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥] .

إنه أشرف الكلام ، وأجملُه ، وأعظمُه .

إنه أحلى الكلام ، وأفصحُه ، وأنفعُه .

إنه خيرُ الكلام ، وأزكاه ، وأشدُّه تأثيرًا وأطهرُه .

إنه آخرُ كتابٍ أُنزِل وآخرُ وحيٍ بُلِّغ ، ولا كتابَ بعده ، ولا نبيَّ بعد النبي محمد ﷺ .

وقد وصفه اللّه ربُّنا بما يقتضى حُسنه ، ويوضِّح جلالَته ، وكثرةَ خيره وعظمَ منافعِه فقال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ . [الواقعة : ٧٧] .

أى : إنه البهيُّ ، الكثيرُ البركة ، العظيمُ النفع ، ولفظُ الكريم : اسمٌ جامعٌ لما يُحمد ، وقد وصف اللّه عز وجل نفسه بالكرم ، ووصف به

كلامَه ووصف به عرشه .

شفاء وهداية :

أنزل سبحانه القرآن : فيه النورُ ، وفيه الهُدى والرشادُ ، وفيه البيانُ والعلمُ وفيه الحكمةُ والموعظةُ الحسنة ، وفيه الشفاءُ لما في الصدور من الشُّبهات المضلَّة ، ومن الشهوات التى تُفسد على الإنسان حياتَه ، ومن الآفات القلبيةِ المهلكةِ كالحسد ، والغلِّ ، والحقد ، من عاش مع القرآن مخلِصًا وتدبَّر معانيَه ، وتفكر فى حِكَمه ، وتفهَّم أمثاله وأحكامه ، وجد حلاوةَ ذلك فى قلبه ، وانقشعت كلُّ ظلمةٍ للباطل أو الشرِّ والسوءِ من نفسه ، فعاش فى رحمة ونعمةٍ ملتزمًا الخير ، مجتنبًا الشر ، ولنتدبر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . [يونس : ٥٧] .

وفى الحديث الذى رواه ابن عباس رضى اللّٰه عنهما : « من اتَّبَعَ كتابَ اللّٰه هداه اللّٰه من الضلالة ، ووقاه سُوء الحساب يومَ القيامة » . وذلك أن اللّٰه عز وجل يقول : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ . [طه : ١٢٣] .

حياة القلوب :

إن الغيثَ ينزلُ على الأرض الميتةِ فيُحييها ، وتُعطى أطيبَ الثمرات وأجملَ الخيرات .

وإن كلام اللّٰه كالغيث للنفوس ، وإن القلوب تموت بالكفر وبالضلال وبالشبهات ، وبالأحقاد والضغائن ، فمن آمن بالقرآن ، وأحبَّه ، وتدبره أحيا اللّٰه قلبه ، وزالت أوهامُ الباطل والضلال عن نفسه ولنتدبر : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ . [الأنعام : ١٢٢] .

قال جبير بنُ مطعم رضى اللّه عنه : سمعتُ رسول اللّه ﷺ - أى قبل إسلامه - يقرأ فى المغرب بالطور ، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا منه فلما سمعته قرأ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) ﴾ .

[الطور : ٣٥ - ٣٧] .

قال جبير : « خِلْتُ أن فؤادى قد انصَدَعَ » وفى رواية « كاد قلبى أن يطير » وكان ذلك سببًا فى إقباله على الإسلام وتفكُّره فى ترك معاداة رسولِ اللّه ﷺ ، فقد وَقَرَ الإسلامُ فى قلبه بفضل تأثير القرآن ، وتلاوةِ الرسول ﷺ .

لهذا يوصَى أهلُ القرآن بالوقار والخشوع ، ومن وصية أهل العلم : أحسنُ القراءات ما كان عن خشوع من القلب ، وأحسنُ الناسِ صوتًا بالقرآن أخشاهم لله .

تلاوة القرآن وتدبُّره :

إن أنفع الأوقات هى التى يقضيها المؤمنُ مع كتاب اللّه عز وجل ، وإن القلبَ الخالىَ من القرآن كالقَبر الموحش أو كالبيت الخرب ، وفى الحديث عند الترمذى والحاكم : « إنَّ الذى ليس فى جوفه شىءٌ من القرآن كالبيت الخرب » . قال الترمذى : حديث حسنٌ صحيح . [رواه ابن عباس] .

وإن من حاز القرآن عِلمًا وعملاً فقد حاز أعظم النّعم ، وأشرف المعانى وإن النفسَ المحرومة من قراءة القرآن لهى محرومة من أجلِّ البركات وأعظم الخيراتِ ، وإن صاحبَ القرآنِ فى غنى لا فقر معه ، ومن كان معه القرآن وفى صدره آياتُه ، وفى نفسه نورُه ، وظنَّ أن أحدًا أُعطىَ أفضلَ ممَّا أُعطى ، فقد صغَّر ما عَظَّم اللّه ، وعظَّم ما صغَّر اللّه .

خيره عام فى الدنيا والآخرة :

إن مُتَّبع القرآن يهديه اللّٰه فى دنياه إلى كل خير وصلاح ، ويوفقه للأسباب التى تؤدِّيه إلى ما يُرضى ربَّه ؛ فيفوز فى الآخرة برحمة اللّٰه ورضوانه .

يقول ابن مسعود كما عند أبى بكر البزار : « إن هذا القرآن شافعٌ مشفَّع من اتَّبعه قاده إلى الجنة ، ومن تركَه أو أعرض عنه دُعَّ فى قفاه إلى النار » .

فطوبى لأهل القرآن الذين يقومون به بالليل والنهار ، وهذه بشرى نبويةٌ يرويها أبو أمامةَ يقول : سمعتُ رسول اللّٰه ﷺ يقول : « اقرءوا القرآن فإنه يأتى - أى يومَ القيامةِ - شفيعًا لأصحابه » .

وإن مجلس قارئ القرآن مجلسٌ مباركٌ تحضره ملائكةُ الرحمن ، وفى الحديث الذى روته عائشة : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهرٌ به مع السَّفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتعُ فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران » أى أجرُ القراءةِ ، وأجرُ المشقَّة والمثابرة حتى يُتقن القراءة . [متفق عليه] .

والماهر به : هو الذى صبر حتى أجاد تلاوتَه وإخراجَ حروفه من مخارجها صحيحةً سليمة ، والمتتعتعُ : هو المثابرُ على التلاوة وعلى الحفظ ، المداوم حتى يصلَ إلى درجة الإجادة ، ولذا يُنصحُ قارئُ القرآن بضرورة التلقِّى عن ماهرِ بالقرآن ، فقد تلقَّى القرآنَ كابرٌ عن كابرِ من أهله ولا يُكْتفَى بالحفظ من المصحف دون الرجوع إلى قارئٍ مُجيدٍ للتلقِّى والتدرُّب ، أو ليُعانَ على صحة النُّطق وسلامةِ الأداء .

إن أهلَ القرآن الذين نوَّر اللّٰه بصائرهم لإخلاصهم لكلام اللّٰه وحُبِّهم له يرفعُ اللّٰه أقدارهم بفضله وإحسانه ، ويجعل الإكرامَ لهم فى النفوس وفى الحديث الذى رواه عمر رضى اللّٰه عنه وأخرجه مسلم : « إن اللّٰه يرفعُ بهذا القرآنِ أقوامًا ،

ويضعُ به آخرين » .

من فضل التلاوة والحفظ :

ويقال لقارئ القرآن يوم القيامة : « اقرأ ورتِّل كما كنت ترتِّل فى الدنيا فإنَّ منزلتك عند آخرِ آيةٍ تقرؤها » . [أخرجه أبو داود والترمذى والراوى عبد الله بن عمرو] .

وفى منزلة الحافظ والمتعلم يقول الرسول ﷺ : « خيرُكم من تعلَّم القرآنَ وعلَّمه » . [أخرجه البخارى / عثمان بن عفان] .

وإن سورةَ البقرةِ وآلِ عمران تُحاجَّان عن صاحبهما يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلَّا من أتى اللَّه بقلب سليم .

فعند مسلم عن النواس بن سمعان أن رسول اللَّه ﷺ قال : « يؤتى يومَ القيامة بالقرآن وأهلِهِ الذين كانوا يعملون به فى الدنيا تقدُمُه سورةُ البقرة وآلِ عمران تُحاجَّان عن صاحبهما » .

قال بعض العلماء : هذا القرآنُ رسائلُ أتتنا من قبل ربِّنا عز وجل بعهوده : نتدبرها فى الصلوات ونقف عليها فى الخلوات ، وننُفذها فى الطاعات والسُّنن المتَّبعات .

الكتاب العزيز :

إنه كلامُ ربِّنا حقًّا وصدقًا ، وقد عظَّم اللَّه شأنه ، وأمر عباده بتوقيره وتوقير مجالسه ، وإحلاله المحلَّ اللائقَ به فى القلوب والنفوس .

إنه الكتابُ الذى نزل من ربٍّ عزيزٍ ، على عبدٍ عزيزٍ ، ونزل به ملكٌ عزيزٌ ، فى شأن صلاح أمةٍ عزيزة : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ . [فصلت : ٤١ ، ٤٢] .

وفى الحديث : « إن لله أهلين من الناس ، قيل : مَن هُم يا رسولَ اللّه ؟ قال : أهلُ القرآن ، هم أهلُ اللّه وخاصَّتُه » . [مسند أحمد والنسائى والراوى أنس] .

* * *

من التوجيهات النبوية الشريفة :

- شكا إليه صحابيٌّ قسوةَ قلبه فقال له ﷺ : « إذا أردتَ أن يَلِينَ قلبُك : فأطْعِمْ المسكينَ ، وامسَحْ رأسَ اليتيم » . [أخرجه الطبرانى والبيهقى عن أبى هريرة] .

- وسأله ﷺ عقبةُ بن عامر عن فواضل الأعمال ؟ فقال : يا عقبةُ « صِلْ مَنْ قَطعك ، وأعطِ مَن حرَمكَ ، وأعْرِضْ عمَّن ظَلمك » .

[أخرجه أحمد والهيثمى فى مجمع الزوائد والطبرى] .

* * *

(٣) حياةُ القلب بذكرِ الله

عن أبى موسى رضى اللّه عنه ، قال : قال لى رسول اللّه ﷺ : « ألا أدلُّك على كنزٍ من كنوز الجنة ؟ قلتُ : بلى يا رسول اللّه ، قال : لا حول ولا قوةَ إلا باللّه » . [متفق عليه] .

وعن جابر رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « أفضلُ الذكرِ لا إله إلا اللّه ، وأفضلُ الدعاء الحمد لله » .

[أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن] .

إن ذكر اللّه عزَّ وجلَّ يُحيى القلوب ، ويُنعش النفوسَ بالخير ، ويهذب الضمائر ، ويُوقظ الوازعَ فى قلب المؤمن ، فيردعه خوفُه من اللّه عن الشر والسوء ، ويبعثه رجاؤه فى رحمة اللّه إلى الطمع فى مغفرته وإحسانه ، ويدفعه ذلك إلى المداومة على الطاعات والازديادِ من أعمال البرِّ والمروءاتِ ؛ لذا جاء تمثيلُ الذاكرِ بالحى والغافلِ بالميت ، وإن الحياةَ حقيقةً هى حياةُ القلبِ الذى هذَّبه صِدقُ اليقين والمداومةُ على التهليل والتكبير والتسبيح والتحميدِ والتمجيد ، قال رسول اللّه ﷺ : « مَثلُ الذى يذكرُ ربَّه والذى لايذكرُ مَثلُ الحيِّ والميت » . [أخرجه البخارى ورواه أبو موسى] .

وجاء عند مسلم بلفظ : « مَثلُ البيتِ الذى يُذكرُ اللّه فيه ، والبيتِ الذى لا يُذكر فيه مَثلُ الحيِّ والميت » .

ذلك أن الأماكنَ التى يُذكر اللّه فيها تحضرها الملائكة ، وتتنزَّل عليها رحمةُ اللّه وتغشى نفوسَ أصحابها السكينةُ ، وتملأ قلوبَهم الطمأنينةُ ، ذلك أن ذاكر اللّه : يرضى بقضائه ، ويؤمن بلقائه ، ويقنعُ بعطائه ، فهو ساكنُ النفس أبدًا

بفضل اللّه وإحسانه : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨].

ميدان عظيم للتنافس :

وذكرُ اللّه عزَّ وجلَّ من أعظم مجالاتِ التنافس فى طاعة اللّه ، والترقِّى فى مدارج الولايةِ والقربِ من اللّه ، والذاكرون أحياءُ القلوب هم السابقون المفرِّدون الذين يحظَون برحمةٍ من اللّه ورضوان ، وينعمون بمجالسة ملائكةِ الرحمةِ بفضل اللّه وإحسانه .

قال أبو هريرة رضى اللّه عنه ، قال رسول اللّه ﷺ : « سبق المفرِّدون » قالوا : وما المفرِّدون يا رسول اللّه ؟ قال : « الذاكرون اللّه كثيرًا والذاكراتُ » .

[أخرجه مسلم والترمذى وهو حديث صحيح] .

والمفرِّدون : هم أهلُ السَّبق ، المشتهرون بذكر اللّه عزَّ وجلَّ ، يضع عنهم الذِّكر أثقالَهم فيأتون يوم القيامة خفافًا .

وكأن اشتغالهم بالذِّكر أفردَهم عن غيرهم بهذه الميزة ، وبذلك الشرفِ العظيم .

وإن ذاكرَ اللّه عزَّ وجلَّ بصدق وحُسن مراقبة : يلهج لسانُه بالذِّكر والدعاءِ دومًا ، ويخشع قلبُه ووجدانُه فيذكره ربُّه فى الملأ الأعلى بثوابه وإحسانه إليه والثناءِ عليه ، قال تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ .

[البقرة : ١٥٢] .

وفى الحديث القدسى الذى رواه أبو هريرة يقول اللّه عزَّ وجلَّ : « أنا عند ظنِّ عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرتُه فى ملأ خيرٍ منه » . [متفق عليه] .

فهو مع عبده برحمته ورضوانِه ومعونتِه إذا اعتصم به ، واستحضر عظمتَه فى قلبه ووحَّده ومجَّده .

من أعظم أسباب العفو :

وإن مداومةَ العبدِ على التسبيح وتمجيدِ اللَّه عزَّ وجلَّ وتعظيمه لـمن أعظم أسبابِ الـمغفرة والرضوان ، روى عبدُ اللَّه بن بُسر أن رجلاً قال : يا رسولَ اللَّه ، إن شرائعَ الإسلام قد كثُرت عليَّ ، فأخبرنى بشىء أتشبَّثُ به ، قال : « لا يزالُ لسانُك رطبًا من ذكر اللَّه » . [أخرجه أحمد والترمذى وقال : حديث حسن غريب] .

أى إن التشبث بالطاعة وملازمةَ ذكرِ اللَّه عزَّ وجلَّ بعد أداء الفرائض وكفِّ الجوارح عن معاصى اللَّه لـمن أعظم القُربات التى بها يُنال ما عند اللَّه من الرحمة والعفو والرضوان ، وأتشبَّث به : أى : أتعلق به .

محبة اللَّه زادُ الـمؤمن إلى رحمة اللَّه :

وإن ذكرَ اللَّه لـمن أقوى الأسباب الـموصلة إلى محبة اللَّه عزَّ وجلَّ وبه يُنال ما عند اللَّه من الرحمة ، وقد جاء فى صحيح ابن حبان وغيره أن معاذ بن جبل قال : « إن آخرَ كلام فارقتُ عليه رسول اللَّه ﷺ أن قلتُ : أىُّ الأعمالِ أحبُّ إلى اللَّه ؟ قال : أن تموتَ ولسانُك رطبٌ من ذكر اللَّه » .

ذكر اللَّه فى كل آن وحال :

وكان النبى ﷺ يذكر اللَّه على كل أحيانه لا يفترُ عن ذلك أبدًا ، عند الطعام ، وعند الشراب ، وعند النوم ، وعند اليقظة ، وعند الخروج من الـمنزل ، والدخول إليه وفى غير ذلك من الأحوال ، وكان من دعائه الذى أوصى به معاذ ابنَ جبل : « اللَّهم أعنِّى على ذِكرك وشُكرك وحُسنِ عبادتك » [ذكره ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر وبعض أصحاب السنن] ، وفيه الإقرار بأنه لا توفيق لطاعة إلا بمعونة اللَّه ومشيئته ، فالأمر بيده وحده .

الغفلة حسرة :

وقد جاء عند الطبرانى والبيهقى عن معاذ : « ليس يتحسَّرُ أهلُ الجنةِ إلا على ساعةٍ مَرَّتْ بهم لم يذكروا اللّه تعالى فيها » .

وإن أفضلَ المجالس مجالسُ الذكر ، أى المجالس التى يُتلى فيها القرآنُ وتفسَّر فيها آياتُه ، وتُتدارس فيها السنةُ ، ويُوعظ الناسُ فيها ويتعلمون ما ينفعهم فى أمور دينهم ودنياهم ، وفيها جاء عن أبى هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « لا يقعدُ قومٌ يذكرون اللّه إلا حفَّتهم الملائكةُ ، وغَشِيَتْهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينةُ ، وذَكَرهم اللّهُ فيمن عنده » .

[عند مسلم والترمذى وابن ماجه ورواه أبو سعيد أيضًا] .

قدوة وتوجيهات :

وكان رسول اللّه ﷺ يقول إذا أراد القيام عن المجلس : « سبحانك اللّهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوبُ إليك » وأخبرَ أنه كفارةٌ لِمَا يكون فى المجلس . [أخرجه أبو داود ورواه أبو برزة الأسلمى] .

وجاء مثله عن عائشة رضى اللّه عنها إلا أن فيه : « أو صلَّى تكلَّم بكلمات » أى يقول ذلك فى ختام المجلس وعقبَ الصلاة . [عند ابن أبى الدنيا والنسائى] .

من آداب الذاكرين :

وذاكرُ اللّه ينبغى له حضورُ القلب مع الخشوع وخفض الصوتِ واللّه عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ . [الأعراف : ٢٠٥] .

ويقول : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

[الأعراف : ٥٥] .

فهذا من لوازم العبادة ، وذكرُ اللّه من أفضل العباداتِ ومن آدابه التضرعُ وخفتُ الصوتِ بحيث لا يُسمعُ إلا نفسَه مع السكينة والوقار .

أذكار فضلها عظيم :

ومن أفضل ما ينطق به اللسان قول : « لا إله إلا اللّهُ محمدٌ رسول اللّه » ومن شهد به عن يقين وصِدْقٍ وانقياد حرَّم اللّه عليه النار .

[كما جاء عن عبادة بن الصامت عند مسلم والترمذى وعن أنس فى الصحيحين مثله مع زيادة] .

وفى الحديث الذى رواه زيد بن أرقم : « من قال لا إله إلا اللّهُ مخلصًا دخل الجنة ، قيل : وما إخلاصُها ؟ قال : أن تحجزَه عن محارم اللّه » .

[الطبرانى فى الأوسط والكبير] .

وعن أبى هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « جَدِّدوا إيمانكم ، قيل : يا رسول اللّه ، وكيف نجددُ إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول : لا إله إلا اللّه » .

[أخرجه أحمد والطبرانى وإسناد أحمد حسن] .

وفى الحديث الذى رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : « خيرُ الدعاء دعاءُ يوم عرفة ، وخيرُ ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا اللّهُ وحده لا شريكَ له ، له الملكُ وله الحمدُ ، وهو على كل شىء قدير » .

[أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب] .

وفى الحديث : « أفضل الكلام : سبحان اللّهِ ، والحمدُ لله ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر » . وفى رواية سَمُرةَ بنِ جُندب : « أحبُّ الكلام إلى اللّه أربع : سبحان اللّه ، والحمدُ لله ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، لا يضرُّك بأيتهنَّ بدأت » .

[أخرجه مسلم وابن ماجه والنسائى وزاد : وهن من القرآن] .

وهذه الكلماتُ غِراسُ الجنة كما فى حديث أبى هريرة عند ابن ماجه والحاكم ، فطوبى لـمن داوم عليها مع حضور القلب والسكينة لأنها من الباقيات الصالحات التى هى خير من الدنيا وما فيها .

وعند البخارى : « كلـمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الـميزان حبيبتان إلى الرحمن : سُبحانَ اللّهِ وبحمده ، سبحان اللّه العظيـم » ومن كنوز الجنة قولنا : « لا حول ولا قوةَ إلا باللّه » .

[رواه أبو ذر وأخرجه ابن ماجه وابن أبى الدنيا ، وابن حبان] .

* * *

« سبحان ربِّى الأعلى » وبُشرى للمصلِّين والمُسبِّحين .

يُروى أن : أولَ من قال سبحان ربى الأعلى ميكائيل عليه السلام .

وفى الحديث : قال رسول اللّه ﷺ : « يا جبريلُ أخبرنى بثواب من قال : « سبحان ربى الأعلى » فى صلاته أو فى غير صلاته .

فقال : جبريل : يا محمدُ ما من مؤمنٍ ولا مؤمنةٍ يقولها فى سجوده أو فى غير سجوده إلا كانت له فى ميزانه أثقلَ من العرش والكرسى وجبالِ الدنيا ، ويقول اللّه عزَّ وجلَّ : « صدق عبدى أنا فوق كلِّ شىء وليس فوقى شىء اشْهَدُوا يا ملائكتى أنى قد غفرتُ له ، وأدخلته الجنة ، فإذا مات زاره ميكائيلُ كلَّ يوم ، فإذا كان يومُ القيامة حمله على جناحه فأوقفه بين يدى اللّه تعالى ، فيقول : يا ربِّ ، شفِّعنى فيه فيقول : شفعتُك فيه فاذهب به إلى الجنة » .

ومعنى التسبيح : تعظيـمُ اللّه وتنزيههُ عن السُّوء وَعمَّا يقول فيه الـمُلحدون . وسبحان ربى الأعلى : أى أُنزِّهُ ربى عن صفات الـمخلوقين ، وأن كلَّ ما خَطر

بيالِكَ فهو سبحانه بخلاف ذلك ، وأنه سبحانه كما جاء فى الحديث القدسى : « أنا فوق كلِّ شىءٍ وليس فوقى شىء » . وهو سبحانه له كلُّ صفاتِ الكمال وكلُّ نعوتِ الجلال .

ولذا كان من تمام التسبيح أن يُسبِّحه المؤمنُ وهو خاشعٌ حاضرُ القلب مفكرٌ فى عظمته وقدرته ، وجبروتِه ورحمته ، ومن تعظيمه سبحانه ألَّا يُسمَّى أحدٌ باسمه « اللَّه » ولا باسمه « الرحمن » وأن يتأدب المؤمنُ عند ذكره سبحانه وتعالى ، فاللَّهم اجعلنا من المسبحين المقبولين .

سُئل رسولُ اللَّه ﷺ عن خير الأعمال وأزكاها عند اللَّه وأرفعها فى الدرجات ؟ فقال : « ذِكرُ اللَّه » .

[أخرجه أحمد والترمذى وابن ماجه من حديث أبى الدرداء] .

فاذكروا اللَّه ذكرًا كثيرًا ، وسبحوه بكرة وأصيلاً ، واستحضروا عظمته وخشيته فى القلوب دومًا .

* * *

(٤) حُسنُ التوكُّل على الله
من أعظم أسباب السعادة

قال الله عز وجل لنبيه : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ .

[الفرقان : ٥٨] .

إن اللّه عز وجل هو مالك أمورنا ، ولا يقع فى الكون إلا ما يُريدُه سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه حيٌّ دائم لا يموت ، وجميعُ خَلْقه يموتون .

وإن المسلم يستعين باللّه فى كل أموره ، ويتوكَّلُ عليه فى كل شئونه ويطلب منه دومًا إنجاحَ المقاصد ، وتحقيقَ الآمال ، مع الأخذ بالأسباب الصحيحة التى جعلها اللّه وسائلَ للوصول إلى المراد منها إذا أراد اللّه .

وقد أخذ رسولُ اللّه ﷺ بالأسباب ، وهو خير المتوكّلين على اللّه وقدوتُهم ، فأكل الطعام ، ومشى فى الأسواق ، وأعدَّ العُدَّة ، ورتَّب الصفوف وأخذ لكل شىء أُهْبته ، مع حسن توكُّله على ربه ، وتفويضِ أمورِه كلِّها إليه سبحانه ، مع الإلحاحِ على اللّه بالدعاء يطلب التوفيق والسداد .

إن المسلم يثق بربه ، ويطمعُ فيما عنده من الرحمة ، ويؤمن بقضائه وقَدَرِه ، ويُوقن بأن قضاءه ماضٍ ، وأن ما شاء اللّه كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يكون ، كما يعتقد المسلمُ أن السعى فى الأسباب بالجوارح واتّخاذ الحرفِ والمِهن طاعةٌ لله عز وجل ، لأنه سبحانه هو خالق الأسبابِ والمسبَّبات ويؤازر هذه الطاعةَ التوكلُ بالقلب على اللّه ، إذ إن التوكل إيمانٌ به سبحانه وبكمال علمه ، وكمالِ قدرته ، وكمال حكمته وتدبيره ، وإيمانٌ بأن الثمرة المرجوّة لا يمكن الوصولُ إليها إلا إذا أراد اللّه ذلك ، مهما سلكنا إليها من سبيل ، واتخذنا

من الأدوات والأسباب ، قال الله عز وجل لنبيه بعد أن أيّده بنصره فى غزوة بدر الكبرى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ . [الأنفال : ١٧] .

نعم : فالنصرُ منه وحده ، والتوفيقُ منه وحده ، ولا تُجدى الأسباب نفعًا إلا بمشيئته وقدرته سبحانه وتعالى .

وفى بيان معنى التوكل قال رسول الله ﷺ فى الحديث الذى رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لو أنكم توكلتم على الله حقَّ توكُّله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خِمَاصًا ، وتَروح بِطانًا » . [أخرجه أحمد والترمذى وغيرهما] .

فانظر إلى قدرة الخالق وكمال حكمته : فقد جعل فى غريزة الطير أن تنهضَ ساعيةً مبكِّرةً ، وتتحرك هنا وهناك طلبًا للرزق ، وجلبًا للقوت .

والمقصود ضربُ المثَل بأن فى خروج الطير أخذًا بالأسباب التى تُمَكِّنها من الحصول على غذائها وغذاءِ أفراخِها ممَّا قدَّره الله لها ، وأوجده بفضله وإحسانه ومكَّنها منه ، ولذا كان رسول الله عيسى ابنُ مريم عليه السلام يقول : « ابنَ آدم حرِّك يدَك تُرزق » . وفى كتاب الله عز وجل : ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ . [الملك : ١٥] .

وقال الله لنبيه : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . وقال سبحانه فى حث العباد على السعى بعد أداء الفريضة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ . [الجمعة : ١٠] .

وفى الحث على العمل وبذْلِ الجهد حتى وإن كانت نتائجُه وعواقبه بطيئة ويؤتى ثِمارَهُ بعد زمن كغرس الأشجار ، وحَفْر الأنهار قال ﷺ : « إن قامت الساعةُ وفى يد أحدِكم فسيلةٌ – أى نخلة صغيرة – فإن استطاع ألا تقومَ حتى يغرسَها فليغرسها » . [رواه أنس وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد] .

ومعناه أن المؤمن ينبغى له ألّا يُضيِّعَ أدنى فرصة يجدها للعمل الحسن النافع حتى ولو انتفع به غيره ، فالذين مضَوا بَنَوْا وزرَعُوا وانتفعنا نحن بثمرات جهودهم وعلينا أن نعمل فى أيامنا حتى ينتفع الذين يجيئون بعدنا ، وبذلك تبقى الدارُ الأولى عامرةً إلى أن يشاء الله عز وجل .

إن التوكل على الله عز وجل فيه الخيرُ والبركة ، وفيه سلامةُ النفس وطمأنينتها ، إذ التوكلُ يقتضى الرضا بما قسمه الله وقدَّره مع حَمْدِ اللهِ وشُكرِهِ على كل حال ، وإن حُسنَ التوكل يحمى الإنسانَ من الهلع والجزع .

قال ابن عباس رضى الله عنه : « من سرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكَّل على الله » . [رواه محمد بن كعب وأخرجه ابن أبى الدنيا] .

ولقد كان من دعاء الأنبياء : « حسبُنا الله ونعم الوكيل » . فأطمأنت قلوبهم ، وسكنت نفوسُهم لقضاء الله فيهم ، راضين مستبشرين ، فحفظهم سبحانه بفضله ، وكبتَ أعداءهم ، وفازوا بالحسنيين .

ومن بركات حُسن التوكلِ على الله ما جاء فى الحديث الذى رواه عثمان ابنُ عفان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من خرج من بيته يريد سفرًا ، فقال : « بسم الله ، آمنتُ بالله ، واعتصمتُ بالله ، وتوكلتُ على الله ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله ، رُزق خيرَ ذلك المَخْرج وصُرِف عنه شرُّه » .

[كتاب التوكل لابن أبى الدنيا] .

أى : يسَّر الله له الخير ، ووقاه السوء ، وحفظه بفضله وإحسانه .

لا تواكُل ولا بِطالة :

وكما دعا الإسلام إلى تعاطِى الأسبابِ التى جعلها الله عز وجل وسيلة للمقصود ، مع حُسن التوكل على الله ، والإيمانِ بأن التوفيق بمشيئته وحده

يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فإنه نهى عن التواكل ، وكَره للمسلمين البطالةَ والكسل ، وجعل السعى على المعاش كالجهاد فى سبيل اللّه ، وقد جاء فى الحديث : « إن اللّه يُحبُّ المؤمن المحترف » . [رواه ابن عمر وأخرجه الطبرانى والبيهقى] .

وفى الحديث الذى روته عائشة : « من أمسى كالًّا من عمل يده ، أمسى مغفورًا له » . [لفظ الطبرانى] .

وجاء عند الترمذى عن أنس رضى اللّه عنه : أن رجلاً جاء إلى رسول اللّه ﷺ فقال : يا رسول اللّه : أعقِلُ ناقتى وأتوكَّل ، أو أُطلقُها وأتوكل ؟ قال ﷺ : « اعقِلْها وتوكَّل » . وعقلُ الدابةِ ربطُها وشدُّها إلى وتدٍ ونحوه لحفظها وصيانتها .

وكما حث الإسلامُ على الصبر عند المرض والرضا بما قسم اللّه وأراده ، فقد حث أيضًا على التداوى ، وأخذِ الدواءِ الذى يناسب الداءَ بمشورة الطبيبِ أو بالتجربة ، وعدم التفريط فى ذلك عمدًا أو تواكلًا ففى الحديث عند البخارى : « ما أنزل اللّه داءً إلا أنزل له دواءً فتداوَوْا يا عبادَ اللّه » .

فالدواء الحلالُ نعمة ، وفى استخدام النعمة فى مَحِلِّها شكرٌ للمنعم ، مع اليقين بأن الشفاء من اللّه سبحانه وتعالى وحده وبإرادته .

إن المسلم يرضى بقضاء اللّه ، ويقنعُ بعطائه ، ويتوكل عليه فى كل أموره ويستعين به سبحانه فى كل شئونه ، ويسعى فى حياته مُجدًّا عاملاً ، مخلصًا فى طاعته لربه ، مُتقنًا مهنته وعملَه أمينًا صادقًا بارًّا : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ . [الطلاق : ٣] .

* * *

(٥) حُسن الخُلق
بهاءُ المؤمنِ وسبيلُه للنجاح

عن أنس رضى اللّه عنه قال : « كان رسول اللّه ﷺ أحسنَ الناس خُلقًا » .

[متفق عليه] .

وقد أثنى عليه ربُّه فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وكان من دعائه ﷺ : « اللّهم كما أحسنْتَ خَلْقى فأحْسِن خُلُقى » .

[روته عائشة وأخرجه أحمد] .

ومن دعائه : « اللّهم إنى أعوذُ بك من الشِّقاق والنِّفاق وسُوءِ الأخلاق » .

[أخرجه أبو داود والنسائى ورواه أبو هريرة] .

كان خلقه القرآن :

والخلق العظيمُ الذى أثنى اللّه به عليه هو أدبُ القرآن الذى ظهر فى مَنْطِقِه ﷺ ، وفى رِفْقه بأمته ، وفى سَعة صدرِه وحِلْمه ، وفى لين جانبه وسهولةِ طبعه وانبساط وجهه للناس ، كما ظهر خلقُه العظيم فى عفوه عند القدرة وفى صلته مَن قَطَعه ، وفى تواضُعه الكريم للفقير والمسكين واليتيم ، وفى ذَوْقه الرفيع وأدبِه الجمّ فى معاملة الناس وإقبالِه على مُحدِّثه وإصغائِه إليه فى صبر وسماحة .

قدوتنا :

وقد أمرنا اللّه عزَّ وجلَّ بالاقتداء بالنبى ﷺ ، وترسُّم خطاه ، فهو أسوتنا الحسنة فى عبادته ، وفى أخلاقه وإخلاصه : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ . [الأحزاب : ٢١] .

فى فضل حسن الخلق :

وقد سُئل رسول اللّٰه ﷺ عن أكثر ما يُدخلُ الناسَ الجنةَ فقال : « تقوى اللّٰه وحُسن الـخُلق » . [أخرجه الترمذى ورواه أبو هريرة] .

لقد بنى الإسلامُ للفضائل السامية ، ولـمكارم الأخلاق ومحاسنِ الآداب صرحًا عاليًا ، وجعلها من أسباب رحمة اللّٰه بالعباد وقُربهم من الحبيب الـمصطفى ﷺ يوم القيامة ، وفى الحديث الذى رواه جابر أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « إن من أحبكم إلىّ ، وأقربكُم منى مَجْلسًا يومَ القيامة أحاسنَكم أخلاقًا ، وإن أبغضَكم إلىّ وأبعدَكم منى مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والـمُتشَدِّقون والـمُتفَيْهقُون ، قالوا : يا رسول اللّٰه ، قد عَلِمنا « الثرثارون والـمتشدِّقون » ، فما الـمُتفيهقون ؟ قال : الـمُتكبِّرون » . [أخرجه الترمذى] .

وقد ذمَّ الرسولُ ﷺ الثرثار ، وهو كثير الكلام تكلُّفًا بدون فائدة والـمُتشدق : الـمتطاول على الناس بكلامه .

كما بيَّن الحبيب الـمصطفى ﷺ لأمته أن حُسن الخُلق أثقلُ ما يوضع فى ميزان الحسنات يوم القيامة ففى الحديث الذى رواه أبو الدرداء جاء : « ما من شىء أثقلَ فى ميزان الـمؤمن يوم القيامة من حُسن الخلق ، وإن اللّٰه ليُبغض الفاحشَ البذىءَ » . [أخرجه الترمذى] .

من آداب الـمؤمن :

إن الـمؤمن يكف جوارحه عن الأذى ، ويُمسك لسانه عن السخرية والاستهزاء ، ولا يقول إلا حُسنًا ، ويُلين القول ، ويكظم غيظه ، ويعفو عمن أساء إليه .

ومن خلق المؤمن : طلاقَةُ الوجه ، وبذلُ المعروف ، والرفقُ بالضعيف وإكرامُ ذى الشيبة ، والرحمةُ بكل مخلوق ، والسخاء ، وكلُّ عملٍ من أعمال المروءةِ التى تدلُّ على عُلوّ الهمة ، وكَرمِ الشمائل .

إن من خلق المؤمن : الأمانةَ والصدقَ والوفاءَ بالعهد ، وتركَ المِراء والجدال الذى يُفضى إلى المنازعة والمخاصمةِ وتفريق القلوب .

وفى الحديث الذى رواه أبو أمامة الباهلى : « أنا زعيمٌ ببيت فى رَبَض الجنة لمن ترك المِراءَ وإن كان مُحقًّا ، وببيتٍ فى وسط الجنةِ لمن ترك الكذبَ وإن كان مازحًا ، وببيتٍ فى أعلى الجنة لمن حسُن خلقُه » . [أخرجه أبو داود] .

وتلك منزلةٌ كريمةٌ لأصحاب الخلقِ الكريم ، الذين يُلزمون أنفسهم بآداب القرآن العظيم فى مثل قوله تعالى من سورة الأعراف : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ . [الأعراف : ١٩٩] .

فقد أمر اللّه فيها بالعفو عمّن ظلمك ، وإعطاء من حرمك عند حاجتك ، وأن تصل من قَطَعكَ ، فتبادئُهُ بالسلام والزيارة ، وبتفقُّد أحوالهِ والسؤال عنه .

خيار الناس :

إن خيار الناس هم أحاسنُهم أخلاقًا ، هم أهلُ التواضع والحلم والصفح وإسداء المعروف ، لا يرجون من أحدٍ من الناس جزاءً ولا شكورًا .

وفى هؤلاء يقول الرسول ﷺ : « إن من خياركم أحسنَكُم أخلاقًا » .

[متفق عليه من حديث ابن عمرو] .

ومن رواية أبى هريرة عند الترمذى وأبى داود : « أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خلقًا ، وخيارُكم خيارُكم لنسائهم » .

المرء بأدبه :

إن سعادةَ الفردِ والجماعةِ مقترنةٌ بحُسن الخلق ، وإن الشقاء إنما يكون لمن ساء خُلقُه ، لذا قالوا فى الحكمة :

كُن ابنَ من شئتَ واكتسِبْ أدبًا   يُغنيك محمودُه عن النسب

قال ابن سيرين : « حُسنُ الخُلق عونٌ على الدِّين » .

وإن أهلَ الأخلاق الكريمة ، والآدابِ الحسنة مُبشَّرون برحمة من اللَّه ورضوان ، لأنهم عملوا بمقتضى الإيمان ، واقتدوا بحبيب الرحمن ﷺ وفى الحديث الذى رواه ابن مسعود : « ألا أخبركم بمن تحرمُ عليه النار ؟ تحرمُ على كلِّ قريبٍ ، هيِّنٍ ليِّنٍ ، سهْلٍ » . [أخرجه الترمذى] .

إذ العنفُ يَشِين المؤمنَ ، ويُنفِّرُ الناسَ منه .

« ومن يُحرمِ الرفقَ يُحرمِ الخيرَ كلَّه » . [أخرجه مسلم ورواه جرير بن عبد اللَّه] .

وفى الأثر : « وإن الخُلق السيِّئ ليُفسدُ العملَ كما يُفسد الخلُّ العسل » .
[رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط والبيهقى وذكره ابن كثير عن رجل من قريش مرفوعًا ولم يُسمه] .

إن مكارمَ الأخلاقِ زينةُ المؤمن فى الدنيا ، وسبيله إلى النجاح ، وطريقُه إلى قلوب الناس ، وكلما حسُن خلقُ المؤمن ازدادت محبةُ الناس له وارتفعت درجتُه بفضل ربِّه وإحسانه ، وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة : « ما نقصتْ صدقةٌ من مال ، وما زاد اللَّه عبدًا بعفو إلا عزًّا ، وما تواضَع أحدٌ لله إلا رفعه اللَّه » . [أخرجه مسلم] .

وفى الحديث الذى روته عائشة رضى اللَّه عنها : « الشُّؤم سوءُ الخُلق » .

[أخرجه الطبرانى فى الأوسط] .

وفى الحديث : « المكرُ والخديعة فى النار » . [عند الديلمى عن أبى هريرة] .

لأن ذا المكرِ والخداع لا يكون تقيًا ولا يخافُ اللَّه ، ولأنه إذا مكر غدر وإذا غدر خَدع ، وإذا فعلهما أوبقَ ، أى أهلَك غيرَه ظُلمًا ، وأوقع به الضرر والأذى ، وهذا ليس من أخلاق الموحّدين ، ولا يكون فى شخص تقىّ فكلُّ خَلّة جانبتْ التُّقى فهى فى النار ، أى تؤدى بصاحبها إلى جهنم والعياذ باللَّه .

وفى الحديث الذى روته عائشة قالت : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إن المؤمن ليُدركُ بحُسن خلُقه درجةَ الصائم القائم » وما أعظمها من منزلة ! .

[أخرجه أبو داود وأحمد] .

وقال أنس : « ذهب حسنُ الخُلقِ بخير الدنيا والآخرة » .

إن المسلمَ المتأدِّب بأدب الإسلام حقًّا هو من عبد ربَّه ، وأخلص الطاعةَ ، واقتدى بنبيه ، وحسَّن خُلُقه وسما بنفسه عن الدنايا وعن سفاسفِ الأمور ، فطوبى له وحسنُ مآب .

وفى الأثر : أوحى اللَّه إلى إبراهيم عليه السلام : « يا خليلى حسِّن خُلقَكَ ولو مع الكفار تدخل مدخَلَ الأبرار » . [الحديث رواه أبو هريرة عند الطبرانى] .

وفى الحديث : « إنكم لن تَسَعُوا الناسَ بأموالكم ولكن يَسعُهم منكم بسطُ الوجهِ ، وحسنُ الخلق » [رواه أبو هريرة وأخرجه البزار من طرق أحدها حسن] .

ففيه دعوةٌ إلى البشاشة وسعةِ الصدر للناس ، وعدمِ إيذائهم والحطِّ من شأنهم بغضِّ النظر عنهم أو بالإعراض .

وفى الحديث : « الاقتصادُ نصفُ العيش ، وحسنُ الخلق نصفُ الدين » .

[رواه العسكرى من حديث خلاد بن عيسى عن ثابت عن أنس رفعه ، وكذا أخرجه الطبرانى وابن لال « قسطلانى »] .

وفى صحيح ابن حبان من حديث طويل عن أبى ذَرٍّ ، أن النبى ﷺ قال :

« يا أبا ذَرٍّ ، لا عقلَ كالتدبير ، ولا وَرَعَ كالكفِّ ، ولا حسبَ كحُسن الخلق » .

[وهذا اللفظ عند البيهقى فى الشُّعب] .

وفى الحديث : « إن هذه الأخلاقَ من اللَّه فمن أراد اللَّه به خيرًا منحه خُلقًا حسنًا ، ومن أراد به سُوءًا منحه خلقًا سيئًا » .

[رواه أبو هريرة / عند الطبرانى فى الأوسط] .

فاللَّهم اهدنا لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدى لأحسن الأخلاق إلا أنت .

* * *

من التوجيهات النبوية الشريفة :

– سأله أبو هريرة فقال : « إنى إذا رأيتُك طابت نفسى ، وقرَّتْ عينى فأنبئنى عن كل شىءٍ ، فقال ﷺ : « كلُّ شىء خُلقَ من ماء » قال : أنبئنى عن أمرٍ إذا أخذتُ به دخلتُ الجنة ؟ قال : « أفشِ السلامَ ، وأطعِمْ الطعامَ ، وصِلْ الأرحام ، وقُم بالليل والناسُ نيامٌ ، ثم ادخُل الجنةَ بسلام » .

[أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وقال : صحيح الإسناد] .

* * *

(٦) كرمُ النفس وسَعةُ الصّدر

وقبس من الشمائل الزّكية والأخلاق الـمَرضيَّة

من أدب الـمسلـم أن يكون كريـمَ النفسِ ، سخيًا ، بارًا ، رحيـمًا ، ودودًا ، حسنَ العِشرةِ ، طيبَ الـمخالطة ، رفيقًا ، هيِّنًا سهلاً ، متجاوزًا عن هفواتِ أهله وأحبابه ، متأسِّيًا فى ذلك بأتمِّ الناس أدبًا ، وأعلـمهم باللَّه وأخشاهم له ، فقد زيَّنه ربُّه بالعلـم والحلـم ، وأعطاه من الهبات النفسية والـخُلقية والعقلية مالـم يؤت أحدًا من عباده ، فحاز أعلى الدرجات فى الكمال الإنسانىِّ بجانبيه ؛ الروحى والبدنى ، النفسى والعقلى ﷺ .

حظى مخالطوه وزواره من الأعراب والأغراب ، والصغار والكبار ببشاشة وجهه ، وسعةِ صدره ، وسهولة طبعه ، وقد أوجزت لنا أُمُّ الـمؤمنين عائشة رضى اللَّه عنها ذلك فقالت : « ما كان أحدٌ أحسنَ خُلقًا من رسول اللَّه ﷺ ، ما دعاه أحدٌ من أصحابه ، إلا قال : لبَّيك » .

وكان ﷺ يعود الـمرضى ، ويأمر بزيارتهم والدعاءِ لهم ، كما كان يشهد الجنائز ، ويصبر على ذى الحاجة إذا دعاه ليبيِّن له حاجته ، ويقف فى تواضع وكرم نفسٍ يستمع إلى ما يقوله حتى يُفضى بما عنده ، ثم يردُّه راضيًا إمَّا بقضاء مطلبه ، أو بـمَيسورٍ من القول يُدخل السرورَ على قلبه .

واتَّسع صدرُه الشريف لطباع الناس ، فاجتمعت القلوبُ على محبته والرِّضا عن شمائله الزكية ، وأخلاقِه الـمَرضيَّة ، كان يقابل خشونةَ الغريب من أهل الجفاء بحلـم عظيـم ، وبإحسان أعظم ، روى أنس بنُ مالك بن النضر رضى اللَّه عنه قال : « كنت أمشى مع رسول اللَّه ﷺ ، وعليه بُردٌ نجرانىٌّ غليظُ الحاشيةِ ،

فأدركه أعرابىٌ فجبذ بردائه جبذةً شديدة ؛ قال أنس : فنظرتُ إلى صفحة عاتقه ، وقد أثَّرت فيه حاشية البُرد من شدة جبذته ثم قال الأعرابىُ : يا محمدُ ، مُر لى من مال اللَّه الذى عندك ، فالتفتَ إليه ﷺ ، فضحك ، ثم أمر له بعطاء » .

[صحيح البخارى] .

لقد أخذ ﷺ الناسَ بالتدريج فيما يُراد لهم من الخير ؛ لإصلاح نفوسهم وتهذيبِ أخلاقهم ، حتى مع أعدائه المُتربِّصين ، كان شديدَ الشفقة عليهم يرجو لهم الهدايةَ ؛ ليكونوا أهلاً لرحمة اللَّه عز وجل ، وفى غزوة أُحُد كُسرت رَباعيتُه وشُجَّ وجهُه ، وشقَّ ذلك على أصحابه شديدًا ، فقالوا : لو دعوتَ عليهم يا رسولَ اللَّه ، فقال ﷺ : « إنى لم أُبعث لعَّانًا ، ولكنى بُعثتُ داعيًا ورحمة ، اللَّهمَّ اهد قومى فإنهم لا يعلمون » . وأخرج الترمذى عن أم المؤمنين عائشةَ رضى اللَّه عنها قالت : « لم يكن النبى ﷺ فاحشًا ، ولا مُتفحِّشًا ، ولا يَجْزِى بالسيئة السيئةَ ، ولكن يعفو ويصفح » . أى : لم يكن له الفحش خُلقًا ولا مُكتسبًا ، والفُحش : هو كلُّ ما خرج عن مقداره حتى يستقبحه الناس ، والمتفحِّش : الذى يتعمَّد ذلك ، ويُكثر منه ، ويتكلَّفُه .

إنه ﷺ قدوتُنا فى طريق الخير والسلامةِ والمحبَّة ، أعطاه اللَّه الخيرَ الكثير ونحن عنه نأخذ لكى تسلم قلوبُنا من الآفات ، وحياتُنا من المكدِّرات .

لقد بلغ الغايةَ فى رِقة القلب على الضعيف والمسكين والأرملة واليتيم وعلى ذوى الجفاء والخشونة ، وصبر على الأذى يصيبه فى نفسه الشريفة .

أمَّا إذا تعلَّق الأمرُ بحدٍّ من حدود اللَّه وحقوقه ودينه ، فإنه يحزم ويشتدُّ ويعدِل : فقد جَلَد ، وقطع يدَ السارق ، وحارب وجاهد فى سبيل اللَّه ، وكان أشجع الناس ، وأعظمهم إقدامًا وحسنَ قيادة ، ولم يضرب مسلمًا ولا غيرَ مسلم قط إلا بحق .

وكان ﷺ مع علوِّ مقامه ، وكثرة أعبائه ، يُمازح أصحابه ، ويباسطهم ، ويؤنسهم بالسؤال عن أحوالهم ، والاستماع إلى ما يتحدَّثون به عن شئونهم ، ويأخذ معهم فى تدبير أمورهم ، ويُجيب دعوةَ الغنىِّ والفقير ، ويقبل الهديةَ ويُثيب عليها ، وكان يلاطف الصغير ويرحمه ، ويُدخل السرور على قلبه بالكلمة الحُلوة ، والسؤال عن لُعبته ، من ذلك ما رواه الشيخان والترمذى عن أنس بن مالك خادم رسولِ اللّه ﷺ : أنَّ أخًا صغيرًا لأنس اسمُه أبو عُمير كان له نُغير - عصفور - يلعب به ، فمات العصفور ، فرآه النبى ﷺ حزينًا فقال : ما شأنه ؟ ، قالوا : مات نغرُه ، فقال : يا أبا عُمير ، ما فعل النُّغير ؟ وكان كلما رآه سأله ، وآنسه بحُلو شمائله وكريم تواضعه ورِفقه .

وحسبنا من تواضعه ﷺ أن اللّه عز وجل خيَّره بين أن يكون نبيًّا ملكًا ونبيًّا عبدًا ، فاختار أن يكون : نبيًّا عبدًا ، فشرَّفه ربُّه ، وأنعم عليه نعمة عظيمةً من نعمه ، بأن جعله أولَ من تنشقُّ عنه الأرض ، وأولَ شافع وأولَ مُشفَّع فقابل ﷺ هذه النعمةَ بمزيد من التواضع لله عز وجل وبمزيد من الشكر ، فلم يأكل مُتَّكئًا بعد ذلك حتى فارق الدنيا . وكان يقول لعائشة : « إنما أجلسُ كما يجلس العبد ، وآكلُ كما يأكل العبد » .

ونهى المسلمين عن إطرائه ، والمبالغةِ فى مدحه ، حتى لا يقعوا فيما وقع فيه غيرُهم من الغلوِّ وتقديس الأشخاص ، وإعطائهم من حقوق الألوهية ما تُمليه عليهم أهواؤهم ، فضلُّوا ضلالاً بعيدًا ، ولنتدبر قوله ﷺ فى ذلك : « لا تُطرونى كما أطرت النصارى ابنَ مريمَ ، إنما أنا عبد اللّهِ ورسولُه فقولوا : عبدُ اللّه ورسولُه » . [أخرجه الترمذى] .

كانت حياته ﷺ حلمًا وعلمًا ونورًا وهدايةً ورحمةً فطوبى لمن تأسَّى واقتبس من نور الأخلاق الثريَّةِ بالخير والهدَى ، ما تسمو به النفسُ عن النقائص

والدنايا وتطهُر به القلوبُ من التحاسد ، والتباغضُ ، ويرفُق به الناس بعضُهم ببعض ويرحم قويُّهم ضعيفَهم ، ويواسى غنيُّهم فقيرَهم ، فيحظون بسعادة الدارين .

وكان ﷺ يحب أن يخرج إلى أصحابه وهو سليم الصدر خالٍ من أى كدرٍ تجاهَ أحدٍ منهم فكان يقول لهم ما معناه ، « لا يُبلِّغنى أحدٌ منكم عن أحد شيئًا ، فإنى أحب أن أخرجَ إليكم وأنا سليم الصدر » . صلوات اللّٰه وسلامه عليه .

* * *

رَضينا باللّٰه ربًا ، وبالإسلام دِينًا ، وبالقُرآن الكريم دُستورًا وإمامًا ، وبمحمدٍ الهادى نبيًا ورسولًا .

فاللّٰهم ارزقنا حُسْن الاقتداء به

(٧) الخِلقةُ صنعةُ اللّه :
تُحترم ولا تُهان

خلق اللّه الإنسانَ فى أحسن تقويـم ، وصوَّره فى أجمل صورة ، ومنحه العقل والفهم والفِطنة ، ورزقه من الطيبات ، وفضله على كثير من خلقه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ . [الإسراء : ٧٠] .

وأمرنا الإسلامُ بتقدير النِّعمة ، واحترام الخِلقة ، ودعانا إلى الرِّفق والرحمة ، والتواضع ، وتكريـم الإنسان أخاه الإنسان ، فلا يطغى القويُّ على الضعيف ، ولا يترفَّع الغنيُّ على الفقير ، ولا يبغى أحدٌ على أحد ، ولا يسخر من عباد اللّه ، ولا يُشعر الكبيرُ مَنْ هو دُونه أو تحت يده بالـمهانة والإذلال ولا يعيب الصحيحُ ذا العاهة ، ولا يقسو الـمربِّى على الصغار ، ولا يتطاول أصحابُ الصناعاتِ والحرف على الـمتدرِّبين والشغَّالين بيدٍ ولا بلسان .

لقد شرَّف اللّه الإنسان ، وجعله فى أحسن مقام ، وأوصى عباده بالإحسان فى القول والعمل ، ليشعُر الناسُ بالـمؤاخاة ، والـمساواة ، ويسودَ فيهم التراحمُ والتعاطف ، وتبادلُ الاحترام ، قال تعالى من سورة الحُجرات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ . [الحجرات : ١١] .

نهى اللّه عز وجل عن السخرية والاستهزاء بعباد اللّه سواء فيـما يتصل بالأمور الـمعنوية أو الأمور الحسِّية ، فلا يُوصَمُ الإنسانُ بما يُسىء إلى نفسه ويكدِّرُها ، ولا يعاب بما يكون عليه من الطول أو القصر ، أو البَدانة ، أو العَمى ،

والعوَر ، والعَرج ونحو ذلك ، فإن خِلقةَ اللّه لا تُعاب ، ويَحرمُ أن يُهان الإنسانُ أو يُقبّح ، كما لا يجوز لَمْزُه والطعنُ عليه ، أو إهانتُه فى اسمه أو لقَبه ، فإن قبّح أحدٌ أحدًا بما ليس فيه كان الجُرم أعظم ، والذنبُ أكبر : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ . [الحجرات : ١١] .

وقد جاء الوعيد الشديدُ لـمن يزدرى صنعةَ اللّه ، أو يسخرُ منها ، أو يسبُّها ، كأن يُسبَّ الوجْهُ ، أو البدنُ ، أو يُطْعَنُ على الـمرء فى دينه وخُلقه ازدراءً واستخفافًا ، ولنتدبر الوعيدَ بالهلاك لـمن يفعل ذلك بلسانه أو بإشارة يده ، فى قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ .

قصة :

جاء عند البخارى فى الأدب الـمفرد وصحيح مسلـم : أن سويدَ بن مُقرّن رأى رجلاً لطم غلامه ، فقال له : « أمَا علـمتَ أن الصورةَ مُحرَّمة ؟ لقد رأيتنى وإنى سابعُ سبعةِ إخوة على عهد رسول ﷺ ، ما لنا إلا خادم ، فلطمه أحدُنا ، فأمرنا النبىُّ ﷺ أن نُعتِقه » .

فانظر إليه كيف أنْكَرَ أن يَلطم إنسانٌ أخاه ، ويضربَ وجهَه الذى هو مرآتُه ، ويجمعُ محاسنَه ، ويُعبِّر عن ذاتيته ، انظر إلى سُويد وكيف تأدَّب بأدب النبوة ، وتعلّم أن صورة الإنسان مُحرّمٌ ضربُها ، كما هو مُحرَّم تقبيحُها كما جاء فى الأحاديث الشريفة : « لا تقولوا قبّح اللّهُ وجهَكَ » . [عند البخارى وغيره] ؛ لأنها صنعةُ اللّه ومن نعمه العظيـمة .

وجاء أمرُ النبى ﷺ بعتق الغلام الذى أُهين فى وجهه على سبيل النَّدْب رجاءَ أن يكون كفَّارةً لذنب الـمعتدى وإثمِه ، فكيف بـمَن يَستخفُّ بالناس ويهزأ بهم ، ويأخذ ذلك عادةً لنفسه ، ويتسلّط باليد أو باللسان على الذين هم دونه أو

تحت يده من التلاميذ أو المتدرِّبين أو الأُجراء والخدم ونحوهم .

إن احترام الخِلقة ، وكفُّ الأذى عنها أمرٌ واجب ، أمر به الدِّين ، ويدعو إليه العقلُ المستقيم ، والذوقُ السليم ، فكلنا لآدمَ وآدمُ من تراب ، ولا فضلَ لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وقد جاء فى الصحيحين روايةٌ أخرى قال فيها سُويد : « أما علمتَ أن الصورةَ مُحْتَرَمة ؟ » .

لقد حرَّم الإسلام لطمَ الوجه فى الحدِّ والتعزير ، فمن باب أولَى تحريمُه فى مجال التعليم والتأديب ، وتربيةِ الأولاد ، وحتى فى المشاجرات التى تقع بين الناس بسبب الغضب ونحوه نهى الإسلامُ عن ضرب الوجه ، وأمر بضبط النفس ، وقد جاء فى الصحيحين وعند أحمد : « إذا قاتل أحدُكم أخاه فلْيجتَنِب الوجه » . والمقصود بالمقاتلة العراك والمُغاضبة .

إن الوجه فيه من جمال التصوير والتشكيل وجمالِ الخِلْقة ما لا يَخْفى ، فهو زينةُ الإنسان ، وبه يُستدلُّ على شخصية صاحبه ، وسبحان الخالقِ العظيم ، وفى الوجه أعضاءٌ نفيسةٌ ولطيفة ، وأكثرُ الإدراك بها ، كالعين ، والأنف ، والأذن ، والفم ، وقد يضرُّ بها الضربُ ، ويترك بها أثرًا فيؤذىٰ المضروبُ وتتكدَّر نفسه ، ومن معرفة حق النعمة وشكرها أن يصان الإنسانُ عن الإهانة والإذلال ، فلا يُؤذَى بضرب وجهه ، ولا بالإساءة إليه باللسان ، وإن كان لابدَّ من التأديب لأمرٍ يراه المربِّى المراقبُ لله عز وجل فليكُن الضربُ برفق وليبتعِد عن الوجه ، ومن لا يرحم العبادَ لا يرحمه ربُّ العباد ، ومن أمارات الشقاوة أن تُنزع الرحمةُ من القلب .

ومع الأهل :

وفى هذا المساق نرى أن رسول الله ﷺ وجَّه الرجالَ إلى حُسن معاملة

الزوجات ، والرفق بهن ، وعند الغضب يتجنَّبُ الشتائم والتقبيح ، ولا يمدُّ يده ولا عصاه إلى وجهها حفاظًا على هذه النعمة ، وتكريمًا لصنعة اللَّه عز وجل ، وصنعةُ اللَّه لاتُهان ولا تُقبَّح ، وقد جاء عند أحمد وبعض أصحابِ السنن : أن حكيم بن معاوية روى عن أبيه حيدة قال : قلتُ يا رسول اللَّه ، ما حقُّ زوج أحدِنا عليه ؟ قال : « تُطعمها إذا أكلت ، وتكسوها إذا اكتسيتَ ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبِّح » فالتقبيح بالضرب أو باللسان مُحرَّم على الإنسان .

والبهائم :

وامتدَّت رحمةُ الإسلام إلى البهائم ، فحرَّم إيذاءها أو تشوية الوجهِ ، أو ضَربه ؛ لأن الوجه صنعةُ اللَّه وهى لا تُقبَّح ، ولا تُضرب ؛ لتدومَ النِّعمُ على أصحابها ، وتُرفعَ عنهم النِّقمُ بالشكر ، وبتقدير النعمة ، وفى الحديث : « مرَّ النبى ﷺ بدابة قد وُسِمَ ، - أى وَجْهُه بمكواة ونحوها - يُدخِّنُ منخراه ، فقال : « لعن اللَّه مَن فَعَلَ هذا ، لا يَسِمنَّ أحدٌ الوجه ولا يضرِبَنَّه » .

[رواه جابر وأخرجه البخارى ومسلم وبعض أصحاب السنن] .

وفى رواية عن ابن عباس : « نهى رسول اللَّه ﷺ عن الضرب فى الوجه وعن الوشم فى الوجه » . [أخرجه مسلم] .

وقد تظاهرت الأدلة على تحريم تقبيح الوجه بالقول أو بالفعل ، فإن صنعة اللَّه تُكرَّم وتقدَّرُ النعمةُ فيها ، واللَّه أعلم .

* * *

(٨) المنافسة فى المكارم
شرف والحسد مرض

اقتضت حكمةُ اللَّه عزَّ وجلَّ أن يكون الناس مختلفين : فى المشارب والميول ، ومتفاوتين فى الحظوظ الذهنية ، والبدنية ، والنفسية ، ولذا نشأت الفروقُ الفرديةُ فى القُدرات والطاقاتِ ، وفى طريقة التفكير ، وتأسيسًا على هذا تعدَّدت المهنُ ، وتنوعت الخبراتُ ، وكثرت الحرفُ والصناعاتُ ، وهذا من كمال رحمة اللَّه بالعباد ، ومن البراهين الناطقة بكمال قدرته سبحانه وتعالى ، قال عز وجل : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

[الزخرف : ٣٢] .

ونحن نرى كلَّ إنسان يَمْضى فى وِجْهتِه ، ساعيًا فيما قُدِّر له من العمل مُستخدمًا طاقته وجوارِحه فى القيام بأعبائه على قدْر جُهده وحظِّه ، وبهذا يستعين الناسُ بعضُهم ببعض ، ويُفيد بعضُهم بعضًا ، ويتبادلون المنافع وثمراتِ الجهود ، ويتحققُ لهم التكاملُ فى معايشهم ، وتستقرُّ حياتُهم .

ومن رحمة اللَّه عز وجل ، أن جعل فى غريزة الإنسانِ الرغبةَ فى التنافس وإجادةِ الأعمال ، وأعطاه القدرةَ على السعى لاكتساب المحامد والفضائل ولتحقيق النجاح فيما يُريد الوصولَ إليه ، ودعا اللَّه عزَّ وجلَّ عباده إلى العمل لخيرى الدنيا والآخرة ، ويسَّر لهم سُبله ، ونهى الإسلامُ عن البِطالة والكسل ، فمن جدَّ وجد ، ومن زرع حصد بمعونة اللَّه وفضله .

وإن أهل الجدِّ والعملِ هم أهلُ الخير والفضل ، وكلما أخلص المسلمُ فى

عمله للآخرة ، وأتقن عمله للدنيا ، ارتقى فى مَدَارج الكمالِ الإنسانىّ بجانبيه الروحى والبدنى .

ومن أعظم أسبابِ نجاحِ الإنسان فى حياته أن يُحب الخير للناس كما يُحبه لنفسه ، وأن يخلوَ قلبُه من الغِشّ ، ويصفوَ من الحسد والحقد ، وأن يشغل نفسَه بإصلاح أُموره ، وترقيةِ معاشه ، وبالجدِّ فى العمل لمعاده ؛ راجيًا لنفسه ولأهله ، ولجيرانه وأحبابه التوفيقَ والنجاح والفلاح ، مُحسنًا توكُّله على اللّه .

إن توجُّهاتِ المؤمن الصالح خيِّرةٌ دائمًا ، فهو يسعى فى تحصيل ما ينفعه ، ويطمح إلى معالى الأمور ، ويحرصُ على الانتفاع بالوقت ، وكلما حصل على خير ، أو حقق نجاحًا شَكَر اللّهَ ، وصرف النعمةَ فيما هُيِّئت له ، وإذا رأى نعمةً على إنسان ينتفعُ بها وينفع غيرَه ، سأل اللّهَ تثبيتَها عنده وأن يزيدَه من فضله ، وتمنّى أن يكون لنفسه مثلُ ما لأخيه من النعمة ، ونافس فى تحصيل مثلها مُستعينًا بربه ، متوكلًا عليه وحده ، وبالتنافس فى المبرات والخيرات وفى تحصيل ما هو نافع ومفيدٌ تنمو الحياةُ وتزدهر ، ويتقدم العُمران ، ويعُمُّ الخير ، ويتعاون الناس ، ويتراحمون ؛ إذ لا يزال الناسُ بخير ومحبةٍ ما لم ينشأ بينهم داءُ التحاسد ، وهو داء يثقُل على النفوس ويَشْغَلُها بما لا خيرَ فيه ، ويُؤدِّى إلى التباغض والتنافر ، وإذا تمكّن الحسدُ من صاحبه ملأ صدْرَه همًّا ، وسهَّل عليه الكذب ، والغيبةَ ، وقد يدفع الحسدُ الحاسدَ إلى الغدر والافتراء إذا رأى الحاسدُ فى ذلك ما يساعده على أذية المحسود ، وعلى شفاءِ نفسه المريضة .

وقد جاء فى الصحيحين النهىُ عن هذه الأمراض النفسية التى تكدِّر على المسلم حياته ، وتدفع به فى طريق العداوات والحزازاتِ ، قال أنس بنُ مالك رضى اللّه عنه : قال رسول اللّه ﷺ : « لا تَبَاغضُوا ، ولا تَحاسَدُوا ، ولا تَدَابَرُوا ، وكونوا عبادَ اللّه إخوانًا » . أى : ابتعدوا عن كل ما يُفرِّق القلوب ، والزموا طريقَ

المحبة والأخوة .

وفى الحديث الذى رواه ضَمُرة بن ثعلبة : « لا يزال الناسُ بخير ما لم يتحاسدوا » . [رواه الطبرانى ورواته ثقات] .

إن الحسد ينْبُتُ فى النفس الضعيفة العاجزةِ عن المنافسة الشريفة لتحصيل المكارم وتحقيق الآمال ، فيتسلطُ عليها الهوى والشيطانُ فيزيدها ضعفًا و كدرًا ؛ لذا نجد الحاسدَ فى همٍّ بالليل ، وفى غمٍّ بالنهار ، لا يهنأ له عيش ، ما دام ينظر إلى غيره ، ولا ينصرف إلى شئونه الخاصة يُصلحها وينمّيها ، ولو علم الحاسدُ أن الحسدَ لا يغيّر من قضاء اللّه شيئًا ، وأن نعمَ اللّه باقيةٌ لأصحابها ما دامت مُقدَّرةً لهم رَضِىَ الحاسدُ أم سَخِطَ ، لو علم ذلك وآمن عن يقين بقضاء اللّه وقَدَرِه لَمَا أتعب نفسه ، ولما جرّها بالحسد إلى المهلكات ؛ إذ الحاسدُ محلٌّ لغضبِ اللّه وسخطِه ؛ لأنه يعادى نعمَ اللّه على عباده ، وهو بحسده يتسخّط على قضاء اللّه وقدره ، وقد جاء فى الكتب القديمة : « الحسودُ عدوُّ نعمتى ، متسخّطٌ لقضائى ، غيرُ راضٍ بقسمتى » .

وقال ابن مسعود رضى اللّه عنه : « لا تُعادُوا نِعمَ اللّه ، قيل له : ومن يُعادى نِعمَ اللّه ؟ قال : الذين يحسدون الناسَ على ما آتاهم اللّه من فضله » .

وقد وبّخ اللّه عز وجل الذين يحسدون الناسَ على ما آتاهم من نعمه كنعمة النبوة والهداية إلى الحق وخالص الإيمان ، أو نعمةِ العلم أو المال ، وغير ذلك مما يُعطيه اللّه عباده على مقتضى حكمته وإرادته لا رادَّ لفضله ، ولا شريكَ له فى ملكه ، قال تعالى فى سورة النساء : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ . [النساء : ٥٤] .

إن الإنسانَ العاقلَ الحكيم هو الذى يعيش سليمَ الصدر ، نقىَّ القلب من

هموم الحسدِ والغشِّ والعداوات ، يسعى فى نهاره فيما قُدِّر له ، وينام ليله قريرَ العين هانئًا ، راضيًا بقضاء اللَّه ، قانعًا بعطائه ، حامدًا لله ، شاكرًا له على نعمائه ، ولذا كان من وصية رسول اللَّه ﷺ لأنس بن مالك : « يا بُنىَّ إن قدرت على أن تُصبح وتُمسى ليس فى قلبك غِشٌّ لأحد فافعل » .

[أخرجه الترمذى وقال : حديث غريب - أى جاء عن طريق صحابى واحد -] .

إن المسلم يَهْدِيه إيمانُه إلى كل خير ، وإذا مشى فى نوره جنَّبه كلَّ شرٍّ فَلْيعتصم المؤمنُ الحصيفُ دومًا بالإيمان ، وليحذر ممَّا يُنَاقضه أو يُضعفه ، ولْيستعِذْ باللَّه من الشيطان الرجيم ، ومن شرِّ الحسد والحاسد ، ولْيربأ بنفسه عن الدنايا ، ولْيطمح دومًا إلى معالى الأمور ، ملازمًا طاعةَ اللَّه عز وجل عن إخلاص ومحبة ، وليشغل قلبه ولسانَه بذكر اللَّه وشُكره ، حامدًا اللَّه على كل حال ، مقبلًا على تدبر القرآن وتلاوته ، صارفًا جهده إلى ما ينفعه فى دينه ودنياه .

إن المسلم إذا فعل ذلك سَلِمَتْ له نفسُه ، وصَلَح حالُه ، وسَلِم له دينُه الذى هو أغلى عنده من الدنيا وما فيها من متاع .

ولنتدبر قولَ الرسول ﷺ : « لا يجتمعُ فى جوفِ عبدٍ الإيمانُ والحسد » .

[رواه أبو هريرة وأخرجه ابن حبان] .

وعنه عند أبى داود والبيهقى : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

فطوبى لمن أخلص قلبه للإيمان ، وكان قلبه سليمًا ، ونفسُه مطمئنة راضية قانعة ، يحب الخير للناس ، كما يحبه لنفسه .

* * *

(٩) خُذ الرفيقَ قبل الطريق

من لم تكُن فى اللّه خُلّتُه فخليلُه منه على خطَر

أخرج البخارى فى صحيحه عن أبى موسى رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « مَثَلُ الجليسِ الصَّالح والجليس السَّوء كحامل المسكِ ونافخ الكير : فحاملُ المسكِ إمَّا أن يُحْذِيَكَ ، وإمَّا أن تَبتاعَ منه ، وإما أن تَجدَ منه ريحًا طيبة ، ونافخُ الكير إمَّا أن يَحرِقَ ثيابَكَ ، وإمَّا أن تجدَ منه ريحًا خبيثةً » .

هذا مثلٌ ضربه رسول اللّه ﷺ ليبيِّن حالَ الجليسِ الصالح الذى يأنسُ أهلُ الفضل به ، ويجدون منه الخيرَ على أىِّ وجه ، ولا تضرُّ مُجالستُه ، وليبيِّن ﷺ أن الجليس السَّوء تضُرُّ مجالستُه ، وتُسىء إلى المرء مُخالطتُه ، وضَرُره أكبرُ من نفعه ، وقد يكون هذا الجليسُ كالحيَّة ليِّنٌ مَسُّها قاتلٌ سمُّها .

وقد كثر ضربُ الأمثالِ فى القرآن الكريم وفى السنة النبويةِ المطهرة لمساعدة الإنسان على فهم المعانى ، ومعرفةِ المرامى بيُسر وسهولة ؛ لأن المثلَ يَعْرِض لنا المعنى فى صورة مُجسَّمة تُقرِّبه ، وتوضحه ، وتزيد التأثيرَ به فى النفس ، وتُقنع العقلَ .

وقد حذَّرنا رسولُ اللّه ﷺ من مخالطة أهل الشر ، وأربابِ الأهواء المريضة بتمثيل الجليس السوءِ بالحدَّاد نافخ الكير ، وتأثيره السيئ فى مُجالسِه ومُخالِطِه ، فإن فى مجالسته تَوقُّعَ الأذَى على أىِّ حال ، إمَّا بتطايرُ الشَّررِ فيحرقُ الثياب ، وإمَّا بالتأذِّى بالرائحة الخبيثةِ التى تَصدُر عن الفحْم ودُخانه ممَّا يضرُّ النفسَ والبدن .

وتوضيحُ ذلك أن الجليسَ السَّوء إمَّا أن يَنقلَ أهواءَه وأمراضَه النفسيةَ والخُلقية

والفِكريَّة إلى مُخالطِه ، فهذا أشدُّ ضررًا ولا شكَّ من حرْق الثياب من تطايُرِ الشرر ، إذ الثيابُ يمكن تعويضُه ، أمَّا التأثيرُ السيئُ فى الفكر أو الخُلق أو التوجُّهات فإنَّه يُخلِّف آثارًا بالغةَ السُّوء فى الحياة الفردية والاجتماعية .

وإن إحراقَ الثيابِ تصويرٌ لانتقال العَدْوى الخلُقية والفِكريةِ السيئةِ إلى المُجالس الذى يُخالطُ القرينَ السُّوء ، وإن وجودَ الريح الخبيثةِ تصويرٌ لضيق نفسِه ، وما قد يُصيبه من سُمعةٍ غيرِ طيِّبةٍ بسبب سُوء سيرةِ جليسِه ومسالكه .

وفى الحكمة : يُظَنُّ بالمرء ما يُظَن بقرينه ، وقال عدىُّ بنُ زيد :

عن المرءِ لا تسأل وسَلْ عن قَرينه ... فكلُّ قَرين بالمُقارَنِ يَقْتدى
وصاحِبْ أُولى التقوى تنلْ من تُقاهُمُ ... ولا تصحَب الأَرْدَى فَتَرْدَى مع الرَّدِى

وإن مشكلات المخدرات وقضاياها ونحوها لتؤكِّدُ لنا الكيفية التى يقعُ بها بعضُ الناس فى شِراك مُتعاطى الهيروين والكوكايين ونحوهما وفى حبال المتَّجرين فيها ، فهذه الأمورُ قد تبدأ بالصُّحبة عن غرَّة واغترار ، وتنتهى بأفظع الجرائم والعياذُ باللّه ، كما جاءت الإشارة إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ . [هود : ١١٣] .

قال ابن مسعود رضى اللّه عنه : « ما من شىء أدلَّ على شىء ، ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب » . وقال أهلُ الحكمة : « مثلُ العدوِّ الضاحكِ إليك كالحنظلة الخضراءِ أوراقُها ، القاتلِ مذاقُها » . وفى المثل : « سوءُ الخُلق يُعدى » . وفى المثل : « صُحبةُ الأحمق شُؤم » . وفى الحكمة : « عداوةُ العاقلِ أقلُّ ضررًا من مودَّة الأحمق » .

لأن الأحمق ربما يضرُّ ، وهو قادر على النفع ، أما العاقلُ الذى يخاف اللّه فمضرَّته لها حدٌّ ، ومضرَّةُ السفيه ليست بذات حدٍّ ، والمحدودُ أقلُّ ضررًا ممَّا هو غيرُ محدود .

ومن التحذيرات :

وفى التحذير من مخالطة أربابِ الأهواء الفاسدة يضربُ لنا الخليفة العباسىُّ ابنُ المعتزِّ المثلَ بشجر النَّارَنْـجِ الذى يُهلكُ بعضُه بعضًا ويتسبب فى إفناء بعضِه بعضًا فيقول : « إخوانُ الشرِّ كشجر النَّارَنْج يُحرِق بعضُه بعضًا » .

لذا نصح أهلُ الحكمة : بأن يكون الصاحبُ محمودَ الأخلاق ، مرضىَّ الفِعال ، مؤثِرًا للخير ، آمرًا به ، كارهًا للشرِّ ، ناهيًا عنه ، مُعينًا جليسَه على طاعة اللَّه ، كافًّا لسانه عن الغِيبة والنَّميـمةِ ونحوهما .

وقد حثَّنا الحبيبُ الهادى ﷺ على الأُخوَّةِ والصُّحبةِ التى تنفع ولا تضر ، وتسرُّ ولا تؤذى فقال : « المرءُ على دينِ خليلِهِ فلْينظُر أحدُكم من يُخالِلْ » .

وهذا أصحُّ المقاييس المُلفتةِ إلى ضرورة أن تكون المجالسةُ والمخالطةُ عن بصيرة وتأكُّدٍ من حُسن الخلق وسلامةِ العقيدة والفكر .

من فوائد الصُّحبة الطيبة :

فكما أن الجِلسةَ مع بائع المِسْك فيها بشاشةٌ وراحةٌ نفسية وسرور ، ولا يخلو المجالسُ من فائدة ؛ كأن يشترى مسكًا فهو منتفع ، أو أن يصلَ إلى أنفه ما تستريح له النفسُ ، ويسعدُ القلب ، أو أن يقدمَ له بائعُ المسك هديةً من عطرٍ طيبٍ ، ففى كل حالٍ هو يكسبُ ولا يخسر ، فكذلك الجليسُ الصالحُ فإنه فى المعتاد ينصح ، ويُعين على الخير ، ويردّ مُجالسَه عن السوء والشرّ .

وأشار الحديث الشريف إلى ذلك بقوله : « وإما أن تبتاع منه » لأن فى الابتياع ، وهو الشراءُ ، أخذًا وعطاءً من جانبين .

وإمَّا أن يجدَ المجالسُ بالملاحظة فى الجليس الصالح خيرًا ينتفع به فيتأثرَ المجالسُ بما يراه فى صديقه من الاستقامة والجدِّية ، ويزدادَ لذلك حُبًا للخير

وثباتًا على طريق الحق ، وهذا نفعٌ عظيـم أيضًا ، وإليه يُشير الـمثَل بقوله : « وإما أن يُحذيك » أى : يَنْفَحكَ وَيهَبَكَ شيئًا من عِطره ، يعنى : أنك بمخالطته تنتفع من عِلـمه ، أو تستقى بالـمشاهدة من أخلاقه الكريـمة أو خبرته الجيدة ، وحسنِ معاملاته ومُعاشرته الناس بالحسنى .

وإن الـمُجالسَ للإنسان الصالح تُفيده الـمخالطةُ محبةً فى قلوب الناس وتَزيدُ ثقتُهم فيه ، كبائع العِطر إن لـم تشترِ منه ، ولا هو أهداك شيئًا ، فإنك مُنتفعٌ بريح عطره وفى ذلك يقول الـمثل النبوىُّ : « وإمَّا أن تجد منه ريحًا طيبة » . أى سُمعةً حسنةً وسيرةً طيبة ، تنتشرُ على ألسنة الناس انتشار العِطر فى الجو .

وفى الحديث : « مثل الجليس الصالح مثلُ العطَّار : إن لـم يُنلك منه أصابك من ريحه ، ومثلُ الجليس السُّوء مثلُ القَيْنِ ، إن لـم تُصبْكَ نارُه أصابك شَررُه » . والقين : هو الحدَّاد .

ومن أمارات سلامةِ الإيـمان أن يُحبَّ الـمرءُ أخاه الـمسلـم لا يُحبه إلا لله ، قال سفيان بن عيينة : « من أحبَّ رجلًا صالحًا فإنـما يُحب اللَّه تبارك وتعالى » . قال الخليفة الـمأمون : « الإخوانُ ثلاثُ طبقات : طبقةٌ كالغذاء لايُستغنى عنه ، وطبقةٌ كالدواء يُحتاج إليه أحيانًا ، وطبقةٌ كالدَّاء لا يُحتاج إليه أبدًا » .

وفى الحديث الذى رواه ابنُ حبان فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى أنه سمع رسولَ اللَّه ﷺ يقول : « لا تصاحب إلا مؤمنًا ، ولا يأكل طعامك إلا تقىٌّ » .

وعن عبد اللَّه بن عمرو قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : « خيرُ الأصحاب عند اللَّه خيرُهم لصاحبه ، وخيرُ الجيران عند اللَّه خيرُهم لجاره » .

[رواه الترمذى وابن خزيـمة وابن حبان والحاكم] .

(١٠) الصدقُ طُمأنينة
والكذبُ ريبةٌ

أمر اللّه عزَّ وجلَّ عبادَه المؤمنين بتقوى اللّه وخشيته ومُراقبته فى السرِّ والعلانية ، وبأن يلزموا الصدقَ ، ويكونوا دومًا مع زُمرة أهلِ صِدق اليقين وصدق اللسان والإخلاص فى السرِّ والعلن : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ . [التوبة : ١١٩] . إذ الصدقُ من خصال الأبرار ، ومن صفات الصالحين المتقين ، وهو خيرُ عونٍ للمرء على نجاح المقاصد ، والوصولِ إلى الغايات الشريفة ؛ لأن الصادق فى قوله ، المخلصَ فى عمله وفى نيَّتِه يُرضى ربَّه ، ويُكسبُه صدقُه محبةَ الناس وثقتهم ، وتتيسرُ له بذلك سبلُ النجاح فى الأعمال ، ويصلُ به صدقُه إلى كل خير ، ويردُّه عن الشرور ، ويجنِّبه الآثام ، وقد نبَّه رسولُ اللّه ﷺ على ذلك فقال ، كما روى ابنُ مسعود رضى اللّه عنه : « عليكم بالصدق فإنَّ الصِّدق يهدى إلى البِرِّ ، والبِرَّ يَهْدِى إلى الجنَّةِ ، وما يزالُ الرجلُ يصدقُ ويتحرَّى الصِّدق حتى يُكتبَ عند اللّه صدِّيقًا » .

ومن أدب المسلم أنَّه يتجنَّبُ الكذبَ لأنه يقلبُ الحقائق ، ويغيِّرُ الوقائع ويسهِّلُ على الكاذب شهادةَ الزور ، ويجرُّه إلى الغِيبة والنَّميمة والغِشِّ والتدليس ، وغيرِ ذلك من خصال المنافقين . ولذا حذَّر النبىُّ ﷺ أهلَ الإيمان من الكذبِ وسوءِ عواقبه دنيا وآخرة فقال : « وإيَّاكم والكذبَ فإن الكذبَ يَهدِى إلى الفُجور ، والفجورَ يَهدى إلى النَّار ، وما يزالُ العبدُ يَكْذبُ ويَتَحرَّى الكذبَ حتى يُكتبَ عند اللّه كذَّابًا » . [رواه البخارى ومسلم وبعض أصحاب السنن] .

إن صدقَ المسلم يُؤدِّيه - بفضل اللّه - إلى سكينة النفس والنجاحِ فى

الأعمال ، واكتسابِ المحبةِ والتقدير . قال ﷺ فيما يرويه أبو بكر الصديق رضى اللّٰه عنه : « عليكم بالصِّدق فإنه مع البِرّ ، وهما فى الجنة ، وإيّاكُم والكذبَ فإنه مع الفجور ، وهما فى النار » . [رواه ابن حبان] . فصدقُ المؤمن التقىّ سبيلُه إلى كُل برّ ، ويَهديه إلى النجاةِ بفضل اللّٰه وإلى الفوز بجنات النعيم : سأل رجلٌ رسولَ اللّٰه ﷺ : يا رسولَ اللّٰه ، ما عملُ الجنة ؟ قال : « الصدقُ ، إذا صدق العبدُ برَّ ، وإذا برَّ آمَنَ ، وإذا آمنَ دخلَ الجنة . قال : يا رسولَ اللّٰه ، وما عملُ النار ؟ قال : « الكذبُ ، إذا كذَبَ العبدُ فجَر - أى انبعث فى المعاصى والشرور - وإذا فَجر كَفر ، وإذا كَفر ، يَعنى دخل النار » . [أخرجه أحمد ورواه عبد اللّٰه بن عمرو] .

ولذا فإن المسلم يلزمُ الصدق حتى فى أشدِّ المواقف ، مؤمنًا بربِّه ، محسنًا التوكُّل عليه ، موقنًا بأن فى الصدق النجاة ، وبأن فى الكذب التضليلَ والهلَكةَ .

ولنتدبر ما رواه منصور بنُ المعتمر عنه ﷺ : « تحرَّوا الصِّدقَ ، وإن رأيتم أنَّ الهَلكةَ فيه ، فإنَّ فيه النجاةَ » . [أخرجه ابن أبى الدنيا] .

وجاء فى رواية أخرى : « وتَجنَّبوا الكذِبَ وإن رأيتم فيه النجاةَ فإنَّ فيه الهلكة » ، إنَّ الكاذب لا يصلُ إلى رِفعة أبدًا ، فهو إن خَدع الناسَ مرةً فلن يُخدعوا به مرارًا ، ولذا كان عمر رضى اللّٰه عنه يقول : « لأن يَضَعَنى الصِّدقُ ، وقَلَّما يَضَع ، أحبُ إلىَّ من أن يَرْفَعنى الكذبُ وقلَّما يفعل » ، ومن حكمة أبى بكر الصديق رضى اللّٰه عنه قوله : « الكذبُ مُجَانِبُ الإيمانَ » . [أخرجه البيهقى] .

إن علامة سلامة إيمانِ المسلم أن يتحلَّى بالصِّدق والأمانةِ فى جميع أموره ، ولنتدبر قولَ النبىّ ﷺ فى الحديث الذى رواه أبو هريرة وأخرجه أحمد : « لا يجتمع الكفرُ والإيمانُ فى قلب امرئ ، ولا يجتمع الصدقُ والكذبُ جميعًا ، ولا تجتمع الخيانةُ والأمانة جميعًا » .

إن المسلم الصادقَ الإيمانِ لا يكون فى قلبه غِشٌّ ولا تعمُّدُ الكذبِ ففى الحديث المرسَل[1] الذى رواه صفوان بنُ سليم قال : « قيل : يا رسول اللّه أيكون المؤمنُ جبانًا ؟ قال : نعم ، قيل له : أيكون المؤمنُ بخيلاً ؟ قال : نعم ، قيل له : أيكون المؤمن كذَّابًا ؟ قال : لا » . [أخرجه مالك] . وفى الحديث : « يُطبع المؤمنُ على الخلال كُلِّها إلا الخيانَة والكذبَ » . [أخرجه أحمد عن أبى أمامة] . وفى الحديث: « إذا كذَب العبدُ تباعد عنه المَلَكُ ميلًا من نَتَنِ ما جاء بـه ». [أخرجه الترمذى عن ابن عمر] . إن الصدق مرآةٌ صافيةٌ تُريك نفسًا نقيةً ، ويقدم الصدقُ للناس أعظمَ المعونة فى حياتهم ؛ إذ الصدقُ يجعلُهم أكثر انتفاعًا بالجهد والوقت ؛ لأنه يجعلُ المستمعَ للأقوال المُصغى للمتحدِّث بأمرٍ ما ، يجعلُه يضعُ يدَه على الحقيقة دون زيادةٍ ولا نقصان ، أما الكذبُ ففيه تَعميةٌ وتضليلٌ ، فهو لذلك يُضيِّع الوقت ، ويُبدِّد الجُهدَ ، ويُفسدُ على الإنسان أمورَه ، وقد يُضيِّعُ عليه حقوقَه ، لذا كان الكذبُ لا يليقُ بذوى الشرفِ والدِّين والمروءات ، وفى الحديث : « آيةُ المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذَب ، وإذا وعَد أخلفَ ، وإذا عاهد غَدر » .

[أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة] .

فطوبى لأهل الصدقِ فى الأقوال والنِّياتِ والأعمال ويا سعادتهم فى يوم يقول اللّه فيه : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : ١١٩] . وفى الحديث : « التاجرُ الصدوق الأمينُ المسلمُ مع الشهداء يوم القيامة » . وفى الحديث : « برُّ الوالدين يَزيدُ فى العُمر ، والكذبُ ينقصُ الرزق ، والدعاءُ يردُّ القضاء » . [رواه الأصبهانى عن أبى هريرة] .

* * *

---

(١) الحديث المرسل : هو الذى يرويه تابعى رضى اللّه عنهم وليس فى سنده صحابى .

(١١) جيرانُك دِرعُكَ وذِراعُكَ

جاء فى الحديث المتفق عليه عن ابن عمر وعائشة رضى اللّٰه عنهما قالا ، قال : رسولُ اللّٰه ﷺ : « ما زال جبريلُ يُوصينى بالجار حتى ظننتُ أنَّه سيورِّثُه »[(١)] .

إن الإسلام بمبادئه الكريمة ، وقيمه الثابتة ، وفضائله السامية يسعى لتحسين العلاقات الاجتماعية ، وإلى إقامة الروابطِ بين الناس على أساسِ تبادلِ الثقةِ ، والاحترامِ وطِيبِ العِشْرة ، وحُسنِ المودَّة ، ورعايةِ المصالح وصيانةِ الحقوق ، وغير ذلك من الآداب والواجبات التى تُحققُ للناس مزيدًا من التعاون على البرِّ والخير ، ومزيدًا من الاستقرار والأمن ، وارتياح النفوس وطمأنينةِ القلوب .

ومن هذا الباب نرى إلحاحَ أمينِ الوحى جبريلَ عليه السلامُ بالوصية بالجار ، إذ الجارُ أقربُ الناس إلى جاره ، وأسرعُهم إلى نجدته ، وأكثرهم معايشةً بحكم الجوار ، وإذا استقرّت أحوالُ الجيرانِ على المودَّة والصيانةِ ومَنْع كلِّ أسبابِ الشقاق ، واعتبر كلٌّ منهم نفسَه حارسًا تقيًّا أمينًا لجاره ، يرعى حقوقَه فى حُضوره ، ويحفظُه فى غيبته ، ويدفع عنه وعن أهله أسبابَ الأذى والشر ، إنه إذا تحقق ذلك شعرَ الجميعُ بالرضا ، وبسكون الخواطر ، وسعوا فى مصالحهم دون أن تشغلهم الحزازاتُ ، أو تُزعجهم خصوماتٌ أو تربُّصاتٌ ، فيكون ذلك سببًا فى نجاح المقاصد ، وتحقيقِ أحدِ دعائم السلامةِ والأمنِ للأمةِ .

إن الإحسان إلى الجار من أعظم الآداب والفضائلِ التى حثَّ عليها الدِّينُ

---

(١) أى : ظنَّ أن جبريل يأمره عن اللّٰه عزَّ وجلَّ بتوريث الجار من جاره بأن يجعله مشاركًا فى المال مع الأقارب بسهم يُعطاه ، وفى البخارى بلفظ : « حتى ظننت أنه يجعل له ميراثًا » قال ابن أبى جمرة : حِفظُ الجار من كمال الإيمان ، ويحصلُ امتثالُ الوصيةِ به بإيصال ضروب الإحسان إليه بحَسب الطاقة وبكفِّ الأذى عنه .

ولذا ربط الرسولُ الحبيبُ ﷺ بين الإيمان بالله واليوم الآخر والإحسان إلى الجار فقال : « من كان يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ فليُحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فَلْيُكرِم ضيفَه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيقُلْ خيرًا أو ليسكت » . [أخرجه مسلم ورواه أبو شريح الخزاعى] .

ومن أسباب تأكيدِ الروابط الاجتماعيةِ وتحسينها إكرامُ الضيفِ ، وحفظُ اللسانِ ، وإمساكُه إلا عن الخير ، فلا يصدُر عنه أذى لجارٍ ولا لغير جار فانظر حرص الإسلام على تنمية العلاقاتِ الإنسانية على أقومِ طريقٍ وأهدى سبيل بالتوجيه إلى مكارم الأخلاقِ والنَّهى عن أضدادها ، كما فى قوله ﷺ : « من كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤذِ جارَه » . الحديث . [متفق عليه ورواه أبو هريرة] . والإيذاءُ ضدُّ الإحسان[1] :

دلالةُ ربطِ هذه الآدابِ بالإيمان :

وإنَّ ربطَ الحثِّ على هذه الآدابِ بالإيمانِ معناه : أن تنبعث هذه المسالكُ الاجتماعية ، وتلك الآدابُ العاليةُ ونحوُها من نفس المؤمن انبعاثًا ذاتيًا وتحت رقابة ضمير هذَّبه الدينُ ، وصقَّله اليقينُ ، فلا يصنعُ المرءُ فى الخفاء أمرًا يخشى منه فى العلانية ، ولا يسعى فى شرٍّ لأحدٍ أو جارٍ بمكرٍ ودهاءٍ بحيث لا يؤخذ عليه شىءٌ فى ظاهر الأمرِ ، ذلك لأن المؤمنَ الحقَّ رقيبُه إيمانه ، فإيمانُه يراقب أعماله وأقوالَهُ فى سرِّه وعلانيته ؛ لذا فإنَّ المؤمن الحقَّ يُرجَى خيرُه ، ويؤمَنُ شرُّه ، ويسلَمُ الجارُ من بوائقِه ودواهيه .

---

(١) ففى الحديث الأمرُ بحفظ الجار ، وبإيصال الخير إليه ، وكفُّ أسباب الضرر عنه ، وإذا كان هذا فى حق جارك مع الحائل بينك وبينه ، فينبغى أن نراعىَ حقَّ الملكين الحافِظين اللذَين ليس بين الواحدِ منا وبينهما جِدارٌ ولا ساتر ، وهما يؤذيهما ارتكابُ المعصية ، ويسرُّهما وقوعُ الحسنات وعملُ الصالحات .

الـجيرةُ أمنٌ وسلامة : ومن هذا الباب جاء نَفْيُ كمالِ الإيـمان عَمَّن يُبادرُ جيرانَه بالشرِّ ويـمكرُ بهـم مَكْرَ السوء ، ويسعى فى إزعاجهم بدواهِيه وبَذَاءاتِه ، ويعيشون فى جواره فى تَوجُّسٍ وَهَمٍّ ، وتَوقُّع لصدور شَرٍّ منه وأذًى ، ولنتدبر قوله ﷺ : « واللَّهِ لا يؤمنُ ، واللَّهِ لا يؤمنُ ، واللَّهِ لا يؤمنُ ، قِيل : ومَن يا رسولَ اللَّه[1] ؟ قال : الذى لا يأمنُ جارُه بَوائِقَه » [متفق عليه ورواه أبو هريرة] . أى : لا يأمنُ دَواهِيَه وشُرورَه ، فانظُر إلى تكرار القسَمِ وما يُفِيدُه من تأكيدِ فظاعةِ عَمَلِ من يُؤذى جيرانه ، مِمَّا يجعلُهم غيرَ مُطمئنين لهذه الجيرةِ التى لا تخشى اللَّهَ عزَّ وجلَّ ولا ترعى حقَّ الجوار ، وفى لفظٍ عند مسلـم : « لا يدخُل الجنةَ مَن لا يأمنُ جارُه بوائِقَه » . وهذا نذيرٌ عظيـم ، وتخويفٌ جسيـمٌ من إيصال الشرِّ والسوءِ إلى الجيران ، إذ الجارُ له حقوقٌ سواء كان مسلـمًا أو غيرَ مسلـم ، قريبًا أو أجنبيًّا عنه .

ومن حقوق الجار : من حق الجار إلقاءُ السلامِ عليه ، وزيارتُه فى مرضه ، ومواساتُه فى شدائده ، والـمحاماةُ عنه عند من يَظلِمُه ، وإيناسُه بالهديَّة ، وتوجيهُ الأَولاد بِحُسن معاملةِ أولاده ، ومن حقِّ الجار حِفظُه إذا غاب ، والتغاضى عن هَفْوته إذا هفا ، وحضورُ جنازته ، والأَخذُ بيده إن كان ضعيفًا ، ومعاونتُه إذا كان فقيرًا ، وإدخالُ السرورِ على قلبه بكل الوسائلِ فى حدود الآدابِ الـمرعيةِ والتوجيهاتِ الشرعية ؛ التى هى حدودٌ ومعالـمُ للرقىِّ الاجتماعى وللسعادة الأُخروية .

---

(١) « قيل : ومن يا رسول اللَّه ؟ » أى : من الذى لا يؤمن ؟ والواو فى قولهم : « ومَن » إما زائدة أو استئنافية ، أو عاطفة على شئ مقدَّر نحو : أى : عرفنا ذلك ومن المحدَّثُ عنه ؟ أو : سمعنا هذا وما سمعنا من هو ؟ .

القدوةُ الحسنةُ والتوجيهاتُ الاجتماعيةُ الرشيدة :

لقد كان الهادى الحبيبُ ﷺ يوسِّعُ على أهله فى عيد الأضحى ، ويسعى للتوسعة على جيرانه وعلى أهلِ الذمةِ منهم بصفةٍ خاصة . وفى الحديث الذى أخرجه البخاريُّ أن عائشةَ رضى اللَّه عنها سألت الرسول ﷺ فقالتْ : إنَّ لى جارَيْن فإلى أيِّهما أُهدى ؟ قال : « إلى أقرَبِهما مِنك بابًا » . وهذا فيه حكمةٌ عالية ؛ لأن تعاطُفَ الجيران ، وتآلفهم ، وصفاءَ نفوسِهم ، يحققُ لهم مصالحَ جمةً ، ويكون دِعامةً قويةً لأمنِ الجماعةِ وسلامتِها ، وإن الهديةَ وإن صَغُرت تُزيلُ من القلوب شوائبَ الغيظِ والحقدِ والحسدِ ، وما قد يعلَقُ بها من سوءِ ظنٍّ .

ومن توجيهه للنساء قولهُ ﷺ : « لا تَحْقِرَنَّ جَارةٌ لجَارَتِها وَلوْ فِرْسِنَ شاةٍ »

[أخرجه البخارى ورواه أبو هريرة] .

والفِرسِنُ : مَثَلٌ لأدنَى ما تطيبُ به النفوسُ من الهدية ، وهو القطعةُ من الأكارع ، وهو عَظْمٌ قليلُ اللحم من أسفلِ ساقِ البهيمة ، وقد جاء ذلك فى الحثِّ على تقديم الهدية وقَبولِها ، فالجارةُ تُهدِى جارتَها ما تَقدِرُ عليه ، ولو كان شيئًا يسيرًا ، وهذا يفتح أمامنا بابًا عظيمًا من التوادِّ ، والتحابِّ ، وتأليفِ القلوب ، بتعاهُدِ الجيرانِ والأرحامِ بما يُدخِلُ السرورَ إلى نفوسهم ، ويزيل كلَّ أسباب الشحناءِ والبغضاء بفضل اللَّه ورحمتِه ، ومثل ما جاء فى هذه الوصية تجدُه فى قول أبى ذرٍّ رضى اللَّه عنه : « أوصانى خليلى ﷺ بثلاث : منها « إذا طبختَ مرقةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا ، ثم انْظُرْ أهْلَ بيتٍ من جِيرَانِكَ فَأَصِبْهُم مِنها بمَعْروفٍ » .

[أخرجه مسلم والبخارى فى الأدب المفرد] .

وتأمل قوله : « فأكثِر ماءَها » ولم يقلْ « فأكثر لحمَها » . لِحضِّ النفوسِ على التراحم ولو بالقليل وبما لا ثَمَنَ له ، وهو من قَبيل المَثَل الذى يُقرِّبُ المعنَى

المراد ، ويشوقُ النفوسَ لمعالى الأمورِ ، والإقبال على المروءاتِ ، كلٌّ بقَدْرِ جهده .

ومن تَراحُم الجيران :

وإنَّ الجارَ الحكيم يتعاهدُ جارَه بالنصيحة برفق ولين إذا رأى منه إساءة ويُوَجِّهُهُ إلى خيرٍ ينفعه ، ويُحَذِّرُه مِمَّا يضرُّه ، ومع ترْكِ الإضرارِ به يَعِظُه بالحُسنى ، ويساعدُه على التوافقِ مع جيرانِه : بِحُسن القول ، ولِينِ الجانبِ ، وغضِّ البصر ، وَسترِ الزلةِ ، وإشغالِ نفسِه بعيوبه عن عيوبِ غيرِه . وَإنْ رأى الجارُ الحكيمُ أنَّ فى هَجْرِ أحدِ الجيرانِ خيرًا لكى يعرفَ مساوئَ نفسِه ويسعى لإصلاح حَالِها ، مع إشعارِه بالسبب بِلُطفٍ فليفعلْ ، إذ التناصحُ بين المسلمين أمرٌ واجب .

توجيهٌ ومنهجٌ اجتماعىٌ سام :

وتأمل ثناءَ رسولِ اللّٰه ﷺ علىَ الصاحب الذى يُحسِن الصحبة ، ويُعينُ على الاستقامة ، وعلى الجارِ المخلصِ الأمينِ الدءوبِ على إيصالِ الخير يقول عليه السلام فى الحديث الذى رواه ابن عمرو رضى اللّٰه عنهما : « خَيرُ الأصحابِ عند اللّٰه تعالى خَيرُهم لصاحبه ، وخَيرُ الجيرانِ عند اللّٰهِ تعالى خيرهُم لجارِه » .

[رواه الترمذى وقال : حديث حسن] .

وفيه توجيهٌ شاملٌ لمكارم الأخلاقِ والتواصى بالحق ، والعمل بإخلاصٍ لتحقيق التوافقِ الاجتماعىِّ المؤسَّس على الفضائل العاليةِ التى جاءنا بها دينُ اللّٰهِ عزَّ وجلَّ لخير الدنيا والآخرة .

إنَّ الجيرةَ فى الإسلام أمانةٌ ، ينهضُ بتبعاتها أصحابُ العزائم القوية والأخلاقِ الكريمة ، الراغبين فيما عند اللّٰه من النعيم والرحمة ، وقد تأكَّدت الوصيةُ بالجار فى كتاب اللّٰهِ وسنةِ رسولهِ ﷺ ، فَمن حَفِظَها حَفِظَهُ اللّٰهُ بإحسانه

وفضلِه ، ومن ضَيَّعها كان مَحلًّا لسخَطِ اللّه ، وغضَبِه . وقد جاء تأكيدُ الوصيةِ بالإحسان إلى الجار فى سياق الأمرِ بالتوحيد والنهى عن الشرك ، والوصيةِ برعايةِ حقِّ الوالدين ، والقرابةِ ، فى قوله سبحانه من سورة النساء : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ . [النساء : ٣٦] .

إن هذه الوصايا من الدعائم الراسخةِ للبنيان الاجتماعى السليم المتوازنِ الذى يحفظ على أهله أمنَهُم واستقرارَهم وطمأنينةَ نفوسِهم .

* * *

حديث قدسى : اللّه يحب مكارم الأخلاق ويدعونا إلى التراحم

أخرج مسلم عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « إن اللّه عز وجل يقول يومَ القيامة : يا ابنَ آدمَ ، مرِضتُ فلم تعُدْنى قال : ياربِّ ، وكيف أعودك وأنت ربُّ العالَمين ؟ قال : أمَا علمتَ أن عبدى فلانًا مَرِضَ فلم تعُدْه ؟ أما علمتَ أنك لو عُدْتَهُ لوجدتَنى عنده ؟ .

يا ابنَ آدم ، استطعمتُكَ فلم تُطعمنى ، قال : يا ربِّ ، وكيف أُطعِمُكَ وأنت ربُّ العالمين ؟ قال : أمَا علمتَ أنه استطعمَكَ عبدى فلانٌ فلم تُطعِمه ؟ أمَا علمتَ أنك لو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندى ؟ .

يا ابنَ آدم استسقيتُك فلم تَسْقنى ، قال : يا ربِّ كيف أسقيكَ ، وأنت ربُّ العالَمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلانٌ فلم تَسْقِه ، أمَا إنك لو سَقيتَه لوجدتَ ذلك عندى » .

* * *

(١٢) يا ربِّ : سَلْ هذا فِيمَ قتلنى ؟

« نَتواصَى باحتـــرام الدِّمـاءِ وبالقصـــاص
عن طريق القضاءِ والرِّضَا بحُكم الشرع » :

ولنتدبّر قولَ الحقّ تبارك وتعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] .

فى ظلال هذه الآيةِ جاء فى تفسير القرآنِ العظِيم للحافظ ابن كثير :

وهذا تهديدٌ شديد ، ووعيدٌ أكيد لمن تَعاطَى هذا الذنبَ العظيم الذى هو مقرونٌ بالشِّرك باللَّه فى غير ما آيةٍ فى كتاب اللَّه ؛ حيث يقول سبحانه فى سورةِ الفرقان : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ [الفرقان : ٦٨ و٦٩] .

والآيات فى هذا كثيرة . [انتهى كلام ابن كثير] .

فى السُّنَّة بيانُ تأكيدِ حُرْمة دَم الإنسان :

أما الأحاديثُ فى تحريم القتل فكثيرةٌ جدًّا من ذلك : ما جاء عن عبد اللَّه بن مسعود فى الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال : « أولُ ما يُقضَى بين الناس يومَ القيامةِ فى الدماء » [متفق عليه] .

فيه دليلٌ على عِظم شأن دم الإنسانِ ، فإنه لا يُقدَّم فى القضاء إلا الأهمُّ ، وهذا التقديمُ فيما يتعلّق بحقوق المخلوق .

أما فيما يتعلقُ بحقوق الخالقِ فأولُ ما يُحاسَب عليه العبدُ من الأعمال صلاتُه ؛ كما عند أصحاب السنن من حديث أبى هريرة ، وقد أخرج النسائى من حديث ابن مسعود : « أول ما يُحاسَب عليه العبدُ صلاتُه ، وأولُ ما يُقضَى بين الناسِ فى الدِّماء » فذاك فى أوليّة الحساب ، وهذا فى أوليّة القضاء ويأتى كلُّ قتيل قد حَمل رأسَه يقول : يا ربِّ سَلْ هذا فِيمَ قتلنى ؟ .

وعند أبى داود عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لا يزالُ العبد مُعنقًا صالحًا ما لم يُصِبْ دمًا حرامًا ، فإذا أصاب دمًا حرامًا بَلَّح » .

مُعنقًا : أى مُسرعًا ماضيًا فى طاعة اللّه عز وجل .

بَلَّح : أى انقطع من الإعياء فلم يَقدِر أن يتحرك ، وهذا تمثيلٌ يوضح المعنى المراد وهو : أن الاجتراءَ على إزهاق نفسٍ بدون حقٍّ يقطعُ على صاحبه حُسْنَ عملِه واجتهادَه فى طاعة ربِّه ، فيُفسد عليه مَسيرتَه باختياره هذه الفعلةَ الشنيعةَ والجُرمَ الفظيع ، وقد مثَّله بمَن هو فى نشاطه وحَيويته يَمضِى قُدمًا إلى الأمام بسرعة وخِفَّة وفجأة تقفُ فى طريقه عَقبةٌ تُوقِفه وتمنعُه من المُضِىِّ وتُغيبه ، وهذه العقبةُ هى اقتحامُ حَدٍّ من حدود اللّه ، والاجتراءُ على النفس البشرية ، وإن الحق تبارك وتعالى يُنبه على فظاعة هذا العمل ردْعًا عنه فى مثل قوله سبحانه : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة : ٣٢] .

فانظر إلى وحدةِ النفوس البشرية أو تَساويها فى حقِّ الحياة ، فلا تُهدَرُ نفس إلا بحق : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة : ١٧٩] . إذ القصاصُ شريعةُ العدلِ والحِكمةِ الخالدة ، والقِصاصُ يجعل المرءَ يفكِّر ألفَ مرةٍ وألفًا قبل أن يُقدمَ على

قتل نفس بغير نفسٍ وبالطريق الشرعىّ السليم الذى يؤكّد لنا أن يُوكَلُ إلى الحاكم أو القاضى أن يتولّى الأمرَ فيه ، حتى يأتىَ الحكُم فى موقعِه الذى يَشْفِى النفوسَ ، ويحقق العدالة ، أو يمنعُ من التهوُّر ، ويكفُّ خيالَ ذوى الثأر وعواطفهم الجامحةَ عن الفَورانِ والغلَيان المدمِّر .

إذ الاندفاعُ فى أخذ الثأر بواسطة ولىّ المقتول أو قريبه فيه تجاوزٌ ويُضعف الإيمان ، وفيه دلالةٌ على السُخط ، والعياذُ باللّه ، وعلى إحداث نُتوءِ فِتَنٍ تُسبب القلقَ والتربصَ والتوجُّسَ والحذر ، وإقلاقَ الصِّغار وإزعاجَ الأُسَرِ الآمنةِ وغير ذلك من المساوئ الاجتماعيةِ والاقتصادية مع فقدانِ نعمةِ الأمن التى هى من أجلِّ النِّعم على الإنسان ، لذا كان المُقدِمُ على هذا الجُرم الشنيع مَحِلًّا لغضب اللّه وسخطه .

وقد جاء عند مسلم والترمذى : « لَزَوالُ الدنيا أهونُ عند اللّه من قَتْل رجل مُسلم » وفى الحديث عن أبى بَكْرة عند الطبرانى فى الصغير : « لو اجتمع أهلُ السماواتِ والأرضِ على قتل رجل مسلم لكبَّهم اللّهُ جميعًا على وجوههم فى النار » . أو كما قال ، وفى سنن ابن ماجة أيضًا عن أبى هريرة : « من أعان على قَتل مُسلم بِشَطْرِ كلمةٍ لقِىَ اللّهَ مكتوبًا بين عينيه : آيسٌ من رحمة اللّه » .

وفى هذا تعظيمٌ لحُرمة المسلم ، وأنه لا يجوزُ لأحد أن يستحلَّ دمَه ولا دمَ أىِّ إنسان من أىِّ دينٍ كان ، فالدماءُ مُحترمةٌ كما أن الحقوق الماليةَ والدينيةَ والمعتقَداتِ لا يجوز انتهاكُها بأى حالٍ من الأحوال ؛ إلا ما كان عن طريق القضاء الذى ينظر فى الأمر من جوانبه الشرعيةِ المتعددة ويَحكم بما يراه محقِّقًا لأمر اللّهِ ورسوله ، مؤكّدًا للعدالة والحق كما جاء فى شرع اللّه .

وقد بين رسولُ اللّه ﷺ فى حديث أبى شُريح الخزاعى رضى اللّه عنه عند أبى داود : أن من أُصيب بدم فهو بالخيار بين إحدى ثلاث ، فإن أراد الرابعةَ

فخذوا على يديه ، والثلاثُ هى :

- أن يُقتل القاتلُ قصاصًا على مُقتضَى الشرع .

- أو يعفوَ أولياءُ الدم . - أو يأخذوا الدية .

ثم بيَّن ﷺ أنَّ من اختار واحدةً من هذه الثلاث ثم عاد إلى الأخذ بالثأر ، فإنَّ له نارَ جهنمَ خالدًا مُخلَّدًا فيها أبدًا .

هل للمتجرِّئ توبة ؟ :

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ الآية [النساء: ٩٣] . فقال : « لم ينسخها شىء » [سنن أبى داود وأحمد] .

وسأل سعيدُ بن جبير ابنَ عباس عن هذه الآية فقال : إن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائعَ الإسلام ، ثم قَتل مؤمنًا متعمدًا ، فجزاؤه جهنمُ ، ولا توبةَ له .

قال سعيد : فذكرتُ ذلك لمجاهد فقال : « إلَّا مَن نَدِمَ » . أى : إلا من تاب إلى اللَّه وندم على ما اقترف وكانت توبته وندمُه من قلبه بإخلاص وثباتٍ على طاعة اللَّه عز وجل .

موقفه شديد يوم القيامة :

واللَّه وحده أعلمُ بحال قاتِل النفسِ بغير حقٍّ قاصدًا عامدًا وأعلم بمصيره يومَ القيامة ! جاء عند الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس : أن رجلًا أتاه فسأله : أرأيتَ رجلًا قتل رجلًا متعمدًا ؟ فقال : ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ .

أى جزاء القاتِلِ المُتعمِّد لإزهاقه نفسًا بريئة ، قال أى ابن عباس : لقد نزلت فى آخر ما نزل ، ما نَسخها شىءٌ حتى قُبض رسولُ اللَّه ﷺ ، وما نزل وحْى بعد

رسول الله ﷺ .

قال السائل : أرأيتَ إن تابَ وآمنَ وعَمِل صالحًا ثم اهتدى ؟ قال : وأنَّى له بالتوبة ، وقد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « ثكِلته أمُّه ، رجلٌ قتل رجلًا مُتعمدًا ، يجيءُ يومَ القيامةِ آخذًا قاتِلَه بيـمينه أو بيساره ، وآخذًا رأسَه بيـمينه أو بشماله تشخبُ أوْدَاجُه دمًا فى قُبُل العرش يقول : يا ربِّ سَلْ عبدَكَ فِيـم قتلَنى »

[وقد رُوى هذا عن ابن عباس من طرق متعددة] .

وفى رواية ابن مسعود عند أبى بكر بن مردويه فى تفسيره : « يجىءُ الـمقتولُ متعلقًا بقاتله يومَ القيامة ، آخذًا رأسَه بيده الأخرى فيقول : يا ربِّ سَلْ هذا فِيـمَ قَتلنى ؟ » .

وقد جاء الوعيد الشديد أيضًا فى الحديث الذى رواه معاوية رضى الله عنه ، وجاء عند أحمد والنسائى والحاكم بلفظ : « كلُّ ذنبٍ عسى اللَّهُ أن يغفِرَه إلا الرجلَ يـموتُ كافرًا ، أو الرجلَ يَقْتل مؤمنًا مُتعمِّدًا » . أى : إلا ذنبَ الرجل يـموت مصرًّا على كفره ، وذنبَ القاتل عن عمدٍ وقصد ؛ فإنه لو مات حالَ قتلِه أخاه أو قبلَ أن يتوبَ توبةً نصوحًا بشروطها مع الندم وإخلاصِ الطاعةِ ، فإنه يـموت بهذا الذنب العظيـم ويُطردُ من رحمة الله عز وجل ، أعاذنا الله من غضبه سبحانه ونسأله رحمته بإحسانه .

إن الإقدامَ على هذه الجريـمةِ الشنعاء عملٌ ينافى العقلَ السليـم والفكرَ الـمستقيـم ، كما أنه يُضادُّ صريحَ ما جاء فى القرآن العظيـم بهذا الشأن ، وما جاء فى السنة النبوية الـمطهرة .

لا يأس من رحمة الله لـمن تاب بإخلاص :

الذى عليه الجمهور من سلَف الأمةِ وخلَفها : أن القاتل له توبةٌ فيـما بينه وبين

ربَّه عز وجل ، فإن تاب وأناب ، وخشع وخضع ، وعمل عملًا صالحًا بدَّل اللَّه - بفضله - سيئاته حسناتٍ ، وعوَّض - بفضله - المقتولَ من ظُلامته وأرضاه عن طِلابته - إن شاء سبحانه - كما جاء فى الآيات من سورة الفرقان : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٧٠] .

وإنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ دعا المُسْرِفين من عباده إلى عدم اليأس من رحمته ليبادروا إلى التوبة والإنابة والاستغفار والندم ، مع الإقلاع عن المعصية والمداومة على الطاعة والإخلاص فيها ، وهو سبحانه بفضله وإحسانه يغفرُ ما دونَ الشِّرك من الذنوب لمن يشاء من الموحِّدين المؤمنين الذين أخلصوا التوحيد حتى الموت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء : ٤٨] .

وتبقى للقاتل التائب مطالبةُ المقتولِ يومَ القيامةِ ؛ لأن ذلك حقٌّ من حقوق الآدميين كسائر الحقوق ، فعلى التائب أن يُديمَ الندمَ والاستغفارَ والإكثار من الصالحات ، مع محاولةِ كسبِ مَوَّدةِ أولياءِ المقتول وتسامُحِهم واللَّه يتولَّى أمورَ عبادِه عند الحساب ، والرجاءُ فى عفوه عظيمٌ وفى إرضاءِ المظلوم والتخفيف عن عبده التائب ، أو التجاوز عنه بمقتضَى حكمته ورحمتِه وعدْله ومشيئته سبحانه .

من طلب ثأره من غير القاتل :

فى حديث ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « إن أعتَى الناسِ على اللَّه ثلاثة : من قَتَلَ فى حَرَم اللَّه ، أو قَتَل غيرَ قاتله ، أو قَتَلَ لذَحْلِ الجاهلية » .

[أخرجه ابن حبان فى حديث صحيحه] .

وأعتى : اسم تفضيل من العُتوِّ وهو التجبُّر .

والحديث يدل على أن هؤلاء الثلاثة أزيدُ فى العُتوّ على غيرهم من العُتاة .

وفيه تأكيدُ حُرمةِ الحرَم وأمنِه ، ويشملُ ذلك الحرمَ المكيَّ والمدنيَّ ، وفيه - أيضًا - بيانُ زيادةِ جُرم الذى يُبالغ فى أخذ ثأره من خصومه الذين قَتَلَ واحدٌ منهم أحدَ أقاربه ، فيسعى لأخذ ثأره بنفسه دون الرجوع إلى القضاء ، وهذا خطأ فاحشٌ لأن تلك مسؤوليةُ القضاء الذى يتحرَّى الأمور ، وأفظعُ من هذا كما بيّن هذا الحديث أن يسعى وليُّ المقتول أو بعضُ أهله لقتل أىِّ شخص يَمتُّ للقاتل بصلة سواءٌ أراده وحده أم بالغَ فى زيادة العدد مقابلَ جنايةِ أحدهم ، « أو قَتَل غير قاتله » أى أسرف على نفسه واشتطّ ؛ فجنى على برىء ، وهذا عملٌ ينافى سلامةَ الدِّين ، وصدقَ اليقين والخوفَ من ربِّ العالمين ، ولو جرت الأمورُ وراء العواطف الثائرة غيرِ الشريفة على هذا النحو لَعَدِم الناسُ الاستقرارَ والأمن ، ولهذا كان مِثلُ هذا النوعِ من الناس أكثرَ الناس تَجبُّرًا وطُغيانًا وإثمًا .

والصنف الثالث : هو الذى يُحيى العصبياتِ القديمة ، ويُثير نارَ العداواتِ الكامنةَ ، فيقوم يطالب بدمٍ وثأرٍ كان لهم فى الجاهلية من أهل الإسلام .

والذَّحْلُ بفتح الذال وسكون الحاء : العداوةُ والثأر .

إن أهل العقلِ والبصيرة ينبغى لهم أن يتدبروا فى العواقب ، وأن يراقبوا اللَّه فى تصرفاتهم وأعمالهم ، وأن يُعينوا على تحقيق أمن الناس واستقرارهم وأن يؤمنوا بقضاء اللَّه وقدرِه ، ويخضعوا لأمره ونهيه ، ويتَّبعوا ما شرعه لهم فى كل الأمور والأحوال ، ففى ذلك سعادتُهم ورضَا اللَّهِ عنهم ، وخلاصُهم وفوزُهم ، يقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

إن الهوى يُضِلّ الإنسان ويُبعدُه عن طريق اللَّه ، وإن تحكيمَ الشرع

والخضوعَ للقرآن والسنةِ فيه النورُ والهُدى والأمْنُ وسلامةُ النفوس واتزانُها وسلامةُ الأمةِ والجماعةِ ، وكثرةُ خيرها ، واللَّه أعلـم .

توجيهات ومبادئ وأحكام للتأمل والنظر :

جاء عن عائشة رضى اللَّه عنها أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لا يَحِلُّ قتلُ مسلـم إلا بإحدى ثلاثِ خصالٍ : زانٍ مُحصَن فيُرجَم ، ورجلٍ يقتل مسلـمًا متعمدًا فيُقْتَل ، ورجلٍ يخرج من الإسلام فيحارِبُ اللَّهَ ورسولَه فيُقتل ، أو يُصلَب ، أو يُنفَى من الأرض » [أخرجه أبو داود والنسائى وصححه الحاكم] .

وهذا الحديث فيه نوعُ تفسير لـما جاء فى الحديث الذى رواه ابن مسعود ، ولفظه : « لا يَحِلُّ دمُ امرئ مسلـم يشهد أن لا إله إلا اللَّه ، وأنّى رسولُ اللَّه إلا بإحدى ثلاث : الثيِّبُ الزانى ، والنفسُ بالنفس ، والتاركُ لدينه الـمفارقُ للجماعة » [متفق عليه] .

وعند النسائى من رواية أبى بكْرةَ أن رسولَ اللَّه ﷺ قال : « مَن قتل رجلًا من أهلِ الذِّمَّةِ لـم يَجِد ريحَ الجنةِ ، وإن رِيحَها ليُوجَدُ من مسيرةِ سبعين عامًا » .

وعن عبادةَ بن الصامت رضى اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « مَن قتَلَ مؤمنًا فاغتبطَ لـم يقبلِ اللَّهُ منه صَرْفًا ولا عدلًا » . أى : لا يقبل منه فريضة ولا نفلًا .

فالحمد لله على نعمة الإسلام وعلى الهداية إلى ما فيه سلامةُ الأنام وأمنُ الإنسانِ واستقرارُه وطمأنينتُه فى ظلِّ عدالةِ الشريعة السمحة وفى ظلِّ رِقابةِ الإيمانِ وإحياءِ القلوبِ بنور القرآن .

* * *

(١٣) باب التوبة رحمةٌ عظيمة

جاء فى الحديث القدسى الذى أخرجه مسلم والنسائى والترمذى عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه ، أن النبىَّ ﷺ قال : « إن اللَّه كتب على نفسه : إن رحمتى تغلبُ غضبى » [حديث حسن صحيح غريب] .

وقد جاء عند البخارى بلفظ : « إن رحمتى تَغلب غضبى » . وبلفظ : « إن رحمتى سبقت غضبى » . وبلفظ : « إن رحمتى غلبتْ غضبى » .

[كتاب التوحيد من الصحيح] .

هذا الحديثُ القدسىُّ يفتح بابَ الرجاء فى عفو اللَّه ومغفرتِه أمام العباد ، فمن ندم وتاب من المعاصى ، وأقلع عن ذنبه ، واستغفر ربَّه ، وجد ربًّا رحيمًا يغفر الذنب ، ويقبل التوب ، ولولا رحمتُه سبحانه وتعالى بالعباد ما هَنِئَ أحدٌ بعيش ، وبرحمته يُرزقُ الخلق ، وإننا لنرى أن رحمة اللَّه عز وجل تشمل المؤمنَ والكافر ، والعاصىَ والمطيع ، كلٌّ يَنْعَمُ بما أفاء اللَّه عليه من النعم العامةِ والخاصةِ فى الدنيا ، كما تشمل رحمتُه سبحانه الإنسانَ جنينًا ، ورضيعًا ، وفطيمًا ، وناشئًا ، وإن الآياتِ الكونيةَ تشهدُ بوحدانية الخالق وكمال قدرته وكمال رحمته .

وهو سبحانه إذا أثاب أهلَ الطاعة فى الآخرة فإنما يُثيبهم برحمته ويُدخلهم جناتِ النعيم بفضله وعفوه وإحسانه إليهم ؛ لأن طاعةَ المؤمنِ لا تكافئ نعمةً واحدة من نِعَم اللَّه عليه : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

وهو سبحانه إذا عاقب أهلَ الكفر والمعصيةِ فإنما يُعاقبهم بِعَدْله ، ولا يَظلمُ ربُّك أحدًا : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن

كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] .

وفى الحديث القدسى الذى رواه أبو ذرٍّ الغفارى فيما يرويه النبى ﷺ عن رب العزة قال : « يا عبادى إنى حرَّمتُ الظلمَ على نفسى وجعلته بينكم مُحرَّمًا فلاَ تَظَّالـمُوا » [لفظ مسلم] .

سبحانه وتعالى جل شأنه ، وهو القائل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس : ٤٤] .

ومن كمال رحمته بالعباد أنه سبحانه يدعونا إلى عدم الغَفلة عن التوبة والاستغفار ، ويفتح لنا بفضله بابَ الرجاء والطمع فى عفوه ، كما فى الحديث القدسى الذى رواه أبو ذرٍّ : « يا عبادى ، إنكم تُخطئون بالليل والنهارِ وأنا أغفرُ الذنوبَ جميعًا فاستغفرونى أغفرْ لكم » [أخرجه مسلم] .

وقد خرَّج الترمذى وابن ماجة من حديث أنس رضى اللّه عنه ، أن النبى ﷺ قال : « كلُّ بنى آدمَ خطَّاء وخيرُ الخطائين التوَّابون » .

ومن دعاء الرسول ﷺ : « اللَّهمَّ اجعلْنى من الذين إذا أحسَنُوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا » [أخرجه أحمد من حديث عائشة] .

عدم الإصرار :

إن العبد التائبَ حقًّا يَقرِن بين الاستغفار باللسان ونيةِ التوبةِ بالقلب مع تأكيد العزم على عدم العودة إلى ما يُغضب اللّه عزَّ وجلَّ ، ذلك أن من قال : أستغفرُ اللّه بلسانه وقلبُه مصرٌّ على تلك المعصية ، فإن استغفاره يحتاجُ إلى استغفار .

قال ابنُ عباس رضى اللّه عنهما : « المستغفرُ من الذنب وهو مقيمٌ عليه كالمستهزئ بربِّه » . فالإقلاعُ عن المعصية ركنٌ من أركان التوبة النَّصوح .

التوبة باب رحمة عظيم :

ألا وإن الندم توبة ، وإن دموعَ الندم تغسلُ أدرانَ المعاصى ، وإن التوبة النَّصوحَ رحمةٌ ، وإن فى الاستغفار بركاتِ الدين والدنيا ، وقد خرَّج النسائى من حديث الأغرِّ المزنى أن النبى ﷺ قال : « يا أيها الناسُ توبوا إلى ربكم واستغفروه ، فإنى أتوبُ إلى اللّه وأستغفرُه كلَّ يوم مائةَ مرة » .

وشكا حذيفةُ بن اليمان من نفسه ذَرَبَ لسانِه وحِدَّته على أهله ، وتحدَّث بشكواه من نفسه إلى النبى ﷺ فقال له : « أين أنت من الاستغفار يا حذيفةُ ، إنى لأستغفرُ اللّه كلَّ يوم مائةَ مرة » [أخرجه أحمد] .

حقًّا إن الاستغفار مِمْحاة الذنب ، وإن فيه مع الإخلاص مَرضاةَ الرب ، وإن كثرة الاستغفار تأتى بالخير والغيث ، وتردُّ النقمَ ، وهو وصيةُ الأنبياءِ والمرسَلين لأممهم ، ولقد كان الأنبياءُ يفزعون إلى اللّه طالبين عفوه ومغفرته .

من دعاء الأنبياء :

ومن دعاء الأنبياء قولُ موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي ﴾ [القصص : ١٦] .

وقال نوح عليه السلام : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود : ٤٧] .

ومن دعاء آدمَ وحواء عليهما السلام : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

إن اللّه يحب من عباده أن يَعرفوه ، ويُحبوه ، ويخافوه ، ويتّقوه ، ويُطيعوه ويتقربوا إليه ، ويستغفروه ، ويسألوه من فضله ، فإنه لا يغفر الذنوبَ إلا هو ؛ كما فى الحديث القدسى الذى رواه أبو ذرٍّ : «من عَلِمَ منكم أنى ذو قُدرةٍ على المغفرة

ثم استغفرَنى غفرتُ له ولا أُبالى » .

إن الإنسان الحكيـم العاقلَ لا ييأس من رحمة اللّه ، ولا يُسوِّف التوبةَ ولا يعود إلى الـمعصية التى تاب منها وأقلع عنها ، ويكون شعاره دومًا : لا ملجأ من اللّه إلا إليه ، ويأخذ من نفسه لنفسه ، ومن شبابه فى طاعة اللّه لهَرَمِه ، ويأخذ من حياته مُجدًّا فى عمل الصالحات ، مجتهدًا فى الطاعات والقُربات ما يَجدُه عند موته ، ويأخذ من صحته ما يُعوِّضه عند مرضه وعجزه ، ومن غِناه ما يُوضع فى ميزان حسناتِه قبل فقره . ويكون العاقل دومًا على الصبرِ والشكر ، راضيًا عن اللّه ، راضيًا عن قدَره ، مشغولًا عن العبث واللّهو بذكر اللّه وتلاوةِ قرآنه ، والفكرِ في الـمآل والـمصير .

وفى الحديث : « واللّهِ ، لَلّهُ أرحمُ بعبده من الوالدة بولدها » .

[أخرجه فى الصحيح] .

ومن دعاء الرسول ﷺ : « أعوذ برضاكَ من سَخَطِكَ ، وبمعافاتك من عُقوبتك ، وأعوذُ بك منك » .

وفى الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه قال أبو هريرة : قال رسول اللّه ﷺ : قال اللّه تعالى – فى الحديث القدسى – (*) : « أنا عند ظنِّ عبدى بى

(*) فائدة : الحديث القدسى :

– معناه – الفرق بينه وبين القرآن الكريم . – الفرق بينه وبين الحديث النبوى .

(أ) تعريف :

١ – القدسُ : بضم الدال وسكونها معناه الطهر بضم الطاء ، وقولنا : الأرض المقدسة أى : الأرض المطهرة المباركة .

وتقدس اللّه عز وجل : أى : تنزّه عن أن يشبهه أحد من خلقه ، فله سبحانه كلُّ صفات الكمال وكل نعوت الجلال والجمال وإن كل ما خطر ببالك فاللّه بخلاف ذلك .
=

وأنا معه حيث يذكرني ، واللهِ ، لَلّهُ أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم يَجدُ ضالّتَه

= ٢- الحديث القدسى : هو ما أضيف معناه إلى الله وحده ، وهو ما أخبر الله به نبيّه ﷺ بالإلهام أو بالمنام أو بالوحى ، فأخبر النبىُّ ﷺ عن ذلك بعبارة نفسِه أى بألفاظ من عنده . قال العلماء : الحديث القدسى ما يرويه النبىُّ ﷺ عن الله تبارك وتعالى : تارةً بواسطة جبريل- عليه السلام- وتارة بالوحى أو بالإلهام أو المنام ، مُفوِّضًا إليه التعبير بأية عبارة شاء من أنواع الكلام .

ويسمى بالحديث القدسى ، والإلهى ، والربانى .

(ب) من الفروق بين الحديث القدسى والقرآن الكريم :

١- القرآن الكريم نزل باللفظ والمعنى ، والحديث القدسى نزل بالمعنى وعبّر عنه النبىُّ ﷺ بلفظ من عنده ، ولذا قد تختلف الروايات فى بعض ألفاظ وعبارات الحديث القدسى الواحد .

٢- نزول القرآن تم بواسطة الروح الأمين جبريل عليه السلام .

٣- القرآن لفظ معجزٌ ، به يتم التحدّى إلى يوم القيامة ، والحديث القدسى غير معجز وإن كان فى طبقة عالية من البلاغة وقوة الأداء .

٤- الصلاة لا تصح ولا تكون إلا بالقرآن بخلاف الحديث القدسى فإن الصلاة لا تصح به بل وتبطل صلاةُ من صلى به .

٥- القرآن لا يُمسُّ إلا بالطهارة ويحرم على الجنب ونحوه قراءته ، والحديث القدسى يجوز مسّه من المحدث ويقرؤه الجنب والحائض والنفساء .

٦- إن جاحد القرآن أو آيةٍ منه يكفر بخلاف الحديث القدسى .

٧- تلاوة القرآن عبادة وله بكل حرف منه عشر حسنات بخلاف الحديث القدسى .

٨- راوى الحديث القدسى له صيغتان : إحداهما أن يقول : قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ، والقرآن لا يضاف إلا إليه سبحانه وتعالى .

(جـ) : من وجوه الفرق بين الحديث القدسى والحديث النبوى :

(١) الحديث القدسى هو الذى يرويه النبى عن ربه عز وجل ، والنبوى ما لا يكون كذلك فيقال فيه : قال رسول الله ﷺ .

(٢) الأحاديث النبوية هى المصدر الثانى للتشريع وبيان أحكام العبادات والمعاملات وتفصيل ما جاء مُجملًا فى القرآن الكريم وقد تستقل الأحاديث النبوية ببيان بعض الأحكام كتحريم الجمع =

بالفلاة ...» الحديث .

فاعفُ عنا ، واغفِر لنا ، وارْحمنا ، وتُبْ علينا ، وارْضَ عنَّا ، يا أرحمَ الرّاحمين ، يا ربَّ العالـمين .

* * *

= بين المرأة وخالتها أو بين المرأة وعمتها ، وكتحريم لحوم الحُمر الأهلية والكلاب ونحوهما ، ومنكر ذلك يكفر لأنه ينكر ما جاء متواترًا عن المعصوم ﷺ وما صار معلومًا من الدين بالضرورة ككيفية أداء الصلوات وتفاصيل أحكام الزكاة ونحو ذلك مما وضحته السنة النبوية وفصلته وجاء مجملًا فى كتاب اللّه عز وجل . والأحاديث النبوية كثيرة وشاملة .

– أما الأحاديث القدسية فهى أكثر من مائة ويغلب عليها الترغيبُ والترهيب والحثُّ على التزام الفضائل والتنفيرُ من الرذائل ، وكذلك بيان بعض أحوال اليوم الآخر ومشاهده ونحو ذلك مما يبعث على العمل لنيل ما عند اللّه من الرحمة والرضوان بعقيدة صحيحة ، وعملٍ صالح ، ونية صادقة ، وتجنب الحرام ، ومراقبةِ العليم الخبير فى السر والعلن .

(و) – والأحاديث النبوية نزلت بالمعنى وعبر عنها المعصوم ﷺ بلفظه كالأحاديث القدسية وهى – أيضًا – لا يُتعبد بتلاوتها ، ويجوز مَسُّها وقراءتها للمُحدِث ، ولا تصحُ بها الصلاة ، ويجوز روايتها بالمعنى واللّه أعلم .

(١٤) دروس لأهل البلاء ولأهل النّعماء
فى ضوء قصة أيوب عليه السلام فى القرآن الكريـم

قال اللّه تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣، ٨٤] .

إن اسمَ أيوبَ(*) اقترن بالصبر على البلاء الذى أصابه فى جسمه ، وفى أولاده وكانوا سبعةَ ذكورٍ وسبعَ إناثٍ ، ماتوا تحت سقفٍ واحدٍ وقع عليهم ، وأصابه فى ماله ، وكان كثيرَ الدُّور والـمالِ ذا ثراءٍ وافر .

فى غِناه :

إن أيوب فى غِناه كان جوادًا مِعطاء يحنو على الضعيف ، ويُطعم الجائع ويكسو العارىَ ، ولـم يَبِت ليلةً شبعان وهو يعلـم مكانَ إنسان جائع ، ولـم يحتفظ لنفسه بقميصين وهو يعلـم مكان إنسانٍ عارٍ ، بل كان يبذل الـمال لوجه اللّه ولشكر الـمنعم سخيةً نفسه .

(*) أيوب : كان روميًا وهو ابن أمواص من أسباط عِيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام .

وسُمى أيوب : لأنه كان أوّابًا من الأوْب وهو الرجوع إلى اللّه بالندم والاستغفار ، فقد كان عليه السلام كثير الإياب والرجوع إلى اللّه عز وجل .

وكانت له زوجة صالحة حفيدة نبى اللّه ورسوله يوسف بن يعقوب بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام .

فهى ما خير ابنة ميشا بن يوسف ، أو رحمة ابنة إفرائيم بن يوسف ، أو ليًا بنت مِنَشّا بن يوسف على الخلاف فى اسمها واسم أبيها .

فى بلائه :

وإن أيوبَ فى بلائه كان الراضِىَ بالقضاء، سَلِمتْ نفسُه الشريفة من الضَّجر والجزع، فضُرِب به المثلُ فى الصبر، وصار حالُه فى ضُرّه وفى كشف الضُّرِّ عنه تذكرةً وعبرةً لغيره من العابدين إلى يوم الدين، كان فى سَرّائه وضرّائه كثير الاستغفار والإيابِ إلى اللّٰه.

وأيوب عليه السلام من ولَد العِيص بنِ إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، وكانت له زوجةٌ صالحةٌ من ذرّية يعقوبَ بن إسحاق عليهما السلام.

حاله :

وقد رُوى أن اللّٰه عز وجل أرسل نبيَّه أيوبَ عليه السلام إلى أهل حَرّان وهى قرية بغوطة دمشق، وقد كثر مالُه وأهله، ثم مرض وبقى فى مرضه نحو ثمانى سنواتٍ فى أشهر الآراء، فقالت له امرأته يومًا: لو دعوتَ اللّٰه؟ فقال لها: كم كانت مدةُ الرخاء؟ فقالت: كانت ثمانين عامًا، فقال: إنى أستحيى من اللّٰه أن أدعوَه وما بلغت مدةُ بلائى مدةَ رخائى.

امتحَنَ اللّٰه أيوبَ فى بدنه، فمرض مرضًا شديدًا، فلم يشكُ ولم يتبَرَّم، ومع طول البلاء وشماتَةِ الأعداء تضرع إلى اللّٰه، وكان دعاؤه عَرْضًا عرَضَه على ربه، يُخبر بالذى وصلت إليه حالُه، صابرًا لِمَا يكون من اللّٰه تبارك وتعالى ابتغاءَ مرضاته.

توسَّل أيوبُ عليه السلام إلى اللّٰه بربوبيته وبرحمته، وبيَّن افتقاره إلى اللّٰه:
﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.
[الأنبياء: ٨٣].

وقد سُئل بعد كشف البلاءِ عنه، ما كان أشدُّ عليك فى بلائك؟ قال: شماتةُ الأعداء.

وكان قوله : ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ على وجه إظهار العجز والحاجة إلى رحمة الربِّ وحده ، وإنَّ الشكوى إلى اللَّه سبحانه لا تُنافى الصبرَ الجميل ، وإن الدعاءَ لا ينافى الرضا فقد قال اللَّه عن أيوب : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] .

أمَّا الذى ينافى الصبرَ فهو شكوى اللَّه ، لا الشكوى إلى اللَّه ، كما جاء فى نصيحة حكيم :

وإذا عَراك بليَّةٌ فاصْبِرْ لها ... صَبْرَ الكريم فإنه بِكَ أعلَمُ
وإذا شَكوْتَ إلى ابنِ آدمَ إنما ... تشكُو الرحيمَ إلى مَن لّا يرحَمُ

وإنه لا بأسَ أن يُخبر المريضُ مُجرَّدَ إخبارٍ بما يجده من ألم ويَصِفَه لطبيب ونحوه لا على سبيل الضجر والسخط ، ويُسنُّ له أن يبدأ بحمد اللَّه فيقول : الحمد لله أجِدُ كذا وكذا ، أو الحمد لله بى كذا وكذا من الأذى أو الوجع .

قال ابن مسعود كما عند الشيخين : « إذا كان الشكرُ قبل الشكوى فليس بشاكٍ » ، أى إذا بدأتَ بالحمد ثم وصفتَ ما بك فليس من الشكوى المذمومة .

إن الشفاء وإزالَة الهمّ أو الغمّ إنما هو من اللَّه وحده ، وإن فى الصبر والرضَا تكفيرَ السيئات ورفعَ الدرجات ، فعند الشيخين وأحمد عن أبى سعيد وأبى هريرة أن الرسول ﷺ قال : « ما يُصيب المؤمنَ من نَصب ولا وصَبٍ ولا همٌ ولا حَزنٍ ولا أذًى ولا غمٍّ حتى الشوكةِ يُشاكُها إلا كفَّر اللَّه بها من خطاياه » . وتلك بشارة عظيمة للمؤمن الصابر على البلاء الراضى بالقضاء .

وهذا الجزاءُ العظيم لمن صبر واحتسب ، كما فى حديث صُهيب عند مسلم : « عَجبًا لأمر المؤمن إن أمرَه كلَّه له خيرٌ ، وليس ذلك لأحد إلَّا للمؤمن ، إن أصابته سرَّاءُ شَكر ، فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضَرَّاءُ صَبر ، فكان

خيرًا له » .

الأنبياء مُنزَّهون :

إن الأنبياء مُنزَّهون بفضل اللّه عن الأمراض المُنفِّرة ، ولا يجوز بحال أن يكون مرضُ أيوبَ بصفةٍ يستقذرُه عليها الناسُ ، أما الفقر والمرضُ وموتُ الأولاد ، فيجوز أن يَمتحنَ اللّهُ أنبياءَه بذلك .

قال الألوسى : إن ما ابتُلى به أيوبُ لم يصل إلى حدِّ الاستقْذارِ والنُّفْرة من مرضه كما جاء فى بعض القصص ، وذكر بَعضهم أن داءه كان الجُدرى ، ولا أعتقد صحةَ ذلك .

سلامة العقيدة وصيانتها :

إن أيوب فى مرضه لم يغلبه شيطان إنسىٌّ ضالٌّ ولا جنىٌّ على صحة عقيدتِه وسلامة دينه ؛ أرسلوا له من يُغريه بالتوسُّل بما فيه شِرك ليبرأَ من مرضه ومَن يُغريه بشُرب ما هو مُحرَّم ، ونقلت إليه زوجتُه فى ذلك كلامًا قاله إبليسُ حين جاء إليها وهو فى صورة طبيب ؛ فقال عليه السلام : « قد أتاكِ الخبيثُ ؟! لِلّهِ علىَّ - أى نذرٌ أو يمين - إن بَرَأتُ أن أجلدَك مائةَ جلدة » .

الأخذ بالأسباب :

تَضرَّع أيوبُ متذللًا ، فقال له ربُّه كما جاء فى سورة ص : ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : ٤٣] . ورَكض الرجلُ المريض برِجله الأرضَ كما أمره ربُّه ، وخرج الماء ، واغتسل وشرِبَ ، فزال المرضُ الظاهرُ والباطنُ بأمرِ ربِّه وإذنه .

وردَّ اللّه عليه أهله ومثلَهُم معهم ، وردَّ عليه مالًا كثيرًا ، فقابل ذلك بالشكر والسرور والتواضع ، واستعان به على الاجتهاد فى طاعة اللّه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ

﴿ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٤٣] .

إخلاص الزوجة :

ومن العبر العظيمةِ إخلاصُ زوجته له وَدأبُها على راحته وخدمتِه حتى أنها اشتغلت فى البيوت لتحصلَ على الأجر ، وتنفقَ منه على بيتها وزوجها ، صبرت وخدمتْ وتعبت ، وباعت ضفيرتيها عند شدة الحاجة ، ولكنه فى غضبه حلف ليضربنَّها مائةً إذا شفاه اللَّه من مرضه .

فمنَّ اللَّه عليه وحلَّل يمينَه بأهونِ شيءٍ عليها وعليه ؛ لصبرها وأدبها وإخلاصِها : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص : ٤٤] .

أخذ قبضةً من الشجر فيها مائةُ عُودٍ ، والضِّغثُ : الحُزْمة من حشيش ونحوه .

لقد كان رحيمًا بالمساكين ، يكفلُ الأيتامَ والأرامل ، ويُكرم الغريب ويستقبل الضيفَ بما يملأُ قلبه سرورًا .

ومَـمَّا أغناه اللَّه به بعد زوالِ محنته ما جاء فى الحديث : « بينما أيوبُ يغتسل عُريانًا خرَّ عليه رِجْلُ جَرادٍ من ذَهَب ، فجعل أيوب يَحثُو فى ثَوبه فناداه ربُّه : ألـم أكن أغنيتُك عمَّا ترى ؟ قال : بَلَى وعِزَّتِك ، ولكن لا غِنى لى عن بركاتك » .

[أخرجه البخارى ومسلم] .

ورِجلُ الجرادِ أى : الجماعةُ الكثيرة من الجراد ، والمقصود ذَهبٌ كثير على هيئة جراد .

إن المؤمن الصالحَ يفرح للخير وتسعدُ نفسُه برحمة اللَّه ، والغِنى غِنى النفس .

وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة عند الشيخين : « ولـمَّا عافَى اللَّه أيوبَ أمطر عليه جرادًا من ذهب ، فجعل يأخذ بيده ، ويجعله فى ثوبه ، قال : فقيل له :

يا أيوبُ ، أما تشبع ؟ قال : يا ربِّ : ومَن يشبعُ من رحمتك » .

أسوة للعابدين :

لقد صار أيوبُ فى حالَى السرَّاء والضرَّاء أسوةً للعابدين الصالحين ، أسوة فى الصبر على مقدورات اللَّه ، وابتلائه لعباده الصالحين الشاكرين بما يشاء ليكونوا أهلًا لرحمته ورضوانه سبحانه .

وأثنى اللَّه على عبده الصالح الراضى المطمئنِّ القلبِ الساكنِ النفس : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [القصة فى سورة ص : الآيات ٤١ - ٤٤] .

وفى الحديث عند أصحاب السنن عن سعد بن أبى وقاص ، أن النبى ﷺ قال : « أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ، ثم الصالحون ، ثم الأمثلُ فالأمثل » .

وفى مسند أحمد : « يُبتلَى الرجلُ على قدْرِ دينِه ، فإن كان فى دينه صلابةٌ زِيدَ فى بلائه » .

إن قصة أيوب عليه السلام فيها لأهل التدبر والبصيرة عِبرٌ هادية وعظات تُفيدهم فى تصحيح نظرتهم إلى الحياة الدنيا ومتاعها ، وتؤكد لهم أنها دار ابتلاءٍ واختبار ، وأن العاقل حقًّا هو من رضى بقضاء اللَّه فصبر وشكر وعاش مطمئنَّ النفس ، ساكنَ القلب ، دَءوبًا على طاعة الرب ، عظيمَ الرجاء فى رحمته ، يسخو مع النعماء ، ويصبر عند الضرَّاء لا يشكو ولا يتبرَّم ، وهو فى أحواله كلِّها يعيش بقلبه مع اللَّه عزَّ وجلَّ ، ماضيًا فى طريق طاعته ، ساعيًا فيما فيه مرضاته .

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٢، ٣] .

* * *

(١٥) من أدب المسلم والمسلمة
عند المصيبة والتَّعزية

من أدب المسلم أنه يتعاطف مع أهله، وأصدقائه، وجيرانه، ومعارفه ويتراحم، ويُجامل، ويتواصل معهم بالودِّ والمرحمة، وإظهار الشفقة والمواساةِ عند فقد عزيزٍ لديهم.

ففى الثلاثة الأيام الأولى من حين الموتِ يذهبُ إليهم، ويقدِّم تعزيتَه؛ ففيها تسليةٌ وتصبير للقلب، وتأكيدٌ للترابط، فإذا كان غائبًا، أو عَلِم بعد مُضىِّ الأيام الثلاثة، قام بالسُّنَّة، وقدَّم عزاءه قائلًا: «أحْسَنَ اللَّهُ عزاءَك» ومعناها: رزقك اللَّه الصبرَ الحسنَ وملأ صدرك رِضًا بقضائه.

ومن الدعاء المستحبّ عند العزاء: «غفر اللَّه لميِّتكَ، وتجاوز عنه وتغمَّده برحمته، ورزقكَ الصبرَ على مصيبتك به، وأَجرَك على مَوْته».

وفى الحديث الشريف: «مَن عزَّى مصابًا فله مِثْلُ أجرِ صاحبه».

[أخرجه الترمذى عن ابن مسعود مرفوعًا وموقوفًا].

ومن عزاء الرسول ﷺ فى موت الولد أنه بعث إلى إحدى بناته، وابنُها يُحتَضَرُ من يقول لها: «إنَّ للهِ ما أخَذ، ولله ما أعْطى، وكلُّ شىءٍ عنده بأجلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ ولتحتَسِبْ» [أخرجه الخمسة إلا الترمذى].

ويستحبُ أن تكونَ التعزيةُ بعد الدَّفن، والأَوْلَى أن يتفرَّق الناسُ بعده ويُكرهُ تأبينُ الميّت، وتعدادُ مناقبه، ونصْبُ السُّرادقات لهذا الغرض، إذْ الغُلُوُّ فى المظاهر والنفقات لا يقبلُه الشرعُ، ويأثمُ أصحابُه، لأن الموتَ داعٍ إلى العظة

والعِبرة والتواضع ، وقبولِ العزاء على النحو الشرعى ، ويتمُّ العزاءُ لكل فردٍ مرةً واحدة ، بها يؤدِّى السنَّةَ وينصرفُ كلٌّ فى وجهته .

إذ الواجبُ على أهل الميت أن يستقبلوا قضاءَ اللّٰه بالرضا والصبر ويجتهدوا فى الدعاء لميِّتهم إن كانوا يحبُّونه حقًّا ، ويمنعُوا كلَّ رنَّةٍ أو صياح ، ولا يقولوا إلا ما يُرضى ربَّ العالمين ، كما قال عمر بنُ عبد العزيز لولده عبد الملك عند دفنه : « اللَّهم اغفِرْ لعبد الملِك ، ولمَن استغفر له » .

وكان رسول اللّٰه ﷺ إذا فرغوا من دفن الميت وقف فقال : « استغفروا لأخيكم ، وسَلُوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل » [رواه عثمان بن عفان وأخرجه أبو داود] .

أى : سامحوه واطلبوا من اللّٰه أن يغفرَ له ، وأن يثبِّته بكلمة الإيمان والملَكَان يسألانه : ما دينُك ، ومَن نبيُّك ؟ وأن يثبِّتَ قدميه على الصِّراط يوم الدين . والذى يحبُّ ميِّته ، ويُحبُّ الخيرَ لنفسه ، يتَّبع وصيَّةَ دينه ، ويعمل بها ويبتعدُ عن الرياء والبِدع والألفاظ المنكَرات .

إن المسلم حين يبلغه خبرُ الموت يسترجع مُقرًّا لله بالوحدانيةِ وبأننا مِلكُه ، وعبيدُه ، خَلقنا وإليه مَرجعنا ، وكلُّ شىء عنده بمقدار ولا ينفعنا إلا الصبر ، يقول المسلم : « إنا لله وإنا إليه راجعُون ، اللَّهمَّ آجِرْنى فى مُصيبتى وأَخلِف لى خيرًا منها » .

وعند الطبرانى فى الكبير فى الحديث الذى رواه ابن عباس : « مَن استرجَعَ عند المصيبة جَبَر اللّٰهُ مُصيبتَه ، وأحسَنَ عُقْباه ، وجَعَل له خلفًا يرضاه » .

من أفعال أهل الجهل :

ومن أدب المسلم عند المصيبة أنه يبرأ من أفعال أهلِ الجهل والجاهلية ، فهو : لا يذبحُ الذبائح عند خروج الميت من المنزل ، ولا عند القبر ، وفى

الحديث : « لا عَقْرَ فى الإسلام » أى : لا ذبحَ عند القبر بعد الدفن كما كان يفعل الجاهليون .

كما يمنعُ المسلمُ رَفْعَ الأصواتِ عند تشييع الجنازة ولو بذِكْر اللّه أو تلاوةِ القرآن ، بل يلزم المشيِّعُون السكينةَ والهدوء والتفكُّرَ فى المصير .

ومن المنكَرَات التى لا تَغيب عن بال المسلم أن يُسمح للنائحة أو غيرها بالنِّياحة لأن ذلك غِناؤها لأهل جهنَّمَ ، والعياذُ باللّه ، كما لا يُسمح فى التشييع بالموسيقى أو بالمجامر ونحو ذلك مما ينافى آدابَ الإسلام وتوصياته .

ولذا فإن على المسلم أن يوصى فى حياته بأنه برىءٌ من النياحة والنائحة ومن دعْوى الجاهلية ، ومن كل عملٍ أو لفظٍ يُغضب الرحمن ، ففى الحديث : « الميِّتُ يُعذَّب فى قبره بما نِيحَ عليه » .

[فى الصحيحين وعند ابن ماجة والنسائى من حديث عمر بن الخطاب] .

وفى الصحيحين : « مَن نيح عليه فإنه يُعذَّب بما نِيح عليه يومَ القيامة » .

[رواه المغيرة بن شعبة] .

فعلى المسلم أن يُعلم أهلَه وأحبابَه أنه برىء من ذلك وغيره حتى تسلَم له نفسُه بعد موته إذا حدث شىءٌ هو متبرِّئٌ منه بقلبه ولا يَرْضَى عنه .

وإن المسلم لا يتسخَّط إذا قُضِى له قضاء ، لأن التسخُّط والشَّكوى مما ينافى سلامةَ الإيمان ، وفى الحديث : « إن اللّه لا يُعَذِّبُ بدمْع العين ولا بحُزن القلب ، ولكن يُعذِّب بهذا – وأشار إلى لسانه – أو يَرحم » .

لذا تبرَّأ الرسولُ ﷺ ممن يفعل ما يُنافى الرِّضا والصبر والتسليم لقضاء اللّه ، من ذلك قوله : « ليس مِنَّا مَن ضَرَب الخدودَ ، وشقَّ الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » [أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما من حديث ابن مسعود] .

ودعوى الجاهلية هى الألفاظُ التى تدلُّ على التسخُّط ، والادِّعاء للميِّت بما ليس له ، فهو إنسانٌ كانت تَجرى عليه المقاديرُ بما هو مقسوم ، والمُعْطِى هو اللّه ، والناصرُ هو اللّه ، والرازقُ هو اللّه ، ولا يليق بمن فى قلبه إيمانٌ وتصديق أن ينسَى ذلك أبدًا . ومما يفسّر لنا دعوى الجاهلية ما جاء فى حديث أبى موسى عند ابن ماجة والترمذى ، قال رسول اللّه ﷺ : « ما مِن ميِّتٍ يقوم باكيهم فيقول : واجَبَلاه ، واسيِّداه ، أو نحو ذلك ، إلا وُكِّل له مَلكان يُلْهِزانه : أهكذا كنتَ ؟ » ومثلها قولهنَّ : واعضُداه ، وَاناصِرَاهُ ، وَاجَمَلَاه ونحو ذلك .

إن اللّه يغضبُ على « الصالقة » وهى التى ترفع صوتَها بالندب والنياحة وعلى « الحالقة » التى تَحلق من شعرها عند المصيبة ، وعلى « الشاقَّة » التى تُمزقُ أو تشقُّ من ثوبها عند الموت ، وقد تبرأ منهن ومن أمثالهنَّ حبيبُ الرحمن ﷺ .

* * *

فوائد :

ومن التوجيهات لأهل الميت :

* يُكره إعدادُ الطعام لمن يجتَمعُون عندهم للتعزية ، فإن كان فى الورثة يتامى قاصرون عن درجة البلوغ حَرُم ذلك عليهم .

* ويحرمُ صَرْفُ كلِّ ما فيه زيادة على الواجب الشَّرعى فى تجهيز الميِّت ودَفنه .

* ومن السنة أن يقدِّمَ الجيران والأقاربُ الطعامَ لأهل الميت وضيوفهم أيام الحداد الثلاثة ، كما قال النبى ﷺ لأهل بيته : « اصنَعُوا لآل جعفر - ابن أبى طالب - طَعامًا فإنهم قد أتاهم ما يَشغلُهم » أى جاءهم خبر استشهاده رضى اللّه عنه .

* الإحداد للمرأة يكون بترك الزينة ، والطِّيب ، والكُحلِ ، والادِّهان ولبس الجديد ، وإحدادُها على زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام ، وعلى ولدِها وأبيها وأخيها ونحوهم لا يزيد على ثلاثة أيام .

* المرأة لا تتبع الجنازة أبدًا ، ولا ثوابَ لها على زيارة القبور .

* مَن سبق منها نياحةٌ أو صُراخٌ أو ألفاظٌ من كلام الجاهلية فعليها أن تتوب إلى اللَّه توبةً نصوحًا وتلجأ إلى الاستغفار والذكر والصلاة وقراءة القرآن ، ولتقرأ هى وغيرها ما يلى : « إنَّ النائحة إذا ماتتْ ولم تَتُبْ ، قطع اللَّه لها ثيابًا من قطران ، ودِرعًا من لهبِ النار » .

إن المصيبة مُكفِّرة من سيئاتِ المؤمنين الصابرين : « وما يزال البلاءُ بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه ، وولده ، وماله حتى يَلقَى اللَّه وما عليه خطيئة » .

ومن أدب المسلم وتوجُّهاته أن يُعلِّم ذلك لأهله وأحبابه .

* * *

فائـــــدة :

كلماتٌ للتوسُّل قبل الدعاء :

« مَن دعا بهؤلاء الكلمات الخمس لم يسأل اللَّهَ شيئًا إلا أعطاه : لا إلهَ إلَّا اللَّهُ واللَّهُ أكبر ، لا إلهَ إلَّااللَّهُ وحده لا شريكَ له ، له الملكُ ، وله الحمدُ ، وهو على كلِّ شىءٍ قديرٌ ، لا إلهَ إلَّا اللَّهُ ، ولا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلَّا باللَّه » .

[أخرجه الطبرانى من حديث معاوية رضى اللَّه عنه فى الكبير والأوسط بإسناد حسن] .

* * *

(١٦) من التوجيهات المباركة
لإزالة الهمّ وقضاء الدَّين

جاء فى الحديث الشريف الذى رواه أبو هريرة رضى اللَّه عنه وأخرجه الترمذى وبعضُ أصحاب السنن : « ليس شئٌ أكرمَ على اللَّه من الدعاء فى الرخاء » . وعنه عند الترمذى والحاكم : « من سَرَّه أن يستجيبَ اللَّهُ له عند شدائده فليُكثِر الدعاءَ فى الرخاء » .

إن العبد المؤمنَ يتوكل على اللَّه فى كل أموره ، ويستعينُ به سبحانه فى قضاء مصالحه وحاجاته ، ويدعوه ويتضرع إليه يسأله من فضله ، ولا يَنِى عن ذِكر اللَّه وشُكره فى كل وقت وعلى أى حال كان ، فى الصحة والمرض وفى الغنى والحاجة ، وفى اليسر والعسر ، وفى الرخاء والشدَّة ؛ لأن النعمَ تَثبتُ وتزداد بالشكر ، وعدم الغفلةِ عن طاعة الرب .

وإن المؤمن الذى يداوم على الطاعة ، ويُكثر الدعاءَ فى حال رخائه وعافيته ويُسْر أموره ، ويُقرُّ لله وحده بالفضل والإحسان ، فإن دعاءه فى حال الشدة والأزمةِ يكون أرجى للقبول بإذن اللَّه تعالى ، ومن لزِم بابَ ربِّه أعانه وستره ، وملأ قلبَه أمنًا وسكينة ورِضًا بفضله وإحسانه ، فاللَّه أرحمُ بعباده من رحمتهم بأنفسهم ، وقد دعاهم إلى الرجاء والطمع فيما عنده من الرحمة والخير ، فقال لهم سبحانه : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] .

وفى الحديث الشريف الذى أخرجه أبو داود والترمذى وحسَّنه من حديث سلمان الفارسى رضى اللَّه عنه ، قال رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ اللَّه حيىٌّ كريم يَستحيى إذا رَفع الرجلُ إليه يديه أن يَردَّهما صِفرًا خائبتين » .

تلاوة القرآن والاستغفار :

وقد جعل اللّٰه عز وجل للخير ودفع الضرّ والشرّ أبوابًا ومفاتيح وأسبابًا ومن أعظمها بعد أداء الفرائض ولزوم الطاعةِ تلاوةُ القرآنِ الكريم مع الخشوع والإخلاصِ وحضور القلب .

ومن أنفع الأسباب لتكفير الذنب ، وإزالةِ الكرب ، ونزولِ الغيث ، وتيسير قضاء الدَّين أن يُكثرَ العبدُ المؤمن عند شدائده وكُرَبِه من الاستغفار ، ففى الحديث الذى أخرجه أبو داود وغيره من حديث ابن عباس رضى اللّٰه عنهما : « مَن لزِم الاستغفارَ جعل اللّٰه له من كل ضِيق مَخرجًا ، ومن كل همٍّ فَرَجًا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

إن الاستغفار رحمة عظيمةٌ به تُكشف الكُرَب ، وتُدفع أسبابُ الهلكة عن الناس ، ويكثر الخير ويعمُّ ، ويعظم الرجاءُ فى عفو اللّٰه ورحمته ، ولنتدبر قول اللّٰه عز وجل لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

ولنتأمَّل نصيحةَ نوح عليه السلام لقومه إذ دعاهم إلى الإيمان والتوبةِ والاستغفار ليحظَوْا بفضل اللّٰه ببركاتِ الدنيا والآخرة فقال : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح : ١٠ - ١٢] .

التوسُّل بأسماء اللّٰه الحسنى :

وفى الدعاء عند الحاجة والشدة يتوسَّل المؤمنُ بأسماء اللّٰه الحُسنى راجيًا طامعًا ملحًّا بالدعاء والسؤال والتضرُّع ، مظهرًا فاقته وشدةَ حاجتِه إلى مالك أمرِه سبحانه ، وفى الحديث الذى أخرجه الحاكم عن أبى أمامة رضى اللّٰه عنه ، قال

رسول الله ﷺ : « إن لله مَلَكًا مُوكَّلًا بمن يقول : يا أرحمَ الراحمين ، يا أرحم الراحمين ، يا أرحمَ الراحمين ، قال المَلَكُ : إن أرحمَ الراحمين قد أقبل عليك فسلْ » أى اسأل واطلب حاجتك ، وفيه توجيهٌ إلى الإلحاح بالتوسل والدعاءِ ؛ لأن المَلَكَ يقول ذلك عند الثالثة .

ومن وصايا الرسول ﷺ قوله : « أَلِظُّوا بياذا الجلالِ والإكرام » أى : توسلُوا بها ، وألحُّوا بها فى دعائكم واستغاثتِكم بذى الجلال والإكرام كأن يقول المؤمن : يا ذا الجلالِ والإكرام يسّر لى أمورى ، أو اشفِنى ، أو ارزُقنى رزقًا حلالًا طيبًا مبارَكًا فيه ، أغننى به من فضلك عن عبادك ونحو ذلك .

وجاء عند ابن أبى الدنيا مرفوعًا عن عائشة وموقوفًا على أنس : « أن العبد إذا قال : « يا ربِّ ، يا ربِّ ، يا ربِّ ، فإن الله عز وجل يقول : لبَّيكَ عبدى ، سلْ تُعط » . فما أعظم فضلَ الله ورحمتَه !

وللمؤمن أن يتوسَّل إلى الله عند ضائقته وشدَّتِه بعملٍ صالح قدَّمه عن إخلاص ومحبة ؛ كصدقة ، وَبِرِّ الوالدين ، وسَعْيٍ فى خيرٍ ، ونحو ذلك .

لقضاء الديون :

وإذا لزمتْ المؤمنَ همومٌ وديونٌ عجز عن الوفاء بها لأصحابها فى حينها فإنه ينبغى له أن يفزعَ إلى الله عز وجل داعيًا متضرعًا ويدعوه بما علَّمه رسولُ الله ﷺ لأبى أمامةَ الأنصارى رضى الله عنه ، ويُلِحَّ بهذا الدعاء فى الصباح والمساء وهو عظيمُ الرجاء ، حاضرُ القلب ، يقول : « اللَّهمَّ إنى أعوذ بك من العجْز والكسَلِ ، وأعوذُ بك من الجُبن والبُخل ، وأعوذ بك من غَلَبة الدَّين ، وقهْرِ الرجال » .

قال أبو أمامة : ففعلت ذلك ، فأذهبَ الله تعالى همِّى ، وغَمى ، وقضَى

عنى دينى .   [حديث حسن فى سنن أبى داود عن أبى سعيد] .

ومهما عظمت الضائقةُ على نفس المؤمن فإن رحمةَ اللّٰه أعظمُ إذا أخلص العبدُ النية ، وجأر عن إخلاص ومحبةٍ وإنابة ، وقد أوصى رسولُ اللّٰه ﷺ عليَّ بن أبى طالب رضى اللّٰه عنه بدعاء عظيم مبارَكٍ نافع ، فإذا كان على المرء مثلُ جبلٍ دينًا ليسَّر اللّٰه له أداءه ، والخروجَ من أزمته وهمِّه ، وذلك بأن يُلحَّ المَدِينُ بقوله : « اللَّهمَّ اكْفِنى بحَلالِكَ عن حَرامك ، وأغنِنى بفضلِكَ عمَّن سِواك » .

[وهو حديث حسن أخرجه الترمذى] .

ومن الأدعية المبارَكةِ لقضاء الديون : « اللَّهمَّ فارجَ الهمِّ ، كاشفَ الغمِّ ، مُجيبَ دعوةِ المُضطرين ، رحمنَ الدنيا والآخرةِ ورحيمَهُما ، أنت ترحمُنى ، فارحمْنى رحمةً تُغنينى بها عن رحمة مَن سِواك » . فإذا فعل ذلك قضى اللّٰه عنه دينه بفضله وإحسانه كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو بكر رضى اللّٰه عنه وجاء فيه : أن عيسى ابنَ مريمَ عليهما السلام كان يُعلم أصحابَهُ ذلك ويقول : « لو كان على أحدكم جبلُ ذهبٍ دينًا فدعا اللّٰه بهذا الدعاء لقضى اللّٰه عنه دَينَه » .

وفى الصحيحين عن ابن عباس أن رسول اللّٰه ﷺ كان يقول عند الكرب : « لا إلهَ إلَّا اللّٰهُ الحليمُ العظيم ، لا إله إلا اللّٰه ربُّ العرشِ العظيم ، لا إله إلا اللّٰه ربُّ السمواتِ وربُّ الأرضِ وربُّ العرشِ الكريمِ »   [متفق عليه] .

هذا بعضُ ما جاء من التوجيهات والوصايا ، ومن أدب المسلم أن يكون عظيمَ الرجاء فى رحمة اللّٰه ، شديدَ الإخلاص ، صادقَ النية فى التوبة والإنابة وأن تكونَ توجُّهاتُه خيِّرةً ، فلا يدعو على مؤمن بمضرَّة ، ولا ييأس من رحمة اللّٰه أبدًا .

* * *

(١٧) من أدب الطعام والشراب

أنعم اللّه علينا، خلقنا، وهدانا، ورزقنا من النِّعم ما نعجزُ عن الوفاء بشُكره، ورَضِى منا سبحانه بالحمد، والطاعة، والعمل الصالح، والقناعة بالحلال الطيب، رَضِى منا بذلك شكرًا، قال تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل: ١١٤].

ومن شُكر النِّعمةِ التوسُّطُ والاعتدالُ فى الطعام والشراب وحِفظُ النِّعمةِ عن الإسرافِ أو الامتهان، وظُهورُ أثرها على صاحبها من غير تكبُّرٍ ولا فخر ولا خُيلاء، فالإسرافُ والشحُّ طرَفَان مذمومان، وكلٌّ إنسانٍ بحسب حاله وظروف زمانِه، وفى الحديث: « كُلوا واشربوا، والبسُوا، وتصدَّقوا، فى غير مَخِيلَةٍ ولا سَرفٍ، فإنَّ اللّه يُحبُّ أن يَرى أثرَ نعمتِه على عبده ». [رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده / مسند الإمام أحمد وعند النسائى وابن ماجة من غير (والبسُوا)].

والسَّرَفُ: الإسراف ومجاوزة النَّمَطِ الأوسط وحدِّ الاعتدال.

والـمَخيلةِ: بِفتح الميم وكسر الخاء - الاختيال والعُجب.

وما دام المسلم بعيدًا من الناحيتين الباطنة والظاهرة عن أى دوافع نفسية للاختيال والإسراف، فله أن يتمتعَ بالحلال الطيب من الـملْبس والـمأكل، وعند البخارى عن ابن عباس: « كُلْ ما شِئتَ، والبَسْ ما شِئتَ، ما أخطأتْكَ خصلتان: سَرَفٌ ومَخيلةٌ ». وحفاظًا على البَدَن، ووقايةً له من التدهور والاعتلال قال تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

مع القدوة والنفس الشريفة الطاهرة :

كان ﷺ لا يأكل إلا إذا جاع ، وإذا أكل لا يشبع ، بل يترك مجالًا للشُّربِ ومجالًا لسُهولة التنفُّس .

وكان إذا عافتْ نفسُه طعامًا ولـم يجد قابليةً له ، فإنه لا يأكله ، ولا يـمنعُ أحدًا من الأكل منه ، ما دام من الحلال الطيِّب ، مثل لحم « الضَّبِّ » . وقِسْ ، إذ الـمعدةُ تابعةٌ لحالة الإنسانِ النفسية ولـميلِه من حيث الراحةُ فى الهضم ونحوه ، وهذا شىءٌ مُجرَّب .

وكان ﷺ يأكل مِمَّا جرَتْ به عادةُ أهلِ البلد بأكله ، أكَل : اللحم والفاكهة ، والخبز ، والتمر ، والعسل ، والحلوى ، وكان أكلُه من اللحم غِبًّا ، أى على فترات قد تتباعد إلى حَدٍّ مَّا ، وكان يُحب من اللحم ما هو أسرعُ انهضامًا ، وأخفُّ على الـمعدة ، وأسهلُ فى الانحدار عنها ، من ذلك لحمُ رقبةِ الشاة ، والذِّراعِ فهذه مع لحم العَضُد تكون أعجلَ نُضجًا ، و أكثرَ نفعًا وأخفَّ على الـمَعدة من غيرها .

لإصلاح البدن :

ومن وصاياه وحِكَمه النافِعةِ الـمُصْلِحة للبدن والصحة والحالة النفسية قوله : « حسبُ ابنِ آدمَ لُقَيماتٍ يُقِمْن صُلبَهُ ، وإنْ كان لابُدَّ فاعلًا : فثُلُثٌ لطعامه ، وثُلثٌ لشرابه ، وثُلثٌ لِنَفَسِه » .

[رواه الـمقدام بن معديكرب وأخرجه الترمذى وحسَّنه وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه] .

ومن حكمه النفيسة ذاتِ الدلالة الصحيَّة والوِقائيَّةِ القيِّمة قوله ﷺ : « من الإسراف أن تأكلَ كلَّ ما اشتهيتَ » . [رواه أنس وأخرجه ابن ماجه والبيهقى وغيرهما] .

الجِلسة الصحية :

إن الطعامَ نعمةٌ عظيـمة ، والتواضعَ للنعمة بركةٌ وزيادةٌ بفضل اللّه لذا يُكرهُ الاتّكاءُ عند الأكل إلا لعذْر كالـمرض ونحوه . ويُستَحبُّ للجالس أن تكونَ أعضاؤه كلُّها على وَضْعها الطبيعى لأن ذلك يُساعد على جَرَيان الطعام وانحدارِه بيُسرٍ وسُهولة ، لذا يُستحب أن يكون الجالس للطعام : جاثيًا على رُكبتَيْه وعلى ظُهور قَدَمَيْه ، أو أن يَنصِبَ الرِّجلَ اليُمنَى ، ويَجلسَ على اليُسرَى أو يجلسَ مُتَوَرِّكًا على رُكبتيْه ويَضعَ بطنَ قَدمِه اليسرى لتلامس ظَهْر اليُمنى .

وتوجيهات :

والأفضلُ له أن يَشرب قبل البدء فى الطعام ماءً عذْبًا مُستساغًا ، ويتجنَّبَ شديدَ البرودة[1] ، ويتجنَّبَ الشُّربَ فى أثناء تناوله الطعام ، وعَقِبَه إلا بعد مرور فترةٍ كافية ، قال ابن القيـم : « ولـم يكن ﷺ يشربُ على طعامه لئلا يُفسدَهُ ، ولا سِيَّما إن كان الـماءُ حارًا أو باردًا فإنه ردىءٌ جدًّا » . أى فيه ضررٌ .

وقد جاء النهىُ عن النَّوم عَقِبَ الأكل ، ومن تجارب الطبِّ : « مَن أراد حِفظَ الصحة فَلْيـمشِ بعد العَشاء ولو مائةَ خَطوة ، ولا ينام عَقِبه فإنه يضرُّ جدًّا » . وقالوا : إن الصلاةَ بعد الأكل تُسهِّل هضمه .

وإن الـمسلـم يتجنَّب الشِّبَعَ الذى يَكُظُّ الـمعِدَة ، ويُقلِّل على الأمعاء لكى تظلَّ مَجارِى النَّفَسِ على طبيعتها تعمل بانتظام ، قالت عائشة أمُّ الـمؤمنين رضى اللّه عنها : « لـم يـمتلئ جوفُ النبىّ ﷺ شِبعًا قط » .

ومن بركة الطعام العنايةُ بغسل الكفَّين قبله وبعده مع العناية بنظافة الفم

---

(١) وينصح المجرِّبون بشرب الماءِ العذبِ قبل طعام الصباح بفترة .

والأسنان ، وأن يأكلَ بيمينه ، ويشربَ بيمينه ، وأن يبدأ أكلَه بالبسملة ويَختمَه بالحمد والشكر ، وجاء عند الإمام مسلم والترمذى ومالك : « لا يأكُلنَّ أحد منكم بشماله ، ولا يَشربَنَّ بها ، فإنَّ الشيطان يأكلُ بشماله ، ويشرب بها »

[رواه ابن عمر] .

وهذا من واجبات المسلم للأمر به وللوعيد الذى جاء بشأن الأكل بالشمال ولم يُطِعْ فاعلُه النصيحة ، ففى حديث سلمةَ بن الأكوع : أن رجلًا أكَل عند رسولِ اللّه ﷺ بشماله ، فقال : « كُلْ بيمينك » قال : لا أستطيع قال : « لا استطعْتَ » ما مَنَعَهُ إلا الكِبرُ ، فما رَفَعها إلى فِيهِ بعدُ . [أخرجه مسلم] .

فقد أُجيبت فيه دعوةُ النبىِّ بسبب كِبْره وتعاليه عن قبول الأمر والنصيحة .

وكان من دعاء النبى ﷺ بعد الفراغِ من الطعام : « الحمدُ لله الذى أطعمنا ، وسقانا ، وجعلنا مُسلمين » . ومن نَسِيَ البسملةَ فى أوله قال : « بسم اللّه الرحمن الرحيم فى أوله وفى آخره » [كما عند الترمذى وأبى داود والراوى عائشة] .

وإن الأكلَ مع الجماعة بركةٌ بفضل اللّه ، وليأكل كلُّ واحدٍ ممَّا يَليه فى الإناء ولا يُدِير يَدَهُ هنا وهناك فى الإناء ، ولا يُزاحم أيدى الآكلين معه .

ومن الآداب الاجتماعية :

* تلبيةُ الدعوة وحضورُ ولائم المسلمين ، وإن تبعه أحدٌ استأذن له قبل دخوله .

* العَرضُ على الضيف بأن يطلبَ منه الأكلَ تأنيسًا وتحبُّبًا .

* لا يقوم الرجلُ وإن شبع حتى يرى أن الجالسين فرَغُوا من طعامهم ، وهذا يتوقَّف على نوع الصِّلة والخُلطة بينه وبينهم دفعًا للحرَج .

* إذا أكلتَ عند قوم لا تخرج حتى تدعُوَ لهم بمثل : « اللَّهمَّ بارِكْ لهم فيما رزقْتَهم ، واغفِرْ لهم وارحمْهُم » [عند مسلم ، والراوى عبد اللَّه بن بسر] .

* * *

فوائد :

الدعاء لأهل المنزل : كان ﷺ إذا أكل عند قوم لم يخرجْ حتى يدعُوَ لهم . ودعا فى منزل سعدٍ فقال : « أفطَر عندكُم الصائمون ، وأكَل طعامَكم الأبرارُ ، وصلَّت عليكم الملائكة » [رواه أبو داود] .

ومن بركته ﷺ : سقاه رجل لبنًا فقال : « اللَّهم أمْتِعْه بشبابه » فمرت عليه ثمانون سنةً لم ير شعرةً بيضاء . [رواه ابن السنى] .

من أحواله ﷺ فى معيشته : وكان ﷺ كما قالت عائشة رضى اللَّه عنها عنه ﷺ : لم يمتلئ جوفُ النبيِّ ﷺ شِبَعًا قط ، وإنه كان فى أهله لا يسألهم طعامًا ، ولا يتشهَّاه ، إن أطعموه أكَل وما أطعموه قَبِلَ ، وما سَقَوْه شرِبَ ، وكان يُستعذَبُ له الماءُ ، أى يُطلَب له الماءُ الحُلو ، والمراد الشبع الذى يثقل ويُفضى إلى البطَر والنوم والكسل عن أداء الواجبات ، وليس المراد الشبع النسبى المعتاد فى الجملة ، فقد جاء عند مسلم : أنه وصاحبيه أكلوا عند الأنصارى من شاة حتى شبعوا ورَوَوْا ، ولذا قالوا : ما جاء فى كراهة الشبع إنما هو محمول على المداومَة عليه .

وفى بيته : وفى حديث أبى هريرة : « ما شَبع آلُ محمدٍ ﷺ من طعام ثلاثةَ أيامٍ تِباعًا حتى قُبِض » [أخرجه الشيخان] .

مع أنه ﷺ كان سخيًا جوادًا ، وقد أقبلت الدنيا على المسلمين ، ولكنه آثر هذه الحياةَ لنفسه ، وآثر غيرَهُ ببذْله وعطائِه ، ووجد أهلُ المسكنة والحاجة منه

الخيرَ الكثير والبرّ والصلةَ ، ونهى أصحابَهُ عن تحريم ما أحلَّ اللّه من الطيبات على أنفسهم كما نهاهم عن الرهبنة والتقشُّفِ الذى يُظهرهم على غير الوجهِ المَرضىّ من النظافة وحُسن الهيئة .

ومن أحواله ﷺ فى بيته كما قالت عائشة رضى اللّه عنها : « خرج - أى النبى - من الدنيا ولم يملأْ بَطْنَهُ فى يوم من طعامين ، كان إذا شَبع من التمر ، لم يشبع من الشعير ، وإذا شَبع من الشعير ، لم يشبع من التمر » .

وليس فى هذا ما يدلُّ على ترك الجمع بين لونين من الطعام بصفة مُطلَقة ، فقد جمع ﷺ بين نوعين كالقِثَّاء بالرطب ، والخبزِ والإدام ، والجمع بين العسلِ والسمن والدقيق مطهوًّا ونحو ذلك .

أكرمَه ربُّه: وعند الطبرانى بإسناد حسَن عن ابن عباس أن إسرافيلَ نزل إليه ، وما فى بيته سَفَّةٌ من دقيق ولا كفٌّ من سَويق ، فقال : بعثنى إليك ربُّك بمفاتيح خزائِن الأرض وأمرنى أن أعرِضَ عليك : أُسيِّر معك جبالَ تِهامةَ زُمرُّدًا وياقوتًا وذهبًا وفضة ، فعلتُ - أى إن رغبتَ فى ذلك يا محمدُ - فإن شئتَ نبيًّا مَلِكًا ، وإن شئت نبيًّا عبدًا ، فأومأ إليه جبريلُ : أن تواضَعْ . فقال : «بل نبيًّا عبدًا » - ثلاثًا - .

فاختار ﷺ العبوديةَ المحضة ، وكان أغنى الناس باللّه ، مع تمكُّنه من المال وكثرتِه ، وكانت تأتيه الألوفُ فيعطى عطاءَ مَن لا يَخشَى الفقر ، وكان إذا بات لديه شىءٌ من المال بَقى غيرَ مُستريح حتى يُعطِيَهُ مَن يستحقه .

صلاة اللّه وسلامه عليه وعلى آله وصحبه .

* * *

(١٨) في التَّسْمِيَةِ والحَمْد

قال اللَّه تعالى في سورة يونس : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

إن الإيمانَ والعملَ الصالحَ هما عِمادُ السعادتين ، وبهما تكونُ سكينةُ النفس ، وطمأنينةُ القلبِ في الدنيا ، ثم الخلودُ في جنات النعيمِ في الآخرة حيثُ الرَّوْحُ والريحانُ ، والسرورُ الذي لا يَنقضي ، والبهجةُ التي لا يَلْحَقُها زوالٌ ، وحيث السلامُ الدائم ، والأُنسُ بالجلساء الصالِحِين ، والنعيمُ المتجدِّدُ الذي لا يَبْلَى ولا تَملُّه النفس ، فالأنهارُ تجرى تحت مواقعِ أبصارِهم صافيةً جميلةً رائعة ، وكلُّ ما يَشتهيه أهلُها يَجِدونه بلا عناءٍ ولا مَشقَّةٍ ، تَحيَّتُهم فيها سلامٌ يُثلجُ الصدر ، وإذا أرادوا الحصولَ على ما تَشتهيه نفوسُهم أخرَجُوا السؤالَ بِلَفْظ التسبيح : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ . ويَختتمون طعامَهم وشرابَهم بحمْد اللَّه عزَّ وجلَّ : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وهم في ذلك قدوةٌ لأهل الدنيا ، فواجبُ أهلِ الإيمانِ من الأحياء أن يُسمُّوا اللَّهَ عند بدايةِ طعامهم وشرابِهم ، وأن يحمَدوا المُنعِمَ عند كلِّ نِعمة وعند الفراغِ من كلِّ عملٍ على رحمته بعبده وتمكينِه من طعامه وشرابِه ومَلبسِه ومَسِيره ، وغيرِ ذلك .

من فضل البسملة والحمد :

إن : بسم اللَّهِ الرحمن الرحيم ، والحمدُ للهِ ، كلمتان فيهما نورٌ وبهاءٌ

وفيهما للقلب راحةٌ وشفاء، وللنفس سكينةٌ وَضِياء.

إن فيهما تقديسَ اللّٰهِ وتنزيهَه وإفْرادَه بالإلهيَّة والربوبيةِ.

بسم اللّٰهِ: أى بسم اللّٰهِ أبْدَأُ العملَ، مستعينًا بمن يملكُ الأمرَ كلَّه متوكِّلًا عليه وحده، طالبًا تحقيقَ الآمالِ منه، مُتبرِّكًا باسمه العظيمِ وبصفاتِه العُلا، فاللّٰهُ: عَلَمٌ على الذاتِ الواجبِ الوجودِ المستحقِّ لجميع المحامدِ، وهو أعظمُ أسمائِه تعالى لدلالته على الذاتِ العليةِ الجامعةِ لكل صفاتِ الألوهيةِ المنعوتةِ بِكلِّ نعوتِ الربوبيةِ المنفردةِ بالوحدة فى الذات والصفاتِ والأفعالِ، وهو سبحانه المعبودُ بحقٍّ، فلا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سِوَاه، ولا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو.

وهو الرحمنُ بما ستَر فى الدنيا، وأفاض من الخير على عباده وخَلْقِه المحتاجين دومًا إلى عطائه وجُودِه وكَرَمِه، ولولا رحمتُه العامةُ لهلكَ الناسُ بسبب معاصيهم، فهو الرحمنُ يَرزقُهم ويُعافيهم، ويمدُّ لهم فى الأسباب ويُمْهِلُهم، ويَرحمُهم باستحقاقٍ وبغير استحقاق، فهو صاحبُ الإنعام الذى يُمْهِلُ ولا يُهْمِل، ولا يُعاجِلُ بالعقوبة، فالحمدُ له وحده، فهو سبحانه لم يَقْلِبْ حياةَ الناسِ عذابًا بسبب كُفرهم وجُحودهم ومَفاسدِهم، فالحمدُ لله الذى لم يجعل الماءَ مِلْحًا أُجَاجًا بسبب معاصِيهم وشرورِهم، بل جعله عَذْبًا فُراتًا فيه حياتُهم وبقاؤُهم وأرزاقُهم برحمته وحده.. فكيف لا نُطِيعُ أمرَه؟ كيف لا نَجتنِبُ معاصِيَه؟. وهو سبحانه الرحيمُ بعباده المؤمنين يسترُ عيوبَهم يوم الدين، ويعفو عن زلَّاتهم، ويتجاوزُ عن سيئاتهم بفضلٍ منه وإحسان.

إنَّ ابنَ آدمَ إذا سألته وأَلحَحْتَ عليه بسؤالك غَضِبَ، وإن اللّٰهَ عزَّ وجلَّ إذا لم تَسأله وتُلِحَّ بسؤالك غَضِبَ لرحمته بعباده ولطفِه بهم.

بسم اللّٰه الرحمنِ الرحيم: نورٌ وشفاءٌ وتذكيرٌ بعظمة اللّٰهِ وفضلهِ ورحمتِه

بالعباد ، وفيها بركاتٌ ، وحُسْنُ تَوكُّلٍ على الواحدِ الذى لا يقعُ فى الكون إلا ما يُرِيدُه ، فما شاء كان ، وما لـم يشأ لا يكون .

وإن كلَّ عمَلٍ لا يُبْدَأُ فيه بالبسملة فهو أقطعُ منزوعُ البركةِ ، وفى الحديث : « إنَّ الشيطانَ يستَحِلُّ الطعامَ الذى لـم يُذْكَرِ اسمُ اللَّهِ عليه » .

[رواه حذيفة بن اليمان وأخرجه مسلم والنسائى والترمذى] .

لذا وجب على أهلِ الإيـمانِ أن يُعَوِّدوا أبناءَهم ويُرَبُّوهم على هذا النمطِ العالى من التربية ؛ أن يبدأَ الواحدُ أكْلَه بسم اللَّه ، وأن يَختِمَه بحمدِ اللَّهِ اقتداءً بأهل الجنة ، وصيانةً للنعم ، وتَذكُّرًا للـمنعم ، وأن يأكلَ الـمسلـمُ بيـمينه ولْيَحذر تقليدَ أعوانِ الشياطين فيأكلَ بشماله ويغفلَ قلبُه عن طاعة ربِّه .

وقد أمرنا الشارعُ بأن نبدأ كلَّ عملٍ ببسم اللَّه وفى الحديث : « أَغْلِقْ بَابَكَ واذكُر اسمَ اللَّه ، وأَطْفِئْ سِراجَك واذكُر اسمَ اللَّه ، وخَمِّرْ إناءك واذكُرِ اسمَ اللَّه ، وأَوْكِ سِقاءَك واذكرِ اسمَ اللَّه » .

قال على رضى اللَّه عنه : بسم اللَّه شفاءٌ من كل داءٍ ، وعونٌ على كل دَواء .

الحمدُ لله فى كلِّ حال :

وَإِن الـمؤمنَ يحمدُ اللَّهَ على كل نعمةٍ : إذا أكَلَ حَمِد اللَّه ، وإذا شَرِب حَمد اللَّه ، وإذا رَكِبَ حَمِد اللَّه ، لا يَغفُلُ قلبُه ولا لسانُه عن حَمْد اللَّه وشُكرِه فنِعَمُه تَتوالى ، وإحسانُه لا ينقطعُ على عباده فى مآكلهم ومشارِبهم وتنفُّسِهم ، وفى كل لحظةٍ وطرفةِ عَينٍ رَحْمتُه بالخلق عامةٌ وشاملة .

وإنَّ فى الحمد إقرارًا لله بالوحدانية وبأنه سبحانه مُولى النِّعَم ، وفيه الثناءُ على اللَّه ، فهو سبحانه الـمستحقُّ للثناءِ الكاملِ وللحمدِ بأجمعِه ، فَطُوبَى للحامدين الشاكرين ، قال ابن عباس : « الحمدُ لله كلـمةُ كلِّ شاكر » وقد حَمِد جميعُ

الأنبياءِ ربَّهم كما أمرهم وعلَّمهم كما قال لنوح : ﴿ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٨] . وكما قال لخاتم رسله : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [الإسراء : ١١١] .

وإذا قال العبد : الحمدُ لله . قال اللّٰه : صَدَق عبدى الحمدُ لى .

وقال شفيق بنُ إبراهيم فى تفسير « الحمد لله » هو على ثلاثة أوجه :

أولها : إذا أعطاك شيئًا تعرفُ مَن أعطاك . والثانى : أن تَرضى بما أعطاك . الثالث : ما دامت قُوَّتُه فى جَسدك ألَّا تَعْصِيَه .

فهذه شرائطُ الحمد : فحامدُ المنعم لا يليقُ به أن يبارزَ ربَّه بالمعاصى ، ولا ينبغى له أن يستخدمَ النعمةَ فيما يَجلِبُ غضَبه سبحانه ، إن النعم تدوم وتزدادُ بالشكر وباستخدام النِّعم فيما خُلِقتْ له ، وتوجيهِ قُوَى الإنسانِ للخير والبرِّ والإصلاح ، إذ المؤمنُ يَجِبُ أن يكونَ طاقةً بانيةً صالحة ، وقوةً خَيِّرةً ومُصْلِحةً .

وفى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ ، والحمدُ للهِ تملأُ الميزانَ ، وسُبحانَ اللّٰهِ والحمدُ للهِ تملآنِ أو تملأُ مابين السماءِ والأرض » . فطُوبى لمن لهَجَ لسانُه بذكر اللّٰه ، وحَمِد اللّٰهَ على الدوام ، وشَكَر له على إحسانه المتواتر الذى لا ينقطع آناءَ الليل وأطرافَ النهار .

جاء عند ابن ماجةَ عن ابن عمرَ أن رسول اللّٰه ﷺ حدثهم أن عبدًا من عبادِ اللّٰه قال : يا ربِّ لك الحمدُ كما يَنبغى لجلالِ وجْهِكَ وعظيمِ سُلطانك . فَعضَّلتْ بالمَلَكَين فلم يَدْرِيَا كيف يَكْتُبانِها ، فَصَعِدا إلى السماء فقالا : يا ربَّنا ، إن عبدًا قد قال مقالةً لا نَدرى كيف نكتُبها . قال اللّٰه - وهو أعلمُ بما قال عبدُه - : ماذا قال عبدى ؟ فقالا : يا ربِّ إنه قد قال : يا ربِّ لك الحمدُ كما

يَنبغى لجلالِ وَجْهِك وعَظيـم سُلطانِك . فقال اللَّه لهما : اكتُباها كما قال عبدى حتى يَلْقانى فَأجْزِيَهُ بِها » . وعَضَّلت أو أعْضَلَتْ بالـملَكين أى اشتدَّت عليهما ، واستغلَق الأمرُ عليهما فلـم يَدْرِيا على أى وَجْهٍ يضَعانِها فى صفحة حسناته ، وهذا يدل على عِظَمِ هذا الدعاءِ وأنَّ ثوابَه جزيلٌ ، وأجْرَه عظيـم .

إن اللَّه عز وجل سائلٌ عبادَه يوم الـموقفِ العظيـم عَمَّا أعطاهم وتفضَّل به عليهم من النعيـم فى الدنيا ، يَسألُ العبدَ عن صحةِ البَدنِ ، وعن السمْع والبَصر ، وعن طِيبِ النفسِ ، وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيـم أنفقه ؟ وقد جاء عند الترمذى وابن حبان عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه أن النبى ﷺ قال : « إنَّ أولَ ما يُسأل عنه العبدُ يومَ القيامةِ من النعيم ، فيقال له : ألَم نُصِحَّ لَكَ جِسْمَك ؟ وَنروِكَ مِن الـماءِ البارِدِ ؟ » فكيف بنعم الربِّ التى لا تُحصى ولا تُعَدّ ؟ وماذا أعددنا من العمل الصالِح لجواب الغدِ ؟

إن اللَّه عزَّ وجلَّ أنعم على العباد على قَدْرِه ، فهو سبحانهُ يعطى مَن يَستحق ومَن لا يستحق اختبارًا وابتلاءً على مقتضى حِكمتِه وإرادَتِه ، ومن فضله وإحسانه سبحانه أنه كَلَّفَ العبادَ الشكرَ على قَدْرِهم ، فَرضِىَ منهم إقرارَهم بفضله ، وشُكْرَه بقلوبهم ، وحَمْدَه بألسنتهم ، وتَوجِيةَ قُواهم النفسيةِ والـماديةِ نحو الخير ، وَكَفَّها عن الشرِّ والإثم ، وانقيادَ جوارِحِهم لطاعته والوقوفِ عند حدود ما أمر به ونَهَى عنه ، ولـم يُكَلِّفهم برحمته إلا ما يُطيقون .

قال أبو حازم : إن كلَّ نعمةٍ لا تُقَرِّبُ من اللَّهِ فهى بَلِيَّةٌ . وقال بعضُ السلَف : الشكرُ تَرْكُ الـمعاصى . فطُوبَى لـمن استعان باللَّه عند كلِّ عَملٍ ، وحَمِده بلسانه فى كل حالٍ وعلى كلِّ حال ، وشَكَره بقلبه وجميعِ جوارحِه .

* * *

(١٩) الكسبُ وأدب التجارة

أخرج البخاريُّ عن المقدام بن معديكربَ أن رسول اللّه ﷺ قال : « ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيرًا من أن يأكلَ من عمل يده ، وإن نبيَّ اللّه داودَ كان يأكل من عَمَلِ يدِه » .

وفى البخارى عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « كان داودُ عليه السلام لا يأكل إلا من عمل يده » . فقد كان داودُ عليه السلام ينسج الدروعَ ويبيعها ليأكلَ من ثمنها مع ما كان له من عُلوِّ المنزلة ورفعةِ المكانة ، وكان نوحٌ عليه السلام نجارًا ، وكان إدريس عليه السلام خياطًا ، وما من نبى إلا رعَى الغنمَ وكانت له حِرفة .

واشتغل رسولنا الحبيب ﷺ برعى الغنم مقابلَ أجر ، كما اشتغل بالتجارة وضرب فى الأرض عاملًا فى أموال خديجةَ وتجارتها مقابلَ نصيب .

وفى الحديث : « مَنْ أمسى كالًّا من عمل يده أمسى مغفورًا له »

[روته عائشة وأخرجه الطبرانى فى الأوسط والأصبهانى عن ابن عباس] .

وفى الحديث : « لأن يحتطبَ أحدُكم حُزمةً على ظهره خيرٌ له من أن يسألَ أحدًا فيعطيَهُ أو يمنعَهُ » [رواه أبو هريرة وأخرجه الخمسة ما عدا أبا داود] .

اتخاذ الحرفة : حبَّب إلينا الإسلامُ العمل ، وحثنا على السعى والاشتغالِ بالمجالاتِ الحيوية التى لا غِنى للناس عنها ، والتى هى دعائمُ العمارة كالتجارة والزراعةِ والصناعةِ وسائر الأعمال والحرف . وفى الحديث : « إن اللّه يُحب المؤمنَ المحترِفَ » [رواه أبو سعيد وجاء عن ابن عمر عند الطبرانى فى الكبير والبيهقى] .

الحث على التجارة :

وإن التجارةَ من أعظم وجوه الكسب ، ومن أشرف ميادين النشاطِ البشرى التى تحقق للناس مصالحَ لا غِنى لهم عنها ، فعن طريق التجارة تُجلَب الخيراتُ ، وبواسطتها تزدهرُ الصناعة ، وتنمو الزراعة ، وفى التجارة دعمٌ لاقتصاد الأمة ، وبناءٌ لنهضتها ، وقد حث الإسلامُ أتباعَه على الاشتغال بها ، وأباح لهم العملَ فى تقليب البضائع والسلع بيعًا وشراء ؛ لأن على ذلك يتوقف أمرُ المعاش ، كما أنها سببٌ للكسب الحلال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩] .

وفى الحديث : « طلبُ الحلالِ واجبٌ على كل مسلم » . وفى رواية : « طلبُ الحلال فريضةٌ بعد الفريضةِ » [أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن مالك بن أنس] .

وفى الحديث : « عليكم بالتجارة فإن فيها تسعةَ أعشار الرزق »

[أخرجه الطبرانى والبيهقى والراوى ابن مسعود] .

لقد أحل اللّٰه لعباده البيعَ والشراء وتحصيلَ المكاسب من الوجوه المشروعة ، وحرَّم عليهم أكلَ أموال بعضهم بعضًا بالباطل : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] . وقوله : ﴿ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [النساء : ٢٩] .

أى : بالحصول على الأموال بالطرق غير المشروعة كالربا والقمار وبيع ما حرَّم اللّٰه كالخنزير والخمر ونحوهما ، كما نهى عن أخذ الأموالِ عن طريق الانتهاب ، أو الرشوةِ ، أو الاختلاس ، أو الأيمانِ الكاذبةِ أو عن طريق الخديعة والمكر .

دستور التاجر الناجح :

وقد بيَّن رسولُ اللّٰه ﷺ دستورَ التاجر الناجح فى سبع خصال بها

يتحقق نجاحه، ويطيب كسبُه، ويهنأ عيشُه، فقال عليه السلام: « إن أطيبَ الكسبِ هو كسبُ التجار الذين: إذا حدَّثوا لم يَكْذبوا، وإذا ائْتُمنوا لم يخونوا، وإذا وَعَدوا لم يُخلفوا، وإذا اشْتَروا لم يذمُّوا، وإذا باعوا لم يُطرُوا، وإذا كان عليهم لم يَمْطُلوا، وإذا كان لهم لم يُعْسِروا »

[رواه معاذ بن جبل وأخرجه الأصبهانى والبيهقى].

فهذه صورةٌ واضحةٌ لأخلاق التاجر المسلم وعلاقاتِه الطيبةِ بجميع أطرافِ البيع والشراء، وفى الأخذِ والعطاء، والوفاءِ بالوعد، ورعايةِ حقوق ومصالح الآخرين، وعدم التدليس والغش، إلى جانب المبادرةِ إلى تأدية الديونِ إلى أصحابها فى مواقيتها، والرفق بالمُعسرين فى طلب ما عليهم من الديون والحقوق.

وتوجيهات سامية لنجاح التاجر :

ولنسمع ما جاء من توجيه نبوىٍّ كريم، وتأكيده على التزام الوضوح والأمانةِ وتَحرِّى الكسبِ الحلال الطيب؛ ليكون أهلُ الإيمان على بينة. ففى الحديث: « التاجرُ - المسلم - الصدوقُ الأمينُ مع النبيين والصدِّيقين والشهداءِ يومَ القيامة » [رواه أبو سعيد وأخرجه الترمذى وقال: حديث حسن].

وفى الحديث: « البيِّعَان بالخيار ما لم يتفرَّقا، فإن صَدقا وبيَّنا، بُورك لهما فى بيعهما، وإن كتما وكَذَبا فعسى أن يَرْبحا رِبحًا ويَمْحقا بركةً »

[رواه حكيم بن حزام وأخرجه الخمسة ما عدا الموطأ].

وفى الحث على أداء الديون جاء فى الحديث: « من أخذ أموالَ الناسِ يُريد أداءَها أدّى اللّه عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه اللّه ».

وفى تحريم إخفاءِ عيوب السلعة يقول ﷺ: « المسلمُ أخو المسلم، ولا

يحلُّ لمسلم إذا باع من أخيه بيعًا فيه عيبٌ أن لا يُبيِّنه » أو كما قال .

وفى الحديث : « لا يَحِلُّ لمسلم أن يَغشَّ مسلمًا » . وفى الحديث : « ومن غشَّنا فليس منا » [رواه أبو هريرة وأخرجه مسلم وابن مسعود عند الطبرانى] .

ترويج السلع بالحلف :

ومن أمارات نجاح التاجر أن يلزمَ الصدقَ ويُمسك لسانَهُ عن الحَلِف .

وفى التحذير من الحَلِف فى البيع لترويج السّلع فيما يرويه أبو هريرة يقول ﷺ : « الحلفُ مَنْفقةٌ للسلعة مَمْحقةٌ للكسب والبركة » [متفق عليه] .

وفى الحديث الذى رواه أبو قتادة وأخرجه مسلم : « إياكم وكثرةَ الحَلِفِ فى البيع فإنهُ يُنفِّق ثم يَمْحق » [أخرجه مسلم والنسائى وابن ماجه ورواه قتادة] .

أى يروج السلعةَ ولكنَّ بركةَ الكسب تضيع على صاحبها .

الجالب - المستورد - والمحتكر :

وقد جاء الثناء على من يجلب الخيراتِ ، ويعمل على توافر حاجاتِ الناس من الكساء والغذاءِ والدواءِ ونحو ذلك عن طريق التجارة ، ففى الأثر : « الجالبُ مرزوق ، والمحتكرُ ملعون » .

[رواه عمر بن الخطاب وأخرجه ابن ماجه والحاكم] .

فالجالب هو المستورد يجلبُ السلعَ من مكان إلى مكان .

أما الاحتكار : ففيه مضرَّة بالناس ، وتعمُّدٌ لرفع الأسعار عليهم ، ولذا جاء التحذير الشديد ولنسمع : « لا يحتكر إلا خاطئ »

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى ورواه مَعْمَر بن عبد الله بن نضلة] .

وفى لفظ : « من احتكر طعامًا فهو خاطئ » . ومن ذلك : « بئس العبدُ المحتكرُ إن أرخص اللهُ الأسعارَ حَزِن ، وإن أغلاها فَرِح »

[رواه معاذ وأخرجه رزين فى جامعه والطبرانى] .

وإن كلَّ ما أضرَّ بالناس حبسُه فهو احتكار ، بخلاف الجالب الذى يسعى للتخفيف عن الناس والحصولِ على ما يحتاجون إليه ، قال ابن مسعود : « أيُّما رجلٍ جَلَب شيئًا إلى مدينة من مدائنِ المسلمين صابرًا محتسبًا فباعه بسعر يومِه كان عند اللّه من الشهداء » أى بمنزلة الشهيد جزاءَ إخلاصِه ورحمته بالناس ؛ لأنه إذا كَثُرَ عرضُ السلع صار ثمنُها مناسبًا لهم لا عَنتَ فيه ولا مشقة .

الرحمة من أسباب نجاح التاجر : إن الإسلام يحثنا دومًا على التعاطف والتراحُم والرفقِ وقبولِ أيسر المكاسب تخفيفًا عن الناس ورحمةً بهم ، وفى الحديث : « مَن دَخَل فى شىء من أسعار المسلمين ليُغلِيَه عليهم كان حقًّا على اللّه أن يُقْعِدَه بعُظم من النار يوم القيامة » . وقد سئل رسول اللّه ﷺ : فيما يرويه ابن عمر : أىُّ الكسبِ أفضل ؟ قال : « عملُ الرجلِ بيده ، وكلُّ بيع مَبرور » . البيع المبرور : هو كلُّ ما خلَص عن اليمين الفاجرة لتنفيق السلعة ، وعن الغِش فى المعاملة ، فطوبى للتجار الأُمناء الصادقين الصالحين .

البُكور : وقد حث النبى ﷺ أمتَه على البكور فى طلب الرزق وغيره ، فعن صخر بن وداعة الغامدى وغيره أن رسولَ اللّه ﷺ قال : « اللّهم بارِكْ لأمتى فى بُكورها » . [أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة وابن حبان] .

وفى الحديث الذى روته عائشة : « باكروا الغدوَّ فى طلب الرزق فإن الغدوَّ بركةٌ ونجاح » . [أخرجه البزار والطبرانى فى الأوسط] .

الإنفاق من الطيب : قال اللّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ﴾

[البقرة : ٢٦٧] .

وفى الحديث الذى رواه ابن عباس : « يا سعدُ أَطِبْ مطعمَك تكنْ مستجابَ الدعوة ، والذى نفسُ محمد بيده : إن العبد ليقذِفُ اللقمةَ الحرامَ فى جوفه ما يُتقَبَّلُ منه عملٌ أربعين يومًا ، وأيُّما عبدٍ نَبت لحمُه من سُحت فالنارُ أَوْلَى به » . [أخرجه الطبرانى فى الصغير] . وفى الحديث : « ... ولا يكسبُ عبدٌ مالاً من حرام فينفقَ منه فيُبَارَكَ له فيه ، ولا يتصدَّقُ به فيُقبَلَ منه ، ولا يتركُه خلفَ ظهرِه إلا كان زادهُ إلى النار ، إن اللّه لا يمحو السَّيِّئَ بالسيئ ، ولكنْ يمحو السّيئَ بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » .

* * *

حديث قدسىّ : الشفقة بالمعسرين :

جاء عند البخارى ومسلم عن أبى هريرة وأبى حذيفة وأبى مسعود أن رسول اللّه ﷺ قال : « كان تاجرٌ يُبايع الناسَ فإذا رأى مُعسرًا قال لفتيانه : تجاوزوا عنه ، لعلَّ اللّه أن يتجاوزَ عنا ، فتجاوزَ اللّه عنه » . [لفظ البخارى] .

وعند مسلم جاء على لسان هذا التاجرعند سؤال الملائكة وقتَ تلقِّيهم رُوحَه : « كنتُ أداينُ الناسَ فآمرُ فتيانى أن يُنظِرُوا المُعسِرَ ، ويتجوَّزوا عن الموسِر ، قال ﷺ : قال اللّه عزَّ وجلَّ : تجوَّزوا عنه » . وفى لفظ لمسلم : « حُوسب رجلٌ مِمَّن كان قبلكم ، فلم يُوجد له من الخير شىءٌ إلا أنه كان يُخالط الناس ، وكان موسرًا ، فكان يأمر غلمانَه أن يتجاوزوا عن المُعسر ، قال ﷺ : قال اللّه : نحن أحقُّ بذلك منك تجاوزوا عنه » .

كلمةٌ خِتامية :

مُحاسبةُ النفسِ وإعدادُها

قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾

[الإسراء : ٧] .

وفى الحديث : « البِرُّ لا يَبْلَى ، والذنبُ لا يُنْسَى ، والدَّيَّانُ لا يَفنى ، ولكن كَما شِئْتَ » . يعنى : كما تَدين تُدان .

العاقلُ هو من يُحاسِبُ نفسَه قبل أن يُحاسَبَ ، ويَزِنُ أعماله لنفسه قبل أن تُوزَنَ عليه ، هو من لا تَغرُّه الأمانىُ ، ولا تَخدعُه الفانية عن المصير والمآل ، هو من يُبادرُ إلى التوبة والإنابة ، ولا يتمادَى فى العصيان ، ولا يغفُل عن عبادة الرحمن ، ويَعُدُّ نفسَه من الموتى ، ويرجو اللَّه حسنَ الخاتمة ، فالبِرُّ والمعروفُ والإحسانُ لا يَضيع ، كما أن الإثمَ والذنبَ لا يمحوه بفضل اللَّه إلا التوبةُ والندمُ وتطهيرُ الذمةِ من التَّبِعَات ، فالدَّيان قائمٌ عَلى كل نفس بما كسبت ، فَمُجازيها بالإحسان إحسانًا ، وبالسوء سوءًا ، إن اللَّه عزَّ وجلَّ لا يَظلم الناسَ مثقالَ ذرَّة ، وإنما يُضاعفُ الحسناتِ لأهل الإيمان تفضلًا منه وإحسانًا ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] .

باب التوبة رحمة من اللَّه :

لذا فإن العاقل البصير يُقِرُّ بذنوبه ، ويُسرعُ بالتوبة ، ولا ييأسُ من رحمة اللَّه تعالى ويُقبل على العمل الصالح ، قال تعالى من سورة هود : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [يونس : ١١٤] .

تنبيه من الغفلة :

قيل لحكيم ما بالُ القلوبِ قاسيةٌ لا تنفعها الموعظة ؟ قال : لأن اللّه أنعم عليكم فلم تشكروه ، وإذا أذنبتُم ذنبًا لم تستغفروه ، وإذا علمتم بخيرٍ لم تعملوا به ، ودفنتم الأمواتَ فلم تعتبروا ، وعلمتم سِيَرَ الأنبياء ، ولم تعملوا مثلَ عملهم .

وأوصى رسول اللّه ﷺ عائشة فقال : « يا عائشةُ إيَّاكِ ومُحَقَّراتِ الذنوبِ فإن لها من اللّه تعالى طالبًا » .

وجاء فى الكتب السماوية السابقة : « من يزرع البِرَّ يَحصُد السلامة ، ومن يزرع السُّوءَ يحصد النَّدامة » . وفى القرآن الكريم : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء : ١٢٣] .

من مسالك النجاة :

إن حُسْن العاقبةِ إنما يكون للمسلم الذى وحَّد ربَّه ، وطهَّر قلبه ، وأكل حلالًا ، وبَرَّ والدَيْه ووصَل رَحِمَهُ ، وأدَّى الفرائضَ ، وسابق فى الخيرات والصالحات وحاسَب نفسَه قبل يوم الحساب ، واجتنب الشرْكَ والسِّحرَ وقَذْفَ المُحْصَنات ، واجتنب الغِيبةَ والنميمةَ والكذبَ والشتمَ وأذَى الناس .

إن حُسْنَ العاقبةِ لِمَن رَحِم اليتيمَ والفقيرَ وأدَّى حقوقَ الناس ، ولم يأكل الرِّبا ، ولا شَرِبَ الخمر ، ولا نَهَب أموالَ غيره ، ولم يشهد زورًا ولم يُصِرَّ على ذنْبٍ ومعصية ، لِمَن لَم يأمنْ من مكْر اللّه ، وعاش على الخوف والرجاء ، ولم ييأس من رحمة اللّه ، لِمَن وُعظ فاتَّعظ ، فطوبى للرحماء الأتقياء التوابين البكائِين أهلِ التواضع والبِرِّ .

الأمر عظيم فهل تنبهنا :

جاء فى الأثر : إن لله ملائكةً فى السماء السابعة سُجودًا منذ خلقهم اللّه إلى يوم القيامة ، تُرعَدُ فرائصُهم من مخافَةِ اللّه تعالى ، فإذا كان يومُ القيامة رَفعُوا رءوسَهم وقالوا : « سبحانك ما عبدْناك حقَّ عبادتك » .

قال ﷺ فى إحدى خُطبه : « إن العبدَ المؤمنَ بين مخافتين : بين أجلٍ قد مَضَى لا يَدرى ما اللّه صانعٌ فيه ، وبين أجل قد بَقِىَ لا يَدرى ما اللّه قاضٍ فيه فلْيَأْخُذ العبدُ من نفسِه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشَّبيبة قبلَ الكِبَرِ ومن الحياة قبلَ الموت » [الراوي جابر بن عبد اللّه] .

وفى الحديث : « والذى نفسى بيده ، ما من عبد يُصلِّى الصلواتِ الخمس ، ويصومُ رمضان ، ويُخرِجُ الزكاة ، ويَجتنبُ الكبائرَ السبعَ ، إلَّا فُتحت له أبوابُ الجنة ، ثم قيل له : ادخُل بسلام » .

[أخرجه النسائى والحاكم من طرق أخرى وقال: صحيح على شرط الشيخين ورواه أبو هريرة وأبو سعيد] .

وسُئل ابنُ عباس : كم الكبائر ؟ أسَبعٌ هى ؟ قال : « هى إلى سبعمائة أقرب منها إلى سَبع غير أنه لا كَبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار » .

قال ابن مسعود : « أكبرُ الكبائر الإشراكُ باللّه ، والإياسُ من رَوْح اللّه والقُنوطُ من رحمةِ اللّه ، والأمنُ من مكر اللّه عزَّ وجلَّ » . [نقله ابن كثير عن ابن جرير] . وعند ابن أبى حاتم عن عكرمة عن ابن عباس : أن رجلًا قال : يا رسول اللّه ، ما الكبائر ؟ قال : « الشركُ باللّه ، واليأسُ من رَوْح اللّه ، والقُنوطُ من رحمة اللّه ، والأمنُ من مَكْر اللّه ، وهذا أكبرُ الكبائر » [وجاء مثله عند البزار] .

فطوبى لمن اتقى اللّه وأناب إليه .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾

[سورة الملك : ١ ، ٢]

رسالة

طريقنا إلى السعادة

* كلمة : ٣١٧

١ - نور الإيمان ووجوب الإذعان وصدق اليقين ٣٢٠
٢ - فى الطاعة عِزٌّ وكرامة ٣٢٨
٣ - إخلاص العبادة : فى الأفعال والأقوال والنيّات ٣٣٢
٤ - اتّقوا اللّه فى الأيمان يا أهلَ الإيمان ٣٣٦
٥ - احذروا العرّافين والمنجّمين والدّجّالين ٣٤٣
٦ - الصلوات الخمس : بركاتُها ووصيةُ الإسلام بها ٣٥١
٧ - الوضوء : (أ) بهاءُ المؤمن ونورُه ٣٥٨
(ب) كيف نتوضأ ٣٦١
٨ - الزكاة : إخراجُها بركة ، ومَنْعُها ضَرَرٌ ونقمة ٣٦٧
٩ - (أ) الصوم تربية عالية ٣٧٣
(ب) طُوبى للمشمّرين فى الليالى المباركات ٣٧٦
(ج) من هدى النبى ﷺ وتوجيهاته فى صيام التطوع ٣٨٠
١٠ - عيد فطرنا يوم رحمة وتسامح وتجاوز ٣٨٧
١١ - (أ) من أحكام الحج : ومعنى التمتُّع ، والقِرَان ، والإفراد .. ٣٩٢
(ب) يوم عرفة ٣٩٨
١٢ - تكريم خاتم النبيين ﷺ وعِبر من الإسراء ٤٠٣
١٣ - أمّةُ التراحُم والتعاطُف ٤١١

* * *

فائـــدة :

في حديث سراقة بن مالك بن جُعْشم قال : « يا رسول الله أخبرنا عن أمرنا كأننا ننظر إليه ؛ أبما جَرَتْ به الأقلامُ ، وثَبتتْ به المقاديرُ أم بما يُستأنف ؟ فقال : « لا ، بل بما جرت به الأقلام ، وثبتت به المقادير » . قال : ففيمَ العملُ إذن ؟ قال : « اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لمَا خُلِق له » . قال سراقةُ : فلا أكون أبدًا أشدَّ اجتهادًا في العمل مني الآن » . [أخرجه مسلم] .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاةُ والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه ومن تَبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

كلمة :

الدين الحق يقوم على أصول أساسية منها :

الإيمانُ بأن لهذا الكونِ العظيمِ المتقَنِ فى وحدة نظامِه ، وبديع إحكامِه ربًّا إلهًا أبدعَهُ ، وأتقنَهُ بقدرته ، وحكمتِه من غير مُساعد ، ولا واسطةٍ ؛ لهذا وجَب على الخلق أن يعبدوه وحده ، ولا يُشركوا به شيئًا لا فى الدعاء ولا فى غيره من العبادات . وهذا الأصل هو منتهى ما يصلُ إليه ارتقاءُ العقلِ البشرىِّ فى الاعتقاد ، وتطهير النفس من الأباطيل والأوهام .

ومنها الإيمانُ بعالم الغيب ، والحياة الآخرة ، حيث مصيرُ الناس إلى حياة أخرى فى عالم آخرَ بعد خرابِ هذا العالم الدنيوى وانقضائه ، وإنَّ الإيمانَ بعالم الغيب والحياةِ الآخرة ركنٌ من أركان الارتقاء البشرى لأنه يبعثُ البشرَ على الاستعداد لذلك العالمِ الأوسعِ الأكمل ويُعرِّفهم بأن وجودَهم أكمل ، وأبقى ممّا يتوهَّم المتوهمون .

ومن الأصول الأساسية للدِّين : العملُ الصالحُ الذى ينفع صاحبَهُ ، وينفع الناسَ ، وإنَّ العملَ الصالح ثمرةُ الإيمان الصحيح ، وبه يستعدُّ المؤمنُ للقاء ربِّه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] .

فى فضل صحة العقيدة والعمل الصالح :

إن صحة الاعتقاد ، وسلامةَ اليقين ، وطاعة اللّٰه عز وجل ، وامتثال أمره : بأداء الفرائض من صلاة وصوم وزكاةٍ وحج ، وبعدم الغفلة عن ذكر اللّٰه وشُكره على نعمه وبالتحلّى بمكارم الأخلاق ، مع برِّ الوالدين ، وصلةِ الرحِم والصبر على الـمُصيبة والرِّضَى بقضاء اللّٰهِ ، والقناعة ، وأكلِ الحلالِ الطيب ، والسخاء والجود رحمةً بالفقراء والـمساكين ، مع ضبط النفس وإمساكِ اللسان إلا عن خيرٍ أو ذِكرٍ لله عز وجل، إن ذلك كلّه وغيره من أبواب الخير لأعظمُ ذُخرٍ يدَّخره الـمرءُ لنفسه.

وقد جاء فى الخبر عن عبد الرحمن بن سمُرة رضى اللّٰه عنه من حديث طويل جُسِّمت فيه الـمعانى ، وجاءت فى صُور ملـموسة مَرئيةٍ تنبيهًا وتذكيرًا لأولى العقول قال : خرج علينا رسولُ اللّٰه ﷺ فقال : « إنى رأيتُ البارحة عجبًا » . ومما جاء فيه من بيانٍ لفضل الإخلاص والعمل الصالح :

- رأيت رجلًا من أمتى قد احتوشَتْه الشياطين - أُحاطت به - فجاءه ذِكرُه لله فخلَّصه من بين أيديهم .

- رأيتُ رجلًا من أمتى قد احتوشته ملائكةُ العذاب فجاءته صلاتُه فاستنقذته من بين أيديهم .

- ورأيت رجلًا من أمتى يلهثُ عطشًا ، كلـما ورد حوضًا مُنِع منه فجاءه صيامُه فسقاه وأرواه .

- ورأيت رجلًا من أمتى من بين يديه ظُلـمةٌ ، ومن خَلفه ظُلـمة ، وعن يـمينه ظُلـمة وعن يساره ظلـمة ومن فوقه ظلـمة ، ومن تحته ظُلـمة ، فهو متحيرٌ فيها ، فجاء حجُّه وعُمرتُه واستخرجاه من الظُّلـمة وأدخلاه النور .

- ورأيت رجلًا من أمتى يتَّقى وهَجَ النارِ وشرَرَها بيده عن وجهه فجاءته

صدقتُه فصارت سِترًا على وجهه وظلًّا على رأسه .

- ورأيت رجلًا من أمتى هَوى فى النار فجاءته دموعُه التى بكَى بها من خشية اللّه فى الدنيا فاستخلصتْه من النار .

- ورأيت رجلًا من أمتى انتهى إلى أبوابِ الجنةِ فَغُلِّقت الأبوابُ دونه فجاءته شهادةُ أن لا إله إلا اللّه ففتحت له الأبوابَ فأدخلته الجنة[1] .

ومن الصور التى تُنفِّر من الشرّ كالنميـمة والغِيبة قوله :

- ورأيت ناسًا تُقرَضُ شِفاهُهم فقلتُ : يا جبريل ، مَن هؤلاء ؟ فقال : المَشّاءون بالنميـمة بين الناس .

- ورأيت رجالًا مُعلَّقين بألسنتهم فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين يرمون المؤمنين والمؤمناتِ بغير ما اكتسبوا .

إن هذه الصورَ تُبرزُ لنا المعانيَ المُرادَة على نحو يؤثِّر فى النفوس ويُنبِّه أولى الألبابِ ليثبتُوا دومًا على طريق الطاعة ، ويلزموا العملَ الصالح الذى هو خيرٌ وأبقى من الدنيا وما فيها من متاعٍ مآلُه إلى زوال .

فطوبى لمن تدبَّر واعتبر .

* * *

(١) نقله ابن الجوزى عن الصحيح فى كتابه « الوفا بحقوق المصطفى ﷺ » باب « فى ذكر مناماته » وهو يشبه أن يكون مجموعًا من أحاديث شتى كما أشار ابن كثير فى تفسير سورة الإسراء ولم يذكره .

(١) نورُ الإيمان ووجوبُ الإذعان وصِدقُ اليقين وإدآبُ الجوارحِ فى خدمة الرحمن

من دعاء الرسول ﷺ : « أسألُكَ الرِّضا بعدَ القضاء » .

« الإيمانُ قولٌ وعمل ونيّة ، وإن الأعمال

كلها داخلةٌ فى مُسمَّى الإيمان » .

« اسمُ الإسلام والإيمان إذا أُفرِدَ أحدهُما دخل فيه الآخرُ ،ودلَّ بانفراده على ما يدل عليه الآخر بانفراده ، فإذا قُرنَ بينهما دلَّ أحدُهُما على بعض ما يدلّ عليه بانفراده ودلَّ الآخر على الباقى » [قاله جمع من العلماء] .

أصول الإيمان وقواعده :

إن جبريل عليه السلام حين جاء يعلم المسلمين أمرَ دينهم كما فى الحديث الذى رواه عمرُ رضى اللَّه عنه قال للنبى ﷺ : أخبرنى عن الإيمان ؟ قال ﷺ : « أن تؤمنَ باللَّه وملائكته وكتبِه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمنَ بالقدَر خيرِه وشرِّه » . [رواه الجماعة إلا البخارى من حديث عمر رضى اللَّه عنه] .

هذه هى أصول الإيمان ، وأُسسُ اليقين الذى به النجاة .

وقد تضمن جوابه ﷺ الاعتقادات الباطنة وهى :

الإيمان باللَّه :

وهو التصديق بأنه سبحانه موجودٌ ، وموصوفٌ بصفات الجلال والكمال مُنزَّه عن صفات النقص ، وأنه سبحانه : واحدٌ حقٌّ صمدٌ فرد خالقُ جميع المخلوقات ، متصرفٌ فيما يشاء ، ويفعل فى مُلكه ما يريد ، لا شريكَ له

ولا ندٌّ ، ولا ولد ، ولا صاحبة ، ولا وزيرَ له ولا مشير .

له كمالُ القدرة ، وكمال الحكمة ، وكمال التدبير ، وكمال العلم وكمال الرحمة .

وأنه سبحانه المُتفردُ بالإلهية والربوبية ، فهو سبحانه الرزّاق الوهاب المُحيى المميت ، الضارُّ النافع ، وهو المعبودُ بحق ولا معبود بحق سواه لا يُستغاث إلا به ، ولا يستعان إلا به ، ولا يُرجى ولا يُخاف إلا هو ، ولا نتوكَّلُ إلا عليه ، ولا ننذرُ إلا له سبحانه ، ولا ندعو إلا إياه ، ولا نتضرع إلا إليه ، وكلُّ معبودٍ سواه باطل ، وكلُّ عبادةٍ لغيره وبالٌ على صاحبها .

والله عز وجل يقول : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٨] .

وفى الحديث الذى رواه ابن عباس وأخرجه الترمذى : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنتَ فاستعن بالله » . وفى الحديث الذى رواه مسلم عن طارق الأشجعى أن رسول الله ﷺ قال : « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبَدُ من دون الله ، حرَّم الله تعالى ماله ودمه ، وحسابُه على الله تعالى » . وفى لفظ : « من وحَّد الله » .

أما الإيمان بالملائكة :

فهو التصديق بأنهم عبادٌ مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، ولا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون .

والإيمان بالكتب :

هو أن نؤمن بأن الله عز وجل أوحى إلى رسله الكرام ما أوحى ، وأنزل كتبه لهداية الخلق إلى الحق ، وتبصيرهم بما ينفعهم ويُصلح أحوالهم ويجعلهم أهلًا

للسعادة فى الدار الآخرة مثل : صحف إبراهيم ، والتوراة التى أنزلت على موسى ، والزبور الذى أنزل على داودَ ، والإنجيلِ على عيسى عليهم جميعًا وعلى نبينا محمدٍ أفضلُ الصلاة والسلام ، وهو الذى أنزلَ عليه آخرُ الكتبِ السماوية مصدقًا لـما تقدَّمه من الكتب ومهيـمنًا عليها . ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

والإيمان بالرسل :

هو أن نؤمنَ بأنهم صادقون فيـما أخبروا به عن اللّٰه تعالى ، وقد أيدهم سبحانه بالـمُعجزات الدالةِ على صدقهم ، وأنهم بلَّغوا عن اللّٰه رسالاته وبينوا للـمُكلَّفين ما أمرهم اللّٰه به ، وأنه يجب علينا احترامُهم وتوقيرهم ، وأن لا نُفرقَ بين أحد منهم .

ونؤمن بأنهم معصومون فيـما كُلِّفوا بتبليغه ، وبأنهم جميعًا بشرٌ لا يـملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرًّا ولا نفعًا ، من اتبع الرسل وأخلص نجا ومن عاند الرسولَ واستكبر هلك ، ونؤمن بأن خاتَمهم النبيُّ محمد ﷺ وأنه لا نبيَّ بعده ، ومن ادعى النبوةَ بعد ظهوره فهو كذَّاب أفَّاك : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾ [الأنعام : ٩٣] .

وعلينا أن نؤمنَ بجميع الأنبياء والـمرسلين ، وقد جاءت أسماء عددٍ منهم وأخبارهم فى كتاب اللّٰه عز وجل ، وفى السنة النبوية الـمطهرة عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم السلام ، والإيـمانُ بالرسل يلزم منه أن نؤمنَ بجميع ما أخبروا به عن عالَم الغيب جملة وتفصيلًا .

والإيـمان باليوم الآخر :

هو التصديق بيوم القيامة ، وما اشتمل عليه من الإعادة بعد الـموتِ والحشر ،

والنشر ، والحساب ، والـميزان ، والصراط ، والجنة ، والنار .

والإيمان بأن الجنة والنارَ هما دارُ ثوابه وجزائِه للـمحسنين والـمسيئين .

ونؤمن بكل ما أخبر اللّٰه به فى كتبه وعلى ألسنة رسله عن اليوم الآخر وما يقع فيه من الأهوال والشدائد ، والأحوال الـمتباينة ، والدرجات الـمتفاوتة والدركات التى أُعدَّت لأهل الشركِ والنفاق والعناد إلى غير ذلك مما صحَّ من النقل .

وإن اليومَ الآخرَ لا ريبَ فيه ، وإن البعثَ حقٌّ ، والجزاءَ حق ، فطوبى لـمن آمن وصدَّق وأخلص وأطاع ربه واتبع نبيه . ومن خُطب النبى ﷺ : « إن الرائد لا يكذبُ أهله ، واللّٰه لتموتُنَّ كما تنامون ، ولتبعثُنَّ كما تستيقظون ، ولتجزون بالإحسان إحسانًا ، وبالسوء سوءًا ، وإنها لجنةٌ أبدًا أو لنار أبدًا » ، وكما أوجدنا الخالق العظيـم من العدم فإنه يُميتنا ثم يُعيدنا للحساب والجزاء : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

وفى سورة يٓس : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾

[يس : ٧٨ ، ٧٩] .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] .

والأدلة النقلية والبراهين العقلية كثيرة .

أما الإيمان بالقدر :

فهو أن ما يصيب العبد فى دنياه مما يضره أو ينفعه ، فكلُّه مقدر عليه أو له ولا يصيب العبد إلا ما كتب له أو عليه من مقادير : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة : ٥١] .

فمعنى الإيمان بالقدر هو التصديق بكل ما تقدم ذكره ، وحاصله ما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] .

وقوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴾ [القمر : ٤٩] .

وقوله : ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾ [الطور : ٤٨] .

ونحو ذلك ... ومما يفسر لنا ذلك قوله ﷺ في وصيته لابن عباس رضى الله عنهما : « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يَضرُّوك بشىء لم يضرُّوك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف » .

[أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح] .

وعند أحمد فى مسنده من حديث أبى الدرداء : « إن لكلِّ شىء حقيقةً وما بلغ عبدٌ حقيقة الإيمانِ حتى يعلمَ أن ما أصابه لم يكن ليُخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه » ، قال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ [الحديد : ٢٢] .

وهذا هو الإيمان بالقدر ، والإيمان به واجب خيره وشره ، وإذا تيقن المؤمن بأن الأمور بيد الله عز وجل ، وأنه لا يقع إلا ما يريده ، وأنه ما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون . إذا تيقن المؤمن هذا ، اطمأن قلبه ، وآمن بأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فهو وحده السيدُ الكريم المقصود فى الحوائج على الدوام ، وبيده ملكوت كل شىء ، فلا يسأل سواه سبحانه .

وجاء قوله : « رُفعت الأقلام وجفت الصحف » تأكيدًا أيضًا لهذا المعنى أى : لا يكون خلافَ ما ذكرتُ لك يا ابن عباسٍ بنسخ ولا تبديل .

الاستسلام للقضاء :

وفى الحديث القدسى الذى رواه على بنُ أبى طالب وأخرجه ابن النجار : « إن أول شيءٍ كتبه اللّٰه فى اللوح المحفوظ : بسم اللّٰه الرحمن الرحيم إنى أنا اللّٰه ، لا إله إلا أنا ، لا شريك لى ، إنه من استسلم لقضائى ، وصبر على بلائى ، ورضى بحُكمى ، كتبته صديقًا مع الصديقين يوم القيامة » .

وجاء فى الدعاء المأثور : « اللّٰهم إنى أسألك نفسًا بك مطمئنة ؛ ترضى بقضائك ، وتقنعُ بعطائك ، وتُؤمن بلقائك » .

وقال بعض السلف : الحياة الطيبة هى الرضا والقناعة .

والقضاء : هو فصلُ الأمر ، وقضاءُ اللّٰه نافذٌ فى مخلوقاته ولا رادَّ له فهو الإلهُ الواحد ، المدبرُ ، الرزاق ، الحكيم ، القوى ، المحيى ، المميت . الصحةُ والمرض بيده ، والكلُّ عبيده خاضعٌ لحكمه وقضائه .

﴿ قُلْ مَنْۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٨ ، ٨٩] .

فالإيمان الصحيح لا يتم إلا بإرجاع كل الأمور إلى اللّٰه سبحانه ، فهو مدبرُها بحكمته ، وهو القاضى فيها بحكمه ، وما يصدر عن المخلوق ما هو إلا السبب الظاهر ، فالجميع عبيده مسخرون لما خلقوا له .

تلكم هى أصولُ الإيمان ، ووجوبُ اعتقاد كل منها ، لأنه لا نجاة إلا مع صدق اليقين ، وسلامة الدين من الشك ومن الشبه ، وبإخلاص الطاعة والعبادة لله عز وجل القائل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١٣٦] .

الطاعة الإذعان :

إن هذا الإيمان يوجب علينا الطاعة والإذعانَ والانقيادَ لأمر الواحد الديَّان ، وإن طاعة اللَّه تكون بأداء فرائضه ، والوقوفِ عند حدوده ، وإدآبِ الجوارح فى خدمة المولى عز وجل تعبيرًا عن الشكر له ، وعن العبودية والمحبة والاستسلام والخضوع ، لما وقر فى القلب من صدق الإيمان وخلوصه .

الأعمال الظاهرة :

وأحبُّ الأعمال إلى اللَّه أن تؤدَّى فرائضه ؛ وهى أركانُ الإسلام التى سأل جبريلُ عنها رسولَ اللَّه ﷺ فى الحديث الذى رواه عمر فقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام ؟ فقال : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا عبده ورسوله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصومَ رمضان ، وتحجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلًا » . وجاء عند أحمد والترمذى عن أبى أمامة الباهلى قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ فى حجَّة الوداع يخطب فقال : « اتقوا اللَّه ، وصلُّوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدُّوا زكاة أموالكم ، وأطيعوا أمراءكم ، تدخلوا جنةَ ربكم » . [وقال : حديث صحيح] .

مع ختام سورة البقرة :

ولنتدبر ما جاء من بيانٍ لأصول الإيمان ووجوب الإذعان والإخلاص :
﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

فالمؤمن : يؤمن بأن اللَّه واحدٌ أحد ، فردٌ صمد ، لا إله غيره ، ولا رب

سواه ، ويؤمن بملائكته الكرام ، ويصدق بجميع الأنبياء والرسل ، والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين ، لا يفرق بين أحدٍ منهم ، فلا يجوز أن يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، بل الجميع عند أهل الإيمان صادقون بارُّون راشدون مهديون هادون إلى سبل الخير ، وإن كانت شريعة الرسول منهم تنسخُ شريعة من سبقه بإذن الله ، حتى نُسخ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين الذى تقوم الساعة على شريعته ، وجميعُ الإنس والجنُّ مُطالَبُون بالدخول فى دينه ، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين . وإن أهل الإيمان حين سمعوا أصول الإيمان وقواعده وحين يسمعونها يجددون العهد والميثاق ، فيقولون حالًا ومقالًا : سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه ، وقُمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه : ﴿ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ . ثم يسألون ربهم مغفرة الذنوب ومحو السيئات : ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] . سؤال للغفر والرحمة واللطف ثم هم يُقِرُّون باليوم الآخر والبعث للحساب والجزاء بقولهم : ﴿ وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أى : إليك المرجع والمآب يوم يقوم الناس للحساب ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨١] . فنسألك اللّٰهم بما علمتنا فى كتابك فتقبل منا وارحم ضعفنا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ الآية [البقرة : ١٧٧] .

(٢) فى الطاعة عزٌّ وكرامة

قال اللَّه تعالى لنبيه الكريم : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾
[الحجر : ٩٩] .

وقال سبحانه : ﴿ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ ﴾ [التغابن : ١٦] .

إن طاعةَ اللَّه عز وجل جماعُ الخيرِ كله ، وفيها الطمأنينةُ ، وبها تتحقق للنفس سكينتُها ، وقد أرسل اللَّه الرسلَ صلوات اللَّه عليهم ليدعوا العباد إلى توحيد اللَّه وطاعته والإذعان لـمُقتضَى أمرِه ونهيه ؛ ليكونوا أهلًا لرحمة اللَّه عز وجل .

إن اللَّه عز وجل أنعم على الإنسان بالعقل ، وبالقدرة على التفكُّر والتأمل وأرسل له الرسل لينيروا له الطريق ، حتى يعيش بمنأى عن عوامل الشر والفساد ، ويسلك طريق الرشاد والسداد ؛ فمن عمل صالحًا وأطاع وأناب فثمرةُ عمله راجعةٌ إليه بفضل اللَّه وإحسانه ، ومن أساء فاساءتُه مضرَّتُها فى الدنيا والآخرة على نفسه ، ولا يظلم ربك أحدًا ، يُثيب المحسنَ بفضله ورحمته ويعاقب المسىء بعدله : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] .

إن اللَّه عز وجل خلق العباد لطاعته والخضوعِ له وتحقيق معنى العبودية بشكره ، وبالقيام بفرئضه ، وبالتحلى بالقيم والفضائل التى دعا إليها الدينُ وحث عليها النبى الأمين ﷺ ، وهو سبحانه غنىٌّ عن عباده ، لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معاصيهم ، ولا تُنقص معاصيهم من كمالاته شيئًا : ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ [فصلت : ٣٨] .

وإن العاقل ذا البصيرة يعلم أن قيمة وجوده إنما هى فى طاعته لربه وفى

سلوكه مسالكَ الأخيار ، ذوى النفوس الطيبة التى تحب الخير ، وتُقبل عليه وتكره الشرَّ وتبتعد عنه ، لعلمهم أن فى الطاعة حياةَ القلوب ، ووفاءً بالعهد واستجابةً لأمر الرب وأن فى الطاعة توجيهًا لقوى النفس والبدن نحو البرِّ ، والبناء والعمارة والخيرِ الخاصِّ والعام : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤] . ويقول سبحانه : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾ [التغابن : ١٦] . ويقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

إن أهل الطاعة هم أهلُ الصدق والأمانة ، وأهلُ السماحة والمرحمة يرجون رحمة اللّٰه ، ويخافون عذابه ، ويعلمون أنه سبحانه يُمهل ولا يُهمل وأن الجزاء آتٍ لا ريب فيه .

إن أهل الطاعةِ لا يعملون فى الخفاء عملًا فيه ريبةٌ يخشَوْن أن يطلع عليه الناسُ إذ الريبةُ لا تليق بأدب المسلم وتوجُّهاته الخيِّرة دومًا : « والإثمُ ما حاك فى صدرك وخشيت أن يطلع عليه الناس » كما جاء فى الأثر .

إن عملَ المؤمن ينبغى أن يكون دومًا خالصًا لوجه اللّٰه ، وفيه اتباعٌ واقتداءٌ ، يرجو به رحمةَ ربه وتثقيلَ ميزانِ حسناتِه وتكفيرَ سيئاته .

إن أهل الطاعةِ هم أهلُ الإحسان يعبدون اللّٰه عن محبة وإخلاص ويراقبون اللّٰه فى كل قول وعمل ، لعلمهم أن اللّٰه معهم ، وليقينهم أنه مطلعٌ على خفايا نفوسهم ، ومُحصٍ عليهم كلَّ صغيرة وكبيرة ، وهم لذلك لا ينسَوْن أن للعُمر نهاية ، وأن عرض الدنيا زائل ، وأن نعيم الآخرة دائم ، فهم يعيشون فى الدنيا كأنهم غرباء أو عابرو سبيلٍ ، إذا أمْسَوْا لا ينتظرون الصباح وإذا أصبحوا لا ينتظرون المساء .

إن العاقل البصيرَ يغتنم حياتَه فى بذل الجهد فى طاعة الرب والاستقامة على طريق الحق والخير ، وفى ملء صحيفة عمره بخير يجده يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج : ٧٧] .

وفى الحديث الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما : « اغتنمْ خمسًا قبل خمس : شبابك قبل هَرَمِكَ ، وصحّتك قبل سَقَمِك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغَك قبل شُغلك ، وحياتك قبل موتك » . [أخرجه الحاكم]

ولقد كان رسول الله ﷺ أشدَّ الناس خوفًا من الله ، وأعظمهم اجتهادًا فى طاعة الله ، وكان إذا سئل عن طول قيامه فى صلاة الليل يقول : « أفلا أكون عبدًا شكورًا » .

ومن توجيهاته ﷺ فى الحديث الذى أخرجه الترمذى ورواه أبو هريرة رضى الله عنه - قوله : « ما من ميِّت يموتُ إلا نَدِم ، قالوا : وما ندامته ؟ قال إن كان مُحسنًا ندم أن لا يكون ازداد ، وإن كان مُسيئًا نَدِم أن لا يكونَ استعْتَبَ » أى : ندم أن لا يكونَ تاب وأناب ورجع عن غيِّه نادمًا على ما فَرَط منه ، فالغفلةُ عن التوبة وعن طلبِ العفو من رب العبادِ من أعظم الذنوب ومن أسباب الهلكة .

ولتندبر ما يكون على لسان أهل الغفلة يوم القيامة إذ يتحسَّر الواحد منهم قائلًا : ﴿ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٦] .

وقد سمِّى يومُ القيامة يومَ الحسرة ؛ لكثرة النادمين بعد فوات الأوان ، وقد حذَّر الله عباده ليثوبوا إلى الإيمان والطاعة ويتركوا الغفلةَ والانسياق وراء الهوى والشيطان يقول عز وجل : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم : ٣٩] .

فطوبى لـمن طرح الغفلة وراء ظهره ، وندم على ما فرط ، ولزم الاستغفار وبكى أو تباكى على ما كان من تراخٍ فى الطاعة ، وقد تعلق قلبُه بحبل الرجاء ،

طامعًا فى عفو اللّٰه ورحمته ، ولسان حاله يقول :

تفكّرتُ فى حَشْرى ويومَ قيامتى — وإصباحِ خَدِّى فى المقابر ثاويا
فريدًا وحيدًا بعد عزٍّ وَرِفْعةٍ — رهينًا بِجُرمى والترابُ وِساديا
تفكرتُ فى طول الحسابِ وعَرْضِه — وذلِّ مُقامى حين أُعطى كتابيا
ولكنْ رجائى فيكَ ربِّى وخالقى — بأنك تغفرُ يا إلٰهى خطائيا

إن الطاعة عزٌّ وكرامة ، وأهلَ الطاعة هم أهلُ الوقار والحلم ، خيرهم قريب ، وشرهم بعيد ، يألفون ويُؤلَفون ، ويجمعون القلوبَ ولا يُفرقون ، ويلبسون لباسَ التقوى ، ويتزوَّدون من دنياهم بالعمل الصالح ، والخُلق الحسن ، وبصدق اليقين ، وبسلامة الإيمان ، لا يقنطون من رحمة اللّٰه ، ويُدئبون جوارحهم فى طاعة اللّٰه قلوبُهم نقية ، ونفوسُهم قانعة ، وتوجُّهاتُهم مستقيمة على منهج الكتاب والسنة .

فطوبى لمن اختار طريق الأبرار .

* * *

توجيه نبوى شريف :

عن النَّواس بن سمعان رضى اللّٰه عنه قال : سألتُ رسول اللّٰه ﷺ عن البرّ والإثم ، فقال : « البِرُّ حُسنُ الخُلق ، والإثمُ ما حاك فى صدْرِك وكرِهْتَ أن يطلعَ عليه الناس » .

[أخرجه مسلم] .

والبِرُّ : يكون بمعنى الصِّلة ، وبمعنى الصدقةِ واللُّطفِ والمبرَّة ، وبمعنى حُسنِ الصحبة والعِشرة ، وبمعنى الطاعة ، ويدخل فيه مُخالقةُ الناس بالجميل والبِشْر والإشفاق عليهم ، وتركِ الكبرِ والغلظة والغضبِ ونحو ذلك ، وهذه الأمور هى مجامع حسن الخلق .

* * *

(٣) إخلاصُ العبادة

فى الأفعال والأقوالِ والنيّات سبيلُ النجاة

إن نعمَ اللَّه علينا لا تُحصَى ، ولا تُعدُّ ؛ بقدرته الكاملة خلقنا ومنحنا العقلَ والفهمَ والفِطنة ، ووهبنا مِرآةً لطيفةً ثمينةً فيها : السمعُ والبصرُ ، والأنفُ والفمُ ، وفيها من آيات كمالِ القدرة ما لا يخفى إذ لا تتماثلُ صورةُ وجهِ إنسانٍ وتتطابقُ سماتُه مع سماتِ وجهِ آخرَ ، ولو كانا توأمًا ، فسبحان المنعم الوهَّاب .

وبكمال رحمتِه وحكمته أنعم علينا بالرزق : أطعمنا ، وسقانا ، وكسانا وأودع لنا فى الأرض من البركات والخيرات ما يفى بحاجات الخلق مهما تطاول الزمان ، واتسع العُمران ، وكثر الإنسانُ وسائرُ الحيوان .

ودعانا اللَّه إلى شكره وحمده ، ويكون ذلك بتوحيده ، وإخلاص الطاعة له ، فهو سبحانه المتفرّد بالإلهية والربوبية ، تنزّه عن الشريك والندّ والولد والصاحبة : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] .

فمن أحبَّ المنعم الوهاب ، وأخلص قلبَه للإيمان ، واتبع رسولَه واتقى ربَّه - كان أهلًا للدخول فى زُمرة المبشَّرين بالنعيم المقيم ، بمثل ما جاء عن أنس بن مالك رضى اللَّه عنه : أن رسولَ اللَّه ﷺ قرأ قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر : ٥٦] . فقال : قال اللَّه عز وجل : « أنا أهلٌ أن أُتَّقَىٰ ، فلا يُجْعلَ معى إلهٌ آخرُ ، فمن اتقى أن يجعلَ معى إلهًا آخرَ فأنا أهلٌ أن أغفر له » . [أخرجه ابن ماجة فى سننه] .

وقد أوجب علينا سبحانه قراءةَ فاتحةِ الكتاب فى الصلوات ، لنُقرَّ على أنفسنا

دومًا بالعبودية ، ونُقرّ له سبحانه دومًا بالوحدانية ، وبوجوب إخلاصِ العبادةِ له وحده ، فهو ربُّ العالـمين ، ومالكُهم ، ورازقُهم ، لا يُعبدُ غيرُه ولا يُستعان على طاعته وعلى سائر أمورنا إلا به سبحانه : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . وقد نفت الآيةُ الكريـمةُ شركَ الـمحبّةِ والإلهية ، كما نفتْ شركَ الخلق والرُّبوبية ، فلا معبود بحقٍّ سواه ، ولا رازق ولا حارم إلا هو .

الأفعال ، والألفاظ ، والنيات :

إن العبادةَ مؤلَّفةٌ من مجموع هذه الثلاثة : فعلٌ ، وقولٌ ، ونيّةٌ ، ولا يجوز أن يوجّه منها شيءٌ لغير اللّه عز وجل :

فالسجود ، والركوع ، والطواف بالبيت الحرام ، ونحو ذلك من الأفعال هى حقُّ اللّه وحده على عباده بالهيئة التى فرضها ، والطوافُ التعبُّدىُّ يكون فى الـمكان الذى بيّنه سبحانه لا يجوزُ أن يُنقل إلى مكان آخر .

والعبادةُ لا تصح إلا بالنيّة ، وعقدِ الإرادة على الفعل أو القول : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾

[الأنعام : ١٦٢، ١٦٣] .

فمن جعل فى صلاته أو زكاته ونحوهما من نيّـته شيئًا للعباد الأحياء فقد صار مُرائيًا ، والرياءُ مُحبطٌ للأعمال ، ومُضيعٌ لثمرتها ، وإن اللّه لغنيٌّ عن الشركاء . ومن جعل من نيّته عند استغاثته أو استعانته أو دُعائه أو نذره ونحو ذلك شيئًا للأموات فقد أشرك ، وجعل لله ندًّا وشريكًا فى ألوهيته .

ومثلُه من يُشرك فى الألفاظ والأقوال ، ومع اعتقاد التقديس والنفع والضُّر من الـمخلوق يَخرجُ اللفظُ بصاحبه عن دائرة الـمُوحدين إلى زمرة الهالكين ، ومثالُه الحلف بغير اللّه قصدًا واختيارًا ، إذ الحلفُ تقديسٌ وتعظيم لـمن يـملك

الثواب والعقاب ، فمن جعل ذلك لنبيّ ، أو وليّ ، أو قبرٍ ، أو أبٍ ، أو أمٍّ ونحو ذلك فقد افترى واقترف إثمًا عظيمًا ، لا يُكفره سوى التوبة النصوح والندم وعدمِ العودة إلى مثل ذلك حتى آخرِ الحياة ، وفى الحديث الذى رواه ابن عمر وأخرجه أحمد وبعض أصحاب السنن : « من حلف بغير اللّٰه فقد أشركَ » .

تحذير : إن المؤمن البصير يحذرُ الشركَ فى الأفعال ، فلا يقدِّم عبادةً بدنيّةً لغير اللّٰه ، ويحذرُ الشركَ بالأقوال فلا يحلف بغير اللّٰه أو بصفة من صفاته سبحانه ، ولا يَصدر من لسانه استغاثةٌ أو دعاءٌ لغير اللّٰه عز وجل وليحذرِ الشركَ الخفيَّ المبطلَ للعبادات وهو الشركُ فى القصد والنيةِ والإرادة : وفى الحديث القدسى الذى رواه أبو هريرة وأخرجه مسلم : « أنا أغْنَىٰ الأغنياءِ عن الشِّرك ، من عملَ عملًا أشرك فيه غيرى تركتُه وشِركَه » . وفى لفظ عند ابن ماجة : « فأنا منه برىء ، وهو للذى أشركَ » .

ويندمُ المرائى يومَ القيامة حين يسمع المنادىَ يقول : « من كان أشرك فى عمل عَمله لله ، فليطلُبْ ثوابَهُ من عندِ غيرِ اللّٰه ، فإن اللّٰه أغنى الشركاءِ عن الشرك » . [من حديث أخرجه ابن ماجة ورواه سعد بن أبى فضالة] .

إن الرياء ذنبٌ عظيم ، والمُرائى محِلٌّ للويل والمقت ، قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الماعون : ٤ : ٦] .

وسأل رجلٌ رسولَ اللّٰه ﷺ : يا رسول اللّٰه ، فيمَ النَّجاةُ ؟ قال : « أن لا يعملَ العبدُ بطاعةِ اللّٰه ، يُريد بها الناس » .

أى : يُريد الثناء والسُّمعة الطيبة ، والصِّيتَ الحسن ، ويُحبُّ من نفسه أن يقال : ما أحسنه ! إنه يفعل كذا ، وطوبى لمَن خلا قلبُه وطهُر من هذه النَّوايا الشِّركية قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ

رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف : ١١٠] .

اطلُب من اللّٰه وحده : إن قاصدَ اللّٰهِ لا يَخيب ، فهو صاحبُ المُلك ، وخزائنُه لا تنفد ، وقضاؤه نافذ . وإن قاصدَ غيره بنية الاعتمادِ والتوكل يَخيب ، فمن رجا ميّتًا أو زار قبرًا فسأل التُّربةَ أو دعا صاحبَها فقد أشرك فى الربوبية ، وضيَّع إيمانَه إلا من تاب وأناب وعمل عملًا صالحًا لعلَّ اللّٰه يقبله ، وكان من دعاء الرسول ﷺ : « اللّٰهم لا تجعل قبرى وثنًا يُعْبَدُ » [عند ابن أبى شيبة رواية زيد بن أسلم] . وقال عن زوَّار القبور للدعاء والاستعانة بها أو بأصحابها : « أولئك شرارُ الخلق عند اللّٰه يوم القيامة » [فى الصحيحين وروته عائشة] كما جاء فيهما عن عائشة وأبى هريرةَ وابن عباس : « لعنةُ اللّٰهِ على اليهود والنَّصارى اتَّخذوا قُبورَ أنبيائهم مساجد » يُحذِّر ما صنعوا وهو فى مرضه الأخير ﷺ. وفى الحديث : « اشتدَّ غضـبُ اللّٰه على قوم اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد » . [رواه زيد بن أسلم كما عند ابن أبى شيبة] .

ومن زوَّار القبورِ مَن يَدعون بأهلها ، ويتخذون الـموتَى شفعاءَ يتقرَّبون بهم إلى اللّٰه ، وهم بذلك يجعلونهم أندادًا لله ، كما فعل الجاهليون وأمثالُهم من عُبَّاد الأوثان والأصنام ، وإن اللّٰه فى رحمته بعباده غنىٌّ عن اتخاذ الشفعاء والوسطاء بينه وبين عباده ، وهو سبحانه القائل : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] .

فهؤلاء على شركٍ عظيم وضلالٍ مبين كمن يدعُون أهلَ القبور ويطلبون منهم حاجاتِهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الأعراف : ١٩٤] .

أمَّا الرجلُ الـمؤمنُ الذى يزور القبرَ للاتعاظ وإلقاء السلام وللدعاء لنفسه وللأموات بالرحمة والـمغفرة ، فهو متأدِّبٌ بأدب الإسلام وتوجيهاته .

* * *

(٤) اتّقـوا اللّه فى الأَيمان
يا أهلَ الإيمان

١ - النَّهيُ عن الحَلِف بغير اللّه عزَّ وجلَّ :

عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « إنَّ اللّه تعالى ينهاكُم أن تحلفوا بآبائكم فمَن كان حالفًا فليحلف باللّه أو ليصمُت » . [متفق عليه] .

وفى لفظ « فمن كان حالفًا فلا يحلف إلا باللّه أو ليسكُت » .

[فى الصحيح] .

وعنه رضى اللّه عنه أنه سمع رجلًا يقول : لا والكعبةِ . قال ابن عمر : لا تحلِف بغير اللّه ، فإنى سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول : « من حَلف بغير اللّهِ فقد كفَر أو أشرك » . [رواه الترمذى وقال : حديث حسن] .

وعلينا أن نتدبر ما جاء من النهى الصريح سواءٌ بلفظ : « اللّه ينهاكم » أو بلا الناهية مع الـمضارع « فلا يحلف إلا باللّه » وهى تفيد القصر وتحصرُ الحَلفَ : بأن يكونَ باللّه وحدَه دون سِواه ، أو بصفة من صفاته سبحانه .

وهذا يؤكد لنا تحريـم الحلف بالنبى ، وبالولىّ ، فما بالك بمن يحلف بالقبر أو بتربة أمّه أو أبيه ، أو يحلف بالطلاق أو العتاق ، أو الأمانة أو بنحو ذلك من الأيـمان الـمُبتدَعَةِ التى تسوءُ معها العاقبة ، إلا إذا تاب الحالفُ وأناب ، وأقلع .

وفى الحديث: «من حلف بالأمانة فليس منّا» . [من حديث بريدة وأخرجه أبو داود].

وفى الحديث : « من حلف ، فقال : إنى برىءٌ من الإسلام ، فإن كان

كاذبًا ، فهو كما قال ، وإن كان صادقًا ، فلن يرجع إلى الإسلام سالـمًا » .

[من حديث بريدة وأخرجه أبو داود] .

فهذا كلُّه ومثلُه مُحرَّم تحريمًا قاطعًا ولا ينبغى لـمؤمن أن يقتحمَ حدودَ اللَّه ، ويتجرأ على تعظيم غيرِه سبحانه بالحلِفِ صريحًا أو كناية ، والكنايةُ مثلُ قول بعضهم فى الحلف « وصاحبِ هذا القبر » أو « وحقِّ الراقِد فى هذه التربة » وغيره .

أما من سبق على لسانه الحلفُ بغير اللَّه دون قصدٍ منه فعليه أن يوحِّد ربَّه ، ويستعيذَ باللَّه من الشيطان الرجيم ثلاثًا ، ويَنفُثَ عن يساره ثلاثًا ، ويعزم على عدم العودة نادمًا ، كما وضَّح ذلك رسولُ اللَّه ﷺ لسعدٍ رضى اللَّه عنه فى الحديث عند أحمد والنسائى : سأله ﷺ سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول اللَّه ، إنى حلفتُ باللات والعزَّى ، وإن العهد كان قريبًا ؟ فقال : « قل : لا إله إلا اللَّهُ وحده لا شريكَ له - ثلاثًا - ثم انفُث عن يسارك ثلاثًا ، ثم تعوَّذ ولا تَعُد » .

[أخرجه أحمد والنسائى] .

وإن العهد كان قريبًا : أى عهدهم بالجاهلية قبل الدخول فى الإسلام .

٢ - الحكمة من مشروعية اليمين وضرورة الصدق :

وعلى المسلم أن يَحلفَ وهو صادقٌ ، وواثقٌ من نفسه فيما يحلف عليه ولا يحلف إلا عند الحاجةِ الملجئةِ للحلف ، وذلك عندما يُريد أن يُظهر حقًّا ، أو أن يدفع عن نفسه تُهمةً أو ظلمًا ، وذلك على قاعدة : « البيِّنةُ على المدَّعى واليمين على من أنكر »[(١)] فإذا لم يقدِّم المدَّعى البيِّنةَ الشرعيةَ لإثبات حقِّه لدى خَصمه ، طولب الخصمُ المُنكرُ باليمين ليكُفَّ يدَ خصمِه ولعله تُدركهُ الخشيةُ من المنتقم الجبار فتحصلَ عنده الإنابة ، وتردُّه إلى الحق الرهبةُ والخوفُ من اللَّه

(١) رواه البيهقى والطبرانى بإسناد صحيح عن رسول اللَّه ﷺ .

تعالى ، وبذلك تنحسمُ المنازعات .

وهذه هى الحكمةُ التى شُرعت من أجلها الأيمان .

والحلفُ تعظيمٌ وتقديس ، والتعظيمُ والتقديسُ لصاحب الأمر كلِّه فهو وحده المطلعُ على ما تُخفون وما تُعلنون ، وهو وحده القادرُ على أن يأخذَ الكاذبَ بكذبه ، ويُثيبَ الصادقَ برحمته وفضله .

٣ - الكَذِبُ جُرمٌ فَظيعٌ :

وإن الكذبَ فى الأيمان لمن كبائرِ الذنوبِ ولا نصيبَ للمصرِّ من الرحمة والعياذُ بالله ، وفى الزجر عن ذلك جاء فى حديث ابن مسعود رضى الله عنه كما فى الصحيح أن النبى ﷺ قال : « من حلف على مال امرئٍ مُسلم بغير حقِّه لقىَ الله وهو عليه غضبان » قال : ثم قرأ علينا رسولُ الله ﷺ مِصداقَه من كتاب الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٧٧] .

وفى الحديث الذى رواه ابنُ عمرو رضى الله عنهما أن النبى ﷺ أجاب رجلًا سأل عن الكبائر فقال : « الكبائرُ : الإشراكُ بالله ، وعقوقُ الوالدين ، وقتلُ النفس واليمينُ الغموس » . [البخارى وأحمد وبعض أصحاب السنن] .

٤ - أنواع اليَمين :

(أ) اليمين الغمُوس :

فما اليمينُ الغموسُ ؟ وما معنى ذلك ؟

إن اليمين الغمُوسَ هى التى يتجرأ صاحبُها على الكذب فيها مستخفًّا - والعياذُ بالله - بالاسم المعظَّم ، فكلُّ من حلَف بالله على أمر انقضَى ومضى

وهو متعمِّدٌ الكذبَ ، سُمِّيت يـمينُه غموسًا لأنها تغمس صاحبها فى الإثم الذى يستحقُّ به أن يُغمَس فى نار جهنم .

وهذه هى اليـمينُ التى لا يُكفِّرها عِتقٌ ولا صيام ولا صدقةٌ ، بل لا بدَّ فيها من التوبة النصوح الصادقة ، والندم ، ومن أداءِ الحقوق ، والاستقامة بعدم العودة إلى مثلها ، وقد سأل أعرابيٌّ رسولَ اللَّه ﷺ عن « اليـمين الغموس » فقال : « الذى يقتطعُ مالَ امرئٍ » يعنى بيـمينٍ هو فيها كاذب .

وعند مسلـم من حديث أبى أمامة رضى اللَّه عنه : « من اقتطع حقَّ امرئٍ مسلـم بيـمينه ، حرَّم اللَّه عليه الجنةَ وأوجب له النار » ، سألوه ﷺ : وإن كان شيئًا يسيرًا ؟ قال : « وإن كان قضيبًا من أراك » . - أى ولو كان عودَ سِواك - .

أى من حصل على شىء ليس من حقِّه بيمينٍ باللَّه يحلفها وهو متعمِّد الكذب قاصدٌ كان عذابه أليمًا وخِزيُه عظيمًا إلا إذا تابَ توبةً صادقة بشروطها .

وهذه اليـمينُ من كَسب القلوبِ الذى يؤاخَذ العبدُ عليه كما جاء فى قوله عز وجل : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾

[البقرة : ٢٢٥] .

أى يعاقبُ سبحانه العبدَ بما كسب القلبُ ، أى : بما اكتسبه واقترفه من إثم القصد إلى الكذب فى اليـمين .

(ب) اليـمين الـمُنعَقِدَة :

ومن الأيـمان التى يقصدها القلبُ وينويها الحالفُ - أيضًا - ما يُسمَّى فى الشريعة الغراء « اليـمين الـمنعقدة » وهى التى بيَّنها اللَّه عز وجل لعباده فى قوله :

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ﴾

[الـمائدة : ٨٩] .

وهذه هى اليمينُ التى يؤكد بها الحالفُ عزمَه على أمرٍ مُباحٍ يريدُ عملَه فى المستقبل العاجل أو الآجل . كأن يقول : تاللَّهِ لأسافرنَّ غدًا ، أو تاللَّهِ لا أسافرُ غدًا .

فإذا برَّ الحالفُ وأوفَى بما حلف عليه فلا شىءَ عليه ، أما إذا لم يَفِ وحنَث فى يمينه ، أو رجَع عنها لمصلحةٍ دينيةٍ أو دنيويةٍ ، فإنه فى هذه الحالةِ يُكفِّر عن يمينه : بإطعام عشرةِ مساكين ، أو كسوتِهم ، أو تحريرِ رقبة . فإذا لم يقدر على واحدة منها فإنه يصومُ ثلاثةَ أيام : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ [المائدة : ٨٩] .

الرجوع والكفارة لمصلحة أعظم :

ومن توجيهاتِ الرسول ﷺ ما رواه أبو موسى رضى اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إنى واللَّهِ - إن شاء اللَّه - لا أحلفُ على يمينٍ ، ثم أرى خيرًا منها إلا كفَّرتُ عن يمينى وأتيتُ الذى هو خيرٌ » . [متفق عليه] .

أى : إذا حلَف المرءُ على أمرٍ ثم وجَد الخير فى الرجوع عنه والحنثِ ، فإنه يُقدِّم الكفارة ، ولا يَفى بما حلف عليه .

ثم تأمَّل الاستثناءَ فى قوله : « إن شاء اللَّه » بعد القسَم فى الحديث السابق ؛ لأنه ﷺ يحلفُ على أمرٍ مستقبَلٍ ، لا يدرى ماذا يقعُ بشأنه ؛ لأن الأمورَ كلَّها بمشيئة اللَّه وحده ، وفى هذا تعليمٌ لنا وتوجيه ، وكذا جاء فى حديث أبى هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « من حلف على يمين ، فرأى غيرَها خيرًا منها فليُكفِّر عن يمينه ، وليفعل الذى هو خيرٌ » . [أخرجه مسلم] .

متى يجبُ الرجوع عن اليمين ؟

إن العبدَ إذا حلف على أمر فيه معصيةٌ وجب عليه الحِنثُ ، ثم يُكفِّر عن

يـمينه : كمن يحلفُ على أذيةِ إنسانٍ ، أو قطيعةِ رحم أو نحو ذلك ، مـمَّا يجلبُ عليه غضب الرب ، وفى هذه الحالة نتَّبع قوله ﷺ : « فَائْتِ الذى هو خيرٌ ، وكفِّر عن يـمينك » . [من حديث متفق عليه ، والراوى عبد الرحمن بن سمرة] .

وإن الرجوع إلى الحق خيرٌ ، وإن كفَّ النَّفس والجوارح عن الأذى خيرٌ ، وإن ترك الـمُضارَّة والإضرار خيرٌ .

(ج) اليمين اللَّغو :

ومن فضل اللَّه علينا أن تجاوزَ لنا عن الأيـمان التى تجرى على اللسان بدون قصد ، وبدون نيَّةِ اليـمين ، وعن اليـمين التى تصدُر عن الـمسلـم وهو مُعتقدٌ فى نفسه أنه صادقٌ ، ثم يظهرُ له بعد الحلف أنه كان ناسيًا ، فهو صادقٌ فى اعتقاده صحةَ ما حلفَ عليه وفى نيته ، ولكنه كان قد كذَبَ فى واقع الأمر عن نسيان ونحوه ، وتلكم هى اليـمينُ اللغو ، والتى بيَّـن اللَّه حُكمَها فى قوله سبحانه : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٥] . قالت عائشة رضى اللَّه عنها : « أُنزلتْ هذه الآيةُ فى قول الرجل : لا واللَّهِ ، وبَلَىٰ واللَّهِ » . [أخرجه البخارى] .

وجاء عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما : « هو قولُ الرجل فى درج كلامه (أى فى أثنائه) واستعماله فى الـمحاورة : لا واللَّهِ ، وبَلَى واللَّه ، دون قصدِ لليـمين » .

وفى اعتقاد الحالف صدقُ نفسه وعدَمُ تعمُّده الكذِبَ :

جاء عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قوله : « إذا حلف الرجلُ على الشىء يظنُّه على ما حلف عليه ثم يظهرُ خلافُه - أى : فإذا ليس هو - فهو اللغو » .

وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ، وقال به مالك رضى اللَّه عنهم .

واليـمينُ اللغو لا كفارةَ فيه ولا إثمَ بفضل اللَّه ورحمته ، ولكن ينبغى

للمسلم أن يصونَ اسم اللّه عن كثرة التّردادِ على لسانه فى الحلف .

٥ - احفظوا أيمانكم :

فقد أمر اللّه عز وجل المؤمنين بحفظ أيمانهم كما نهى عن كثرة الحلف ؛ لأن ذلك مُنافٍ للحكمة التي شُرعت من أجلها الأيمان ، قال تعالى فى آية المائدة : ﴿ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ ﴾ . وقال من آية البقرة : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٤] .

وقد ذمَّ اللّه عز وجل الحلَّاف - كثير الحلف - فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ [القلم : ١٠] ، وفى تحذير التجار من كثرة الحلفِ ولو صدقًا قال أبو قتادة رضى اللّه عنه : سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول : « إياكم وكثرةَ الحلفِ فى البيع ، فإنه يُنفِّق ثم يَمحق » . [أخرجه مسلم] . وفى الحديث : « الحلفُ مَنفَقَةٌ ، للسلعة مَمْحَقةٌ للكسب » . [متفق عليه والراوى أبو هريرة] . واللّه أعلم

* * *

(٥) احذروا العرّافين والمُنجّمين والدّجّالين :

عن قَطَنِ بنِ قَبِيصَةَ عن أبيه قَبيصةَ بنِ المخارق أن النبى ﷺ قال : « إن الطَّرْقَ والطِّيَرةَ والعِيَافةَ مِن الجِبتِ » .

[السنن الكبرى للنسائى وسنن أبى داود بإسناد حسن وابن حبان فى صحيحه] .

والجِبتُ : كلمة تقعُ على الصنم ، والكاهنِ ، والساحرِ ، وعلى كلِّ ما عُبدَ من دون الله .

وقد ورد ذمُّ قوم بها فى قوله تعالى من سورة النساء : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٥١] .

وقد نهى الإسلام عن : الطَّرْق ، والطِّيَرَةِ ، والعِيَافَة ؛ وقبّح الاعتقاد فى هذا ، وعاب من يأخذ بذلك ، وأنذرهُ بالويل والثبور .

والطَّرقُ : نوعٌ من العرافةِ وادِّعاءِ عِلْم المكنونات ، والإخبارِ عن أمور مُغيّبة ، ويفعله بعض أهل الدَّجَل والنَّصْب من النساء والرجال ، كالضرب بالحصا أو الودَع ومنه الكلامُ فى الودع ونحوه ، وكذلك الخطُّ فى الرمل أو الأرض ومن هؤلاء وعلى طريقتهم الذين يقرءون الكفَّ ، والفنجانَ ، ويدَّعون معرفةَ ما يحدُث فى مستقبل الشخص . والأمرُ كله مبنىٌّ على وَهْم فى وَهْم وعلى باطلٍ فى باطل ، وقد كذَب المنجّمون ولو صدقُوا - بدال بعدها قاف - أى حتى ولو وقع شىءٌ بمحض المُصادفة ممَّا قالوه ، فهم كاذبون فى ادِّعائهم معرفَته قبل حصوله إذ لم يَقع لهم العلمُ على الحقيقة .

وكم وقعت حوادثُ مؤسفة ، وضاعت أموالٌ ، وتشتَّت شملُ أُسَرٍ

واضطربت حياةُ أناس ، بسبب هؤلاء العرّافين الدجّالين الذين يجيدون لغة الكلام ، وبه يستحوذون على عقول بسطاء الناس ، إن لم يتداركهم اللّه بلطفه ، وقد استفحل شَرَرُهم وزادت أعدادُهم وتنوّعت أساليبهم فى مناطق كثيرة من وسط الأرض وجوانبها حتى فى الأمة التى تعرف ربَّها وتؤمن بدينه سبحانه وبكتابه ونبيِّـه ، وصار للمشعبذين سلطانٌ على نفوس كثيرة لاختلاس أموالهم وارتكاب جرائمَ خسيسةٍ وقبيحة مما يُوجب على أهل العلم وأولى الأمر ووسائلِ الإعلام والموجّهين أن ينهضوا بواجبهم كلٌّ فريقٍ فى حدود إمكاناته لدرْءِ هذا الشرِّ عن الناس .

وبسبب هذا الشرِّ الفظيع وما يترتب عليه من زعزعة العقيدة الصحيحة ومن مفاسدَ خُلقية واجتماعية ومن مآثم وأضرارٍ بالغةِ السُّوءِ أَلْحَقَ الرسولُ ﷺ الطوْقَ بالـجِبْت الذى يُطلق على عبادة غير اللّه ؛ لأن من يدَّعى علـمَ الغيب ومعرفةَ ما يقع غدًا للإنسان من خيرٍ أو شرٍّ ونحو ذلك ، إنما يدَّعى مُشاركةَ اللّه عز وجل فى علـمه وسلطانه ، فهو مطرودٌ من رحمة اللّه عز وجل ، لهذا أطلقوا لفظ الـجِبْتِ على ما هو شرٌّ مَحْضٌ لا خيرَ فيه[1] .

كذابون مضللون : وفى الحديث الـمتفق عليه وروته عائشةُ أمُّ الـمؤمنين رضى اللّه عنها قالت : سأل رسولَ اللّه ﷺ أناسٌ عن الكُهَّان فقال : « ليسوا بشىء » . فقالوا : يا رسول اللّه : إنهم يُحدِّثوننا أحيانًا بشىء فيكون حقًّا ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « تلك الكلمةُ من الحق يخطفُها الجنِّىُّ فيقُرُّها فى أُذُنِ وليِّه فيخلطون معها مائةَ كذبة » .

---

(١) من معانى الجبت مثل : السِّحر والساحِر ، والشيطان ، والأصنام ، والشِّرك ، والكاهن ، أمَّا الطاغوت فهو الشيطان وأطلِق على الكُهَّان الذين تَتنزَّلُ عليهم الشياطين ويُطلق على كلِّ ما يُعبد من دون اللّه .

وفى رواية البخارى : « إن الملائكةَ تنزل العَنَانَ - أى السحاب - فتذكر الأمرَ قُضى فى السماء ، فيسترقُ الشيطانُ السمعَ ، فيسمعه ، فيُوحيه إلى الكهَّان ، فيكذبُون معها مائةً من عند أنفسهم » .

فيَقُرُّها : بفتح الياء وضم القاف والراء مشدَّدة مضمومةٌ ، أى يُلقيها فى أذنه ، وفى رواية بالمعنى نفسه : « فيُقَرْقِرُها فى أذن وليِّه » .

التوكُّل على اللّٰه والأخذ بالأسباب الصحيحة :

إن الإسلام أمرنا بالأخذ بالأسباب الصحيحة التى جعلها اللّٰه وسائلَ لتحقيق المطلوب ؛ مع الإيمان بأن السببَ لا ينفعُ إلا بإرادته سبحانه وحده فهو خالقُ كلِّ شىء ، وإن أهلَ العقلِ والحكمةِ يؤمنون عن يقين بأنه لا شافِيَ إلا اللّٰه :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : ٨٠] .

ويؤمنون بأنه لا نافعَ ولا ضارَّ إلا اللّٰه ، وبأنَّ كلَّ أمورنا بيده وحده ، ومن طاعتنا لله الأخذ بالأسباب التى أرادها سبحانه وأمرنا بتعاطيها .

أما التوسلُ بالأسباب غير الصحيحة فإنه يُفسدُ على الإنسان حياته ويُضعف عقيدتَه ، ويجعله يعتقد فيما لا يجوزُ الاعتقادُ فيه : كحمل الخرز ، أو الودَع ، أو الطلاسم ، أو تصديق العرّافين ، والكَهَنة ، وضاربى الودَع ، والناظرين فى الكفِّ ، أو أوراق « الكوتشينة » . وهذا ومثلُه يضرُّ بإيمان المسلم ، وبعبادته أبلغَ الضرر ، إلى جانب ما يناله فى حياته من اضطراب وقلق ، وتحيُّرٍ وخضوع لأوهام أشخاص لا دين لهم ، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ممَّن يسْعَون إلى السيطرة على عقول الناس وابتزازِ أموالهم بالباطل والزور .

وقد جاء عند مسلم عن صفيةَ بنتِ أبى عبيد عن بعض أزواج النبى ﷺ أن النبى ﷺ قال : « من أتى عرّافًا فسأله عن شىء فصدَّقه ، لم يُقبل منه صلاةُ أربعين يومًا » . وإن كسب العرافين والكُهَّان والدَّجَّالين والسَّحَرة لمن أخبث

الكسب وأشدّه حُرمة .

براءة من المشعبذين : وقد تبرّأ النبيّ ﷺ ممّن يشتغل بالتكهّن والسّحر ، فعن عمران بن حصين رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « ليس منا من تطيّر ، أو تُطُيِّر له ، أو تَكهَّنَ أو تُكُهِّنَ له ، أو سَحَر أو سُحِرَ له » . وفى الحديث : « ومن أتى كاهنًا فصَدَّقه بما يقول فقد كَفَر بِمَا أُنزِلَ على محمد » .[أخرجه البزار بإسناد حسن والطبرانى من حديث ابن عباس دون قوله : « ومن أتى كاهنًا ... » إلى آخره] .

وفى الحديث الذى رواه جابر بن عبد اللّه وأخرجه البزّار بإسناد جيد قوىٌّ : « من أتى كاهنًا ، فَصدَّقه بما قال ، فقد كَفر بما أُنزل على محمد » . - ﷺ - ومثله عند أبى داود والترمذى عن أبى هريرة بزيادة : « عرّافًا أو كاهنًا » .

وفى رواية أنس عند الطبرانى من رواية رشيد بن سعد : « من أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقول فقد برئَ ممَّا أُنزِل على محمد ، ومن أتاه غيرَ مُصدِّق له لم تُقبل له صلاةٌ أربعين ليلةً »[1] .

---

(١) كلمات ومعانيها : ما التطير ؟

إن التطير : هو التشاؤم بالطير ، أى زجرُ الطير وإطلاقُه فإن طار إلى جهة اليمين تفاءل الإنسانُ ومضى فى طريقه لتجارة ونحوها ، وإن طار إلى جهة اليسار تشاءم ورجع عن مقصده .

ولا يخفى ما فى هذا من الركون إلى الوهم والباطل ، وتعطيل المصالح ، والتضييق على النفس والفِكر بما لا يَليق بالإنسان ، وتلك كانت عادةً جاهلية ، وقد شاع فى عصرنا الحاضر شىءٌ من ذلك كالتشاؤم ببعض الأرقام مثل رقم [١٣] أو بعض الطيور ونحو ذلك من آفات الجاهلية وعبث الشيطان .

والعرّاف :

وإن العراف كالكاهن ، وقيل : هو الساحرُ وهذه فئةٌ متقاربةٌ ومتماثلةٌ فى أغراضها وطرقِ كسْبها الخبيث ، وقال البغوىُّ : العرّافُ هو الذى يَدّعى معرفةَ الأمورِ بمقدّماتٍ وأسبابٍ يَستدلُّ بها على مواقعها مثل المسروق : مَن الذى سَرَقه ، ومعرفة مكان الضالة ، ونحو ذلك .

والكاهن :

هو الذى يُخبر عن بعض الـمُضْمَرات فيصيب بعضَها ، ويخطئ أكثرها ، ويزعم أن الجنّ تُخبره .

صناعة لا تليق بأهل الإيمان :

لقد اشتد غضبُ الله على هذه الطوائف الضالةِ من الدجّالين ، فليحذَر أهلُ العقلِ والحكمةِ هؤلاء المضلّلين أصحابَ تلك الصناعاتِ الخبيثة ، ولنسمع التحذيرَ الذى جاء فى رواية واثلةَ بن الأسقع الذى يقول : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « من أتى كاهنًا فسأله عن شىء حُجِبَتْ عنه التوبةُ أربعين يومًا ، فإن صدَّقه بما قال فقد كفر » . [أخرجه الطبرانى] .

إنها صناعةُ السُّفليِّين من المُلحدين ومُجرمى الكفَّار والمشركين ومن لا دينَ لهم ، احترفها ضِعافُ النفوس ممَّن ينتسبون إلى الإسلام ، ويرتكبون هذه الآثام[1] ، ويا ويلهم : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

تعاطى السحر جريمة كُبرى :

إنَّ تعاطىَ السِّحر من أكبر الكبائر يوم القيامة كالشرك بالله ، كما جاء فى الكتاب إلى أهل اليمن فى الفرائض والسنن والدِّيات والزكاة : « وإن أكبرَ الكبائر عند الله يوم القيامة : الإشراكُ بالله ، وقتلُ النفسِ المؤمنة بغير حقٍّ ، والفِرارُ فى سبيل الله يومَ الزحف ، وعقوقُ الوالدين ، ورمْىُ المُحصَنَة وتعلُّمُ السحر ، وأكلُ الربا ، وأكلُ مال اليتيم » .

[أخرجه ابن حبان عن أبى بكر محمد بن حزم عن أبيه وهى الرسالة التى كتبها إلى أهل اليمن] .

---

(١) دعوة إلى التوبة :
ومن تاب وأناب وندم عسَى الله أن يعفو عنه ، وعليه أن يكون عونًا بعد ذلك على الخير بين الناس ويحذِّرهم من هذه المسالكِ الشيطانية ويُبيِّن لهم أن شيئًا لا يضيع من خير أو شرٍّ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

وإن الذى يستعيذُ بالجن ، أو يستعينُ بهم فى الشَّعبَذة والكهانة يخرج من مِلَّةِ أهل التوحيدِ ، وينزلُ عليه غضبُ اللَّه[1] .

قال سعيد بنُ جبير : « ولا خفاءَ أن الاستعاذةَ بالجنِّ كُفرٌ وشركٌ ، إذ الاستعاذةُ تكون باللَّه وحده : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن : ٦] . وإن التعلق بغير اللَّه تعالى يسبِّب لفاعِلِه الحيْرةَ والقلق ، ويشغلُ قلبه بما لا فائدة من ورائه ، ويجعله نهبةً للغشاشين والـمُشعبذين والسحرة وأمثالهم .

الأحجبة :

وانسياقًا وراء هؤلاء الدَّجالين ، يُعلِّق بعضُ الناس لأنفسهم أو لأطفالهم الودعَ والخرزَ وما شابه ذلك لردِّ العين فى اعتقادهم أو لأغراض أخرى ، وقد جاء فى الحديث الذى رواه عقبةُ بنُ عامر أن رسول اللَّه ﷺ نهى عن ذلك فقال : « مَن علَّق تَـميـمةً فلا أتمَّ اللَّهُ له ، ومَن علَّق وَدَعةً فلا وَدَع اللَّهُ له » . لتعلُّق قلوبهم بغير اللَّه تعالى . [أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وقال : صحيح الإسناد] .

والتميمة :

هى تلك الأحجبةُ والخرزَةُ والطلاسمُ ونحوها ، مِـمَّا يُعلِّقه بعضُ الناسِ وفى الحديث : « مَن علَّق فقد أشركَ » . [أخرجه أحمد والحاكم ورواه عقبة بن عامر] .

إن اعتقادَ أن الخرزةَ ونحوها تدفعُ الآفاتِ جهلٌ وضلالةٌ ، إذ لا مانعَ إلا اللَّه ولا دافعَ سواه .

وعن زينبَ امرأةِ عبد اللَّه بن مسعود : أن عبد اللَّه قال لها : سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول : « إن الرُّقَى والتمائمَ والتِّوَلَـةَ[1] شِركٌ » .

---

(١) التوِلَة : ما تعلّقُه المرأة من التمائم لزيادة محبة زوجها ونحو ذلك .

أى الرقية غير الشرعية[1] ، وما يُستخدم فيها من تعاويذَ وألفاظٍ غريبة وطلاسم ونحو ذلك واستعاذاتٍ بالمخلوقين ، فهذا منهيٌّ عنه أشدَّ النهى لما فيها من الشرك .

وسئل ﷺ عن النُّشرة ؟ فقال : « هى من عمل الشيطان » .

[أخرجه أحمد وأبو داود] .

والنُّشرة بضمِّ النون هى حَلُّ السحرِ عن المسحور ، وإنَّ الذى هو من عمل الشيطان ، ويجب علينا اجتنابُه هو حَلُّ السحرِ بسحْرٍ مثلِه ، فإن السحرَ من عمل الشيطان ، فيتقرَّب إليه الناشرُ والمنتشرُ بما يُحبُّه هذا اللَّعينُ ، فيُبطلُ عملَه عن المسحور .

أما النشرةُ بالرقية الشرعية والدعوات الصالحات والتلاوةِ وبالمُعوِّذاتِ ومع التطبيبِ باستعمال الأدويةِ الطبيةِ المُباحة ، فهذا مندوبٌ إليه ومُباحٌ ، والساحرُ الذى يَحُلُّ السحْرَ بالسحر عملُه مذموم ، وهو مَحِلُّ مقْتِ اللَّه وغضبِه ، وكذلك مَن يقصده لطلب ذلك .

ومن حديث عبد اللَّه بن حكيم أن رسول اللَّه ﷺ قال : « من عَلَّق شيئًا وُكِلَ إليه » . [أخرجه أبو داود والترمذى] .

أى : جُعِلَ حفظُه على تميمتِه وحُرمَ مِن حِفْظ خالقِه له .

---

(١) الرقية الشرعية جائزة : ومن الرُّقى الشرعية الرُّقيةُ بالفاتحة وبالمعوِّذتين وبنحو ما جاء فى حديث ابن مسعود فى وصيته امرأته بها : « أذهِبِ الباسَ ربَّ الناسِ ، واشْفِ وأنت الشافى ، لا شفاءَ إلا شفاؤُك ، شفاءً لا يُغادرُ سَقمًا » [من حديث زينب امرأة عبد اللَّه] .

وهذه الرقية مفهومةُ المعنى وفيها ذِكْرُ اللَّه تعالى وورد بها النص .

ومن الرقيةِ بالقرآن : قراءةُ ختام سورة « المؤمنون » من : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا ...﴾ [المؤمنون : ١١٥] إلى آخر السورة . مع حضور النية والإخلاص ورُقية الإنسان نفسه بنفسه أرْجى للقبول .

فقد رقى بها ابنُ مسعود مريضًا وأقرّه الرسولُ ﷺ كما جاء فى الخبر .

فوائد : رُقية طيبة :

عن عثمان بن العاصى رضى اللّه عنه : أنه شكا إلى رسول اللّه ﷺ وجَعًا يجدُه فى جسده منذ أسلم ، فقال له رسولُ اللّه ﷺ : « ضَع يدَك على الذى يألَمُ من جسدك وقل : بسم اللّه (ثلاثًا) وقُل سبعَ مرّات : أعوذُ بعزَّةِ اللّه وقُدرته من شرِّ ما أجدُ وأحاذر » .

[متفق عليه أى : أخرجه مالك والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى] .

قال عثمان : ففعلتُ ذلك فأذْهَب اللّهُ ما كان بى فلم أزَل آمُر بها أهلى وغيرَهم .

وفى الحديث : سُئل رسولُ اللّه ﷺ : أنتداوى ؟ فقال : « نعمْ ، فإن اللّه لم يُنزل داءً إلا أنزل له شفاءً ، عَلِمه مَن عَلِمه ، وجَهِلَه مَن جَهِلهُ » .

[ذكره أحمد وابن ماجة ، والراوى ابن مسعود وهو حديث صحيح] .

وفى رواية : « عبادَ اللّه تداوَوْا فإن اللّه لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً – أو دواءً – إلا داءً واحدًا ، قالوا يا رسول اللّه ؛ ما هو ؟ قال : الهَرَم » .

[أخرجه أصحاب السنن ، وقد روى بطرق كثيرة عن جمع من الصحابة] .

* * *

(٦) الصلوات الخمس
بركاتها ووصية الإسلام بها

قال اللّه تعالى : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] .

يأمر اللّه عز وجل عباده المؤمنين بالمحافظة على الصلوات المفروضات ؛ بأدائها فى أوقاتها ، وبحفظ حدودها ، وإقامتها تامةً بخشوعها والطمأنينة فيها كما أمر بذلك فى مثل قوله سبحانه : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٣] .

حضور الجماعة : وفيها الأمرُ بإقام الصلاة أى : الإتيانِ بها تامةً بأركانها وخُشوعها وواجباتها وسُننها وفى أوقاتها ، كما أن فيها الأمرَ بحضور الجماعة ﴿ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ . وهو تعبيرٌ بالجزء وهو الركوعُ عن الكُل وهو الصلاة ، أى : صلُّوا مع المصلين ، فإن فى ذلك مرضاةَ الرب ، والفوزَ بالرحمة والرضوان.

المبادرة بالأداء فى أول الوقت :

وإن من ألزم واجباتِ المؤمن تعجيلَ الصلاةِ ، وأداءَها فى أول وقتها وقد سئل رسولُ اللّه ﷺ : أىُّ الأعمال أفضلُ ؟ فقال : « الصلاةُ على وقتها ... » .

[الحديث رواه ابن مسعود وأخرجاه فى الصحيحين] .

وقالت أمُّ فروة رضى اللّه عنها كما جاء فى مسند أحمد : « سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول - أى من وصيةٍ له عن الأعمال - : إن أحبَّ الإعمالِ إلى اللّه الصلاةُ لأول وقتها » .

وإن الصلاة فى أول وقتها والـمبادرةَ إليها دون تكاسل أو تهاونٍ لـمن أسباب الـمغفرة ورفع الدرجات ، وهذه بشرى يرويها عثمانُ بن عفان رضى اللّه عنه قال : سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول : « من توضَّأ للصلاة فأسبغ الوضوء ، ثم مشى إلى الصلاة الـمكتوبة ، فصلَّاها مع الناس أو مع الجماعةِ أو فى الـمسجد غُفِر له ذنوبُه » . [أخرجه مسلم] .

وفى الحثِّ على الطمأنينة والخشوع وأداءِ الأركان تامةً مع الـمبادرة إلى أداء الفريضةِ فى أول وقتها ، جاء عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « ما من امرئ مسلـم تحضرهُ صلاةٌ مكتوبةٌ ، فيُحسنُ وضوءَها وخشوعَها وركوعَها إلا كانت كفارةً لـما قبلها من الذنوب ، ما لـم تُؤتَ كبيرةٌ ، وذلك الدهرَ كلَّه » .

من بركات الصلاة :

إن أداء الفرائض فيه سكينةٌ للنفس ، وطمأنينة للقلب ، والذى يُفرِّطُ ، أو يتكاسلُ ، يغلبُه شيطانُه ، إن هو استرسل فى الغفلة ، ومن استعان باللّه على طاعته ، وداوم على طاعة ربِّه فقد غَلَب هواه ، وغلَب شيطانَه ، وقَوِى عزمُه على فعل الخيرات ، والكفِّ عن الآثام ، وتلك من بركات الصلاة بفضل ربِّ العباد وهو سبحانه القائل : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

الصلاة عظيمة الشأن :

وفى بيانِ عِظَم شأنِ الصلوات الـمفروضات ، وأنها من أفضل العبادات وأن تاركها أو الـمتهاونَ بشأنها فى خسران مبين يقول الحبيب الـمصطفى ﷺ : « خمسُ صلواتٍ كتبهُنَّ اللّهُ على العباد فمن جاء بِهنَّ ولـم يُضيِّع منهنَّ شيئًا استخفافًا بحقهنَّ ، كان له عند اللّهِ أن يُدخلَه الجنةَ ، ومن لـم يأت بهنَّ فليس له

عند اللّه عهدٌ ، إن شاء عذّبه ، وإن شاء أدخله الجنة » .

[أخرجه مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان ، والراوى عبادة بن الصامت] .

وفى الحديث الذى رواه أنس ، وأخرجه أبو يعلى : « إن أولَ ما افترض اللّه على الناس من دينهم : الصلاةُ ، وآخرَ ما يبقَى : الصلاةُ ، وأولَ ما يُحاسب به : الصلاةُ » . إنها أولُ الفرائض ، وآخرُ ما يبقى من الأعمال الصالحات ، وأولُ ما يُعرضُ من أعمال العبد عند الحساب ، فإن قُبلت صلاتُه نُظر فى سائر أعماله وإن رُدَّت عليه ، والعياذ باللّه ، رُدَّ عليه سائرُ عمله ، وقد جاء بيانُ ذلك فى بقية هذا الحديث وفيه : « ويقول اللّه : انظروا فى صلاة عبدى فإن كانت تامةً كتبت تامةً ، وإن كانت ناقصةً ، يقول : هل لعبدى من تطوُّع ، فإن وُجدَ له تطوُّع تـمَّت الفريضة من التطوع ... » ثم ذَكَر الزكاةَ والصدقات على هذا النحو .

إن الصلاة بابُ الرحمة ، وعنوانُ الإسلام ، وأمارةُ القبول والرضوان وإنها مِفتاحُ الجنة ، وطريقُ الـمقرَّبين والأبرار ، وميدانُ تنافس العبَّاد والزهَّاد ، وأولُ وصاةِ الأنبياء والحكماءِ لأولادهم وأهليهم بعد العقيدة وأعظمُ ما حرصوا عليه من الأعمال ، وسألوا ربَّهم العونَ عليه ، وعدَمَ الانقطاع عن أدائها .

ومن دعاء أبى الأنبياء عليه السلام : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ [إبراهيم : ٤٠] .

ومن ثناء ربِّ العباد على رسوله إسماعيل جاء : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾ [مريم : ٥٤ ، ٥٥] .

ومن وصية اللّه عز وجل لنبيه : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه : ١٣٢] .

ومن وصية لقمان الحكيم لفلذة كبده : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

[لقمان : ١٧].

وإن موضعَ الصلاةِ من الدين كموضع رأسِ الإنسان من جسده ، وفى الحديث الذى رواه ثَوبان - مَولى رسول اللَّه ﷺ - عند الحاكم وابن حبان : « استقيموا ولن تُحصُوا ، واعلموا أن خيرَ أعمالِكم الصلاةُ ، ولن يحافظَ على الوضوء إلا مؤمنٌ » . وفى بيان بركةِ الصلاة وفَضلها وأداءِ الفرائض فى أول وقتها : يقول الحبيب المصطفى ﷺ : « من حافظ على الصلوات الخمس ، رُكوعِهنَّ وسُجودِهنَّ ، ومواقيتهنَّ ، وعَلِمَ أنهنَّ حقٌّ من عند اللَّه دخل الجنة ، أو قال : حرَّمَ اللَّه عليه النار » . [أخرجه أحمد ، والراوى حنظلة الكاتب] .

وفيه الحثُّ على الطمأنينة فى الصلاة وأداءِ الأركان تامَّة .

الصلاة مطهرة لصاحبها :

وفى بيان أثر الصلوات الخمس ، فى تكفير السيئات ، وكفِّ النفس عن الموبقات جاء عن أبى هريرة فى الصحيحين وعند بعض أصحاب السنن أن الرسول ﷺ قال : « أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسلُ فيه كلَّ يوم خمسَ مراتٍ هل يَبْقَى من دَرَنه شىءٌ ؟ قالوا : لا يَبْقَى من دَرَنه شىءٌ - أى من وسخ الجسم شىء - قال : فذلك مَثَلُ الصلوات الخمس ، يمحو اللَّهُ بهنَّ الخطايا » .

وعند مسلم والترمذى وغيرهما رواية أبى هريرة : « الصلواتُ الخمس والجمعةُ إلى الجمعة كفارةٌ لما بينهنَّ ما لم تُغشَ الكبائر » فطوبى لمن أخلص الطاعة ، وأدى فرائض اللَّه كما أمر اللَّه .

وفى الخوف على الأمة من التهاون والتكاسُل عن أداء الصلواتِ فى أول أوقاتها يروى أنسُ بن مالك عن الحبيب المصطفى ﷺ يقول : « إن لله ملكًا

ينادى عند كلِّ صلاة : يا بَنى آدمَ قوموا إلى نيرانكم التى أوْقَدتُموها فأطْفِئوها » .

مثَّل الغفلةَ والذنوبَ بالنيران ، وَمثَّلَ الصلاةَ فى أول وقتها مع الإخلاص والصدق بالماء لتأكيد أثرِ الصلاةِ فى تكفير السيئات فضلًا من اللّه ورحمة .

الصبح والعصر :

وفى تأكيد أداءِ « صلاة الصبح » و « صلاة العصر » فى أول الوقت وعدمِ الغفلة أو التكاسل عن ذلك جاء فى الحديث الذى رواه أبو هريرة : « يتعاقبُون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبحِ وصلاةِ العصر ، ثم يَعرجُ الذين باتوا فيكم فيسألُهم ربُّهم ، وهو أعلمُ بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يُصلّون وأتيناهم وهم يُصلّون » .

[أخرجه البخارى والنسائى عن ابن مرة] .

وفى الحديث : « من ترك صلاةَ العصرِ فقد حبط عملُه » .

[أخرجه البخارى والنسائى عن ابن مرة] .

أركان الإسلام مُنجيات :

وفى فضل أداء أركان الإسلام وبيانِ أن السلامةَ بسلامتها من النُّقصان جاء فى حديث عمرو بن مُرة الجهنى قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسولَ اللّه : أرأيتَ إن شهدتُ أن لا إله إلا اللّه ، وأنك رسولُ اللّه ، وصليتُ الصلواتِ الخمسَ ، وأديتُ الزكاةَ ، وصُمتُ رمضانَ وقُمته ، فممَّن أنا ؟ قال : « من الصدِّيقين والشهداء » . [أخرجه البزار وابن خزيمة وابن حبان واللفظ لابن حبان] .

إن الصلاةَ حقٌّ مكتوب واجبٌ ، وعلى كل مُكلَّف أن يقيمَ البرهانَ على يقينه بإسباغ الوضوء ، وأداءِ الفرائض فى أول وقتها وشهودِه الجماعات وبصبره على توجيه أهله وتدريبِ أولادِه ليشبُّوا صالحين .

وفى الحديث : « مُروا الصبيَّ بالصلاة إذا بلغ سبعَ سنين ، فإذا بلغ عشرَ سنين فاضربُوه عليها » . [رواه سبرة بن معبد وأخرجه أبو داود والترمذى] .

وفى لفظ : « إذا عرف يمينَهُ من شماله فمُروه بالصلاة » . وزاد أبو داود « وفرِّقوا بينهم فى المضاجع » .

* * *

تنبيهات وتحذيرات :

ومن وصية رسول الله ﷺ لثوبان رضى الله عنه : « عليك بكثرة السجود ، فإنك لا تسجد لله سجدةً إلا رفعك اللَّهُ بها درجة وحَطَّ بها عنك خطيئة » .

[أخرجه مسلم والترمذى وابن ماجه والنسائى] .

جاء فى الحديث عند الشيخين : « إذا رقد أحدُكم عن الصلاة أو غفل عنها فليُصلِّها إذا ذكرها ؛ فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾

[طه : ١٤] . [الراوى أنس] .

وعند الخمسة : « من نسى صلاةً فليصلِّها إذا ذكرها ولا كفارةَ لها إلا ذلك » . [والراوى أنس] .

أما تاركُ الفريضة فقد جاء فى شأنه : « بين الرجُلِ وبين الشِّرْكِ تركُ الصلاة ».

[رواه جابر وأخرجه مسلم وأبو داود وغيرهما] .

وفى أخرى عند الترمذى : « بين الكُفر والإيمانِ تركُ الصلاة » .

وفى فضل الجماعة : جاء عند الشيخين من حديث ابن عمر : « صلاةُ الجماعةِ أفضلُ من صلاة الفذِّ بسبع وعشرين درجةً » .

فائدة : من فتاوى النبى ﷺ :

سأله عبد الله بن سعد : « أيُّما أفضلُ ، الصلاةُ فى بيتى أو الصلاةُ فى المسجد ؟ فقال ﷺ : ألا ترى إلى بيتى ما أقربَه من المسجد ؟ فَلأَن أصلىَ فى بيتىَ أحبُّ إلىَّ من أن أصلِّىَ فى المسجد ، إلَّا أن تكونَ صلاة مكتوبة » .

[أخرجه ابن ماجة وهو حديث صحيح] .

وسئل عن صلاة الليل فقال : « مَثْنَى مَثْنَى ، فإذا خَشيتَ الصبحَ فأَوْتِرْ بواحدة » . [متفق عليه من رواية ابن عباس وابن عمر] .

فائدة : ترتيب الصفوف لصلاة الجماعة :

قال صاحب المُغنى رحمه الله فى الجزء الثانى ص٢١٨ : السنةُ أن يتقدم فى الصف الأول أولو الفضل والسن ، ويلى الإمامَ أكملُهم وأفضلُهم قال أحمد : يلى الإمامَ الشيوخُ وأهلُ القرآن وتؤخَّر الصبيانُ والغلمان ولا يلُون الإمام لما روى أبو مسعود الأنصارى رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « لِيَلِنى منكم أولو الأحلام والنُّهى ثم الذين يلُونهم ثم الذين يلونهم » .

وقال أيضًا فى نفس الصفحة الجزء الثانى : قال أبو الخطاب إذا اجتمع رجالٌ وصبيانٌ وخُناثى ونساءٌ تُقدم الرجالُ ثم الصبيانُ ثم الخناثى ثم النساء ، ورَوى أبو مالك الأشعرى عن أبيه أنه قال ألا أُحدّثكم بصلاة النبى ﷺ قال : أقام الصلاةَ فصفَّ الرجالَ وصفَّ خلفهم الغلمانَ ثم صلى بهم ثم قال : هكذا صلاتُهُ قال أبو عبد الأعلى لا أحسبه إلا قال : « صلاةُ أمتى » رواه أبو داود وقال بعضهم وأما الدليل على تقديم الرجال فقوله ﷺ : « لِيلنى منكم أولو الأحلام والنُّهَى . وأما الصبيان فلأنه ﷺ صلّى فصفَّ الرجالَ ثم صفّ خلفهم الغلمان » .

[رواه أبو داود] .

(٧) الوضوءُ

(أ) بهاءُ المؤمنِ ونُوره

جاء فى الصحيحين أن أبا هريرة رضى اللّه عنه قال : سمعت رسولَ اللّه ﷺ يقول : « إن أمتى يُدعونَ يومَ القيامة غُرًّا محجَّلين من آثار الوضوء » .

إنها بُشرى لأهل الوضوء المحافظين على الصلواتِ المكتوبات المقبلين على اللّه بقلوب نقية ، فهم يُعرَفون يومَ القيامةبنورٍ يسطعُ من وجوههم ومن مواضع الوضوء فى أيديهم وأرجلهم ، أى : الغُرَّةُ والتحجيل .

والغُرةُ فى الأصل : البياضُ فى جبهة الحصان ، والتحجيل : البياضُ فى ساقَيه .

وعند مسلم وغيره عن أبى هريرة أن رسول اللّه ﷺ حين سئل : كيف تعرف مَن لم يأتِ بعدُ من أمتك يوم القيامة ؟ قال : « إنهم يأتون غُرًّا مُحجَّلين من الوضوء ، وأنا فَرَطُهم على الحوض » أى : يتقدَّمهم على الحوض .

وفى رواية عبد اللّه بن عمر عند ابن ماجة وابن حبان فى صحيحه قال : « غُرٌّ مُحَجَّلُون بُلقٌ من آثار الوضوء » .

وبُلق : أى متألِّقو الجباه من آثار الوضوء .

وإن الغُرة والتحجيل مما اختُصتْ به أُمَّتُه ﷺ ، وهذا من فضل اللّه على هذه الأمة ، فالوضوءُ بهاءٌ فى الدنيا ، ونورٌ للصالحين فى الآخرة وإن المحافظة على الوضوء من أمارات الإيمان ، وبه يندرج المصلِّى فى زمرة أولياءِ اللّه الصالحين ، الراغبين فيما عند اللّه من الخير والرحمة ، ففى الحديث

الذى رواه ثوبان عند ابن ماجة والحاكم وغيرهما : « ولن يحافظَ على الوضوءِ إلا مؤمنٌ » .

من بركات الوضوء :

ومن بركات الوضوء - أيضًا - أنه أحدُ أسبابِ تكفير السيئات ، وأن المؤمنَ الذى يحافظ عليه يُعينه اللّٰه بفضله على قصدِ الخير ، والكفِّ عن الشر ، إذ لا يُقبِلُ على الوضوء بإخلاص ومحبةٍ سوى أصحابِ النفوس الطيبة ، والقلوبِ المحتاجةِ إلى عفو اللّٰهِ ورحمته .

وفى حديث عثمانَ بنِ عفانَ رضى اللّٰه عنه عند مسلم والنسائى : « سمعتُ رسولَ اللّٰه ﷺ يقول : ما مِن امرئٍ يتوضأُ فيُحسنُ وُضوءَهُ إلا غُفر له ما بينه وبين الصلاةِ الأخرى حتى يُصليها » . [وهذا اللفظ عند النسائى].

وزاد ابنُ ماجة فى آخره : « ولا يغترَّ أحدٌ » . أى : لا تركنوا إلى هذه البشرى فتتركوا العمل الصالح أو تقترفوا ما حرّم اللّٰه .

وفى الإشارة إلى غفران صغائر الذنوب - أيضًا - بسبب الوضوء والإقبال على الصلاة بإخلاص ، جاء من حديث عثمان : « من توضَّأَ مثلَ وضوئى هذا ثم أتى المسجدَ فركَع ركعتين ، ثم جلس ، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه » . [عند البخارى وغيره] .

ولنتدبر ما جاء فى رواية أبى هريرة عند مالك ومسلم وغيرهما : « ألا أدلُّكم على ما يمَحُو اللّٰه به الخطايا ، ويرفعُ به الدرجاتِ ؟ قالوا : بلى يا رسول اللّٰه ، قال : إسباغُ الوضوءِ على المَكاره ، وكثرةُ الخُطا إلى المساجد ، وانتظارُ الصلاةِ بعد الصلاة ، فذلكُم الرِّباطُ ، فذلكم الرباط » .

وفى رواية على بنِ أبى طالب عند الطبرانى فى الأوسط : « من أسبغ الوضوءَ

فى البرد الشديدِ كان له من الأجر كِفْلان » . أى : ضُوعف له أجرُه لإقباله على الطاعة ، مع وجود شىء من مَشقَّة البردِ الشديد ممَّا يكون فى العادة على غير هوى النفس ، وهذا يفسِّر معنى « إسباغ الوضوءِ على المكاره » . أى عند عزوف النفس لخوف بردٍ ونحوه .

وإسباغُه : أى إتمامُه كما أمر اللَّه وكما بيَّن رسوله ﷺ .

آية الوضوء وأركانه :

إن خيرَ أعمالِ المرء الصلاةُ ، ولا تصحُّ الصلاةُ إلا بالوضوء كما أمر اللَّه عز وجل بقوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾

[المائدة : ٦] .

أى : إذا أردتم القيامَ للصلاة فتوضَّئوا ، وذلك على سبيل الوجوبِ والفرض إذا كنتم على حدثٍ أصغر ، وعلى سبيل الاستحباب إذا كنتم على وضوءٍ سابق مُحافظين عليه : وفى حديث أبى هريرة عند الشيخين مرفوعًا : « إن اللَّه لا يقبل صلاةَ أحدِكم إذا أحدَث حتى يتوضَّأ » . وكان أنس بن مالك يقول : « كنا نصلِّى الصلواتِ بوضوء واحدٍ ما لم نُحدِث » . [مسند أحمد] .

وفى الحديث : « من توضأ على طُهرٍ كُتب له عشرُ حسنات » .

[رواه ابن عمر – تفسير الطبرى] .

الأركان :

وقد جاء النصُّ فى الآية الكريمة على ما لا يتمُّ الوضوءُ إلا به من الأعمال أى : الواجبُ الذى لا يقبل اللَّه الصلاةَ إلا به وقد أشار إليه الحديثُ الذى أخرجه أبو داودَ والدارقطنى وفيه : « إنه لا تتمُّ صلاةُ أحدكم حتى يُسبغَ الوضوءَ كما أمر

اللَّه تعالى : فيغسلَ وجهَه ، ويديه إلى المِرفقَين ، ويمسحَ برأسه ، ورِجْليه إلى الكعبين » أى : يغسلَ رجليه إلى الكعبين ، فهو معطوفٌ على ما قبل : « ويمسح رأسه » . وتأخيرُ ذِكر الرِّجلين فى الآية الكريمة يدلُّ على الترتيب وهو : الوجهُ ، ثم غسلُ اليدين إلى المِرفقين ، ثم المسحُ بالرأس ، ثم غسلُ الرجلين إلى الكعبين .

شرط صحته :

هذا وإن استحضارَ النية فى القلب من شروط صحةِ الوضوء - على الصحيح - لعموم قوله ﷺ « إنما الأعمالُ بالنِّيَّة » .

[رواه البخارى عن عمر بن الخطاب] .

* * *

(ب) كيف نتوضَّأ ؟

وقد بيَّنت السنةُ المطهرةُ لنا كيفيةَ الوضوء وسننَه وآدابه ، وفى الحديث الذى رواه حُمران بنُ أبان مولَى عثمانَ بنِ عفانَ رضى اللَّه عنه : « أن عثمان دعا بوَضُوء - أى بماء طاهر - ، فغسل كفَّيه ثلاثَ مرات ، ثم تمضمض ، واستنشق واستنثر ، ثم غسل وجهَه ثلاثَ مرات ، ثم غسل يده اليُمنى إلى المِرفق ثلاثَ مرات ، ثم اليُسْرى مثلَ ذلك ، ثم مسح برأسه ، ثم غسل رجلَهُ اليمنى إلى الكعبين ثلاثَ مرات ، ثم اليُسْرى مثل ذلك » . ثم قال عثمان : « رأيتُ رسولَ اللَّه ﷺ توضَّأ نحو وُضوئى هذا » . [حديث متفق عليه] .

وفى حديث على بن أبى طالب فى صفة وضوءِ النبى ﷺ قال : « ومسح برأسه واحدة » . [أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى] .

وجاء فى حديث على بن أبى طالب : « أنه مَضمض ، واستنشق ، ونثَر بيده

اليُسرى – فعل ذلك ثلاثًا – ثم قال : هذا طُهور النبى ﷺ »[1] .

فأشار علىٌّ بعمله إلى التثليث فى المضمضة والاستنشاق والاستنثار ، أى أن ذلك على سبيل الاستحباب .

تفسير وأحكام :

المضمضة : تحريكُ الماء فى الفم ثم يَمجُّه .

والاستنشاق : إيصالُ الماء إلى داخل الأنف وجذبُه بالنفَس إلى أقصاه – لغير الصائم – . والاستنثار : إخراجُ الماءِ من الأنف بعد الاستنشاق مستعينًا بيده اليسرى .

غسلُ الوجه وحدودُه : وغسلُ الوجه يكون من منابتِ شعرِ الرأس إلى أسفل الذَّقن ومُنتهى اللَّحيَيْنِ طولًا ، ومن شَحْمتَى الأُذُنين عرضًا ، ويُسنُّ تخليلُ اللحيةِ الكثَّة .

غسل اليدين : يبدأ المتوضئُ باليُمنى فيغسلها إلى المِرفق – أى مع المرفق – فقد كان النبىُّ ﷺ يُدير الماءَ على مِرفقيه ، كما جاء فى حديث جابر عند الدارقطنى وفى حديث أبى هريرة عند مسلم : « أنه توضَّأ حتى أشرعَ فى العضُد وقال : هكذا رأيتُ رسولَ اللَّه ﷺ توضأ » أى : أن الماء يصل إلى ما فوق المرفقين ، قال الشافعى : لا أعلم خلافًا فى إيجاب دخولِ المرفقين فى الوضوء .

وفى حديث أبى هريرة عند الأربعة وصححه ابن خزيمة : « إذا توضأتم

---

(١) وهذه من سنن الوضوء ، وإن تثليث غَسْل أعضاء الوضوء من السُّنَّة أيضًا إذا أسبغ الماءَ على أعضاء الوضوء من أول مرة ، وإلَّا فالفَرْضُ تحقيقُ الإسباغ على الوجه ، والذراعين مع المرفقين والرجلين مع الكعبين ، أمَّا مسحُ الرأس فمرةٌ واحدة .

فابدأوا بميامنكم » أى : فى غسل اليدين والرجلين .

وفى الحديث المتفق عليه عن عائشة رضى اللَّه عنها قالت : « كان النبىُّ ﷺ يُعجبه التيمُّنُ فى تنعُّله ، وترجُّله ، وطهوره ، وفى شأنه كلِّه » أى : إلا ما جاء التخصيصُ فيه بالبدء باليسرى ، كالخروج من المسجد ، أو دخول الخلاء .

ثم بعد غسل اليد اليمنى يغسل اليُسرى كذلك ، وكان النبى ﷺ يدلكُ ذراعيه ، فعن عبد اللَّه بن زيد قال : « إن النبى ﷺ أُتِىَ بثُلثَى مُدٍّ ، فجعل يَدْلِكُ ذِرَاعيه » . [أخرجه أحمد وصححه ابن خزيمة] .

إسباغ الوضوء : وكان ﷺ يأمر بإسباغ الوضوء أى : إتمامه واستكمالُ الأعضاء . تقول : أسبغ فلان الوضوءَ يعنى أبلغه مواضعَه ووفَّى كلَّ عضوٍ حقه .

وتثليثُ الغسل مندوبٌ ، فإن تمَّ الإسباغُ بالمرة الواحدة واكتفى بذلك أجزأه ، ومع إسباغ الوضوءِ أمر ﷺ بتخليل الأصابع : « وخَلِّلْ بين الأصابع » . أى أصابع اليدين والرجلين . وكان ﷺ إذا توضأ يدلكُ بخنصرِه ما بين أصابع رجليه . [كما عند أبى داود والترمذى من حديث المستورد بن شداد] .

مسح الرأس : ومسحُ الرأسِ يتمُّ مرةً واحدة ، وفى صفة مسح الرأس قال عبد اللَّه بنُ زيد بن عاصم الأنصارى : « ومسح رسولُ اللَّه ﷺ برأسه فأقبلَ بيديه وأدبر » . وفى لفظ للشيخين : بدأ بمقدَّم رأسِه ذهب بهما إلى قفاه ، ثم ردَّهما إلى المكان الذى بدأ منه . وذهب بهما : أى بيديه : أى : يتم أخذُ الماء لليدين فيُقبل بهما ويُدبر ، وقد وضح المقدام عند أبى داود ذلك بقوله : « إنه ﷺ لـمَّا بلغ مسْحَ رأسِه وضع كفيه على مُقدَّم رأسِه فأمرَّهما حتى بلغ القفا ، ثم ردَّهما إلى المكان الذى بدأ منه » .

والمقصود تعميمُ الرأس بالمسح ويمكن للمتوضىء أن يبدأ بمؤخَّر

الرأس متجهًا نحو مُقدَّمها ، ثم يعود نحو القفا ولا بأس فى ذلك .

مسح الأذنين : أما مسحُ الأذنين فقد جاء فيه عن عبد اللَّه بن عمرو قال « ثم مسح برأسه ، وأدخل إصبعيه السبَّاحتين فى أذنيه ، ومسح بإبهاميه ظاهرَ أذنيه » .

[أخرجه أبو داود والنسائى وصححه ابن خزيمة] .

وقد وردت الأحاديثُ بعدم أخذ ماء جديد للأذنين ، كما وردت أخرى بأخذ ماء جديد ، كما فى حديث عبد اللَّه بن زيد : « أنه رأى النبى ﷺ يأخذ لأذنيه ماءً غير الماء الذى أخذ لرأسه » . [أخرجه البيهقى] ، وهو عند مسلم بلفظ : « ومسح برأسه بماءٍ غيرِ فَضْلِ يديه » .

فظاهر هذه الروايات جوازُ الأمرين ، خصوصًا إذا كان فى اليدين بلَّة تكفى لمسح الأذنين ، فإذا لم يكن أخذ لهما ماء جديدًا .

ومسحُ الأذنين مندوبٌ ليس بواجب .

غَسل الرجلين : ويبدأ المتوضئُ بغسل الرجل اليُمنى حتى ما فوق الكعبين ، وقد غسلهما عثمانُ رضى اللَّه عنه ثلاثًا مع الكعبين ، ثم يغسل الرِّجل اليسرى كذلك ، مع تخليل ما بين الأصابع بخنصر اليد اليسرى .

والكعبُ : هو العظمُ الناشز عند مُلتقى الساق .

التسميةُ : وعلى المتوضئ أن يستحضر النيةَ عند البدء وأن يُسمِّى ، فقد روى أبو هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لا وضوءَ لمن لم يذكر اسمَ اللَّه عليه » . [أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة بإسناد ضعيف] .

وقد رُوى بمعناه بطرق أخرى يقوى بعضُها بعضًا ، لذا قال ابن أبى شيبة : ثبت لنا أن النبىَّ ﷺ قالَه ؛ وفى رواية منها عند الطبرانى من حديث أبى هريرة :

« إذا توضأتَ فقل : بسم اللّٰه والحمدُ لله ، فإن حَفَظَتَك لا تزال تكتبُ لك الحسناتِ حتى تُحدِثَ من ذلك الوضوء » . [ولكنْ سنده واهٍ] . ومـمَّا يدلُّ على سُنِّية التسميةِ فى بداية الوضوء حديث : « كلُّ أمرٍ ذى بالٍ لا يبدأ فيه باسم اللّٰه فهو أقطع » أى منزوعُ البركة ، وقال النووى : الأدعيةُ فى أثناء الوضوء لا أصلَ لها ، ولـم يذكرها الـمتقدمون ، ولـم يثبت شىءٌ فى ذلك بطريق صحيح .

وفى آخره : أما فى آخره فيقول : أشهد أن لا إله إلا اللّٰه وحده لا شريكَ له ، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه ، اللَّهم اجعلنى من التوَّابين واجعَلنى من الـمتطهِّرين ، فمن قال ذلك فى ختام وضوئه فُتحت له أبوابُ الجنةِ الثمانية يدخل من أيها شاء. [كما جاء فى الحديث الذى أخرجه مسلم والترمذى ورواه عمر بنُ الخطاب رضى اللّٰه عنه]. واللّٰه أعلـم .

* * *

فوائد : (١) تحذيرات وتنبيهات :

يُكره للـمتوضئ الإسرافُ فى الـماء ، وفى حديث عبد اللّٰه بن زيد عند أحمد وابن خزيمة : « أن النبى ﷺ أُتى بثلثى مُدٍّ فجعل يَدْلِكُ ذراعيه » .

والـمُدّ : مِكيال ، وهو رِطلان أو رِطلٌ وثُلث ، أو مِلْءُ كفَّى الإنسانِ الـمعتدل إذا ملأهما ومدَّ يده بهما ، ومنه سُمى مُدًّا . وفى حديث أم عمارة الأنصارية عند أبى داود : « أنه ﷺ توضأ بإناء فيه قدرُ ثلثى مُدٍّ » أى نحو ثلثى حَفنة . وفى حديث عائشة وجابر : « أنه كان يغتسلُ بالصاع ، ويتوضأ بالـمدِّ » . [أخرجه أبو زرعة] . والصاعُ أربعةُ أمداد .

وزاد أنس « يغتسل بالصاع إلى خمسةِ أمداد » . [متفق عليه] .

وعند مسلـم من حديث سَفينة – خادم النبى ﷺ – ، وعند أبى داود من حديث أنس : « توضأ من إناء يسعُ رطلين » ، وهذه الأخبار قاضيةٌ بالتخفيف فى

ماء الوضوء ، وعدم الإسرافِ فيه ، وفيه مشروعية الدلكِ لأعضاء الوضوء ، ليساعدَ على تعميم الماء عليها ، قال البخارى : وكَرِه أهلُ العلم فيه - أى فى ماء الوضوء - أن يتجاوز فعلَ النبى ﷺ .

(٢) تأكيد إسباغ الوضوء :

رأى النبى ﷺ رجلًا وفى قدَمه مثلُ الظُّفر لم يُصبه الماءُ فقال : « ارْجِعْ فأحْسِنْ وضوءَك » . [أخرجه أبو داود والنسائى والبيهقى عن أنس] .

أى : لم يُصبه ماءُ الوضوء فأمره بإسباغه ، وفى الصحيحين عن عائشة : أن النبى ﷺ قال : « أسبغوا الوضوءَ ، ويلٌ للأعقاب من النار » . وقد أخرج أبو داودَ من طريق خالد بن معدان عن بعض الصحابة : أن النبى ﷺ رأى رجلًا يُصلى وفى ظَهر قدمِه لمعةٌ قدرَ الدرهم لم يُصبها الماء ، فأمره أن يُعيدَ الوضوء والصلاة .

وفى هذا دليلٌ على وجوب استيعاب أعضاء الوضوء بالماء نصًّا فى الرِّجْلِ وقياسًا فى غيرها ، وجاء فى الحديث : « ويلٌ للأعقاب من النار » قاله ﷺ فى جماعة لم يمسَّ أعقابَهم الماءُ .

[ذكره الأمير الصنعانى فى سبل السلام ، والطبرى فى تفسيره من حديث جابر] .

فينبغى للمتوضئ أن يُسبغَ الوضوءَ مع تدليك أعضائِه ، حتى يعُمَّها الماءُ وألا يغفُلَ عن ذلك .

وفى الحديث : « ويلٌ للأعقاب وبطونِ الأقدام من النار » .

[أخرجه البيهقى والحاكم ورواه عبد الله بن الحارث بن جزء] .

وفى رواية جابر : « ويلٌ للعراقيب من النار » . [مسند أحمد] .

(٨) الزكاة
إخراجها بركةٌ ومنعها ضرٌ ونقمةٌ

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾
[المعارج : ٢٤ ، ٢٥] .

وقال اللَّه تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور : ٥٦] .

جاء عند النسائى وغيره عن أبى هريرة وأبى سعيد رضى اللَّه عنهما أن النبى ﷺ قال من خطبة له : « ما من عبدٍ يصلى الصلواتِ الخمسَ ، ويصوم رمضان ، ويُخرج الزكاةَ ، ويَجتنبُ الكبائرَ السبعَ ؛ إلا فُتحت له أبوابُ الجنة وقيل له : ادخُلْ بسلام » . [قال الحاكم : صحيح الإسناد] . إن الصلاةَ أعظمُ الأعمال ، وهى قرينةُ الإيمان لا تسقطُ عن المكلَّف بحال ، وإن صومَ الفريضة فيه الطاعةُ والإذعانُ لأمر اللَّه ، وهو يُطهِّرُ النفس ويجعلها أهلًا لرحمة اللَّه عز وجل .

أمّا الزكاةُ فنفعُها مُتعدٍّ إذ هى إسهامٌ فى تحقيق التعاطفِ والتراحم والتكافل والتحابِّ بين المسلمين ، وهى شكرٌ على نعمة المال ومُطهِّرة للنفس من آفات الشحّ والبخل ، وسببٌ للبركة فى الأهل والمال ، وهى من أنفع الوسائل فى إزالة أسباب الحسد ، إنها من أسباب الرحمةِ والقبول وتهيئةِ نفسِ المؤمن الصالح المزكِّى للسعادة الأخروية ، وفى الحديث الذى رواه الحسن – أى البصرى – رضى اللَّه عنه : « حصِّنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصَّدقة ، واستقبلوا أمواجَ البلاءِ بالدعاء والتضرُّع » . [أخرجه أبو داود فى المراسيل والطبرانى والبيهقى مرفوعًا متصلًا عن جماعة من الصحابة وهو بالمرسل أشبه] .

إن المال الذى تُؤدَّىٰ زكاتُه يُوفِّقُ اللَّه صاحبَه لاستعماله فيما ينفعه فى الدنيا والآخرة ، ويُصان بفضل اللَّه وعونِه من الآفات ، ففى الحديث الذى رواه جابر قال : قال رجل : يا رسول اللَّه : أرأيتَ إن أدَّى الرجلُ زكاةَ ماله ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ : « مَن أدَّى زكاةَ ماله فقد ذهب عنه شرُّه » أى : بُورك له فيه وزاده اللَّه من فضله ، ووفَّقه لحُسن إدارته وإنفاقِه فيما يُصلحه وينفعه .

[أخرجه الطبرانى فى الأوسط وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم] .

مختصرًا بلفظ : « إذا أديتَ زكاة مالكَ فقد أذهبتَ عنك شرَّه » .

[وقال : صحيح على شرط مسلم] .

إن أداء الزكاةِ من أعظم أسبابِ البركة ، ودفعِ الضرِّ ، ونزولِ الغيث ، وتثبيتِ النِّعم وزيادتِها ، وفى الحديث القدسى : « أَنْفِقْ يا ابنَ آدمَ يُنفق عليك » .

[رواه أبو هريرة والحديث متفق عليه] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

[الحشر : ٩] .

وإن إسلام المرءِ يتمُّ بإخراج الزكاةِ إن كان يَملك النصابَ فما فوقَهُ ومضى عليه الحولُ ، يقول علقمةُ رضى اللَّه عنه – كما عند البزار – : إنهم أَتَوا رسولَ اللَّه ﷺ فقال لهم – أى عند البيعة – « إن تمامَ إسلامِكم أن تؤدُّوا زكاةَ أموالكم » . ذلك أن إخراجَ الزكاةِ لمستحقِّيها ركنُ الإسلام وبذلَها يدلُّ على كمال الطاعة ، والانقيادِ لأمر المنعم الوهاب ، وإن أداءَها من أقوى أسباب النجاة ، والفوز بالرضوان .

قال أبو أيوب رضى اللَّه عنه كما فى الصحيحين : قال رجل للنبى ﷺ :

أَخبِرنى بعمل يُدخلنى الجنة ؟ قال : « تعبدُ اللَّه لا تشرك به شيئًا ، وتُقيمُ الصلاة ، وتؤتى الزَّكاةَ ، وتصلُ الرحمَ » .

وعندهما - أيضًا - جاء عن أبى هريرة مِثْلُه إلا أن فيه : « وتصوم رمضان » فقال السائل : والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا ولا أنقص منه . فلما ولَّى قال النبى ﷺ : « من سرَّه أن ينظرَ إلى رجل من أهل الجنةِ فَلْينظُر إلى هذا الرجل » .

إن الزكاة حقُّ الفقير والبائسِ فى أموال القادرين ، وإن المالَ مالُ اللَّه ونحن مُستخلَفون فيه ، مُختبَرون به ، وإن الفقراءَ عيالُ اللَّه ، وأحبَّ الناس إلى اللَّه من واساهم ، وحقَّق لهم الكفاية ، ولم يتركهم نُهبةً للحاجة والفقر والبؤس والمرض ، لذا جاء الوعدُ بالبركة والخير لأهل الزكاة الذين يراقبون اللَّه عز وجل ويُخرجونها طيبةً بها نفوسُهم ، كما جاء الوعيدُ لمن يبخل ويضنُّ بهذا الحق ، وقد جاء فى حديث علىٍّ بن أبى طالب عند الطبرانى موقوفًا ومرفوعًا : « إن اللَّه فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدْرِ الذى يَسَعُ فقراءَهم ، ولن يُجْهدَ الفقراءُ إذا جاعوا وعَروا ، إلّا بما يصنع أغنياؤهم ، ألا وإن اللَّه سيحاسبهم حسابًا شديدًا ، ويُعذبُهم عذابًا أليمًا » .

[تفرد به ثابت بن محمد الزاهد ، قال الحافظ : صدوق ثقة] .

ومن منع زكاةَ مالِه لم تُقبل صلاتُه ، ففى حديث ابن مسعود رضى اللَّه عنه قال : « أُمرنا بإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ومن لم يُزكِّ فلا صلاةَ له » .

[رواه الطبرانى فى الكبير موقوفًا] .

وفى رواية للأصبهانى قال : « من أقام الصلاة ، ولم يؤت الزكاةَ فليس بمسلم ينفعُه عمله » . وفى هذا تنبيهٌ لأهل الحِكمة والفِطنة ، فماذا يُغنى عن الإنسان مالُه إذا هو حُرم جنَّات النعيم ؟ وفى التحذير من عواقب مَنع الزكاة

يروى أبو هريرة أنه سمع من عمر رضى اللّه عنهما ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما تلف مالٌ فى برٍّ ولا بحر إلا بحبس الزكاة » .

[رواه الطبرانى فى الأوسط ، وهو حديث غريب] .

وفى حديث أنس بن مالك أن رسول اللّه ﷺ قال : « مانعُ الزكاةِ يومَ القيامة فى النار » . [رواه الطبرانى فى الصغير عن سعد بن سنان] .

إن مالَك أيها المؤمنُ هو ما قدَّمتَ بنيةٍ صالحة وسخاءِ نفس ، ومالَ وارثِك ما أخَّرتَ . فكلُّ إنسان مسئولٌ عن نفسه ، وفى حديث عائشة رضى اللّه عنها أن رسول اللّه ﷺ قال : « ما خالطت الصدقةُ - أو قال الزكاةُ - مالًا إلا أفسدته » . [رواه البزار والبيهقى] . أى : أنه مالٌ حرامٌ لأن مال الزكاة هو حقُّ الفقير فى وقته فمن حبسه بُخْلًا به وشحًّا فإنه يذهب ببركة المالِ كله إذا خالطه ولم يُخرجه لمستحقِّيه .

من علامات النفاق :

ومن أمارات النفاقِ إخفاءُ الزكاة وإعمالُ الحِيل لعدم إخراجها . فإذا خفى ذلك على الناس ، فإن اللّه لا تخفَى عليه خافيةٌ ، وفى حديث عمر أن رسول اللّه ﷺ قال : « ظهرتْ لهم الصلاةُ فقبلوها ، وخَفيت لهم الزكاةُ فأكلوها ، أولئك هم المنافقون » . [أخرجه البزار] .

إن اللّه لا يقبل إلا طيبًا :

وفى حديث ابن مسعود: « من كسب طيبًا خبَّثه منعُ الزكاة ، ومن كسب خبيثًا لم تُطيِّبْه الزكاة » . [رواه الطبرانى فى الكبير موقوفًا بإسناد منقطع] .

الأوجاع والقحط :

وفى حديث بُريدة : « ما منع قومٌ الزكاةَ إلا ابتلاهم اللّه بالسنين » أى

أصابتهم شِدةٌ وقحط . [رواه الطبرانى فى الأوسط ورواته ثقات] .

وهو عند الحاكم والبيهقى بلفظ : « ولا منع قومٌ الزكاةَ إلا حبس اللّه عنهم القَطر » ، وذلك أن الكسبَ الحلالَ الطيبَ إذا اختلط بمال الزكاة أى التى لم يؤدِّها صاحبها ، ومنعها عن مستحقيها فإنه يصير خبيثًا لاختلاطه بالمال الحرام الذى هو حقُّ أصحابه ، وإن المالَ المكسوبَ من حرام كثمن حشيشةٍ أو خمر وخنزير أو جاء من الربا وغير ذلك لا يصير طيبًا بإخراج زكاته .

إن الزكاةَ تُزكِّى النفوسَ وتُنمِّيها بحب الخير ، وتُطهر الأموال ، قال اللّه عزَّ وجلَّ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

* * *

فوائد : تنبيهات وتوجيهات :

جاء رجل من خُزاعة إلى رسول اللّه ﷺ فقال : إنى شهدتُ ألّا إله إلا اللّه وأنك رسولُ اللّه ، وصليتُ الصلواتِ الخمسَ ، وصُمتُ رمضان وقُمته ، وآتيتُ الزكاة . فقال رسول اللّه ﷺ : « من مات على هذا كان مع الصدِّيقين والشهداء » . [أخرجه البزار بإسناد حسن ، وابن خزيمة وابن حبان ، والراوى عمرو الجهنى] .

وفى حجة الوداع قال رسول اللّه ﷺ : « إن أولياء اللّه : المُصلُّون ، ومن يُقيم الصلواتِ الخمسَ التى كتبهنَّ اللّه عليه ، ويصوم رمضان ، ويحتسب صومَه ، ويؤتى الزكاةَ محتسبًا طيبةً بها نفسُه ، ويجتنب الكبائرَ التى نهى اللّه عنها » .

ثم قال ﷺ : « لا يموت رجلٌ لم يعمل هؤلاء الكبائر ، ويقيم الصلاةَ ويؤتى الزكاةَ ، إلا رافق محمدًا فى بحبوحة جنةٍ أبوابُها مصاريعُ الذهب » .

[رواه الطبرانى فى الكبير عند عبيد بن عمير الليثى عن أبيه] .

وسألتْ أمُّ سلمةَ رضى اللّه عنها رسولَ اللّه ﷺ فقالت : إنى ألبسُ أوضاحًا من ذهب أكنزٌ هو ؟ قال : « ما بلغ أن تُؤَدَّى زكاتُه فزُكِّى فليس بكنز » .

[ذكره مالك وأبو داود والدارقطنى وهو حديث حسن] .

والأوضاح : نوع من الحُلى كانت تُصنع من الفضة سُميت بذلك لبياضها .

وسئل ﷺ : « إن أمى تُوفيت ، أفينفعها إن تصدقتُ عنها ؟ قال : نعم » .

[أخرجه البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث ابن عباس] .

الزكاة للزوج والأقارب :

سألت امرأة رسول اللّه ﷺ فقالت : « إن لى حُليًا ، وإن زوجى خفيفُ ذاتِ اليد ، وإن لى ابنَ أخ ، أفيُجزئُ عنى أن أجعلَ زكاةَ الحلىِّ فيهم؟ قال: نعم».

[أخرجه ابن ماجة من حديث أم سلمة رضى اللّه عنها وإسناده حسن] .

وسألته ﷺ امرأتان عن الصدقة على أزواجهما . فقال : « لهما أجران : أجرُ القرابة ، وأجرُ الصدقة » . [متفق عليه وفى الصحيحين عن امرأة ابن مسعود مثله] .

وعند ابن ماجة : أتجزئ عنى من النفقة الصدقةُ على زوجى وأيتام فى حجرى ؟ فقال ﷺ : « لها أجران : أجرُ الصدقة وأجرُ القرابة » .

[وهو عند البخارى ومسلم والنسائى من حديث زينب امرأة ابن مسعود] .

كلمة : ذلك أن أحق الناس بالزكاة الأقاربُ كالزوج من زكاة مال امرأته والإخوة والأخوات ، والعمة والعمات ، ونحوهم ممن لا تجب عليه نفقتهم ، أما من تجب عليه نفقتهم كأولاد المزكِّى المحتاجين وأبويه فليس لهم من زكاة ماله شىء إذ نفقةُ هؤلاء عليه واجبة مثل نفقة زوجته .

* * *

(٩) (أ) الصوم تربيةٌ عالية

شهرُ رمضان شهرٌ مباركٌ إنه الشهر الذى خصَّه اللَّه بالذكر فى القرآن الكريم : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

وقد فرض اللَّه عز وجل صيامه على المكلَّفين لتهذيب النفوس ، وتربيةِ الضمائر ، وتنمية الشعور بالرحمة ، ولتطهير القلوب ، وتقويم الأخلاق : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

وهو خطابٌ للمسلم البالغ العاقلِ المقيم الصحيح لا يجوز له بحال الفطرُ فى نهار رمضان . يصوم الموحِّدون انقيادًا لأمر اللَّه ، وشكرًا له على نعمه ، وطلبًا لمرضاته ورغبةً فيما أعدَّه اللَّه عز وجل لأهل الطاعة من جزيل الثواب ، جاء فى الصحيحين وعند النسائى قال الرسول الحبيب ﷺ : « من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه ، ومن قام ليلةَ القدْر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه » . « إيمانًا واحتسابًا » ، أى : نيَّةً وتصديقًا ، طلبًا لوَجه اللَّه تعالى وثوابِه .

وإن فى الصوم امتحانًا لعزيمة المؤمن وتدريبًا له على الصبر ، وعلى الحِلم ، وتعويدًا له على ضبط النفس ، كما أن الصوم يُقوِّى الإرادة ويُربِّى المسلمَ على الجَلَد والتحمُّل ولزوم الجادةِ ، بحيث يملك زمامَ نفسِه فلا يرضى لها ما تأباه المروءةُ ، ولا ينزلق إلى مهاوى الغواية .

كما أن الصومَ يُوقظ ضميرَ المسلم ، ويُهذِّبه ويقوِّى فى نفسه ملكةَ المراقبةِ لله عز وجل ، فيستحيى المؤمنُ أن يراه اللَّه حيث نهاه ، وهذه المراقبةُ أعظمُ ما يُعِدُّ النفوسَ للسعادة الأخروية ، وهو سرٌّ بين العبدِ وربِّه يُرجَى به مرضاةُ

الربُّ بعيدًا عن أعين المخلوقين ، لذا كان من تمام الصوم أن يحذرَ الصائمُ مخالفةَ ربِّه ، وأن يشعر شعورًا دائمًا بأن اللَّه مطلعٌ على سرِّه وعلانيته ، وأنه سبحانه يُحبُّ أن يرى عبده حيث أمره . وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه أنَّ الرسول ﷺ قال : « قال اللَّه تعالى : كلُّ عملِ ابنِ آدمَ له إلا الصومُ فإنه لى ، وأنا أَجْزِى به ، والصيامُ جُنَّةٌ ، فإذا كان يومُ صومِ أحدِكُم فلا يرفُث ، ولا يصخَب ، فإن سابَّه أحدٌ ، أو قاتلَهُ ، فليقل إنى صائم ، إنى صائم » ، فالصومُ عملٌ تمحَّضَ لله تعالى لا رياءَ فيه ، لذا كان الجزاء عظيمًا والثوابُ جزيلًا بفضل اللَّه ورحمته .

مَنْ الصائمُ بحقٍّ ؟ إن الصائمَ بحقٍّ هو الذى يصومُ سمعُه ، وبصرُه ، ولسانُه ، وسائرُ جوارحِه ، ولا يشتغلُ باللغو ويُمسك لسانَه إلا عن خير ، ولا ينظر إلى ما حرَّم اللَّه ، ولا يجلس فى مجالس البطالين ، ولا يأكل إلا حلالًا ، وفى الأثر : « إذا صُمتَ فليصُم سمُعك وبصرُك ، ولسانُك عن الكذب والمحارم ، ودع أذى الجارِ ، وليكن عليك سكينةٌ ووقارٌ يومَ صومِك ، ولا تجعل يومَ صومِك ويومَ فطرِك سواء » .

إن الصائم لا يكون نمَّامًا ، ولا مُغتابًا ، ولا حسودًا ولا حقودًا ، ولا كذَّابًا ، ولا فحاشًا ، ولا لعَّانًا . إن الصائم لا يشهد الزور ، ولا يُخالط السفهاء ، ولا يخون الأمانة ولا يُطفف الكيل ، ولا يغشُّ فى المعاملات ولا يختلس أموالَ الناسِ ، ولا يسعى بفسادٍ فى الأرض .

إن الصائم يُخلص لله فى سرِّه وعلانيته ، ويُؤدِّى الفرائض ، ويجتهد فى التطوعات ، ويستقيم قلبُه على منهج الحق ، ويستكثرُ من فعل الخيرات ، ويشتغل بتلاوة القرآنِ وتدبُّره وبذكر اللَّه عز وجل . إن الصائم أشدُّ الناس رحمةً بالضعفاء ورفقًا بأهل العجز والمسكنة ، فهو بارٌّ بأهله ، عطوف على المساكين ، سخىٌّ

جوادٌ مقتديًا بالحبيب المصطفى ﷺ .

شهرٌ عظيم الخير والبركة :

إن شهر الصوم هو شهرُ الصفحِ والتسامح ، وتسودُ فيه بين المسلمين روحُ المودَّة والإخاء ، وتتطهر القلوبُ من البغضاء والخصومات ، وفى الحديث الذى رواه عبادةُ بن الصامت وأخرجه الطبرانى : « أتاكم رمضانُ شهرُ بركةٍ ، يَغشاكم اللّه فيه ، فيُنزلُ الرحمة ، ويَحُطُّ الخطايا ، ويستجيبُ فيه الدعاء ، ينظرُ اللّه تعالى إلى تنافسكم فيه ويُباهى بكم ملائكتَهُ ؛ فأرُوا اللّه من أنفسكم خيرًا ، فإن الشقىَّ من حُرم فيه رحمة اللّه عز وجل » . وعنده فى رواية أنس : « هذا رمضانُ قد جاء تُفتحُ فيه أبوابُ الجنة ، وتُغلق فيه أبوابُ النار ، وتُصفَّد فيه الشياطين ، بُعدًا لمن أدركَ رمضان فلم يُغْفَرْ له ، إذا لم يُغفرْ له فمتى ؟ » ومن رواية أبى هريرة عند الترمذى : « وينادى فيه ملكٌ ، يا باغِىَ الخيرِ أَقْبِلْ ، ويا باغِىَ الشرِّ أَقْصِرْ » .

إنه شهرُ الإخلاص ، شهرُ الصبر والبِرِّ ، وحُسنِ الخلق ، شهر يُشبهُ فيه الصائمون الموحِّدون المخلصون ملائكةَ الرحمن .

إنه من أعظم سبل السعادة لمن يوفقهم اللّه فيه إلى الانتفاع بمزايا الصوم وآدابه وواجباته ، لمن يُوَفَّقُوا إلى إحياء لياليه بإعمال الجوارح فى طاعة الرحمن ، وبالانصرافِ عمَّا يَشْغَلُ القلبَ والعينَ والأذُن والنَّفس ممَّا فيه مضرَّةٌ بالدين ، والخُلقِ المستقيم : من المرئيات والمسموعات والأفعالِ التى تصرفُ المؤمنَ عمَّا يفيده فى دينه وفى دنياه إلى لهوٍ ولعبٍ ولغوٍ وباطل ، ويُضيِّع ثمراتِ هذه الأيام المباركات ولياليها على الفرد وعلى الأسرة ، وإن ثمراتها : تقوى اللّه ، والإخلاصُ فى السر والعلن والاجتهادُ فى الطاعة وكفُّ الجوارح إلا عن خير يرجو به وجه اللّه .

(ب) طُوبَى للمشمّرين
فى الليالى المُباركات

عن عائشة أمِّ الـمؤمنين رضى اللّه عنها فى الحديث المتفق عليه قالت : « كان رسولُ اللّه ﷺ إذا دخل العشرُ الأواخرُ من رمضان : شدَّ مِئْزَرَهُ ، وأحيا ليلَه ، وأيقَظَ أهلَه » .

هذا الحديث الشريفُ يُنبِّه إلى فضل العشر الأواخرِ من شهر رمضان فقد كان ﷺ يُشمِّرُ فيها للعبادة ، ويُقبل عليها على نحو أعظمَ من سائر الليالى ، ولياليه كلُّها كانت خيرًا وبركةً وطاعة وبرًّا ﷺ ، كما كان يوقظ أهلَه للصلاة والعبادة ، ولذكرِ اللّه وتلاوة القرآن ولـمزيدٍ من الاجتهاد فى الطاعة ؛ ذلك أن هذه الليالىَ العشرَ هى خاتمةُ ليالى العمل فى شهر الصوم ، والأعمالُ بخواتيـمها .

كما أن فى هذه الليالى الـمباركاتِ ليلةً ثوابُ العملِ الصالح فيها خيرٌ من ثوابِ مِثله فى ليالى ألف شهر ليست فيها ليلةُ القدر ، وهو العملُ الذى يُقدِّمه صاحبه بالإخلاص ، والـمحبة ، والرغبةِ فيـما عند اللّه من الرحمة والثواب .

وبركةُ هذه الليلة إنـما لِعظَم بركاتِ ما شرَّفها اللّه به من بدءِ نزول القرآنِ العظيـم فيها ، هُدًى للناس وبيناتٍ من الهُدى والفُرقان ، يَهدى من الضلالة ، ويُرشد إلى الحق والخير .

وقد لفتَ اللّه العبادَ إلى ما فى القرآن العظيـم من الخير والبركات والرحماتِ ليُقبلوا عليه بكل قلوبهم ، وذلك بمثل قوله تعالى : بسم اللّه الرحمن الرحيـم : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] . والضميرُ « الهاء » فى « أنزلناه » للقرآن فخَّمه سبحانه بإضماره من غير أن يَجرىَ له ذكرٌ باسمه الظاهرِ ، شهادةً للقرآن العظيـم

بالنَّباهة المغنيةِ عن التصريح بلفظه ، كما عظَّم سبحانه القرآن فى هذه الآيةِ بأن أسند إنزاله إليه سبحانه مع التكرار للتأكيد والاختصاص ؛ وذلك بإعادة ضمير العظَمةِ « نا » فى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ مع التأكيد بإنَّ الناسخة وباسمية الجملة .

كما عظَّم سبحانه الوقتَ الذى أُنزل فيه القرآن ، وشرَّفه ، وميَّزه بخيرات مباركاتٍ ليست لغيره ، وذلك بتسميته : بليلةِ القدر أى ليلةِ الشرف والمنزلةِ الخاصة . وبقوله سبحانه : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر : ٢] وهو استفهامٌ يُفيد التعظيم لشأن هذه الليلة المباركة ، التى بدأ فيها نزولُ آخر كتبه وأكملها وأوفاها ، على خاتم أنبيائه ، وأعزِّهم ، وأعظمِهم قدرًا ، وقد شاءت إرادةُ الحكيم الخبير أن يكون نزولُ القرآنِ العظيم فى أعلى الليالى قدرًا ، وفى أطهر البقاع وأشرفها وأعلاها منزلةً ، بجوار بيتِه المُعظَّم الذى هو أولُ بيتٍ وضع للناس ، وجعله مباركًا رمزًا للتوحيد ، وحرمًا آمنًا ، وأنزله على نبىٍّ خصَّه اللّٰه بالكمالات الإنسانية فى خَلْقه وخُلُقه : فهو نبىٌّ ذو قدرٍ عظيم عند ربِّ العالمين ، ونزل بالوحى ملكٌ كريم أمينٌ ذو قوةٍ عند ذى العرش مكين - أى هو عند اللّٰه ذو مكانة - وهو مُطاع فى الملائكة ، أمينٌ على الوحى عليه السلام ، وكان نزولُ القرآن لأمةٍ ذاتِ قدرٍ وهى الأمةُ الوسط ، الأمة الشاهدةُ على سائر الأمم ، خصَّها اللّٰه بفضله وإحسانه باتباع خاتم رسله ، وبأكمل شرائع دينه ، وجعلها خيرَ أمة أخرجت للناس ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ أى العبادةُ والطاعةُ فى هذه الليلة المباركة تفضُل مثلها إذا تكررت هذه الطاعة فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وفى هذه الليلة المباركة : ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر : ٤] . وفيه بيانٌ لما فضِّلت به على ألف شهر ، إذ تتنزلُ الملائكة

فيها ، وبإذن اللَّه يدعون للذاكرين والمصلين والقائمين فيحظى أهلُ العبادة ببركاتِ شهود الملائكةِ ، ومعهم جبريلُ عليه السلام ، وببركات دعائهم وسلامهم.

حقًّا : إنها ليلةُ السلام لكثرة ما يُسلِّم فيها الملائكةُ المقرَّبون على المؤمنين الصالحين القانتين الراغبين الراهبين .

وقد أُخْفِيَتْ فى العشر الأواخر من رمضان لكى يجتهدَ أصحابُ العزائم والهِمَم فى المداومة على الطاعة والازدياد من الخيرات والقرباتِ فى هذه الليالى المباركات ، ليجدوا ذلك فى ميزان الحسنات بإذن اللَّه وفضله .

وقتها :

أخرج مسلم من حديث ابن عمر مرفوعًا : « التمسُوها فى العشر الأواخر فإن ضعُف أحدُكم أو عجَز فلا يُغلَبنَّ على السبع البواقى » .

وفى الحديث الذى أخرجه أحمد فى مسنده : « التمسُوها فى العشر البواقى فى الوِتر منها » . أى فى ليلة : إحدى وعشرين ، أو ثلاث وعشرين ، أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين ، أو تسع وعشرين . واللَّه أعلم . وأرجاها عند أهل العلم : ليلة سبع وعشرين . وقد جاء من حديث ابن عمر رضى اللَّه عنهما : « فمن كان مُتحرِّيها فَلْيتحرَّها فى السبع الأواخر » . [متفق عليه] .

إن الفائز حقًّا هو مَن يُصلى الفرائض لأول وقتها ، ويشهدُ الجماعات ، ويُكثر من النوافل ، ويثابر على صلاة الليل ، ويَلهجُ لسانُه بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ، والتضرع بالدعاء ، ويقرأ القرآن متدبرًا ، ويجتنب اللَّهو ولغوَ الكلام ، خاشعًا لله قانتًا ، وطوبى لأهل الصدقاتِ والمبرَّات ، ولمن يُوفق للاعتكاف بالمسجد فى هذه الليالى المباركات .

قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : « قلت : يا رسول الله ، أرأيتَ إن علمتُ أيَّ ليلةٍ ليلةُ القدر ، ما أقول فيها ؛ قال : قولى : « اللَّهم إنك عفوٌّ تُحبُّ العفو فاعفُ عنى » [رواه الخمسة غير أبى داود وصححه الترمذى والحاكم] .

فاعفُ عنَّا وارحمنا ، وأكرِمْنا ، ولا تُهنَّا ، وتجاوز عن سيِّئاتِنا ، وثبِّت قلوبَنا على دينك حتى نلقاكَ ، يا أرحم الراحمين يا ربَّ العالمين .

* * *

فوائد :

من بركات الصيام :

- قال رسول الله ﷺ : « من قام رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه » . [متفق عليه ورواه أبو هريرة] .

- وفى الحديث : « من صام رمضان ثم أتْبَعَهَ ستًّا من شوال كان كصيام الدهر » . [أخرجه مسلم ورواه أبو أيوب] .

- « ما من عبدٍ يصوم يومًا فى سبيل الله إلا باعدَ الله بذلك اليوم عن وجهه النارَ سبعين خريفًا » . [متفق عليه ورواه أبو سعيد واللفظ لمسلم] .

- النيابة فى الصوم : فى الحديث : « من مات وعليه صيامٌ صام عنه وليُّه » .

[متفق عليه والراوى عائشة] .

* * *

(ع) من هَدْى الرسول ﷺ وتوجيهاته
فى صيـام التطوُّع

عن أبى سعيد الخدرى رضى اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « ما من عبدٍ يصومُ يومًا فى سبيل اللَّه إلا باعدَ اللَّه بذلك اليوم عن وجهه النارَ سبعين خريفًا » .

[متفق عليه واللفظ لمسلم] .

ولقد كان رسول اللَّه ﷺ يصوم من كل شهر أيامًا ، ويحث الشباب وغيرهم على الصيام مع الاعتدال ومراعاةِ حق النفس ، وحاجتها للعمل والسعى .

للترقِّى فى مَدارِج الأولياء :

إن النوافل هى ميدانُ أهلِ الإيمانِ للتنافس والترقِّى فى مدارج أولياءِ اللَّه الصالحين ، ولنَيْل ما عند اللَّه من الرحمة والرضوان ، وفى الحديث القدسى : « وما تَقرَّب إلىَّ عبدى بشىء أحبَّ إلىَّ مما افترضتُ عليه ، ولا يزالُ عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أُحبَّه » . ومن أحبه اللَّه عز وجل كان فى زُمرة الأتقياء البررة الذين رضوا عن اللَّه ورضى اللَّه عنهم .

إن لنفسك عليك حقًّا :

وقد نهى رسول اللَّه ﷺ عن صيام الدهر ؛ لأن ذلك ممّا تَضْعفُ عنه طبيعةُ الإنسان وطاقتُه ، وقد يدفعه ذلك إلى السآمة والملل ، أو يُضعِفُ بِنيتَه ويعوقُه عن القيام بدوره فى الحياة على الوجه الأفضل ، وكان ﷺ يزجر من يعزم على ذلك من الصحابة رضوان اللَّه عليهم ، ويبين لهم أن لنفس الإنسان عليه

حقًّا ، وللأهل حقًّا ، ولله حقًّا ، وللبدن حقَّه ، فعلى المرء المسلم التوسطُ والاعتدالُ وإعطاءُ كلِّ ذى حقٍّ حقَّه .

أما مَن كان ولا بُدَّ راغبًا فى الإكثار من الصيام فليكن كصوم داودَ عليه السلام ، كان يصوم يومًا ويُفطر يومًا . وكان ﷺ يُنبِّه على ذلك بمثل قوله : « لا صامَ من صام الأبد » . [متفق عليه والراوى ابن عمر] .

وفى هذا تأكيدٌ للزجر عن صيام الدهر مراعاةً للطاقة والقدرة ، واللَّه عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] .

وعن أبى قتادة عند مسلم بلفظ : « لا صام ولا أفطر » أى لا هو حصَّل منافعَ الإفطار ولا هو حصَّل فضيلةَ الصيام التى يرغب فيها لمخالفته أوامرَ الشرع ولعدم اتِّباع هَدْى نبيِّه فى ذلك ، وهو القائل لأصحابه : « أمَّا أنا فأصوم وأفطِر ، فمن رغِبَ عن سُنتى فليس منى » . [فى الصحيح] .

من هَدْيه ﷺ فى الصوم :

وكانت السيدة عائشة رضى اللَّه عنها تقول : « كان رسول اللَّه ﷺ يصوم حتى نقول لا يُفطر ، ويفطرُ حتى نقول لا يصوم ، وما رأيت رسول اللَّه ﷺ استكمل صيامَ شهرٍ قط إلا رمضان ، وما رأيتُه فى شهر أكثرَ منه صيامًا فى شعبان » . [متفق عليه واللفظ لمسلم] .

وفى هذا دليلٌ على أن صومه ﷺ لم يكن مُختصًّا بشهر دون شهر وأنه كان يَسردُ الصيامَ أحيانًا ، ويسرد الفطرَ أحيانًا ، وربما كان ذلك حسب مقتضى الأحوالِ فى الأيام التى فيها أشغالٌ وأعمال أو تجرُّده منها .

الصيام فى شعبان :

وقد رغَّب ﷺ فى الإكثار من الصوم فى شهر شعبان : « لأنه شهرٌ يَغفُل

عنه الناسُ بين رجب ورمضان » كما أخرجه النسائى وأبو داود وصححه ابن خزيمة عن أسامة بن زيد قال : قلت يا رسول اللَّه ، لـم أرك تصومُ فى شهر من الشهور ما تصوم فى شعبان ؟ قال : « ذلك شهرٌ يَغفُل الناسُ عنه بين رجب ورمضان ، وهو شهر تُرفع فيه الأعمالُ إلى ربِّ العالـمين ، فأُحِبُّ أن يُرفع فيه عملى وأنا صائم » .

ولـم يثبت أنه ﷺ واصَل صيامَ رجب وشعبان أو خَصَّ شهرَ رجب بشىء عن سائر الشهور .

شهر الـمُحرَّم :

وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة : « أفضلُ الصيام بعد رمضان شهرُ اللَّه الـمحرَّم ، وأفضلُ الصلاة بعد الفريضة صلاةُ الليل » . [أخرجه مسلم] .

وفضل الصيام فى شهر الـمحرم إنما هو بالنسبة للأشهر الحُرم ؛ لأن فضيلة صيام التطوع فى شهر شعبان تَعظُم على سائر الشهور ، واللَّه أعلـم .

وفى رواية عن عائشة : « كان يصوم شعبانَ إلا قليلًا » . [متفق عليه] . أى : إنه ﷺ لـم يُتم صيامَ شهرٍ سوى رمضان ، وكان يُكثر من الصيام فى شهر شعبان .

الاثنين والخميس :

كما كان ﷺ يُحبِّبُ فى صيام يومى الاثنين والخميس ، وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « تُعرَضُ الأعمالُ يومَ الاثنين والخميس ، فأحبُّ أن يُعرض عملى وأنا صائم » .

[أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن . وأخرجه مسلم بغير ذكر الصوم] .

وجاء عن عائشة رضى اللَّه عنها كما عند الترمذى : « كان رسولُ اللَّه ﷺ يتحرَّى صوم الاثنين والخميس » .

الأيام البيض :

وكان ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر وهى الأيام البيض : الثالثَ عشرَ والرابعَ عشرَ ، والخامسَ عشرَ ؛ ففى حديث أبى ذَرٍّ رضى اللّه عنه : « أمرنا رسولُ اللّه ﷺ أن نصومَ من الشهر ثلاثة أيام : ثلاثَ عشرةَ ، وأربعَ عشرةَ ، وخمسَ عشرةَ » . [أخرجه النسائى والترمذى وصححه ابن حبان] .

وروى من طرق عدة عن أبى هريرة ، وفى رواية قتادةَ بن ملحان عند أصحاب السنن : « كان رسول اللّه ﷺ يأمرنا أن نصومَ ثلاثَ عشرةَ ، وأربعَ عشرةَ ، وخمسَ عشرةَ ، وقال : هى كهيئة الدهر » .

وعند النسائى عن ابن عباس : « كان رسول اللّه ﷺ لا يفطر أيام البيض فى حَضَر ولا سفر » .

وهذا يدل على فضل صيام هذه الأيام الثلاثة من كل شهر قمرى .

ومَن صام ثلاثة أيام من كل شهر فكأنما صام الدهر ، كما جاء فى الحديث المتفق عليه ورواه ابن عمرو لأن الحسنة بعشر أمثالها .

وأيام مختارة :

وحبَّب ﷺ فى صيام يوم عرفةَ لغير الحاج ، وفى صيام يوم عاشوراء ، وصيام يوم الاثنين من كل أسبوع ، ففى حديث أبى قتادة الأنصارى : أن رسول اللّه ﷺ سئل عن صوم يوم عرفة فقال : « يُكفِّر السنةَ الماضية والباقيةَ » وسُئل عن صوم يوم عاشوراء فقال : « يُكفر السنةَ الماضية » . وسئل عن صوم يوم الاثنين فقال : « ذلك يومٌ ولدْتُ فيه ، وبُعثت فيه ، وأُنزِل علىَّ فيه » .[أخرجه مسلم].

وفى عاشوراء جاء الحثُّ على صوم يوم معه قبله ويوم آخر بعده أو صوم أحدهما مع اليوم العاشر من شهر المحرَّم ، وفى صيام يوم عرفةَ لغير الحاجِّ الموجود

بعرفة توفيقٌ من اللّٰه بإذنه للطاعات فيما بقى من العام بفضل اللّٰه وإحسانه . وفى الحديث : « نهى النبىُّ ﷺ عن صوم يوم عرفة بعرفة » أى لمن كان حاجًّا.

[رواه الخمسة عن أبى هريرة] .

وشرِب ﷺ يوم عرفة أمام أصحابه وهو بعرفة لتأكيد ما هو أفضل للحاجّ فى هذا اليوم لحاجته إلى الاجتهاد فى الدعاء والذكر والتضرع .

كما جاء الترغيب فى الاجتهاد فى الطاعة والعبادة والصيام فى العشر الأول من ذى الحجة وفيه : « ما من أيام العملُ الصالحُ فيها أحبُّ إلى اللّٰه من هذه » .

[أخرجه البخارى ورواه ابن عباس]

وكان يصوم ﷺ تسعةَ الأيام الأولى من ذى الحجة التى تسبق عيد الأضحى ، كما روت بعضُ أزواجه رضى اللّٰه عنهن .

ومن الأيام التى رغَّب رسول اللّٰه ﷺ فى صيامها صومُ ستةِ أيام من شوال كما جاء فى الحديث : « من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوال كان كصيام الدهر » . [أخرجه مسلم والراوى أبو أيوب الأنصارى] .

ويجوز صومُها متفرقةً ومتوالية فى أثناء شهر شوال .

هذا بعض هَدْيِه ﷺ فى صيام التطوع ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة : « شهرُ الصبر وثلاثةُ أيام من كل شهر صوم الدهر » .

وفى الحديث : « للصائم فرحتان : حين يُفطر ، وحين يَلقى ربَّه ، والذى نفسُ محمدٍ بيده لخلوفُ فم الصائم أطيبُ عند اللّٰه من ريح المسك » .

[رواه على بن أبى طالب . وأخرجه النسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة] .

هذا من هدْيه وتوجيهه ﷺ فى صيام التطوُّع ، فطوبى لمن يقتدى به فى طاعة الرحمن .

أحكام وتنبيهات :

عن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه : « أن رسول اللّه ﷺ نهى عن صيام يومين: يوم الفطر ، ويوم الأضحى » . [متفق عليه] . فيحرم على المسلم صيام هذين اليومين لا تطوعًا ولا نذرًا ، ويأثم إن فعل .

أما أيام التشريق الحادىَ عشرَ والثانىَ عشرَ والثالثَ عشرَ من ذى الحجة فقد جاء النهى عن صيامها ، ولا يباح ذلك إلا للمتمتع بالحج الذى لم يجد الـهَدْى ، ويصوم ثلاثةَ أيام فى الحج وسبعةً إذا رجع ، فإن صام الثلاثةَ أيامَ التشريق التى تَلى يومَ الأضحى فله رُخصة بذلك ، ولا يُرخَّص لغيره لأنها أيام عيد وأكلٍ وشُرب .

* فعن نُبيشة الخير بن عمرو الهذلى رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « أيام التشريق أيامُ أكل وشُربٍ وذِكر لله عز وجل » . [أخرجه مسلم] .

وهى أيام الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من ذى الحجة .

وفى حديث ابن عمر عند البزار : « أيام التشريق أيامُ أكلٍ وشرب وصلاةٍ فلا يصومها أحدٌ » . وقد ذهب جماعةٌ من السلف إلى أن النهى عن صومها نهيُ تحريم . أما الرخصةُ للمتمتع بالعمرة إلى الحج والرخصةُ للقارِن أيضًا الذى لم يجد الهَدْى فى صيام أيام التشريق الثلاثة إذا أراد ذلك فقد جاء عن عائشة وابنِ عمر قالا : « لم يرخَّص فى أيام التشريق أن يُصَمْن إلا لـمن لـم يَجِد الهَدى » . [أخرجه البخارى] . ومعلوم أن صومها للمتمتع على الإباحة إذا أراد ذلك ، أما صوم غيرها فيكون أولى ، واللّه أعلم .

صوم المرأة بإذن زوجها :

وعن صيام المرأة تطوُّعًا - أى نافلة غير فريضة - وزوجُها حاضر غير مسافر أو غيرُ بعيدٍ عنها جاء التوجيهُ النبوى فى الحديث الذى رواه أبو هريرة ولفظه عند البخارى : « لا يحلُّ للمرأة أن تصومَ وزوجُها شاهد إلا بإذنه » . [متفق عليه] . زاد أبو داود « غير رمضان » . وفيه دليلٌ على أن الوفاء بحقِّ الزوجِ أولى من تطوُّع الزوجة بالصوم ، فصيامُ النفل مُستحب ، وحقُّ الزوج واجبٌ وهو مُقدَّمٌ على المستحب .

وهذا طبعًا فى غير صيام الفرض أو قضاء الفرض .

فإذا صامت النفلَ بغير إذنه كانت فاعلةً لمُحرّم إلا إذا كان لديها إذنٌ عامٌ وَرِضًى منه بحسب المتعارَف بينهما - واللّه أعلم - .

* وجاء فى الصحيحين من حديث رواه أبو هريرة : « من نسىَ وهو صائمٌ فأكل وشرِب فليُتمّ صومَه فإنما أطعمه ربُّه وسَقاه » .

* وفى الحديث المتفق عليه : سألت أمرأةٌ رسولَ اللّه ﷺ فقالت : إن أمى ماتتْ وعليها صومُ نذرٍ أفأصومُ عنها ؟ فقال : « أرأيتِ لو كان على أمك دينٌ فقضيْتِه أكان يؤدِّى ذلك عنها ؟ » فقالت : نعم . قال : « فصُومى عن أمِّك » .

* وسئل رسول اللّه ﷺ عن صيامه يومَ الاثنين والخميس ؟ فقال : « إن يوم الاثنين والخميس يغفرُ اللّه فيهما لكل مسلم إلا مُهتجِرَيْن ، يقول : حتى يصطلحا » .

[أخرجاه ابن ماجة بإسناد حسن] .

هدانا اللّه بفضله سواء السبيل .

* * *

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٨ ﴾

[سورة التحريم : الآية ٨]

(١٠) عيدُ فِطْرِنا
يومُ رحمةٍ وتسامُحٍ وتَجاوُزٍ

إنه يومُ الرحمة ، يومُ الجائزة ، يومُ المغفرة ، يوم الفرحة .

إنه يوم البراءة ، يوم الطهارة ، البراءةِ من الذنوب بفضل اللّٰه ، الطهارة من العيوب ، والنقاء من الدَّنَس وأسبابِ الخِذلان بإحسانٍ من الرحمن .

فيَاالفَرْحَةِ من صام أيام رمضان إيمانًا واحتسابًا .

يالسعادةِ من قام لياليَهُ راغبًا راهبًا مقتديًا بحبيب الرحمن ﷺ .

يا لَسُرور من أدخل البهجةَ على قلب يتيم ، وسعى لعون مسكين ، وأغنى ذا عِيال فى الأيام المباركات ، وفى اليوم العظيم يومِ عَودِ السرور بعد ختام أيام الصيام .

ويالفَوْز من صَدَق يقينُه ، وصحَّت بالتوبة نيتُه ، وأكَّد عزمَه على الاستقامة والثبات على طريق الحق والخير .

يا لهَناءَة من جال بفِكْره فى ملكوت السموات والأرض فسبَّح ربَّه وخصّه بالعظمة والكبرياء وحده مردِّدًا : « اللّٰه أكبر » . وقد جدّد إيمانَهُ بالمداومة على الكلمة المُنجية : « لا إله إلا اللّٰه محمد رسول اللّٰه » عن يقين وإخلاص ومحبة .

يا طُوباهُ لِمَن ركَع وسجَد ، وعبدَ اللّٰه وخشَع ، وفعل الخير ، واجتنب الشرَّ ، وجعل الإخلاصَ دليلَه إلى أن يلقَى ربه ، فاستعلى بنور الإيمانِ على وساوس الشيطان ، وقَهر بسلامة التوجُّه وصدقِ اليقين نوازعَ النفس الأمارة بالسوء ، وكَبتَ بعزم الصدِّيقين شواردَ الزيْغ ، والشبهاتِ المُضلَّة ، وعاش فى

نور الإيمان الصافى ، مع سلامة النفس واستقامتها ، وطهارة القلبِ ونقائه وانقياد الجوارح لـمُقتضى أمرِ اللّه ونهيه .

إنه يومُ عيدٍ فطرنا على كل حلالٍ طيب .

يومُ تَبادُلِ التهانى والدعوات الصالحاتِ بالخيرات والبركات .

يومُ بهجةِ النفوس الباديةِ آثارُها على الوجوه أن وفّق المولى عز وجل أهلَ الإيمان إلى الإذعان فى شهر الصيام فصاموا وقاموا لله قانتين .

التسامح والتجاوُز :

إنه أعظم أيام التسامح والتجاوز وكفِّ الجوارح عن الشرور والآثام وإمساكِ اللسان عن كل ما يُغضب الرحمن .

إنه يوم التسامح بين الأهل والأصدقاء والجيران ، وإزالة كلِّ أسباب الشقاق والخلاف والخصام ، فتعود مياهُ نهرِ المودَّة والمحبة والألفة إلى صفائها وتدفُّقها بالرحمة والرفق والتعاون على الصلاح والإصلاح .

إنه يوم التجاوز عن المسيء والإغضاء عن هفوات المحبِّين والسعى إلى رأب الصدْع ، وجمْع الشمل ، وتنقيةِ العلاقات الإنسانية والاجتماعية من الشواغل المعيقة لمسيرة الحياة وانطلاقها نحو حياة أفضلَ وأسعد وأرغد .

إنه يوم يُطالعنا كلَّ عام مرة بوجهٍ مُشرق جميل متحدِّثًا بلسان فصيح : أنا يومٌ جديد ، وعلى عملك يا ابنَ آدمَ شهيد ، فاغتنمنى بالمبرّات والخيرات ، وبشاشة الوجه ، وحُسنِ الفعال ، وطِيبِ المقال ، وطهارة الأرْدَان ، وتجديد التوبة ، وطلب الغفران ، وقبول القيام والصيام ، من ربٍّ كريم عفُوٍّ غفارٍ توابٍ رحيم بعباده : إذا أقبلوا عليه شبرًا بالتوبة والإنابة والرغبةِ والرهبة ، أقبل عليهم برحمته ذراعًا ، وإذا أقبلوا عليه سبحانه ذِراعًا أقبل عليهم باعًا ، وإذا أتَوْه فارِّين من أتُون الذنوب ماشين أقبل عليهم برضوانه ورحمته هَرْولة .

فما أعْظَمَ رحمةَ اللّهِ بالعباد ! فسارِعُوا - يا أهلَ الإيمان - إلى مغفرة من ربكم، وفرُّوا إليه بالمحبة والإخلاص والثقةِ فيما عنده سبحانه من الجود والكرم والمغفرة والرحمة ، وتضرَّعوا وأنتم موقنون بالإجابة سائلين المولى من فضله وَجُوده وكرمه أن يَمُنَّ على الأمة بالأمن والإيمان ، والسلامةِ والاستقرار والرخاءِ والازدهار ، وأن يُعينَ العبادَ على فتْح صفحة جديدة فى سِجلِّ حياتهم يُسطِّرونها بالطاعة والرفقِ والمودةِ والألفة والتعاضُدِ والتسانُدِ على تحقيق الخير والكفاية ، وعلى إتاحة كلِّ الفرص لزيادة الإنتاج وكبْح جِماح الفقرِ والجهلِ والغلاء بالجهود المثمرة ، والعقولِ المفكِّرة والأيدى البانية ، والنفوس المُشرقة بالأمل الوضاء .

من الفائز ؟

إن الفائز بالجوائز الكريمةِ فى هذا اليوم المباركِ هو الذى استقام فى رمضانَ ، ويستقيمُ بعد رمضانَ ، ويصلُ الأرحام ، ويَخْفض جناحيه ذُلًّا ورحمة ولينًا ورفقًا لوالديه ، ويدعو لهما حيَّين أو ميِّتين ، ويسعى إلى مرضاتهما بعد سعيه لما يُرضى الرحمن .

فأحْيوا القلوبَ بصحة الإيمان وسلامةِ الدين ، وارحموا أنفسكم بإقام الصلواتِ المكتوباتِ وحضور الجماعات .

وثبِّتوا النعم بكلمة « الحمد لله » ، وحصِّنوا الأموال بإيتاء الزكاة وإعانةِ الفقير والبائس والمحتاج .

وأسعدُوا النفوسَ بالرحمة بالضعفاء والرفق بالصغار ، وبمواساة أهل العجز والفاقة .

وَقِّروا شيوخكم ، وارحموا مَنْ فى الأرض يرحمْكم من فى السماء ، وعيشوا دومًا فى نورِ ما جاء به الوحىُ على طريق النبى المصطفى ﷺ تنالوا غاية الرضوان ، وتفوزوا بعزِّ الدنيا وبكرامةِ الآخرة ، وتَنعَمُوا بطمأنينة القلوب وسكينة النفوس .

إن العيد يُجَدِّد العزائم على طريق الخير والمحبة والتآلفِ والترابط والتراحم والتكافل والتعاطفِ والاستقامة على الطريق الأقوم والصراطِ الأعدل وأداءِ حقوق الرحمن .

فيالعظيم فرحتنا بعيدٍ مبارك يُجدِّد فينا كلَّ بواعث الخير ، ويُنمِّى التوجُّهات السليمة ، ويدفع بعجلة حياتنا إلى مَراقى الفلاح والنجاح وإلى كل ما يُرضى المنعم الوهاب .

فهنيئًا للجميع ، أعاده اللّه علينا وعلى المسلمين باليمن والبركات والأمن والاستقرار .

التهانى والدعوات :

إن السُّرورَو البِشْرَ فى هذا اليوم المبارك يعلو الوجوه ، والسعادةَ تغمر القلوب ، وإن فيضًا من البهجة نلمح مظاهره فى كل مكان ... وإن أطفالَنا وفلذاتِ أكبادنا يملأُون حياتنا اليوم مرحًا وفرحًا وحبورًا وأملًا : أعاد اللّه علينا وعليكم هذا اليوم المبارك والجميعُ بخير وسعادة وهناء ، والمسلمون فى عزٍّ ونصْر ، وبلادُهم فى ازدهارٍ ورخاء .

إن كلَّ واحدٍ منا يسأل اللّه لنفسه ولأخيه المسلم فى هذا اليوم المبارك :

- التوفيقَ لخيرى الدنيا والآخرة ، وحبَّ الطاعة وبُغضَ المعصية .
- البركةَ فى الأهل والولدِ والمال ، والقناعةَ بالرزق الحلال .
- نورَ البصيرة ، وزيادةَ العلم النافع ، والاستقامةَ على صراط اللّه الذى لا عِوج فيه ولا انحراف .
- كما يسأله سبحانه طهارةَ القلب ، ونقاءَهُ من النفاق والشِّقاق والغِشِّ والحسد والحقد وخُلوَّه من إضمار السوء للمسلمين .
- صفاءَ النفس بنور الإيمان ، وببردِ اليقين الصادق .

– طهارةَ اليد ، ونظافَة اللسان من كل ما يَشِين ؛ ونظافَته من الكذب ، والغيبة والنميمة ، وقولِ الزور .

– كما يسأله زيادةَ الفِطنة والفهم والحفظِ والمعرفة التى تَهدى للحق ، وتُنير الطريق نحو الخير والهدى والرشاد .

– كما يسأله سبحانه سلامةَ الدين ، وقوةَ اليقين ، وصحةَ العمل الذى نرجو به رضوان اللّه عز وجل .

– وأن يُحلِّيه اللّه بمكارم الأخلاق ، ويُزيِّنه بمحاسن الآداب ، فيكثر مُحِبُّوه ويقلُّ شانئوه .

– وأن يقوِّى اللّه عزمَه على الخير ، ويُبَصِّره بمواطنه ، وأن يملأ قلبَه بحب الحق ، والرغبة فى التنافس على ما يجلب مرضاةَ الربِّ .

– وأن يملأ قلبه إيمانًا وأمنًا ، وأن يمنحَه من السكينة والوقار والتواضع والحلم والرفق وسعة الصدر ، ما يُحبِّبه لأهل الإيمان .

– أن يجعله اللّه أهلًا لأن يقصده أصحابُ الحاجات ، وعصمةً للأرامل وملجأ للمسكين والفقير ، ومِعوانًا على نوائب الأيام ، وغِيَرِ الزمان .

– أن يرزقه اللّه بعد طاعة اللّه ورسوله بِرَّ الوالدين ، والإحسانَ إليهما ، والرفقَ بهما ، والتواضع لهما ، وأن يجعله ممن يَصل رَحِمه ، وتسخو نفسُه بالخير.

– وأن يرزقه الهُدى والتُّقى والعفافَ والغِنى ، وأن يكون من الشاكرين الذين يُقدِّرون نعمَ اللّه حقَّ قدرها ولا يغفلون عن حمد اللّه ، والثناء عليه وشكره سبحانه على نعمه .

اللّهم أدِمْ علينا صفاءنا ، وسرورنا ، واجعل أيامنا أيامَ خير وبركة وارزقنا العمل بكتابك الكريم ، وحُسنَ الاقتداء بالنبى الأمين ﷺ .

(١١) أ - من أحكام الحجّ والعُمرة
ومعنى التمتُّع والقِرَان والإفراد

الحجُّ ركنُ الإسلام ، وهو فرضٌ على المكلَّف المستطيع فى العُمر مرةً ، ومن زاد فتطوُّعٌ يثاب عليه .

وقد أمر اللَّه عز وجل عبادَه الموحِّدين بإتمام الحجِّ والعُمرة ، فقال : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٩٦] . والمراد بإتمامهما الإتيانُ بهما تامَّين ظاهرًا بأداء المناسك على وجهها ، وباطنًا بالإخلاص لله تعالى وحده فالأعمالُ بالنيات ، وإنما لكل امرئٍ ما نوى ، ولهذا ينبغى للمؤمن ألا يغيبَ عن باله أن من تمام العبادةِ حضورَ النيةِ ، والنيةُ محلُّها القلب ويسنُّ مع حضورِ القلبِ الجهرُ بها فى الحج والعمرة ، وهى ركنٌ فى جميع العبادات .

فى معنى الإحصار :

ومَن مُنعَ من إتمام النسك بعد أن نواه لسببٍ خارج عن إرادته ؛ بأن حالت العوائقُ بينه وبين الوصول إلى البيت جاء حكمُه فى قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ . والإحصارُ هو المنعُ من إتمام النسك . والآية - كما ذكروا - نزلت عامَ الحديبية سنة ستٍّ حين حال المشركون بين رسول اللَّه ﷺ والوصولِ إلى البيت لإتمام العمرة فأنزل اللَّه لهم رخصة : أن يذبحوا ما معهم من الهدى ، وأن يتحلَّلوا من إحرامهم بالحلق أو بالتقصير بعد الذبح .

واختلف أهلُ العلم فى الحصر بسبب المرضِ العارض أو التوهَان عن الطريق أو نحو ذلك ؛ فقال بعض أهل العلم : إن الحصرَ أعمُّ من أن يكون بعدوٍّ أو مرض أو ضلال ، وأخرج الإمام أحمد حديثًا رواه الحجاجُ بن عمرو الأنصارى

قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « من كُسِر أو عَرَج فقد حلَّ ، وعليه حَجةٌ أخرى » .

وروى عن جماعة من الصحابة والتابعين رضى اللّه عنهم أنهم قالوا : الإحصارُ من عدوٍّ أو مرض أو كسرٍ .

وقال الثورى : الإحصارُ من كل شيء آذاه . لذا جاءت مشروعيةُ الاشتراط فى الحج .

الاشتراط فى الحج :

فقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة : أن رسول اللّه ﷺ دخل على ضُباعة بنتِ الزبير بن عبد المطلب ، فقالت : يا رسول اللّه إنى أريد الحجَّ وأنا شاكيةٌ ، فقال : حجِّى واشترطى : « أنَّ مَحِلِّى حيثُ حبَستنى » فذهب بعض أهلِ العلم إلى صحة الاشتراط فى الحج لهذا الحديث ، والمعنى : أن يقولَ المسلمُ عند إحرامه : إن موضعَ إحلالى - أى تحلُّلى من الأرض - حيث حبستنى . أى هو المكان الذى عجزتُ فيه عن الإتيان بالمناسك بسبب المرض ونحوه .

الأذى وفديته :

ومن يُؤذيه عدمُ الحلق وهو مُحرمٌ جاء حكمه فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ .

أى من كان مريضًا مرضًا ينفعه فيه الحلقُ ويضرُّه عدمُه ، أو برأسه ما يؤذيه من قمل ونحوه ، فعليه إن حَلق فديةٌ من هذه الأجناس على التخيير . وسببُ نزول هذه الآية كما رُوى عن كعب بن عُجرة أن رسول اللّه ﷺ رآه وقملُه يتساقط على وجهه فقال : أيُؤذيكَ هوامُّ رأسِك ؟ قال : نعم . فأمره رسولُ اللّه ﷺ أن يحلقَ وهو مُحرمٌ بالحديبية فأنزل اللّه الفدية ، فأمره رسول اللّه ﷺ أن

يُطعم فرقًا بين ستَّة مساكين ، أى يفرِّق ثلاثَة آصُع بين ستة مساكين ، أو يذبح شاة أو يصوم ثلاثة أيام .

والأئمةُ الأربعة رحمهم الله وعامةُ العلماء على أن المحرِمَ يُخيَّر فى هذا المقام : إن شاء صام ، وإن شاء تصدَّق على ستة مساكين لكل مسكين نصفُ صاع ، وإن شاء ذبح شاةً وتصدق بها على الفقراء ، أىُّ ذلك فعل أجزأ . والمحرم إمَّا أن يكونَ متمتعًا ، أو قارنًا ، أو مُفرِدًا بالحجِّ .

التمتُّعُ : وطريقةُ أدائِه :

قال تعالى : ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ . أى : إذا أردتم أداء المناسك : ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ ﴾ . أى من أحرم بالعمرة أولًا فى أشهر الحج ، فلما فرغ منها ، بأن أتمَّها وتحلَّل وبقى فى مكة والحرم مُتمتعًا بالمحظورات التى سببُها الإحرامُ إلى وقت الحجِّ فأحرم به : ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ أى فليذبح ما قَدَرعليه من الهدى وأقلُّه شاةٌ .

هذا هو التمتع : وهو أن يُحرِمَ المسلمُ بالعُمرة فى أشهر الحجِّ وأن يكونَ من أهل الآفاق ، وقدِم مكةَ ففرغ من أداء العمرةِ ثم أقام حلالًا بمكةَ إلى أن أنشأ الحجَّ منها فى نفس العام قبل رجوعه إلى بلده . فإذا فعل ذلك كان مُتمتعًا ، وعليه ما أوجب الله على المتمتع[1] .

القِرَانُ : معناه وطريقةُ أدائه :

أمَّا القارنُ : فهو الذى يُحرِمُ بالحج والعمرةِ معًا فيجمع بينهما فى إحرام

---

(١) وهذا النسك هو أفضل الأنساك حيث أمر به النبى ﷺ من لم يَسُق الهدْىَ من أصحابه ، عام حجَّته ، وأعلن أنه لو حج مرة أخرى لحج متمتعًا . وهناك نسكان آخران ، وهما القِران : وهو من باب التمتع أيضًا ، ثم الإفراد .

واحد – أى بنية واحدة – فيقول : « لبيك بحجةٍ وعُمرة معًا » . فإذا قدم مكة طاف لحجَّته وعُمرته طوافًا واحدًا سبعةَ أشواطٍ وهو طوافُ القدوم ، وهو سُنةٌ ، ثم سعى سعيًا واحدًا وهو سبعةُ أشواط أيضًا وهو فرضٌ ، فإن سعَى بعد طواف القدوم أجزأه ولا سعيَ عليه بعد ذلك ، وإن أخَّره حتى يطوفَ للإفاضة سعى بعد طوافِ الإفاضة بين الصفا والمروة ، ويبقَى على إحرامه إلى يوم النحر فيرمى جمرةَ العقبة ثم يَحلق أو يُقصِّر ويتحلَّل التحللَ الأولَ الذى يُبيح له الطِّيبَ وقصَّ الظفرِ ويُبيح للرجل لُبس المَخيط . ثم يطوف للإفاضة وبطوافه للإفاضة يُصبح التحللُ تحلُّلًا كاملًا ، ويُباح له غشيانُ زوجتِه بعده إن كانت معه وقد تحلَّلتْ هى الأخرى تحلُّلًا كاملًا .

الهدىُ :

وعلى المتمتع والقارن ذبحُ ما يقدر عليه من الهدى ، وأقله شاةٌ أو سُبْعُ بدَنةٍ أو سُبعُ بقرةٍ ممَّا يتحقَّق فيه شروط العُمرِ والسلامةِ ، فمن لم يجد هديًا فليصُم ثلاثةَ أيام فى أيام المناسك ، وسبعةَ أيامٍ إذا رجع من حجِّه : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ . أى كاملة فى الثواب لمن أهدَى . وقيل : كاملة فى البدل عن الهدى . وقيل : لفظ كاملة للتوكيد .

التمتع والقِران لغير أهل مكة :

﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ .

أى أنَّ التمتع والقرانَ مطلوبان من غير أهل مكة وما اتصل بها ، فهم حاضرو المسجد الحرام ، وبذلك قال جمعٌ من الصحابة وأهل العلم .

والشافعىُّ يرى أن الإشارةَ وهى لفظ « ذلك » فى الآية ترجع إلى الهدى والصيام ، ومعنى ذلك أن المتمتعَ والقارنَ من أهل مكة لا هدىَ عليه ولا صيامَ ، وأبو حنيفةَ وأصحابهُ يرونَ أن القارن والمتمتعَ من أهل الحَرم يجبُ عليه دمُ جنايةٍ

لا يأكلُ منه وكأنه فى رأيهم ارتكب محظورًا لأنه لا متعةَ عليه ولا قِرانَ ، ويرى الأحناف أيضًا أن حاضرى المسجد الحرام هم أهلُ الحَرم وكلٌّ من بينه وبين المواقيت ، وكان عطاء يقول : من كان أهلُه دونَ المواقيتِ فهو كأهل مكةَ لا يتمتع ، والشافعى وأصحابُه قالوا : هو مَن لا يَصحُّ منه قصرُ الصلاة من موضع إقامته إلى مكةَ ، أى أن حاضرى المسجد الحرام هم أهلُ الحرَم ومن كان منه على مسافة لا تُقصرُ معها الصلاةُ ؛ لأن من كان كذلك يعدُّ حاضرًا لا مسافرًا ، ومالكٌ وأصحابُه وبعضُ أهل العلم على أن المراد بهم أهلُ مكة وما اتصل بها خاصة ، هذه هى خلاصةُ أقوال مذاهب السلف فى التأويل لمعنى : ﴿ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ ﴾ .

وفى ختام الآية يأمر اللَّه عباده بالتقوى ، لأنها أساسُ كل خير وسببُ كل سعادةٍ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ بالمحافظة على امتثال هذه الأوامر والنواهى وغيرها من ضروب الهداية التى فيها سعادتكم : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [البقرة : ١٩٦] أى لمن خالف أمره وارتكب ما عنه نهى وزجر .

الإفراد : معناه وطريقة أدائه :

بقى أن نتبيَّنَ معنى الإفراد بالحجِّ : وهو أن يَنوِيَ المسلمُ الحجَّ مُفْرَدًا كأن يقول : « لبيك اللَّهم بحجة » أو « اللَّهم إنى نويتُ الحجّ » ولم يكن أدَّى عُمرةً فى أشهر الحجِّ فى عامه ذاك .

وعملُ المفردِ مثلُ القارِن : يطوف للقدوم وهو سنةٌ تحيةُ البيت ، ثم يَبقى على إحرامه حتى يوم النحرِ ، فيرمى جَمرةَ العقبةِ ، ثم يحلق أو يُقصرُ ويتحللُ التحلُّلَ الأول الذى يُبيح له ما كان محظورًا عليه بسبب الإحرام سوى مباشرةِ الزوجة ، ثم يطوف للإفاضة ، وهذا هو طوافُ الرُّكنِ ، وبعده يتحلل تحلُّلًا تامًّا إذ تُباح له زوجتُه ، فإن كان قد سعى للحج بعد طواف القدوم كفاه ذلك ، وإن لم

يكن سعى فعليه أن يسعى للحج بعد طواف الإفاضة ، ولا يجبُ على المفرِدِ تقديمُ الهدى ، فإن أهدى كان تطوعًا منه يؤجرُ عليه بإذن اللّه .

لباس الإحرام :

قام رجلٌ فقال يا رسول اللّه : ماذا تأمرنا أن نَلبَسَ من الثياب فى الإحرام ؟ فقال النبى ﷺ : « لا تَلبسوا القُمُصَ ، ولا السَّراويلات ، ولا العمائمَ ، ولا البرانس ، ولا الخِفاف ، إلا أن يكون أحدٌ ليست له نَعلانِ فَليلبسِ الخُفين وليقطعهُما أسفلَ من الكعبين ، ولا تَلبَسوا من الثياب شيئًا مسَّهُ الزَّعفرانُ أو الوَرْسُ ، ولا تنتقبُ المرأةُ المُحرمةُ ، ولا تلبس القُفَّازينِ » . وفيه نهىُ الرجل المُحرِمِ عن لبس المَخيط كالسراويل والثياب والمُحيط كالعمائم ونحوها .

[متفق عليه وراويه ابن عمر] .

وفى لفظ آخر : نهى النبىُّ ﷺ أن يَلبس المُحرمُ ثوبًا مصبوغًا بزعفران أو وَرْسٍ ، وقال : من لم يجد نعلين ، فليلبس خُفَّين ، وليقطعهما أسفلَ من الكعبين .

وعند الشيخين عن ابن عباس قال : سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يخطب بعرفات : « من لم يجد إزارًا فليلبس سراويل ، ومن لم يجد نعلين فليلبس خُفَّين » . والخُفُّ يكون إلى ما فوق الكعبين .

وعلى هذا فالأمر بقطع الخفين أسفل من الكعبين عند عدم وجود النعلين كما جاء فى رواية ابن عمر قد نُسخَ بحديث ابن عباس ، حيث لم يأمر الرسولُ ﷺ أصحابه بالقطع فى خطبته الجامعة بعرفات .

والظاهر كما قال ابن تيمية فى المنتقى أن حديث ابن عمر كان بالمدينة وحديث ابن عباس بعد ذلك فى عرفات فى وقتِ الحاجة .

* * *

(ب) يوم عرفة

عن عُروة بن مُضرِّس الطائىّ رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من شهد صلاتنا هذه - يعنى صلاة الفجر بالمزدلفة - فوقف معنا حتى ندفَع ، وقد وقف بعرفةَ قبل ذلك ليلًا أو نهارًا ، فقد تم حجُه ، وقَضى تَفَثَهُ ... » .

[أخرجه أحمد والأربعة والبيهقى ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح]

وروى أن النبىّ أمر مناديًا ينادى : « الحجُّ عرفة ، من جاء ليلةَ جَمْعٍ - أى ليلة المَبيت بالمزدلفة - قبل طلوعِ الفجر فقد أدرك » .

[رواه الخمسة وصححه الترمذى وابن خزيمة]

حكم الوقوف بعرفة :

الوقوف بعرفة ركنٌ لا يتم الحجُّ إلا به ومن فاتَه الوقوف بعرفة فى وقته فقد فاتَه الحجُّ .

وقته :

فمن أدرك الوقوفَ بعرفَة من الحُجاج من زوال شمس اليوم التاسع من ذى الحجة - فى أى لحظة منه - إلى ما قبل طلوع فجرِ يوم النحر ، فقد صحَّ حجُه .

ويرى بعضُ العلماء أن وقتَ الوقوفِ بعرفة يبدأ من طلوع الفجر يوم عرفة - يوم التاسع - إلى ما قبل طلوع الفجر من يوم النحر - ودليلُهم حديثُ عُروة بن مُضرِّس السابق - فالرسول ﷺ يقول فيه : « وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلًا أو نهارًا فقد تم حجُه » ولم يحدد عليه السلام فترة مُعينة من النهار وهو مذهب الإمام أحمد .

من فاته الوقوف :

ومن فاته الوقوفُ بعرفة حتى طَلَع فجرُ يومِ النحرِ فقد فاته الحجُّ . ويجب على من يصل إلى عرفةَ نهارَ اليوم التاسع أن يَمُدَّ الوقوفَ إلى ما بعد غروبِ الشمس ، اتِّباعًا لسنة النبيِّ الهادى ﷺ ، فقد جاء فى حديث جابر رضى اللّٰه عنه : « أن النبى ﷺ ، لـم يَزل واقفًا - أى بعرفة - حتى غربت الشمسُ وذهبت الصفرةُ قليلًا ، حتى غاب القُرص » . [أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه]

فضل يوم عرفة :

يومُ عرفةَ فضلُه عظيـم ، والثوابُ فيه جسيـم ، يُكفِّر اللّٰه فيه الذنوب ويتجاوز عن سيئات عباده الـمؤمنين الذين وفدوا على الأماكن الـمقدَّسة مُنيبين إلى ربهم ، راجين رحمتَه ، وطالبين عفوه ، نادمين على ما كان منهم من تقصيرٍ فى طاعته ، معاهدين ربَّهم على توبة نصوح .

ولنتدبر ما جاء من حديث جابر رضى اللّٰه عنه .. يقول رسول اللّٰه ﷺ : « وما من يوم أفضلَ عند اللّٰه من يوم عرفة ، ينزل اللّٰه تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا ، فيُباهى بأهل الأرض أهلَ السماء ، فيقول -سبحانه وتعالى - : انظروا إلى عبادى ، جاءونى شُعثًا غُبرًا ضَاحين ، جاءوا من كل فجٍّ عميق يرجون رحمتى ، ولـم يروا عذابى ، فلـم يُرَ يومٌ أكثر عَتيقًا من النار من يوم عرفة » .

[أخرجه ابن خزيمة]

وما أَغْيَظَ الشيطانَ فى هذا اليوم الـمبارك ! ما أَغْيظَه حين يَرى رحمةَ اللّٰه تنزل على عباده فى الـموقف العظيـم ! فيتجاوز بفضله وإحسانه عن سيئاتهم .

قال الحبيب الهادى ﷺ : « ما رُئِىَ الشيطانُ يومًا هو فيه أصغرُ ، ولا أحقرُ ،

ولا أدحرُ ، ولا أغيظُ منه فى يوم عرفة ، وما ذاك إلا لِمَا رأى من تنزُّلِ الرحمةِ وتجاوزِ اللَّه عن الذنوب العِظام .. إلا ما رأى يومَ بدر .. » قيل : وما رأى يومَ بدر يا رسولَ اللَّه ؟ قال : « أما إنه قد رأى جبريلَ يَزَعُ الملائكة .. » [أخرجه مالك فى الموطأ مرسلًا ، ووصله الحاكم فى المستدرك عن أبى الدرداء] - أى رأى جبريلَ يُرتِّب الملائكة ويُسوِّيهم ويَصُفُّهم للحرب فكأنه يكفُّهم عن التفرُّق والانتشار - .

إنه الموقف العظيم ، تتجه فيه القلوبُ المؤمنة إلى خالقها ورازقها راجية وخائفة ، إنه اليومُ المشهود تجتمع له الملائكةُ الكرام يرقبون حجاجَ بيت اللَّه ، وهم يُلبُّون نداءَ ربِّهم ، ويستغفرونه وتلهجُ ألسنتهم بذكره وشكره محتملين ما يَلْقَوْنه من مشاقٍّ تجعلهم شُعثَ الرؤوسِ ، غُبرَ الثيابِ مُعرَّضِين لحرارةِ الشمس فى ذاك الفضاءِ العظيم .

واللَّه عز وجل يباهى الملائكة بأهل عرفة ويُوجِّه أنظارهم إليهم ، ثم يُشهدهم أنه قد غفر للحجاج ذُنوبهم ؛ ذلك أنهم جاءوا من كل ناحيةٍ من نواحى المعمورة قرُبت أو بعدت ، مُفارقين أوطانَهم بدافعٍ من محبة اللَّه تعالى ، وانقيادًا لأمره سبحانه وتعالى .

قال رسول اللَّه ﷺ : « إذا كان يومُ عرفةَ فإن اللَّه تبارك وتعالى يُباهى بهم الملائكة ، فيقول : « انظروا إلى عبادى أَتَونى شُعثًا غُبرًا ، ضاحين ، من كلِّ فجٍّ عميق ، أُشهدكم أنى قد غفرتُ لهم ... » . [من رواية جابر عند ابن خزيمة]

فما أعظمَ فضلَ اللَّه ! وما أرحمه بعباده !

صوم يوم عرفة :

عن أبى قتادة الأنصارى رضى اللَّه عنه ، أن رسول اللَّه ﷺ ، سئل عن صوم يوم عرفة ، فقال : « يُكفِّرُ السنةَ الماضية ، والباقية .. » . [أخرجه مسلم]

وفى هذا الحديث الشريف ترغيبٌ فى صوم يوم عرفة .

أما مَن كان بعرفة من الحجاج فالفِطرُ فى حقِّه أولى ليتقوَّى على الذكر والدعاء ، وكان عطاء يقول : « من أفطر يومَ عرفة - أى من الحجاج - ليتقوَّى على الذكر والدعاء فإن له مثلَ أجر الصائم ... » .

وأهلُ العلمِ استحبوا صومَ يوم عرفة إلا بعرفة لمن كان مُحْرِمًا .

وقد روى عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما أن النبى ﷺ ، أفطر بعرفة وأرسلت إليه أمُّ الفضل بلبن فشرب . وابن عمر رضى اللَّه عنهما قال : حججتُ مع النبى ﷺ فلم يَصمه - يعنى يومَ عرفة - ومع أبى بكر فلم يصمه ومع عمر فلم يصُمه . وكان ابن عمر يقول : « وأنا لا أصومُه ، ولا آمرُ به ولا أنهى عنه » . وعلى هذا أكثر أهل العلم ، فإنهم يستحبون الإفطار بعرفة لأن ذلك أشدُّ عونًا على الاجتهاد فى الدعاء وذكر اللَّه .

الحاجُ فى عرفة :

يوم عرفةَ تُرجى فيه إجابةُ الدعاء ، يومُ عرفة يومٌ تسيل فيه العبراتُ ندمًا على ما مضى من التفريط فى جنب اللَّه .

فى يوم عرفة يستحضر المؤمنُ ذنوبه ، ويتجه إلى الرحمن الرحيم بقلبه يرجوه العفو ، ويسأله قبول التوبة ، وتكفيرَ السيئات يدعو لنفسه ولأولاده ولأهله ولماله .

فى يوم عرفةَ يُستحب للحاج أن يكون على طهارة ، وأن يستقبل القبلةَ وأن يجتهدَ فى ذِكر اللَّه سبحانه ، ودعائه ، والتضرع إليه ، والثناءِ عليه .

ويُستحب أن يدعو بالمأثور من الأدعية مثل ما رُوى عن النبى ﷺ أنه قال : « خيرُ الدعاء دعاءُ يومِ عرفة ، وأفضلُ ما قلتُ أنا والنبيون من قبلى لا إله

إلا اللّٰه ، وحده لا شريك له ، له الملكُ وله الحمدُ ، يُحيى ويميت وهو على كل شىء قدير » [أخرجه الترمذى] ونحو ذلك من الأدعية والأذكار المأثورة .

على ألا ينسى الحاجُ الدعاءَ لوالديه ولإخوانه المسلمين ، وأن يكثر من الصلاة على الحبيب المصطفى ﷺ .

فطوبى لمن وقف بعرفة ، خاشعًا ، متذللًا باكيًا على ذنبه ، نادمًا على خطيئته ، مُلحًّا فى الدعاء ؛ لأن اللّٰه يُحب المُلحِّين فى الدعاء - كما أخبرنا الهادى الحبيب ﷺ - باكيًا أو مُتباكيًا مخلصًا النية والقصدَ .

إن يوم عرفةَ يومٌ مشهود ، فينبغى للمؤمن أن يُقبل على اللّٰه بكل قلبه منيبًا إليه ، مُنكسرًا بين يديه ، خاضعًا ، خائفًا ، راجيًا أن يكون ممَّن قَبل اللّٰه عملهم ، وأثابهم ، وردَّهم من الموقف مأجورين غيرَ مأزورين .

نسأل اللّٰه أن يشملنا بعفوه ورحمته ، وأن ينصرَ الإسلام وأهلَه إنه سميع مجيب .

* * *

(١٢) تكريم خاتم المرسلين ﷺ
وعبرٌ من الإسراء

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر : ١ ، ٢] .

هذا نداءٌ ربانيٌّ للنبى محمدٍ ﷺ فى مبدأ الدعوة : أن يا أيها المتدثرُ بالنبوة وبالكمالات النفسية ، وقد تدثَّرتَ ، وتَلَفَّفْتَ بالثياب لِرَوعِ أصابك ، قُم قيامَ عزم وجِدٍّ لتبلغَ الرسالة ، وتدعُوَ إلى التوحيد ، وتُنذرَ المعاندين والجاحدين بوبيل العقاب .

قم - أيها المتدثِّر - ادعُ إلى عبادة الله وطاعتِه ، وخُصَّه سبحانه بالتكبير فهو سبحانه الموصوفُ بالكبرياء وحده ، ومن نازعَهُ فى كبريائه قصَمه : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أى : صِف ربك بالكبرياء عقدًا وعملًا .

ثم أشار سياقُ السورة إلى أن سبيلَ المؤمن لكى يكونَ أهلًا للعبودية لله أن يكونَ طاهرَ الباطن والظاهر ، مع هَجر كلِّ مُعتقدٍ أو عمل يَجلب غضبَ الرب ، ويناقضُ التوحيد ، ويُؤدِّى بصاحبه إلى العذاب ، وقد خُوطب بذلك النبىُّ ﷺ لأنه القدوةُ والأسوةُ الحسنة : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ . ثم حثه على الاستزادة من فعل الخيرِ مع الإخلاص والشعور بالتقصير ، كما أمره بالصبر على مشاقِّ التكاليف وأذى المشركين وتعنُّت المكابرين ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ . [المدثر : ٣ - ٧] .

جاء فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ وهو يُحدِّث عن فترة الوحى ، فقال فى حديثه : « فبينا أنا أمشى سمعتُ صوتًا من السماء ، فرفعتُ رأسى فإذا الملكُ الذى جاء فى حِراءَ جالسٌ

على كرسيٍّ بين السماء والأرض ، فجئثتُ منه رُعبًا ، فرجعتُ فقلتُ : زمّلونى ، فدثّرونى » فأنزل اللّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ .

وفى مخاطبته ﷺ بالمدثر فى هذا المقام ملاطفةٌ وتأنيسٌ ، فقد شعر ﷺ أن ربَّه راضٍ عنه ، وهذا غايةُ مُناه ، إذ كان مطلوبُه الذى يرجوه دومًا هو رضا ربّه ، لذا رأيناه ﷺ عندما لَقِى فيما بعدُ من أهل الطائف ما لَقِى من شدة البلاء والكربِ يهتف قائلًا فى دعائه : « ربِّ إن لم يكن بك غضبٌ علىَّ فلا أُبالى » .

[الحديث] .

لقد بعث اللّه نبيَّه محمدًا ﷺ هاديًا ورحمة للعالمين وأرسله للناس كافة بشيرًا ونذيرًا ، ليُخرجهم من ظلمات الحيرة والضلالِ إلى نور الإيمان والعلم .

وجعل رسالته خاتمةَ الرسالاتِ السماوية متضمنةً خيرى الدنيا والآخرة ينعمُ الإنسانُ فى ظلالها الرحيمة بالأمن والاستقرار ، فهى رسالةُ رحمةٍ ومحبةٍ ، ورفقٍ وتواضُع ، وإخاء وبرٍّ ، تدعو إلى العِلم واحترام العقل ، وتبنى قواعدَ الحياةِ على العدل والإحسان .

الدعوةُ رحمة بالعباد :

لقد كان الناسُ عند بزوغ فجرِ الإسلام فى جاهلية جهلاء ، وضلالةٍ عمياء وفى هذا الجوِّ العامِّ المليء بالأحقاد والعصبيات والفتن واتخاذ الشفعاءِ والأندادِ والشركاءِ لله عز وجل ، مضى رسول اللّه ﷺ على بصيرة وهداية مستعينًا بربه وحده يدعو إلى الخير والرحمةِ وإلى توحيد اللّه عز وجل بالدليل والبرهان .

وكان ﷺ يذكرُ ما أنعم اللّه به عليه من النبوة سرًّا إلى من يطمئنُّ إليه من أهله وممَّن يتوسَّمُ فيهم الخير ، فَحَظِىَ ببركةِ الدعوةِ بعد أمِّ المؤمنين خديجةَ علىُّ بنُ أبى طالب ، ومولاه زيدُ بنُ حارثة ، ثم أقبل أبو بكر رضى اللّه عنه بكل

قلبه على الإسلام ، وسعى أبو بكر إلى من يثق فيهم يَعرض عليهم الخيرَ والنورَ ، فأجابه نفرٌ من خلاصة قريش منهم : عثمانُ بن عفان ، وسعدُ بن أبى وقاص وعبدُ الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وطلحةُ بن عبيد اللّه ، أكرمهُم اللّه بالسبق إلى قبول الهدى ونور الحق .

وقد ظلت الدعوةُ سرًا نحو ثلاث سنواتٍ ودخل الناسُ فى الإسلام أرسالًا ، وفشا الإسلامُ فى مكة ، وأخذ الناسُ يتحدثون عنه .

الجهرُ بالدعوة :

ثم أمر اللّه رسولَه ﷺ أن ينذرَ عشيرتَه الأقربين ، وأن يجهرَ بالدعوة معتمدًا على ربِّ العالمين ، فهو ناصرُه وعاصمُه من الناس ومن مكايدهم بفضله ، قال تعالى من سُورة الشعراء : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ . [الشعراء : ٢١٤] .

وقال سبحانه من سورة الحجر : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤ ، ٩٥] .

أى : بلِّغ ما أُمِرتَ به ، وافرُق بين الحقِّ والباطل ، واللّهُ معك يؤيدك بنصره ويحفظك من مكايدهم .

ومضى رسولُ اللّه ﷺ يدعو إلى اللّه ويُظهر دينَه ليلًا ونهارًا ، سرًا وجهرًا .

ولقى من المُتعنِّتين وعتاةِ المشركين صُدودًا وصدًّا ، وجبروتًا وكيدًا وإصرارًا على الباطل ، وإعراضًا عن الحق الذى سطع برهانُه ، وقام دليلُه يخاطبُ العقلَ ، ويُرشده ، ويُنيرُ له الطريق .

سعى المكابرون إلى صدِّ الناس عن الدعوة بكلِّ سبيل ، وآذَوْا رسولَ اللّه ﷺ بكل ما استطاعوا ، وآذوا أصحابه واضطروهم إلى ترك الديار والدور إلى حيث المأمنُ عند ملكِ الحبشة الذى سرَّه ظهورُ النبىِّ المُنتظَر وبادرَ إلى

الإيمان به ﷺ .

وكان الوحىُ ينزل على رسول اللّه ﷺ يأمره بالصبر والعفو والإعراض عن الحمقى كما فى قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ .

[الأحقاف : ٣٥] .

وذاع أمرُ الإسلام فى القبائل ، وفشا فى قريش وغيرها بفضل اللّه وعونه وبالغ المعاندون المتكبرون فى الإيذاء والسخرية ، واللّه عز وجل يثبت فؤاده ويضرب له الأمثال بمثل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنبياء : ٤١] .

الإسراء :

وفى العام الثانىَ عشرَ من البعثة أى قبل الهجرةِ بنحو عامٍ واحد أكرم اللّه عبده محمدًا ﷺ وشرّفه بالإسراء ليُريَهُ من الآيات البينات ، والبراهين الساطعاتِ على قدرة خالقه ، وكمال سلطانِه وعظمته ما يزيده إيمانًا ويقينًا وتسلية عمّا يُلاقيه ، ويزيده صبرًا .

قال تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

[الإسراء : ١] .

لقد كان الإسراء معجزة وآيةً دالةً على كمال القدرة ، وكمال الحكمة وقد بدأت الآية الكريمة بالتنزيه لتأكيد ذلك : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ أى هو سبحانه المتصفُ بكل صفات الكمال ، المنزَّه عن كل نقص ، فعّالٌ لما يريد ، وقد أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام بمكةَ المكرمةِ إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، الذى التقت فيه بركاتُ الدين والدنيا ، لأنه مهبطُ

الوحى ، ومُتعبَّدُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومحفوفٌ بالخيرات والأشجار والثمار .

عبر وعظات :

لقد كان فى مَسراه ﷺ عبرٌ وعظات ، وبلاءٌ وتـمحيص ، وهُدًى ورحمة وثباتٌ لـمن آمن وصدَّق ، وأسرى اللّه بعبده كيف شاء ليُريه من آياته ما أراد حتى عاين ﷺ ما عاين من أمر اللّه، وسلطانِه العظيم، وقدرته التى يصنعُ بها ما يريد .

تكريم وبُشرى :

لقد أكرم اللّه نبيّه وخاتم رسلِه بهذه الرحلة الـمباركَة ، وبصلاته إمامًا للـمرسلين : إبراهيـم الخليل ، وموسى ، وعيسى فى نفر من الأنبياء قد جُمعوا له ، صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليهم أجمعين ، فصلَّى بهم كما قال ابنُ مسعود وغيره ، ثم أُتى بثلاثة آنية : إناءٍ فيه لبنٌ ، وإناءٍ فيه خمرٌ ، وإناءٍ فيه ماء .

قال ابن مسعود : فقال رسول اللّه ﷺ : فسمعتُ قائلًا يقول حين عُرضت علىَّ : إنْ أخذَ الـماءَ غرقَ وغرِقتْ أمتُه ، وإن أخذ الخمرَ غَوى وغوتْ أمتُه ، وإن أخذ اللبنَ هُدى وهُديت أمتُه .

قال : فأخذتُ اللبنَ ، فشربتُ منه ، فقال لى جبريلُ عليه السلام : هُديتَ وهُدِيتْ أمتُك يا محمد .

الصِّدِّيق :

ولـمَّا تكلـم الـمكابرون من قريش قائلين : أيذهب محمدٌ إلى بيت الـمقدس فى ليلةٍ واحدة ويرجع إلى مكة ؟ فارتدَّ ضِعافُ الإيـمان ، وثبت أصحابُ اليقين والإخلاص ، وذهب الناسُ إلى أبى بكر ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ، يزعم أنه قد جاء هذه الليلةَ بيتَ الـمقدس ، وصلى فيه ورجع إلى

مكة ؟

فقال لهم أبو بكر : إنكم تَكْذِبون عليه ، فقالوا : تعالَ ها هو ذاك فى المسجد يُحدِّث به الناسَ ، فقال أبو بكر : واللّهِ لئن قاله لقد صدق ، فما يُعجِّبكم من ذلك ؟ فو اللّهِ إنه ليُخبرنى أن الخبر لَيأتيه من اللّه من السماء إلى الأرض فى ساعةٍ من ليل أو نهارٍ فأصدِّقه ، فهذا أبعدُ ممَّا تعجَّبون منه .

ولما وصف له رسولُ اللّه ﷺ بيتَ المقدس قال : صدقتَ أشهدُ أنك رسولُ اللّه ، فقال رسول اللّه ﷺ : وأنت يا أبا بكر الصدِّيقُ ، فيومئذ سمَّاه الصديق رضى اللّه عنه .

عن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ليلةَ أُسْرِى بى أتانى جبريلُ بالبُراق مُسرجًا مُلجمًا ، فذهبتُ لأركبَه ، فاستصعَب علىَّ ، فقال جبريل : أبمحمدٍ تفعل هذا ؟ واللّهِ ما رَكبكَ نبىٌّ أكرمُ منه على اللّه تعالى ، فارفضَّ البُراقُ عرقًا » .

وارفضَّ عرقًا : جرى عرَقُه وسال . [أخرجه أحمد] .

فرض الصلاة ليلة المعراج :

وفى هذه الليلةِ المباركةِ عُرجَ به إلى السماء .

وفى حديث المعراج الذى رواه ابن مسعود جاء : أن اللّه عز وجل فرض عليه خمسين صلاةً فى كل يوم وليلة . ولمَّا مرَّ بموسى بنِ عمران عليه السلام قال له : « إن الصلاةَ ثقيلةٌ وإن أمتَك ضعيفة ، فارجع إلى ربك فاسأله أن يُخففَ عنك وعن أمتك » .

قال ﷺ : « فرجعتُ فسألتُ ربى أن يخففَ عنى وعن أمتى » .

وما زال رسولُ اللّه ﷺ يسأل ربَّه التخفيف حتى صارت خمسَ صلواتٍ فى كل يوم وليلة : « من أداهُنَّ منكم إيمانًا بهن ، واحتسابًا لهنَّ كان له أجرُ

خمسين صلاةً مكتوبة » . [ذكره ابن هشام فى سيرته]

وهذا يؤكد لنا فضلَ الصلاة وعظمَ شأنها وأنها أفضلُ الأعمال ، من حافَظ عليها كان من السعداء بفضل الله ورحمته .

* * *

فائدة : عبرٌ لآكلى أموال الناس ظلمًا :

* وقد مُثِّل له ﷺ فى هذه الليلة المباركة ما يلقاه آكلُ مالِ اليتيم من الذلِّ والشقاء يقول : « ثم رأيتُ رجالًا لهم مشافرُ كمشافر الإبلِ فى أيديهم قطعٌ من النار كالأفهار يقذفونها فى أفواههم فتخرج من أدبارهم فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلةُ أموالِ اليتامى ظلمًا » .

الأفهار : جمع فِهر ، وهو الحجر .

* أما أكلةُ الربا فيقول عنهم : « ثم رأيتُ رجالًا لهم بطونٌ لم أرَ مِثلَها قط بسبيل آل فرعون ، يمرُّون عليهم كالإبل المهيومة (العطاش) حين يُعرضون على النار يطئونهم لا يقدرون على أن يتحوَّلوا من مكانهم ذلك ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلةُ الربا » .

[جاء مثله من حديث أبى سعيد عند البيهقى فى دلائل النبوة] .

* وفيه : « ثم مضيتُ هُنيَّةً فإذا أنا بأقوامٍ يُقطع من جُنُوبهم اللحمُ فيُلقَمونه ، فيقال له : كُل كما كنتَ تأكل من لحم أخيك ، قلتُ : يا جبريلُ من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء هم الهمّازون من أمتك اللمّازون » . أى أهل الغِيبة والطّعن على الناس .

فطوبى لأهل الإيمانِ واليقين ، وطوبى لمن وُعظ فاتعظ .

* وبشارة :

* جاء فى الكتب القديمة : أن أشعياءَ النبى بشَّر بعيسى وبالنبى محمدٍ عليهم الصلاة والسلام إذْ قال لإيلياء - أى بيت المقدس - :

« أبْشرِى أُورشَليم يأتيكِ الآن راكبُ الحمار - يعنى عيسى عليه السلام - ويأتيك بعده راكبُ البعير - يعنى محمدًا ﷺ - وفيه إشارة إلى الإسراء ، من المسجد الحرام بمكةَ المكرمةِ إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس .

* فى الصحيحين وعند أحمد والبيهقى : قال جابر : سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول : « لـمَّا كذَّبتنى قريش حين أُسرى بى إلى بيت المقدس ، قمتُ فى الحِجر ، فجلَّى اللّه لى بيتَ المقدس ، فطَفِقتُ أُخبرهم عن آياته وأنا أنظرُ إليه » .

صلى اللّه عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم .

* * *

(١٣) أمّةُ التراحمِ والتعاطف

دعانا الإسلامُ إلى بناء أمة متماسكة ، متساندة ، متعاضِدة ، متعاونةٍ على البرّ والخير ، متساعدةٍ على جلب النفع ، وعلى دفع الضر والشرّ .

وفى ظلال هذه الحياةِ يتراحم الناس ، ويتعاطفون ، ويُربَّى الفردُ تربيةً سليمة بحيث ينشأ على محبة الآخرين ، وعلى تقديم العون لهم عند الشدة ومواساتهم عند العُسرة ، والتواضع لهم ، وكفّ شرّه وأذاه عن الناس .

ولنتدبر ما جاء فى الصحيحين بروايةِ ابن عمر رضى اللّه عنهما أن رسول اللّه ﷺ قال مربيًا وموجِّهًا أمته إلى مناهج السعادة والسلامة وتبادُل الثقة : « المسلمُ أخو المسلم ، لا يَظْلمه ، ولا يُسْلِمُه ، مَن كان فى حاجة أخيه كان اللّه فى حاجته » .

وفيه تأكيدٌ للأُخوَّة بين المسلمين ، التى بينها القرآن وحرّضَ عليها وأمر بالعمل بمقتضياتها فى مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ .

[الحجرات : ١٠] .

وقوله : ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾

[الأنبياء : ٩٢] .

وفى هذه الأمة المتراحمة لا يتطاول أحدٌ على أحد ، ولا يبغى أحدٌ على أحد ، ولا يُخْذَلُ مسلمٌ لضعفه أو قِلَّة حيلته ، ولا يُسْلَم للضياع لقلة معرفته أو لعدم علمه بالأمور ، ولا يُترك الفردُ نُهبةً للغشاشين والمُدلِّسين ، أو قرناء السوء بل يُبَصَّر ويُعان على الخير ، ويوعظ بالحسنى والرفق ، حتى يصل إلى برّ الأمان ،

ويستقيم على قيم الإسلام .

وفى ظلال هذا التراحم والتعاطف يقدم المسلمُ العونَ إلى أخيه عند حاجته ، كأن يسعى فيما فيه صلاحُ أحواله ، أو إظهارُ حقٍّ له عند غيره ، أو فى رفع الغبن عنه إذا وجده مظلومًا .

ومن هذا الباب إزالةُ ما قد يكون على قلبه من الهمّ والكربِ بالكلمة الطيبة ، وبالمواساة عند الشدة ، أو بالعمل لإزالة أسبابِ هَمّه وشدَّته ، حتى يُدخل السرورَ على نفسه وعلى أهل بيته ، وهذا العملُ جزاؤه عظيم وأجره كبير ففى الحديث : « ومن فرَّج عن مسلم كُربةً فرَّج اللَّه عنه بها كُربةً من كُرب يوم القيامة » . وما أعظَمه من جزاء .

وفى رواية أبى هريرة رضى اللَّه عنه عند مسلم وبعض أصحاب السنن : « ومَن يَسَّر على مُعسِر فى الدنيا يَسَّر اللَّه عليه فى الدنيا والآخرة » أى يلقى جزاء عمله الطيب فى الدنيا ، مع ما يُدَّخر له من الثواب فى الآخرة .

والتيسيرُ على المعسر فيه تفريجٌ لهمومه بأن يرفُق به فى المُداينة عند عدم قدرته على الوفاء فى حينه ، كأن يُمهله ، أو يحطَّ عنه ويتجاوز ، أو يسعى فى قضاء ديونه ، إن كانت لغيره ، تيسيرًا على جاره أو قريبه ، أو صديقه أو غيرهم من أهل الإسلام ، وقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه أن النبى ﷺ قال : « كان تاجرٌ يُداين الناس فإذا رأى معسرًا قال لصبيانه : تجاوزوا عنه لعل اللَّه أن يتجاوز عنا ، فتجاوز اللَّهُ عنه » .

وإن اللَّه عز وجل يُعين عبدَه الذى يسعى فى حوائج الناس ويُخفف عنهم ما يشعرون به من الشدة أو الأزمة ؛ وفى الحديث الذى رواه زيدُ بن ثابت وأخرجه الطبراني ورواته ثقات : « لا يزالُ اللَّه فى حاجة العبدِ ما دام فى حاجة أخيه » .

إن العمل الصالحَ ، والسعى فى الخير ، مما يقرِّب العبدَ المؤمنَ إلى ربه فأحبُّ الناس إلى اللّٰه أنفعُهم للناس ، وأحبُّ الأعمال إلى اللّٰه عز وجل أن تكون سببًا فى إدخال السرور على قلب امرئ مسلم .

ومن أعظم الأعمال وأنفعها فى الدنيا والآخرة تقديمُ الطعام أو الكساء لمن يحتاج إليه ، وإعانةُ صاحبِ العيال إن لم يكن يملك ما يكفيهم حسب ظروف المكان والزمان والرُّخص والغلاء ، ومن ستر امرءًا مسلمًا ستره اللّٰه يوم القيامة .

وينبغى للمؤمن أن يكون أداةَ خير وسلام ، وداعيةَ أمن وأمان ، يأمن الناسُ شرورَه ودواهيهُ ، ويسعى فى طرد الفزع والخوفِ عنهم ما استطاع ، وفى رواية ابن عمر عند أبى الشيخ جاء : « أحبُّ الأعمال إلى اللّٰه عز وجل سرورٌ تدخِله على مسلم ، أو تكشف عنه كُربة ، أو تطرد عنه جَزَعًا ، أو تقضى عنه دينًا » .

وفى رواية ابن عباس عند الطبرانى : « إن أحبَّ الأعمال إلى اللّٰه تعالى بعد الفرائض إدخالُ السرور على المسلم » .

وإن إدخال السرور على قلب الإنسان له مداخلُ كثيرة ، وأسبابٌ متعددة ولكل مقام مقال ، ولكل حالٍ ما يُناسبه من أعمال البر ، وإسداءِ المعروف وإن أبوابَ الرحمة كثيرة ، والراحمون يرحمهم الرحمن ، وإن عمل الخير القليل مع الإخلاص والصدق يكون فى ميزان الحسنات كثيرًا : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] .

ومن أدخل سرورًا وبهجةً على أهل بيت من المسلمين لم يرض اللّٰه له ثوابًا دون جنة النعيم - كما روت عائشة رضى اللّٰه عنها عند الطبرانى -

وإننا لفى أشد الحاجة إلى مرضاة الرب ، وإلى ما يجعلنا أهلًا لرحمته وإن ميدان التنافس فى المبرات عظيم ، وإن كلَّ إنسان يستطيع أن يشارك فيه بقدر

الجهد والطاقة لا يكلف اللّه نفسًا إلا وسعها .

وانظر إلى البُشرى فى الحديث الشريف الذى رواه أبو سعيد الخدرى وأخرجه الترمذى للموفّقين للخير يقول ﷺ : « أيُّما مؤمنٍ أطعم مؤمنًا على جوع أطعمه اللّه يوم القيامة من ثمار الجنة ، وأيُّما مؤمن سَقى مؤمنًا على ظمأ سقاه اللّه يومَ القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمنٍ كسا مؤمنًا على عُرى كساه اللّه من خُضرِ الجنة » . [قال ابن رجب : الصحيح رفعه ، وإن شك فى رفعه أحمد] .

ومن أقوال الحكماء يقول يحيى بنُ معاذ الرازى ناصحًا : « ليكُنْ حظُّ المؤمن منك ثلاثة : إن لم تنفعه فلا تضرّه ، وإن لم تُفرحه فلا تغُمّه ، وإن لم تمدحه فلا تذمّه » . وكما أنَّ نفعَ المسلم وإرادةَ الخير له من أعظم الأعمال فإن الإضرار بالناس لمن أعظم الذنوب والآثام ، وفى الأثر : « ملعون من ضارَّ مسلمًا أو أضرَّ به » . وإن الشرك باللّه والضرَّ لعباد اللّه خصلتان ليس فوقهما شىءٌ من الشرّ .

أما الإيمانُ باللّه والنفعُ لعبادِ اللّه فإنهما لمن خصال أولياء اللّه وأحبائه أهل السعادة فى الدارين بفضل اللّه وإحسانه .

فطوبى لعبد جعله اللّه مغلاقًا للشرّ مفتاحًا للخير .

* * *

والحمد لله رب العالمين والصلاةُ والسلام على حبيب ربِّ العالمين خاتم النبيين والمرسلين وعلى سائر النبيين والمرسلين ومن تبعهم بإخلاص ومحبة وعمل بدين اللّه ، ونحمدُه سبحانه على نِعمه وإنعامه ونفع بفضله بهذه الرسائل الستّ التى تَمّ جمعها فى هذا الكتاب .

الطبعة الرابعة للكتاب : ١٤٢٧ هـ
٢٠٠٦ م

أحمد بن محمد طاحون

كشاف الكتاب

البيان	رقم الصفحة
أولًا : رسالة : « الرائدات الصالحات »	٣
تمهيد : أفضل نساء أهل الجنة	٥
(١) مريم البتول رضى الله عنها :	٧
– قصة مريم والدعوة المباركة	٨
– مريم فى المسجد	١٠
– قدوة للمرأة فى الشكر	١١
– ومن المعجزات	١١
– شرّفها الله وجعلها مثلًا	١٤
(٢) آسية بنت مزاحم رضى الله عنها	١٦
(٣) خديجة بنت خويلد رضى الله عنها	٢٢
(٤) فاطمة الزهراء رضى الله عنها	٣٠
(٥) زينب كبرى بنات رسول الله ﷺ وقصة عودتها إلى زوجها بعد أن أسلم	٣٥
(٦) تذكرة للمسلمين والمسلمات (فى بيان تحريم زواج المسلمة بغير المسلم)	٤٢
ملحق : « فتاوى صادرة من مجمع الفقه الإسلامى المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامى »	٤٧

* * *

البيان	رقم الصفحة
ثانيًا : رسالة « وصايا نبوية غالية »	٥١
تمهيد :	٥٣
الوحدانية والطاعة أساس كلّ خير وسببُ كل فوز :	
هو الله ربُّ كُلِّ شىء ومليكه	٥٣
١ – الدين النصيحة واختلافها باختلاف المقامات :	٥٧
– من جوامع كلمه ﷺ	٥٧
– « تعريف بالراوى « تميم الدارى »	٥٧

- النصيحة معناها والمقصود منها ٦٠
- النصيحة ومقاماتها فى الحديث : ٦١
• المقام الأول « النصيحة لله عز وجل » ٦١
• المقام الثانى « النصيحة لكتاب الله تعالى » ٦٢
• المقام الثالث « النصيحة لرسول الله ﷺ » ٦٢
• المقام الرابع « النصيحة لأئمة المسلمين » : ٦٣
- توجيه بكيفية النصيحة ٦٤
- نُصح ولاة الأمور لرعاياهم ٦٤
• المقام الخامس « النصيحة لعامة المسلمين » ٦٦
- المشورة ٦٦
- وتتمة للفائدة والتحذير من تفريق الجماعة ٦٧
٢ - أوصانى خليلى بثلاث : ٦٩
- الوصية الأولى : بالسمع والطاعة ٦٩
- الوصية الثانية : بالجار ٧٠
- الوصية الثالثة : بأداء الفرائض لأول وقتها ٧١
• تعليل ٧١
• الذى يسبق إمام المسجد بجماعة نجارج المسجد ٧٢
- صلاة الجماعة ووجوب الحرص عليها ٧٤
- تعريف بالراوى ٧٥

* * *

ثالثًا : رسالة « العائلة والأولاد » ٨١
١ - أطفالنا أكبادنا تمشى على الأرض : ٨٣
- نظرة شاملة ومتطابقة مع أصل الفطرة ٨٣
- الزواج وصفاء الانتساب وقوته ٨٦
- الزواج جمعٌ بين شخصين « تعريف قبيح هدفه التدمير » ٨٦
٢ - الأبوة الحانية والبنوّة الصالحة : ٩٠
- كلمة وأثر البيئة الصالحة ٩٢
- الانتماء إلى الأصلاب فطرة نقية ٩٣

- طهارة نسب الرسول محمد ﷺ ٩٣
- تحريم الطعن فى الأنساب ٩٦
٣ - فى رعاية الناشئة إحسان إلى أنفسنا : ٩٨
- خبراتنا وأولادنا ٩٨
- نموذج للأبوة الحانية ٩٩
- تربية الضمير وصَقْله ١٠٠
٤ - الثمرة الطيبة من تربة صالحة ورعاية صحيحة [ووضوح تاريخ كل شعب ونقاؤه] ١٠٤
- الأساس الذى تتكون منه الشعوب والقبائل ١٠٥
- حسن الاختيار له ثمراته الطيبة ١٠٧
- العناية بتربية الفتيات ١٠٨
٥ - بر الوالدين والولد الصالح نعمة : ١١٢
- الإحسان إلى الوالدين من أعظم الأعمال وأنفعها ١١٢
- احذروا أسباب غضبهما ١١٤
- مهما خدمناهما فلن نوفيهما ديونهما ١١٥
- الولد الصالح نعمة ١١٦
- توجيهات للوالدين ١١٨
٦ - المولود نعمة وبهجة للقلوب : ١١٩
- ماذا تفعل العائلة إذا وُلد فيها ولد ؟ ١٢٠
- ما حُكم العقيقة ؟ وكيف تكون ؟ ١٢١
- اختيار الاسم ، وتحنيك المولود بتمر ١٢٣
- الأذان عند الولادة فى الأذن اليمنى ١٢٣
٧ - قصة ولد بار وأم حانية [أبو هريرة وأمهُ رضى الله عنهما] ١٢٤
- إسلامه وهجرته ١٢٥
- اسم أبى هريرة ١٢٦
- معه ومع أمه ونِعْم الابن البار ١٢٧
- تأخُّر إسلامها ، وقلقه عليها ١٢٨
- عرضه الإسلام عليها فى أدب ورفق ١٢٨
- من أدب أبى هريرة مع أمه (وبداية الخير وبشائره) ١٢٩

٨ - توجيهات من السنّة النبوية المطهرة : ١٣٥
أولًا : الأسرة ١٣٥
ثانيًا : أولادنا (البنين والبنات) ١٣٥
ثالثًا : الأب والأم : في برّهما ١٣٧
رابعًا : ومن حقوق الأبوين ١٣٨
خامسًا : الخدمة والرعاية ١٣٨
سادسًا : الأدب والصيانة ١٣٩
- غاية الطاعة ١٤٠
سابعًا : الخالة كالأم ١٤١
ثامنًا : من الوفاء للوالدين ١٤١
تاسعًا : العدل بين الأولاد ١٤٢
٩ - فلنرحم أنفسنا وفلذات أكبادنا من المهلكات : ١٤٤
- نفسك أمانة ١٤٤
- المخدرات دخيلة علينا ١٤٥
- الأصول الخمسة ووجوب الحفاظ عليها ١٤٥
- تبصير الشباب والحياة الطيبة بالاستقامة ١٤٧
- طب نبوى ١٤٩
- برنامج لطب القلوب من القلق ونحوه ١٥٠
١٠ - كلمة فى العرس والزواج : ١٥٢
- الدعاء ١٥٢
- الوليمة ١٥٢
- النهى عن التبتل ١٥٣
- المبادرة إلى الزواج - المهر ١٥٤
- الأسرة أساس لا بديل له ١٥٦
١١ - مَن أكرمُ الناسِ ؟ والموازين الصحيحة للتفاوت : ١٥٨
- حسب بلا تقوى مصباح بلا ضوء ١٥٩
- الناس معادن ١٦١
- شرف النسب والدين ١٦٣
- شرف النسب والمساواة ١٦٦

١٢ - كن لليتيم كالأب الرحيم : ١٦٨
(أ) اليتيم فى العائلة أخ للصغير وكالابن للكبير ١٦٨
(ب) من وصية الإسلام فى مال اليتيم وتأديبه ١٧٢
- مال اليتيم ١٧٤
١٣ - من أدب المسلم مع الخادم والأجير : ١٧٦
- الرفق والرحمة ١٧٩
- أمانة الخادم ١٨٠

* * *

رابعًا : رسالة : « كيف نربى ناشئتنا » ١٨١
تمهيد : ١٨٣
مكانة الأبناء ١٨٥
أسباب اختلاف فلسفة التربية ١٨٥
التربية فى الإسلام ١٨٨
الجوانب التى عُنى بها الإسلام : ١٨٩
- الناحية الجسمية ١٨٩
- الناحية العقلية ١٩١
- الجانب الروحى ١٩٣
- العقيدة وواجبنا ١٩٤
التدريب العملى والقدوة والمناهج : ١٩٤
- الجانب الخلقى ١٩٦
- خلاصة ١٩٩
- الجيل الرائد ٢٠٠
خاتمة : ٢٠١

* * *

خامسًا : رسالة : « من أدب المسلم وتوجّهاته » ٢٠٥
تمهيد : « الأغنياء المفلسون » ٢٠٧
١ - من أدب المسلم مع رسُل اللهِ وأنبيائه « وما شرفت به أمة خاتم المرسلين ﷺ » ٢١١
٢ - القرآن العظيم نور المسلم وشفاء قلبه ٢١٧
٣ - حياةُ القلْب بذِكْر الله ٢٢٣
٤ - حُسن التوكُّل على الله من أعظم أسباب السعادة ٢٣٠
٥ - حُسْن الخُلُق بهاءُ المؤمن وسبيلُه للنجاح ٢٣٤
٦ - كَرَمُ النفسِ وسَعةُ الصدر ٢٤٠
٧ - الخِلْقةُ صنعَةُ اللهِ : تُحْتَرمُ ولا تُهان ٢٤٤
٨ - المنافسة فى المكارم شرف ، والحسدُ مرض ٢٤٨
٩ - خُذْ الرفيقَ قبل الطريق ٢٥٢
١٠ - الصدقُ طمأنينة ، والكذبُ رِيبة ٢٥٦
١١ - جيرانُك دِرْعُك وذراعُك ٢٥٩
١٢ - يا ربِّ : سَلْ هذا فيمَ قَتَلنى ؟ ٢٦٥
١٣ - بابُ التَّوبة رَحْمَةٌ عظيمةٌ ٢٧٣
١٤ - دروس لأهل البلاء ولأهل النعماء ٢٧٩
١٥ - من أدب المسلم والمسلمة عند المصيبة والتَّعزية ٢٨٥
١٦ - من التوجيهات المباركة لإزالة الهمِّ وقضاءِ الدَّين ٢٩٠
١٧ - من أدب الطعام والشراب ٢٩٤
١٨ - فى التسمية والحمد ٣٠٠
١٩ - الكسب وأدب التجارة ٣٠٥
كلمة ختامية :
محاسبةُ النفس وإِعدادُها ٣١١

* * *

سادسًا : رسالة : « طريقنا إلى السعادة » ٣١٥
*** كلمة :** ٣١٧
١ - نور الإيمان ووجوب الإذعان وصدْق اليقين ٣٢٠
٢ - فى الطاعة عِزٌّ وكرامة ٣٢٨

٣ - إخلاص العبادة : فى الأفعال والأقوال والنيّات ٣٣٢
٤ - اتّقوا الله فى الأَيمان يا أهلَ الإيمان ٣٣٦
٥ - احذروا العرّافين والمنجّمين والدّجّالين ٣٤٣
٦ - الصلوات الخمس : بركاتُها ووصيةُ الإسلام بها ٣٥١
٧ - الوضوء : (أ) بهاءُ المؤمن ونورُه ٣٥٨
(ب) كيف نتوضأ ٣٦١
٨ - الزكاة : إخراجُها بركة ، ومَنْعُها ضَرَرٌ ونقمة ٣٦٧
٩ - (أ) الصوم تربية عالية ٣٧٣
(ب) طُوبى للمشمّرين فى الليالى المباركات ٣٧٦
(جـ) من هدى النبى ﷺ وتوجيهاته فى صيام التطوع ٣٨٠
١٠ - عيد فطرنا يوم رحمة وتسامح وتجاوز ٣٨٧
١١ - (أ) من أحكام الحج : ومعنى التمتّع ، والقِرَان ، والإفراد ٣٩٢
(ب) يوم عرفة ٣٩٨
١٢ - تكريم خاتم النبيين ﷺ وعِبر من الإسراء ٤٠٣
١٣ - أُمّةُ التراحُم والتعاطُف ٤١١

* * *

تمت بفضل الله ورحمته مراجعة هذه الطبعة الرابعة بالقاهرة
في شهر رجب ١٤٢٧هـ ﴿أغسطس ٢٠٠٦﴾
في ثرى أس للطباعة
والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
محمد النبى الأمين وعلى جميع إخوانه الأنبياء والمرسلين
وعلى أصحابه ومن نهج نهجهم إلى يوم الدين
أحمد بن محمد طاحون

تذكرة

« حين أعددت (كتاب الشكر) للإمام الحافظ ابن أبى الدنيا ، تمنيت لو أن المؤلف قدم نفسه ليعين من يجيئون بعده ، فالكلمة بعد صدورها عن صاحبها تصير فى حوزة التاريخ ، لهذا أقدم هذه الوجازة » :

١ - مؤلف هذا الكتاب هو العبد الفقير إلى عفو الرحمن ورحمته : أحمد بن محمد إبراهيم طاحون ، المولود فى عام ١٩٢٧ من الميلاد فى « شما » من قرى مركز أشمون بإقليم المنوفية فى مصر ، حرسها اللَّه .

٢ - مات أبوه وهو دون الثالثة ، وعنيت به أمه الصالحة - رحمهما اللَّه وغفر لهما - فبعثت به إلى « مكتب القرية » ليحفظ القرآن الكريم ، ثم إلى القاهرة ليتم حفظه هناك ، لأن حفظ القرآن كان شرطًا لدخول الأزهر .

٣ - بعد أن حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية من معهد شبين الكوم الدينى التحق بكلية اللغة العربية ، وحصل على الشهادة العالية عام ١٩٥٥ من الميلاد ، ثم على دبلوم فى التربية من معهد التربية العالى للمعلمين بجامعة عين شمس عام ١٩٥٦ من الميلاد .

الحياة العملية :

* اشتغل بتدريس اللغة العربية بالمرحلة الثانوية فى إقليم الجيزة بمصر من عام ١٩٥٦ إلى ١٩٦٥ من الميلاد ، ثم بمدارس الصومال ثلاث سنوات دراسية ، عاد بعدها إلى المدرسة السعيدية بالجيزة

* وفى عام ١٣٩١ من الهجرة (١٩٧١ من الميلاد) تعاقد مع وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية ، واشتغل بتدريس اللغة العربية فى مدرسة الفلاح الثانوية بجدة حتى عام ١٣٩٧ من الهجرة (١٩٧٧ من الميلاد) .

* التحق بالبنك الإسلامى للتنمية فى جدة فى عام ١٣٩٧ من الهجرة (١٩٧٧م) ، وزار نحو ١٨ دولة إسلامية ، ومعظمها للعمل فى أمانة مؤتمرات البنك الإسلامى للتنمية السنوية وبقى حتى التقاعد فى الخامسة والستين ، ثم التحق بمنظمة المؤتمر الإسلامى بجدة لمدة ثلاث سنوات استقال بعدها وعاد إلى مصر بحمد اللَّه وفضله .

* اشتغل بالخطابة وهو طالب فى مساجد قريته ثم فى القاهرة .

* قدم أحاديث عبر إذاعة المملكة العربية السعودية على مدى نحو عشرين عامًا .

* عضو التوعية الإسلامية فى الحج من عام ١٣٩٣ من الهجرة ١٩٧٣ من الميلاد ولنحو ١٦ عامًا .

وفى جدة اشتغل بالكتابة وقد طبع له ما يزيد على خمسة وثلاثين كتابًا ورسالة كما اشتغل بالخطابة فى عدد من مساجد جدة .

ونشرت له بعض المجلات والصحف مقالات متعددة ، وأعد صفحة « دعوة الحق » اليومية فى صحيفة البلاد - ومقرها جدة - لسنوات عديدة .

والحمد للَّه رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

للمؤلف :

* مرشد الدعاة إلى اللّه (دراسة وتطبيق) .
* رياض الفالحين ومنار السالكين .
* أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم (خمسة أجزاء).
* أخرج كتاب الشكر وكتاب التوكل للإمام ابن أبى الدُّنيا من علماء القرن الثالث من الهجرة مع زيادات وتعليقات وتعريف بالمؤلف وعصره .
* الكوكب المنير فى أدب النفس وتهذيب الضمير .
* هداية المريد لتحصيل معانى كتاب : « تجريد التوحيد المفيد » للإمام المقريزى (طبعة منقحة ومزيدة) .
* دليل الحجِّ والعمرة بالسؤال والجواب .
* الفائق فى الأخلاق والتربية [تنقيح وتلخيص كتاب : فضل اللّه الصمد فى توضيح «الأدب المفرد » للإمام البخارى] .
* أذكار ودعوات مباركات .
* في شهر الصوم خواطر ومسائل .
* إلى البرهان يا أولى الألباب .
* حضارة الإسلام وأروبا .
* مع القرآن الكريم .
* الدعاء المبرور لحجاج بيت اللّه المعمور .
* سليمان الحكيم وبلقيس ملكة سبأ ودروس وعبر من النملة والهدهد .
* يوم الفرقان .
* الثمار والرياحين فى قصص من القرآن الكريم .
* فى فجر الإسلام « عرض قصصى » .
* زاد الأتقياء من وصايا خاتم الأنبياء .
* الزهور النديّة فى « خصائص وأخلاق خير البرية » : « تلخيص وتهذيب المقصد الثالث من كتاب المواهب اللَّدنيَّة بالمنح المحمدية » للإمام القسطلانى .
* فى أنوار سورة الفرقان .
* فلسطين والقدس أمانة الآباء فى عنق الأبناء .
* البيان [ستّ رسائل] .
* في « مصطلح الحديث » تيسير وضبط وتوضيح كتاب الشيخ عبد الغنى محمود ورسالة للشيخ محمود خطاب السبكى .
* البستان (١٤ رسالة) .
* مع بحر النور الهادي البشير ﷺ .
* الأمن والرخاء أم الفتنة العمياء .
* صاحب الخلق العظيم (فى نور سورة القلم وهدايتها) .
* تحديد الربح سَلفًا أو نسبته : ما حدُودُه ؟ (رسالة) .
* الصيدلى والصيدلة (رسالة محققة في أخلاق المهنة) .
* وهلك أبو لهب وحمالة الحطب . (رسالة) .

ⓒ أحمد بن محمد طاحون ، ١٤١٧ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
طاحون ، أحمد بن محمد
البيان ، جدّة
.. ص ؛ .. سم - (سلسلة الرسائل النافعة)
ردمك ١ - ٧٩٥ - ٣١ - ٩٩٦٠
١- الدعوة الإسلامية ، الوعظ والإرشاد . أ - العنوان
ديوان ٢٢٣ ١٧/٢٣٣٨

الطبعة الأولى بجدة : ١٤١٧ من الهجرة
١٩٩٦ من الميلاد

هذه الطبعة الرابعة
تمت في عام : ١٤٢٧ من الهجرة
٢٠٠٦ من الميلاد

مكتبة الملك فهد : إيداع : ١٧/٢٣٣٨
ردمك / ١- ٧٩٥ - ٣١ - ٩٩٦٠ /١٤١٧هـ
الإعلام : ٥٣٣٦ / م ج / في ٢٠ / ٨ / ١٤١٧ الطبعة الأولى